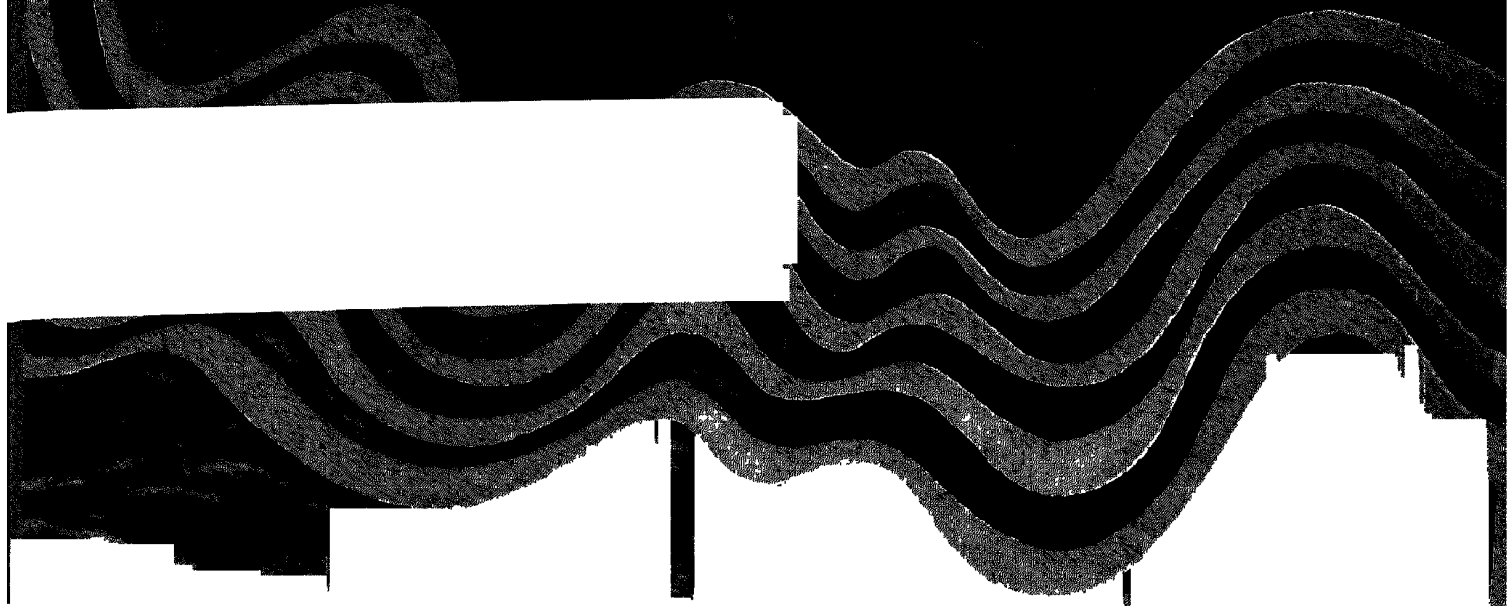
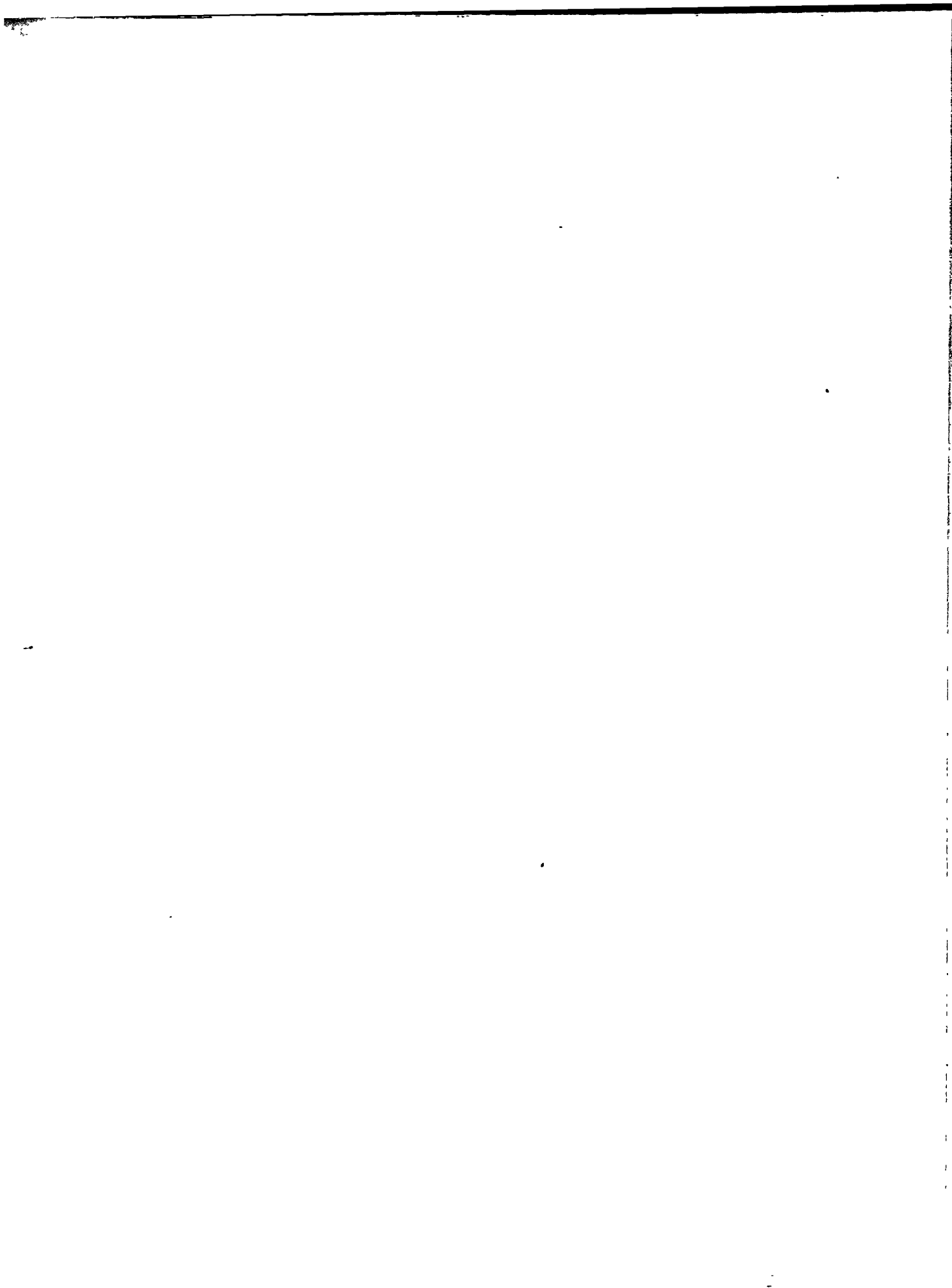


المجلد الخامس العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٥

# المشكلة السكانية





# عالم الفكر

رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني  
مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت \* يناير - فبراير - مارس ١٩٧٥  
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية \* وزارة الإعلام - الكويت : ص - ب ١٩٣

## المحتويات

### المشكلة السكانية

٣	..... بقلم التحرير	التمهيد
١٥	..... الدكتور عبد الكريم اليالى	الهجرات وتحركات السكان
٦٥	..... الدكتور عبد الكريم احمد	مشكلة التزايد السكاني والرها في تطور التربية في البلاد النامية
٩١	..... الدكتور على السلمي	المدخل الادارى لمعالجة المشكلة السكانية بالدول النامية
١١٩	..... بقلم : د. س. ويتسكاى ترجمة لاروق مصطفى اسماعيل	الموارد العالية وعلاقتها بالسكان

\*\*\*

### آفاق المعرفة

١٤٧	..... الاستاذ زكريا فهمى	طبيعة الانسان
-----	--------------------------	---------------

\*\*\*

### ادباء وفنانون

١٧٧	..... الدكتور ثروت عكاشة	دينه ويح فيلسوف الجمال
-----	--------------------------	------------------------

\*\*\*

### عرض الكتب

٢٤٩	..... عرض وتعليق الدكتور طه محمود طه	سيرة فرجينيا وولف
-----	--------------------------------------	-------------------

الدراسات التي تنشرها المجلة تصدر عن آراء اصحابها وحدهم .





## المشكلة السكانية

### تمهيد

ربما لم يحظ موضوع من الموضوعات المتعلقة بالإنسان من الاهتمام قدر ما يحظى به الآن موضوع السكان وتكاثرهم ومصيرهم ، وما يتعلق بذلك من مشكلات توفير الطعام والخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية وفرص العمل لهم ، وثمة ما يدل على أن ذلك الاهتمام أمر قديم يرجع إلى أولى العصور التي لدينا عنها معلومات وثيقة مؤكدة ، فبعض النقوش والكتابات المصرية القديمة مثلاً تشير إلى الزيادة أو النقصان في عدد السكان في مضر وأثر ذلك على الحياة الاقتصادية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحالة فيضان النيل ، كما أن اليونان والرومان اهتموا بمشكلة تزايد أو نقصان السكان ولكن لاعتبارات مختلفة هي في الغالب اعتبارات عسكرية وحربية ، خاصة وأن المجتمع الروماني بالذات كان يعطى للناحية العسكرية قدراً كبيراً من العناية والاهتمام ، ثم انتقل ذلك الاهتمام إلى كثير من فلاسفة وكتاب العصور الوسطى الذين اهتموا بالحياة الاجتماعية ، وقد يكفي أن نشير هنا إلى ابن خلدون الذي تفرغ في مقدمته المشهورة لمشكلة زيادة

السكان والعلاقة بينها وبين العمران في فصل يحمل عنوان ( فصل في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو تفاضل عمراتها في الكثرة والقلة ) وهو عنوان له دلالة ومفراه ، الا انه يمكن القول على العموم أن المشكلة لم تدخل المجال العلمي الدقيق الا منذ القرن الثامن عشر ، وعلى الخصوص حين كتب **مالثوس** Malthus مقالته القصيرة الشهيرة عن مشكلة السكان التي لم تلبث أن تضخمت وتعمقت بعد عدة مراجعات ، بحيث وصلت في آخر الامر الى كتاب من ثلاثة اجزاء وان كان يحمل نفس العنوان الاصلي وهو « **مقال عن مبدأ السكان** An essay on the Principle of Population وفي هذا الكتاب يوجه مالثوس الانظار - ربما لأول مرة - بشكل منهجي الى اختلال التوازن بين زيادة السكان وزيادة الطعام اختلالا شديدا يندر بكثير من الاخطار والشور ، وفي الوقت ذاته تقريبا نجد عالم الاجتماع البلجيكي الشهير **كتيليه** Quetelet يهتم بدوره بدراسة السكان مستخدما النهج الاحصائي للتعرف على الظواهر السكانية المختلفة ، وتعتبر كتابات مالثوس وكتيليه البداية الحقيقية للدراسات السكانية ، وان كان ثمة ميل الى اغفال دور كتيليه الذي لم يقدر لدراسته أن تجد من الديوع والانتشار ما اتيح لكتاب مالثوس ، ومن هنا كان مالثوس يعتبر اهم من لفت الانظار الى خطورة المشكلة السكانية التي ارتبطت باسمه منذ ذلك الحين حتى الان .

ومع ذلك فانه يمكن القول ان الفضل يرجع في آخر الامر الى العلماء الامريكيين في تطوير علم السكان ، والوصول به الى المستوى الذي بلغه في الوقت الحالي من الدقة والعمق ، وبخاصة بعد أن بدأ عدد من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الذين اهتموا بدراسة الظواهر السكانية يتعرضون لجوانب جديدة لم يهتم بها علماء السكان الاوائل ، مثل التغيرات التي تطرأ على التركيب السكاني نتيجة للتقدم التكنولوجي والصناعي ، الذي يعتبر من أهم سمات الحضارة الحديثة ، واستخدام الآلات وما ترتب عليه من ظهور علوم جديدة كان لها تطبيقاتها في مجال الصناعة والعلم ، مثل علوم الكمبيوتر والسبرناطيقا او التوجيه الذاتي للآلات ، ثم الاتجاه نحو ( الاتوميشن ) او التحكم الذاتي في الآلات ، وتأثير ذلك كله على القوى العاملة والادارة والكفاءات المختلفة في المجتمع الصناعي الحديث ، بل وأثر التصنيع على البيئة الطبيعية وما نجم عن ذلك من تلوث الهواء والماء والتربة ، وتأثير ذلك التلوث في البشر وفي موارد الثروة الزراعية والحيوانية . فهذه كلها مجالات جديدة تماما لم يتطرق اليها علماء الاجتماع والسكان والانثروبولوجيا الا منذ الستينات من هذا القرن .

وكل هذا معناه أنه على الرغم من كل ما يقال عن قدم وعراقة الاهتمام بالمشكلة السكانية ، فان الإدراك الحقيقي للمشكلة في كل ابعادها تمت معالجتها كمسكلة عالمية تواجه المجتمع الانساني بأسره ، وليست كمسكلة محلية يعاني منها مجتمع معين بالذات هو امر حديث الى حد كبير جدا ، ولقد تمثل هذا الوعي أو الإدراك بوجه خاص في اهتمام هيئة الأمم المتحدة بها ، بحيث عقدت في السنوات الاخيرة عددا من المؤتمرات العامة ، لعل من أهمها مؤتمر بلغراد الذي عقد في أغسطس ١٩٦٥ ، ثم اعتبار العام الحالي ( ١٩٧٤ ) هو السنة الدولية للسكان ، وفيها عقد أكثر من مؤتمر عالمي ، وعدد من الندوات والحلقات الدراسية تناولت كلها مشكلة تزايد السكان وعلاقة ذلك على الخصوص بتوفر الطعام والنتائج التي قُبلت من ذلك .

ومع التسليم بأن السكان في العالم يتزايدون بسرعة رهيبة. فإن هذا لا يعني أن تلك الزيادة متساوية ومتماثلة في كل المجتمعات أو الدول، بل أن ثمة اختلافات وفوارق محلية واسعة يجب أن تؤخذ في الاعتبار. يضاف إلى ذلك أن المشكلة الأساسية لا تتمثل في الحقيقة في مجرد الزيادة العددية في حد ذاتها، بل أنها تكمن بالآخرى في اختلال معدلات الزيادة في السكان ونمو الإمكانيات الاقتصادية، ومما يزيد من وقع المشكلة أن الزيادة السكانية تحدث بشكل أكبر في الدول المتخلفة اقتصاديا وثقافيا، وقد وصل بعضها إلى حد الانفجار السكاني في السنوات الأخيرة، ثم أن هذه الزيادة ليس مرجعها في كل الأحوال الزيادة الطبيعية عن طريق الولادة وحدها، وإنما هناك عوامل مساعدة تشتمل في تقدم الطب والعناية بالصحة والخدمات الاجتماعية، مما أدى إلى السيطرة على انتشار الأمراض والأوبئة وماترتب عليها كلها من انخفاض معدلات وفيات الأطفال على الخصوص وارتفاع متوسط العمر، ومع أنه من أصعب الأمور التكلم بدقة عن معدلات المواليد والوفيات في المجتمعات البدائية، وفي كثير من المجتمعات النامية، ومع أنه من الصعب أيضا القول بما إذا كانت درجة خصوبة الجنس البشري ارتفعت عما كانت عليه من قبل، فإن التحسن الملحوظ في مستوى الخدمات مسئول بغير شك عن كثير من هذه الزيادة ( انظر على العموم كتاب الدكتور عبد الكريم اليافي عن : علم السكان ، صفحات ١ - ٧ ) .

وكل هذا من شأنه أن يدفع إلى التساؤل : ما هو موقف العلماء من هذه الزيادة المطردة السريعة في السكان ؟ وهل هناك موقف موحدزاء هذه الزيادة المدهلة ؟



الواقع أن العلماء ينقسمون آراء هذه المشكلة إلى قسمين أو فئتين تتعارض أفكارهما، كل التعارض، أحدهما مع الأخرى حول مضر الإنسان ومستقبل المجتمع الإنساني إذا ظل السكان في العالم يتزايدون بغير ضابط أو قيود، والطريف في الأمر أن كلا من هاتين الفئتين من العلماء يعتمدون في آرائهم وأفكارهم على بعض الحسابات والتقدير العلمية، وعلى اعتبارات إنسانية ودينية واجتماعية معا، ولكن بينما تنظر الفئة الأولى من العلماء إلى مستقبل الإنسان نظرة متشائمة إلى أبعد حدود التشاؤم، تعالج الفئة الأخرى المشكلة بنظرة ملؤها التفاؤل والأمل .

وقد تكون النظرة المتشائمة هي أقدم النظرتين، أو على الأقل هي التي نهبت الأذهان إلى مشكلة الزيادة السكانية وازدحام العالم بسكانه بشكل يندب بالخطر . والمعروف أن زعيم هذا الاتجاه التشاؤمي هو **مالتوس** الذي نشر آرايه في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه، ثم لم تلبث دعوته إلى الحد من تكاثر السكان أن انتشرت بين أوساط كثيرة مختلفة من العلماء والكتاب ضمت عددا من المفكرين الاقتصاديين، ورجال الدين المسيحي من البروتستانت، وبعض العلماء الاجتماعيين الديموقراطيين، بالإضافة إلى عدد من المحافظين الماديين . ويستند أصحاب هذه النظرة في تبرير موقفهم من ضرورة الحد من سرعة التكاثر إلى الخوف والاشفاق مما سوف يتعرض له الجنس البشري من بؤس وشقاء وجوع وأمراض وأوبئة وفقر نتيجة لاختلال التوازن بين الموارد الطبيعية وسكان العالم. ومع ذلك فالظاهر على ما يقول الأستاذ **Sauvey** أن ثمة بعض العوامل الانثائية الأخرى تكمن وراء هذه الدعوة، وهي عوامل تتمثل إلى حد كبير في خوف الأغنياء

من أن يضطروا الى اقتسام الموارد مع من هم أكثر منهم فقرا وأشد احتياجا ، ثم ان الزيادة السكانية قد تؤدي الى ثورة الجماهير الفقيرة على الملاك وأصحاب الاراضي وأصحاب رؤوس الاموال ، والى تفتيت الملكيات وما يرتبط بهذا كله من حرمان الاغنياء من بعض ممتلكاتهم ، فكان هذه الدموة لا تصدر دائما عن الرغبة المخلصة في تحقيق خير الانسان والمحافظة على انسانيته وكرامته من ان تهدر بسبب المتاعب التي تنجم عن تلك الزيادة السكانية غير المنظمة .

اما اصحاب النظرة الاخرى المتفائلة ( وفيهم أيضا عدد من رجال الاقتصاد والاجتماع والدين من الكاثوليك الذين يحرمون وضع أية قيود على النسل أو تحديده ) فانهم يرون ان هناك قدرا كبيرا من المبالغة والمغالاة في التخوف من مصير الجنس البشري ، وما سوف يتعرض له من مجاعات وأمراض . فلا يزال العالم في نظرهم مليئا وازخرا بموارد طبيعية كثيرة لم تستغل بعد ، كما ان هناك مناطق ومساحات هائلة من الارض لا تزال تغطيها الغابات والاحراش ، كما هو الحال في افريقيا مثلاً ، وتطهير هذه الاراضي الفسيحة من الغابات وزراعتها يمكن ان يوفر الطعام لآلاف الملايين من البشر ، يضاف الى ذلك الموارد الغذائية الموجودة في أعماق البحار والمحيطات والتي لم تستغل حتى الآن ، بل ان تقدم العلم سيؤدي بالضرورة الى ايجاد أنواع جديدة من الطعام الصناعي أو غير الطبيعي تتوفر فيه كل الامكانيات الغذائية التي يتطلبها الانسان ، وكل ما يحتاج اليه الامر هو أن يغير البشر من عاداتهم الغذائية ، وهي مسألة يمكن تحقيقها بالتدريج وعن طريق التربية والتوجيه والتدريب .

وليس من شك في أن المناخ الفكري العام الذي كان يسود أوروبا في اواخر القرن الثامن عشر واولئل القرن التاسع عشر كان من العوامل الاساسية التي ساعدت على ظهور تفكير مalthus وذيوع نظريته ، فقد ولد مalthus في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر ( ١٧٦٦ ) واستمرت حياته حتى الثلث الاول من القرن التاسع عشر ( توفي عام ١٨٣٤ ) ولقد كان القرن الثامن عشر هو عصر الفلسفات المثالية التي تمثلت في كتابات عدد كبير من الفلاسفة الاجتماعيين ، سواء في فرنسا من امثال كوندورسيه Condorcet أو في بريطانيا من امثال وليام جودوين William Godwin . وكان هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيون يؤمنون ايمانا عميقا بمستقبل الانسانية ، وأن مصير الانسان زاهر نظرا لان الفكر الانساني الخلاق يسير بطبيعته نحو الترقى والتقدم ، كما ان الحياة الاقتصادية سوف تزدهر هي أيضا بمرور الزمن تبعا لارتقاء الفكر الانساني وتقدم الكفاءات والمهارات التي يكتسبها الانسان طيلة الوقت . وهذا كله معناه أن العالم - في نظر هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين - يسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من الخير للانسان ، ونحو مستقبل يكتفي فيه الفقر والجريمة والحرب والامراض ، وهي كلها شرور تنشأ في الاصل عن انخفاض مستوى المعيشة ، وسوف يؤدي هذا كله بالضرورة أيضا الى أن يستتب الأمن في ذلك العالم ، مما يستتبع ضرورة الاستغناء عن الحكومة وما تمارسه من سلطة على الناس . فكان المجتمع الانساني في تقدمه الطبيعي انما يشجع لكي يصبح مجتمعا حرا طليقا لا يخضع لاي شكل من اشكال الحكومات وما يرتبط بالحكومات من شر وقهر .

ولقد كانت هذه الحركة الفكرية التي تستهدف خلق العالم المثالي أو اليوتوبيا متأثرة بالاهداف والدعاوى النبيلة التي كانت الثورة الفرنسية والثورة الامريكية تهدفان الى تحقيقها ،

وليس كتاب مالثوس في أساسه الا نوعا من الاعتراض على هؤلاء المثاليين الاجتماعيين الذين كان يطلق عليهم عموما اسم Social perfectionists وبخاصة على آراء وليام جودوين الذي كان يعتنق نظرة مفرقة في التفاؤل عبر عنها بوضوح في كتابه « العدالة السياسية Political Justice » الذي كان يرى فيه أن الإنسان سوف يرتقي باطراد الى أن يصل الى أعلى الدرجات للنمو العقلي وطول الحياة والاكتمال الصحي ، فضلا عن خلو العالم من كل الامراض الاجتماعية من اوبئة وحروب وجرائم وفقير وبؤس وغير ذلك ، وأن كل فرد في المجتمع سوف يعمل لما فيه صالح الآخرين ، وأن الخير والرخاء سوف يعمان رغم نكاثر البشر . وفي الوقت ذاته كان جودوين يعتقد ان الغريزة الجنسية سوف تتلطف وتتهذب كثيرا نتيجة لذلك الرقي العقلي والفكري الذي يحققه الانسان . وهذه كلها آراء اقرب الى آراء كوندروسيه الذي كان يعتقد انه سوف يمكن اشباع الغريزة الجنسية دون أن يؤدي ذلك الى ارتفاع نسبة المواليد . ( راجع في ذلك (Downs ; Books That Changed the World, Mentor Books, 1960, p.54)

وموضوع كتاب مالثوس ليس جديدا تماما ، فالمشكلة كانت قد ظهرت قبل ذلك بمدة في كثير من كتب القرن الثامن عشر نفسه كما هو الحال مثلا في بعض كتابات بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin التي ناقش فيها مشكلة نمو السكان . ومع ذلك فانه يمكن القول بحق أن احدا من هؤلاء الكتاب لم يفلح في ابراز المشكلة بنفس القوة والاصالة والحماس التي تجدها في الكتاب الخاص بمالثوس . اضاف الى ذلك أن مالثوس كان معاصرا لآدم سميث Adam Smith وتوماس بين Thomas Paine وان كان أصغر منهما كثيرا . ولكن بينما كان آدم سميث يتكلم في كتابه الشهير « ثروة الامم The Wealth of Nations » عن اسباب الفنى والثروة وطبيعتها ، كان كتاب مالثوس يتكلم عن اسباب الفقر وطبيعته ، ومن هنا يمكن القول أن كتاب مالثوس يكمل بشكل أو بآخر كتاب سميث الذي كان قد ظهر قبل ذلك باثنين وعشرين عاما ، أو هو على الاصح يعالج المسألة من زاوية مغايرة .



ويرتكز كتاب مالثوس على مُسَلِّمَتَيْنِ أساسيتين هما : أن الطعام لازم لوجود الانسان ، وأن الغريزة أو الرغبة الجنسية هي أيضا لازمة لوجوده وسوف تظل محتفظة دائما بقوتها . والواقع أن كل المثاليين يسلمون بالمسلمة الاولى ، ولكن بعضهم مثل جودوين كانوا يظنون أن الرغبة الجنسية سوف تخف وتتضاءل الى حد كبير جدا بمرور الزمن وارتقاء الفكر الانسان . ولقد لاحظ مالثوس ردا على ذلك انه على الرغم من كل ما حققه الانسان من تقدم ورقي منذ كان في حالة الوحشية أو الهمجية الاولى ، فانه لم يطرأ أى تغيير على رغبته الجنسية ، اذ يبدو أنها لا تزال الآن على نفس الدرجة من القوة التي كانت عليها منذ اربعة آلاف سنة مثلا ( راجع Downes , op.cit., p. 55 ) .

من هاتين المسلمتين وضع مالثوس مبداءه الاساسي الذي تقوم عليه نظريته ، وهو أن خصوبة الانسان وقدرته على التناسل أقوى واشد من خصوبة الارض وقدرتها على انتاج الطعام للانسان ،

وعلى ذلك فإنه إذا لم توضع قيود وضوابط على عملية الانسبال فسوف يتزايد البشر بمعدلات تفوق كثيرا زيادة الطعام ، وقد عبر عن ذلك في عبارته الشهيرة التي صاغها في شكل حكم عام من أن السكان يتزايدون في متواليات هندسية بينما يزداد الطعام بمتواليات حسابية . وقد استند مالثوس في ذلك على دراسسته بعض الاوضاع السكانية في أمريكا وبريطانيا ، فقد لاحظ مثلا أن سكان أمريكا في ذلك الحين قد تضاعفوا خلال جيل واحد ( أى خلال خمسة وعشرين سنة ) رغم عدم ادخال المهاجرين إليها في الحساب . الا ان بعض العلماء يرون أن مالثوس قفز قفزة واسعة جدا في الوصول الى ذلك التعميم الكلي الذي لا يستند الى مبررات كافية ، لان أمريكا نفسها كانت تمر بمرحلة استثنائية في تاريخها .

وحين اراد مالثوس تطبيق هذا المبدأ على بريطانيا أخذ في الاعتبار مسألة توافر الطعام وامكانية زيادة انتاجه ، فوجد أنه اذا استقلت كل الارض القابلة للزراعة أحسن استغلال وبأحدث الطرق فإن انتاج الطعام سوف يتضاعف ايضا في السنوات الخمس والعشرين الأولى ، ثم تبدأ المتاعب في الظهور بعد ذلك ، فبينما يتضاعف السكان مرة ثانية فيصبحون أربعة أضعاف ما كانوا عليه في أول الامر قبل خمسين عاما فان الطعام يزيد الى ثلاثة أضعاف فقط . وبعد خمس وعشرين سنة أخرى يتضاعف السكان مرة أخرى فيصبحون ثمانية أضعاف ما كانوا عليه في الاصل بينما يزداد الطعام الى أربعة أضعاف الاصل فحسب . وبعد قرن كامل من سنة البدء يكون السكان قد بلغوا ستة عشر ضعفا عما كانوا عليه بينما يكون الطعام خمسة أضعاف فقط وهكذا ، على ما يظهر من الجدول البسيط التالي :

السنة	١	٢٥	٥٠	٧٥	١٠٠	١٢٥
الزيادة السكانية	١	٢	٤	٨	١٦	٣٢
الزيادة في الطعام	١	٢	٣	٤	٥	٦ ( الخ )

وواضح من ذلك مدى اتساع الفجوة واختلال التوازن بين الموارد الغذائية وعدد السكان بمرور الزمن ، وبصرف النظر عن مدى دقة هذه الحسابات وعما اذا كان السكان يتزايدون بالفعل بنسب هندسية دقيقة ويتضاعفون كل خمسة وعشرين عاما بينما يزيد الطعام بنسب وامتواليات حسابية ، فالذي يهم هنا هو أن المبدأ العام نفسه يتسم بدرجة عالية جدا من الصدق ، ونعني بذلك أن الهوة بين السكان والطعام تزداد اتساعا طيلة الوقت . وهذا هو المبدأ الذي يجب أن نضعه نصب أعيننا حين نعالج هذه المشكلة . وهذا هو ما تنبه اليه الدراسات المختلفة التي يضمها هذا العدد من المجلة فالفارق الهائل بين الزيادة السكانية وزيادة الموارد الغذائية هو السبب في معظم الامراض والمشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات البشرية . والواقع أن هذا الامر يعتبر من أهم المسائل التي يوليها علماء التخطيط والتنمية وبالذات في المجتمعات المتخلفة والنامية - معظم اهتمامهم حتى وان لم يقبلوا نظرية مالثوس بحذافيرها .

ومن الصعب على المجتمع - أيا كان - أن يقبل استمرار ذلك التفاوت أو تلك الهوة بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام، ومن هنا كان لا بد من وجود بعض العوامل التي تعيد ذلك التفاوت إلى الوضع الطبيعي أو العملي المقبول . ولقد كانت هناك دائما عوامل كثيرة جدا خارجية أو ( إيجابية ) على ما يسميها مالثوس وبعض معاصريه لا تخضع في الاغلب لإرادة الإنسان ، وتلعب دورا هاما في تضيق تلك الهوة والفجوة مثل الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية التي تبعد أعدادا كبيرة من البشر . ولكن إلى جانب ذلك كثيرا ما كانت المجتمعات الإنسانية تلجأ إلى الحروب لحل مشكلة زيادة السكان بالنسبة للطعام، إنما الأهم من ذلك والأكثر هي تلك العوامل التي تخضع لإرادة الإنسان وترتبط بها ويتحكم فيها العقل البشري ، وهي في أغلب الأحيان عوامل « وقائية » أو « سلبية » تتمثل بأفضل صورها في الامتناع الاختياري من الانجاب، ولقد كان مالثوس يعتقد أن الإنسان يمكنه أن يتحكم في نسله عن طريق تأجيل الزواج إلى سن متأخرة حتى يستطيع الفرد أن يهيئ لنفسه وضعا اقتصاديا يسمح له بأن يكفل أسرته بعد الانجاب . ولقد طبق مالثوس ذلك المبدأ على نفسه فلم يتزوج إلا في سن الثامنة والثلاثين وهي سن متأخرة - على الأقل بالنسبة للسائد في العصر الذي عاش فيه . « فكان العزوبية » كانت في رأيه هي أفضل وسيلة فعالة لحل تلك المشكلة رغم ما فيها من خروج على الطبيعة الإنسانية وتنكر لها .

ولقد ذهب مالثوس في هذا الطريق إلى أبعد ما ينادى به الكثيرون من المهتمين بالمشكلة السكانية وضبط النسل وسياسة الملاممة بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية، واقترح - إلى جانب رأيه في ضرورة تأثير الزواج وبخاصة بين الطبقات الفقيرة حتى سن متأخرة - كثيرا من الاقتراحات التي لا تخلو من التطرف بل ومن القسوة والتنكر لكثير من المبادئ الإنسانية النبيلة . فقد كان يعارض كل ما من شأنه أن ييسر الحياة للطبقات الفقيرة ويرى في « قوانين الفقر » افسادا لحياة هؤلاء الفقراء ، كما أن الاحسان في كل صوره ، سواء كان احسانا فرديا خاصا يقدمه الأفراد بدافع العطف والشفقة، أو احسانا منظما رسميا تشرف عليه الحكومة ، هي كلها أمور غير مرغوب فيها ويجب أن تحارب ، لأنها تقدم للفقراء المال دون أن تزيد من كمية الطعام الذي يمكنهم الحصول عليه بذلك المال ، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى ارتفاع الأسعار وزيادة تكاليف المعيشة وتفاقم مشكلة النقص في الطعام والمؤن . وعلى العموم فقد كان مالثوس يرى أنه يجب عدم تشجيع الطبقة العاملة وما إليها على الانجاب مادام العمال والفقراء عموما غير قادرين على تربية الأطفال وإعالتهم . ولقد كان مالثوس منطقيا مع نفسه ومع مبادئه حين عارض فكرة بناء المساكن الاقتصادية للفقراء ، لأن توفر المسكن يشجع على الزواج المبكر ويؤدي بالتالي إلى زيادة جديدة في السكان .

وكان من الطبيعي أن تجد هذه الآراء ترحيبا من جانب فئات كبيرة من الأغنياء في بريطانيا ، وأن تقابل بكثير من الجحاس من بعض الطبقات الحاكمة ومن كبار الملاك والإقطاعيين وأصحاب

رؤوس الاموال ، لأن مalthus زود هذه الجماعات بحجة ترد الفقر العام الشامل ، وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي الى الزواج المبكر وكثرة الانجاب بدلا من ردهما الى سوء توزيع الثروة على ماكان يذهب اليه كثير من المفكرين الاشتراكيين . الا أن هذه الآراء تعرضت الى جانب ذلك للنقد والمعارضة من كثير من البيئات والفئات : من رجال الدين المحافظين ، والفلاسفة الاجتماعيين ، ورجال الحرب وبعض الراسماليين المحافظين ، الى جانب الاشتراكيين الراديكاليين .

كان الاشتراكيون الراديكاليون من امثال **وليام طومبسون William Thompson** يرون أن مalthus تجاهل الاسباب الحقيقية لبؤس الفقراء وسوء حالهم ، وهم الذين يعيشون على البطاطس فحسب ويؤلفون غالبية السكان في بريطانيا ، بل وغالبية الجنس البشري في أى زمان وأى مكان . ولقد وصف هؤلاء الاشتراكيون الراديكاليون افكار مalthus بأنها افكار سخيطة وتافهة وقذرة ، وتنم عن قدر كبير من السذاجة والغفلة والغباء . أما رجال الدين فانهم كانوا يرون في كتابات مalthus وآرائه خروجاً على الدين وتعاليمه ، وانكاراً لقدرة الله الخالق وتمرداً على ارادته في عمران الارض . وهذا الموقف من رجال الدين فيه اتهام خطير بالنسبة لرجل تخصص أصلاً في اللاهوت وشغل أحد المناصب الدينية .

وكان هجوم العسكريين على آراء مalthus نتيجة منطقية لاشتغالهم بالحرب التي تحتاج لأكثر ما تحتاج الى البشر الذين يعتبرون هم ( وقود ) المدافع أو ( علف ) المدافع حسب تعبير **دوانز** . فأى تحكم فى السكان عن طريق التحكم فى المواليد معناه حرمان رجال الحرب من أهم أداة في كسب الحرب التي تحتاج الى موارد متجددة من الشباب القادرة على حمل السلاح . ومن الظريف أن نذكر هنا ما قاله **فردريك الأكبر** حين نصحه أحد رجال الدين بعدم المغالاة والمبالغة فى الانفاق على الجيش البروسي ، وأن الله مع الجيش ومع الشعب ، اذ رد عليه **فردريك** بقوله انه واثق كل الثقة من عون الله ، ولكنه يعرف أيضاً أن الله يحب أن يقف بجانب الجيش الضخم الجرار .

الا ان أعنف هجوم على آراء مalthus جاء من العلماء الفلاسفة الاجتماعيين الذين كانوا يعنون - أو بعضهم على الأقل - بدراسة واقع الانسان ومصيره وقدرته ، وكانوا يؤمنون ايماناً كبيراً بكرامته وقدرته الخلاقة التي تستطيع تطويع الصعوبات وتذليلها . كان هؤلاء العلماء الفلاسفة يرون أن موارد الطعام ليست محدودة الى ذلك القدر الذى يذهب اليه مalthus ، وان ثمة على ما سبق أن ذكرنا - مجالات واسعة عريضة لانتاج الطعام المتنوع الوفير ، وكل ما يحتاج اليه الامر هو زراعة الاراضي التي لم تزرع بعد ، والعمل على زيادة انتاج الاراضي المزروعة فعلاً عن طريق الاستعانة بالمخصبات المختلفة ، والاستفادة بما أحرزه العلم من تقدم فى هذا المجال . فتصور مستقبل الانسان على أنه مستقبل مظلم اعتماداً على بعض الافكار المتعلقة بتناقص الطعام بالنسبة للافواه الجائعة ، والخوف من حدوث المجاعات فيه حكم على الانسان بالفشل وعلى



قديراته بالنضوب والقصور والعجز ، أى ان فيه كفرانا بقدرة الانسان الخلاقة المبدعة المبتكرة ،  
 والمشاهد على العموم انه كلما نضب مورد للطعام امكن للانسان ان يكتشف موارد اخرى جديدة .  
 وهذا الموقف متأثر بفلسفة وآراء القرن الثامن عشر التي تجد اقوى صدى لها في كتابات  
 كونفوشيوسيه عن امكان تحقيق التقدم بغير حدود \* . ولقد كان هؤلاء العلماء الفلاسفة  
 يرمون نظرية مalthus بضيق الأفق على اعتبار انها تنظر الى الامور من زاوية ضيقة للغاية ،  
 وتجعل حجم السكان يتوقف بطريقة مباشرة ، وتكاد تكون مطلقة على موارد الطعام وليس على  
 الموارد الطبيعية في عمومها . ومع التسليم باهمية الطعام في تحديد حجم السكان فان ذلك الحجم  
 يتزايد ايضا نتيجة لزيادة ووفرة الموارد الاخرى ، وتوفر فرص العمل وكثرة الاختراعات ، وهذا  
 هو ما حدث فعلا في القرن التاسع عشر - قرن الثورة الصناعية بحق . وربما كانت غلطة مalthus  
 كما يقول هؤلاء العلماء الفلاسفة ، هي انه لم ينظر الى العالم كوحدة يمكن ان يعوض النقص في  
 مجتمع ما في جانب ما بما يوجد في مجتمع آخر وفي جانب آخر ، وهذا معناه ان نظرية مalthus  
 قد تصدق على مجتمع معين بالذات ، ولكن من الصعب قبولها بالنسبة للعالم اجمع كوحدة .

بيد ان كل هذه الانتقادات والاعتراضات لم تمنع آراء مalthus وافكاره من ان تنتشر وتذيع ،  
 ومن ان تؤثر في عدد كبير من الكتاب والمشتغلين في المشكلات الاجتماعية وليس فقط بمشكلات  
 السكان . وقد ساعد على قبول تلك الاراء ملاحظته هو نفسه من ناحية وكثيرون غيره من ناحية اخرى  
 من ان معدلات الولادة تنخفض كلما تقدم المجتمع وزاد نصيب اعضائه من التعليم ، وكلما استطاع  
 ان يحقق مستويات اعلى من التقدم الاقتصادي . وربما كان اول مظهر عملي لمدى تأثير آراء مalthus  
 هو قيام بريطانيا باجراء اول تعداد عام للسكان فيها عام ١٨٠١ ، اى بعد ظهور كتاب مalthus  
 بثلاث سنوات ، وذلك بعد ان كانت فكرة اجراء التعداد تقابل بكثير من المعارضة والاستنكار بل  
 والرفض . وكان لهذا التعداد في ذلك الوقت بالذات دلالة عظيمة لان بريطانيا كانت مقبلة على  
 بوارد الثورة الصناعية ، وانه كان لابد ازاء ذلك من التعرف على نوعية القوى العاملة في ذلك  
 الحين . ومن هنا يمكن القول ان كتاب مalthus كان له دخل - ربما بشكل غير مباشر - في  
 التخطيط لمستقبل بريطانيا الصناعي رغم ما قديبدو في هذا القول من مبالغة .

\* رد مalthus على ذلك بالالتجاء الى المبدأ المعروف بمبدأ المائد المتناقص او الفلة المتناقصة  
 Principle of Diminishing Returns في الزراعة ( بل وفي مختلف مجالات النشاط البشرى ) . ففي بداية مراحل التطور  
 والتنمية نجد ان استخدام الوسائل التكنولوجية يعطي عائدا متزايدا ( وخير مثال لذلك في رايه هو ان استعمار اى  
 منطقة جديدة تؤدي الى زراعة مساحات جديدة واستغلالها بها من موارد ) ولكن بعد الوصول الى نقطة معينة تبدأ  
 الحقول تفقد خصوبتها وقدرتها وجودتها شيئا فشيئا وبذلك يقل العائد او الفلة بالتدريج ، وكثيرا ما يضطر السكان  
 ازاء ذلك الى ان يهجروا الارض تماما . وتكرار هذه العملية قد يؤدي آخر الامر الى اختفاء الارض الصالحة من الوجود  
 تماما .

بل الواقع ان تأثير كتاب مalthus تعدى مجال البحوث السكانية الى مجال العلوم الطبيعية ذاتها . وربما كان افضل مثل لذلك هو ما اعترف به داروين Darwin نفسه صراحة من تأثره بذلك الكتاب . والمعروف ان التعبير الشائع « الصراع من اجل البقاء - Struggle for Existence » الذى يعزى عادة الى داروين ، كان قد استخدمه مalthus في الاصل ، وقد اوحى ذلك التعبير الى داروين برأيه في ان الخصائص الجيدة تبقى وتستمر ، بينما تتضاءل الصفات والخصائص الضعيفة وتترجع الى ان تختفي تماما ، مما يساعد في آخر الامر على ظهور انواع جديدة لها صفات قوية . وهذا هو اساس نظرية داروين في التطور . ولهذا القول نفسه يصدق على الفرد رسل والاس Alfred Russell Wallace الذى يعترف هو ايضا بتأثير نظريته التطورية بكتاب مalthus .



**والهم من هذا كله هو ان كتاب مalthus عن « مبدأ السكان » يعتبر نقطة تحول جذرى في الفلسفة الاجتماعية وفي توجيه الازهان الى المبدأ الاساسي العام الذى لا يزال هوريكية اية محاولة للتنمية في المجتمع الانساني حتى الان ، ونعني بذلك مبدأ التوازن بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية على ما تكشف عنه الدراسات المنشورة في هذا العدد .**

ولكي نعطي فكرة عن مدى الزيادة الهائلة السريعة في سكان العالم وبخاصة في المجتمعات النامية يكفي ان نذكر ان تعداد السكان في العالم في عام ١٩٦٠ كان ثلاثة آلاف ( ٣٠٠٠ ) مليون نسمة ، وتدل بعض التقديرات المبدئية ان هذا العدد سوف يرتفع قبل نهاية هذا القرن الى ٥٨٠٠ مليون نسمة ، بينما تذهب بعض التقديرات الاخرى الصادرة من هيئة الأمم المتحدة الى ان العدد سوف يكون حوالي ٦٣٠٠ مليون نسمة ، وذلك في الوقت الذى تذهب فيه بعض معاهد الابحاث السكانية في امريكا الى التنبؤ بان تلك الآلاف الثلاثة من الملايين التي كانت تعيش عام ١٩٦٠ سوف تتضاعف خلال الاربعين سنة من عام ١٩٦٠ الى عام ٢٠٠٠ مرتين ونصف مرة تقريبا ، وبذلك فان سكان العالم في تلك السنة سوف يكونون ٧٤١٠ مليون نسمة ، ولكن هذه الزيادة لا تسير بنفس السرعة في كل المجتمعات الانسانية بل تختلف معدلات الزيادة من مجتمع لآخر كما سبق ان ذكرنا ، وانها ستكون اكثر ارتفاعا في المجتمعات النامية والمتخلفة عنها في المتقدمة ، او بالاحرى المجتمعات الصناعية الحديثة . فالزيادة السكانية في العالم ككل هي ١٧٪ سنويا ولكنها لا تصل في المجتمعات الصناعية الحديثة الى اكثر من ٧٪ . بينما هي ترتفع في المجتمعات النامية والمتخلفة الى اكثر من هذا بكثير بحيث تتراوح بين ٢٪ ، ٣٥٪ . وفي مصر بالدات - على سبيل المثال - نجد ان معدلات الزيادة تدور حول الرقم ٢٦٪ سنويا وهي اعلى من النسبة الموجودة في كثير من بعض البلاد المتخلفة الاخرى كاليهند مثلا . والدراسات

والبحوث المنشورة هنا مليئة بالأرقام ذات الدلالة، وقد لا تتفق تلك الأرقام والتقديرات ببعضها مع بعض، ولكنها تشير إلى مدى خطورة الوضع في العالم بالنسبة لتزايد السكان وإلى ضرورة العمل على التحكم في تلك الزيادة بشكل أو بآخر ما دامت الزيادة في الطعام وفي الموارد الطبيعية لا تتناسب مع الزيادة السكانية، ويدخل في «الموارد» هنا الموارد المستغلة بالفعل والتي لا تزال في بساتن الأرض، واستخدام الطاقة غير البشرية على السواء.

والغريب في الأمر في هذا الصدد أنه بينما يدرك الجميع خطورة هذا الاختلال في التوازن بين السكان والطعام، وضرورة العمل على إعادة التوازن المفقود إما عن طريق الحد من الزيادة السكانية وإما عن طريق العمل على زيادة إنتاج الطعام وحسن استغلال الموارد الطبيعية، وبينما تتعرض شعوب كثيرة في العالم لخطر المجاعات التي بدأت تهدد الإنسان من جديد نجد أن الحكومة الأمريكية مثلاً في بعض الأحيان تدفع مبالغ كبيرة من المال للفلاحين مقابل عدم قيامهم بزراعة مواد غذائية جديدة نظراً لأن المخازن في تلك المناطق الزراعية تضيق بكميات الطعام الهائلة المكسدة فيها والتي تبلغ قيمتها بلايين الدولارات. وهذا لا يعني أن الولايات المتحدة تخلو من وجود مشكلات سكانية خاصة بها وإن كانت هذه مشكلات من نوع مختلف، فليس من المحتمل أن تتعرض الولايات المتحدة للمجاعة مثلاً نتيجة لاحتفاظها بالسكان مثلاً يحدث في بعض جهات العالم الأخرى، ولكن المؤكد هو أن أسلوب الحياة هناك ومستوى المعيشة معرضان للخطر لأن النمو السكاني خليق بأن يلهيهم كثيراً من المسألات الاجتماعية التي حققتها أمريكا حتى الآن، نظراً لما يحتاجه الوضع من نفقات باهظة تنفق على الخدمات المختلفة التي يتطلبها عدد السكان المتزايد.

والظاهر أن الميل العام في كثير من المجتمعات التي تعاني من المشكلة هو نحو الاتجاه إلى العمل على التحكم في النسل وضبطه عن طريق ابتكار وسائل يتحكم بها في معدلات الخصوبة والمواليد مثلما أمكن التحكم في معدلات الوفيات من قبل، ومع أن هناك من يرى في الهجرة حلاً لمشكلة الزيادة السكانية فإن ذلك في الحقيقة حل جزئي فقط، قد يؤدي إلى اختفاء المشكلة من المناطق المكتظة بالسكان في الريف مثلاً، وذلك في حالة الهجرة الداخلية من الريف إلى المناطق الحضرية، أو اختفاء المشكلة في دولة من الدول التي تعاني من الزيادة السكانية وذلك في حالة الهجرة الخارجية إلى دولة أخرى أو مجتمع آخر غريب يحتاج إلى الأيدي العاملة، ولكن الهجرة ليست حلاً جذرياً للمشكلة ككل، إذا نحن اعتبرناها مشكلة عالمية وليست محلية. بل أن الهجرة ذاتها، وبخاصة إلى المناطق الحضرية، كثيراً ما تخلق مشاكل من نوع جديد مثل ازدحام المدن وزيادة البطالة وانتشار الجرائم وظهور المناطق السكنية المتخلفة، بل وكبر حجم المدن ذاتها إلى حد يفوق كل ما هو معروف عن المدينة بالمعنى التقليدي للكلمة وظهور ما يعرف باسم «المدينة العملاقة» Megalopolis بكل ما فيها من تعقيدات، خاصة وأن المدينة العملاقة ليست في

حقيقة الامر سوى اقليم متسع يشمل عددا من المدن الصغيرة المتجاورة والتي تعتبر كل منها مركزا حضريا تدور في فلكه بعض التجمعات القروية او نصف الحضرية التي تمتد ذلك المركز الحضري بحاجاته من الطعام وبعض السلع الاخرى في الوقت الذي يقوم ذلك المركز الحضري نفسه بتوفير ما تحتاجه تلك المناطق والتجمعات الريفية من خدمات متنوعة . وهذا على اى حال يؤدي الى ظهور انماط واشكال جديدة من المشكلات السكانية التي تعالجها احدى الدراسات في هذا العدد .

والدراسات التي ننشرها هنا لا تحيط بالمشكلة السكانية من كل جوانبها . فهناك مظاهر ومشكلات فرعية عديدة لا تقل اهمية عن تلك التي تناولها البحوث المقدمة في هذا العدد من المجلة . والامر يحتاج بغير شك الى عودة اخرى لهذا الموضوع الحيوى في اعداد تالية وفي دراسات متفرقة تتناول تلك المشكلة كما تتمثل في المجتمعات النامية بوجه عام ومجتمعنا العربي بوجه خاص .

★ ★ ★

المشكلة السكانية في المجتمعات النامية بوجه عام ومجتمعنا العربي بوجه خاص .

عبد الكريم اليافي

## الهجرات وتحركات السكان

ينشط الناس في مجتمعاتهم ضمن اطار الزمان والمكان ، لا يستطيعون ان يخرجوا من قيودهما طوال حياتهم ، ونشاطهم في مجال هذين الاطارين متفاوت ، فالزمان يتحرك ويجري دون رجعة ، فينشأ عن ذلك الميلاد والعيش والتعمير حيناً من الزمان ثم الوفاة . ولكنهم في ابان ذلك يشغلون حيزاً من المكان بأجسامهم ، وهم يذهبون ويجيئون ، وقد يسافرون فيجوبون المسافات ، ويقطعون الابعاد ، وقد يغيرون اماكن اقامتهم . وهم في اضطرابهم خلال المكان يجري بهم تيار الزمان، فيتخطون الاعمار عمراً بعد عمر او توافيهم المنون . فالزمان والمكان مشتبكان اشد الاشتباك في كثير من الموضوعات ولا سيما موضوع السكان، مشتبكان اشتباك الحياة والموت .

✶ المجتمع الانساني كيان حي ، وهو ينمو او يضخر بعوامل عدة متفاوتة ، والعوامل التي لها هذا التأثير ويمكن قياسها بسهولة هي المواليد والوفيات والهجرة .

---

\* الدكتور عبد الكريم اليافي استاذ بجامعة دمشق . معار في الوقت الحاضر لقسم الديمغرافيا في معهد العلوم الاجتماعية في بيروت . له العديد من المؤلفات والكتب كما اشترك في عدة لجان علمية وفي مؤتمرات عالمية كثيرة .

هذه العناصر تؤلف ما يدعى « حركة السكان العامة » أو « نمو السكان العام » . وهو في الغالب موجب ، أى أكبر من الصفر ، فهو زيادة . ولكنه قد يكون سالبا في نادر الاحيان ، فهو اذ ذلك نقص .

ويمكن أن نكتب :

حركة السكان العامة = مواليد - وفيات + هجرة الى البلاد - هجرة منها .

أما المواليد والوفيات فحصيلتهما تدعى « حركة السكان الطبيعية » أو « نموهم الطبيعي » . وأما الهجرة الى البلاد ومنها فتدعى « حركة الهجرة » . فاذا أربى القدوم على النزوح دمي الفرق « فيض الهجرة » . وان نقص عنه دمي « غيظ الهجرة » . وقد يراد ادراك مدى النشاط في حركة الهجرة فيصرف النظر عن جهتها أى عن الدخول الى البلد والخروج منه ويجمع القادمون والنازحون معا فيدعى المجموع حجم الهجرة .

وسنعود الى بعض هذه المصطلحات عند الكلام على قياس حركة الهجرة ، ولكن يمكن الآن أن نتعجل بعض الشيء فنضرب مثالا على تأثير هذه العوامل مجتمعة .

في بلد ما يولد انسان كل سبع ثوان ونصف الثانية ، ويتوفى آخر كل تسع عشرة ثانية ، ويدخل وافد كل دقيقة ونصف الدقيقة ويخرج نازح كل ثلاث وعشرين دقيقة . ففي هذا المثال عنصران موجبان يزيدان في الناس ، وهما المواليد والوافدون ، وعنصران سالبان منهم وهما المتوفون والنازحون . ولو تأملنا المجموع قليلا للاح لنا أن البلد يزيد نسمة واحدة في كل عشر ثوان ونصف الثانية .

بيد أن أولئك المسافرين الوافدين أو النازحين ليسوا كلهم مهاجرين . وليس السياح ولا القائمون برحلات استكشافية ، ولا الطلاب الموفدون للدراسة ولا المكلفون بمهمات قصيرة الامد ولا أمثالهم بمهاجرين . انما يتصف المهاجرون بأوصاف لا يتصف بها غيره من النازحين . وهو أنه قد أجمع أمره على مغادرة وطنه أما ابدا وأما الى امد غير محدود . ولا بد من اتخاذ بعض المعايير في تصنيف القادمين والنازحين . وقد أوصت هيئة الأمم المتحدة بتصنيف الذين ينتقلون من مكان الى آخر عند وصولهم في الاصناف الاربعة الآتية :

١ - المهاجرون الدائمون أى غير المقيمين (من رعايا البلد أو الغرباء عنه) الذين ينوون المكث لفترة تزيد على السنة .

٢ - المهاجرون الوقتيون أى غير المقيمين الذين يريدون أن يمارسوا عملا في بلاد الوصول لسنة أو اقل ، ويصنف من يرافقهم من اهليهم في الصنف الثالث .

٣ - الزوار الذين يرغبون في البقاء سنة أو اقل دون أن يمارسوا عملا ما ، ويدنر معهم اهلوهم .

٤ - المقيمون ( من رعايا البلد أو الغرباء عنه ) الذين يؤوبون بعد غيبة تتجاوز السنة .

وفي أمكنة المفادرة يصنف المفادرون على النسق الآتي أيضا :

١ - النازحون الدائمون أى المقيمون ( من رعايا البلد أو الغرباء ) الذين ينوون الإقامة في خارج البلد مدة تجاوز السنة .

٢ - المسافرون من أولئك المهاجرين الوقتيين في التصنيف السابق ( يذكر أهلهم في الصنف الثالث ) .

٣ - الزوار الذين اتوا زيارتهم .

٤ - المقيمون ( من رعايا البلد أو الغرباء الذين ينوون الإقامة في خارج البلد لسنة واحدة أو أقل من سنة .

ولا شك أن الجماعات التي تتسم بصفات خاصة في زمن ما كاللاجئين والمنقولين والمطرودين ممن يوزعون على الأصناف السابقة يلزم أن يسجلوا بصفاتهم تلك على حدة عند قدومهم أو ذهابهم .

ويستبين مما سلف أن أمورا ثلاثة تقتضي الاستعلام لتحصيل التصنيف وهي محل الإقامة المعتاد ، مدة المكث أو الفياض ، والعزم أو النية المتعلقة بالعمل أو الشغل .

ولكن هذه التوصيات لا تجري عليها الحكومات ، وإن كانت بوجه عام تعتبر المهاجر من عزم على ترك بلاده لمدة تطول .

وثمة تعبير آخر عن الهجرة وهو التحرك أو « الحراك » طفق يروج في الوقت الحاضر في علم السكان وفي علم الاجتماع .

في علم السكان فهو يدل على الانتقال المكاني أو الجغرافي ، وأما في علم الاجتماع فيدل على تبدل الحال الاجتماعية ، كتغير الحرفة أو الطبقة الاجتماعية أو غيرهما ، وقد يجتمعان فيبذل المرء محل إقامته ويبدل حرفته أو الحرفة التي اعتاد أهلوه أن يزاولوها .

والحراك أعم من الهجرة ، ولا بد لكي يكون هجرة من أن يواكبها تبدل في محل الإقامة ، وعزم على العمل في مكان الوصول . وقد نطلق لفظ الحراك على انتقال العمال من محال إقامتهم إلى مجال أعمالهم ، وعلى اختلاف الطلاب إلى مدارسهم ومعاهدهم ، وإن لم يكونا هجرة .

بحث الهجرة واسع ، وهو في الأصل جزء من علم السكان ، ولكنه يتعلق بالتاريخ ، إذ وجدت الهجرة منذ وجد الإنسان . وحركات الهجرة التاريخية تملأ صفحات كثيرة من كتب التاريخ ، بل نحن العرب نؤرخ بالنسبة لهجرة مؤثرة في تاريخنا . ويتعلق بحث الهجرة بالاقتصاد ، لأن بين الاقتصاد والهجرة علاقات مشتبكة . ويتعلق بالسياسة ، فقد تكون دواعيها وآثارها سياسية . ويتعلق بعلمي النفس والاجتماع لأن لها أسبابا ونتائج نفسية واجتماعية ، وتتعلق بعلوم أخرى يطول استقصاؤها . وهناك هجرة للجماهير رؤوس الأموال ، وللنبات ، وللحيوان ولا سيما الطير . ولكن هجرة الإنسان هي أهم أنواع التحركات .

هذا الفصل الذي نكتبه ديمغرافي بمعنى أننا نقصر النظر فيه على جوانب علم السكان ،

فنقدم فيه نبذاً من هذه الجوانب دون ادعاء الاحاطة، وسنقسمه الى أربعة اقسام. فنبحث في القسم الأول أسباب الهجرة الخارجية والداخلية، وفي القسم الثاني آثارهما المتفاوتة ، ونعرض في كلا القسمين العوامل الاقتصادية والديمقراطية والثقافية الاجتماعية بوجه العموم . وسنرى أن بين الأسباب والآثار ارتباطاً جديلاً ، وأن بين تلك العوامل اشتباكاً وثيقاً ، وأن فعل كل منها وأثره يكونان تارة ايجاباً وتارة سلباً بحسب الظروف والملابسة .

ثم نشرح في القسم الثالث طرق قياس الهجرة وتخمين عناصرها ، ونتأمل في القسم الرابع بعض اللّمحات عن الهجرة في البلاد العربية، ونختتم البحث بالإشارة الى الهيئات العالمية التي تهتم بالمهاجرين والأجثين ، ونلحق به معجماً موجزاً بالمصطلحات التي جرينا عليها ، ثم بالمراجع البسيطة في هذا الشأن .

هذا ويجدر التنويه هنا بأن أكثر القضايا والاحكام التي اثبتناها نتائج بحوث حديثة كثيرة تتعلق بالهجرة ابان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حين انطلق تدفق الهجرة من العالم القديم الى العالم الجديد ، وحين طفق الاستعمار يكتسح بعض جوانب العالم القديم . وقد اعتمدنا في القسمين الأولين كتاباً صدر عن قسم السكان في هيئة الأمم المتحدة بعنوان « أسباب التطور الديمغرافي وعواقبه » . أما في الوقت الحاضر فقد تغير الأمر حين أصبحت الهجرة تخضع الى حد بعيد لتنظيم الدول واتفاقياتها .



### — القسم الأول —

#### أسباب الهجرة الخارجية

دواعي الهجرة متعددة ومتفاوتة في المكانة ، وليس من السهل دائماً تعريفها ، وقد أجريت بحوث كثيرة على الدوافع الشخصية ، ولكن الاجوبة لم تكن بالضرورة صادقة او صحيحة ، وإنما ظهرت نتائجها متصلة بالاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية التي تبدو مهمة في أعين المهاجرين . ثم ان تلك البحوث عمدت الى حركات هجرات معينة ، فلا يجوز تعميمها .

وتعدد الدواعي وتفاوت مكانتها لا يجعلان آثارها في البلاد واحدة ، ولذلك لزم تتبع عوامها بشيء من التأمل والتفصيل ، ونحن نعرض في هذا الموضع أهم تلك العوامل التي أمكن تعيينها في مختلف الهجرات ونصنفها كما ذكرنا في ثلاث زمر :

١ - العوامل الاقتصادية ٢ - العوامل الديمغرافية ٣ - العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية . ونفرق في الغالب بين العوامل النابذة التي تدفع الناس الى ترك مواطنهم الأصلية ، والعوامل الجاذبة التي تغريهم بالقدوم الى مواطن أخرى . قد يهاجر المهاجرون لآحوالهم الرديئة في بلادهم ، وقد تجذبهم في الوقت نفسه مغريات في البلاد الأخرى . فالنبد والجذب يتحكمان في تيار الهجرة ، وهما يتناوبان تلك الزمر الثلاث الأتفة .



### ١ - العوامل الاقتصادية

لا شك أن العوامل الاقتصادية أهم دوافع الهجرة ، ولكن بعض الهجرات في التاريخ كان سببه المباشر على الأقل من طبيعة غير اقتصادية ، تعزى إحدى موجات العرب قديما لخراب سد مأرب ، كذلك هجرة اقوام التوتون والسامبري الى بلاد الغال والى ايطاليا نجمت عن غمر البحر جتلند حيث كانوا يقيمون . والحرب منذ العصور القديمة كانت دافعة الى الهجرة ، واضطهاد الاقليات لمختلف الاسباب حافز كبير لها على الهجرة ، ولكن حيث لا تكون اضطرابات اجتماعية ولا حروب ولا كوارث طبيعيه يكون سبب الهجرة الرئيسي الرغبة في تحقيق مستوى حياة افضل ، وقد غلب في العصور الحديثة بروز العامل الاقتصادي على غيره ولو أن للعوامل الأخرى بعض الأهمية .

يسمى المهاجرون على الغالب لتحسين احوال حياتهم المادية ، وتجذبهم المناطق التي تتوافر فيها الفرص الاقتصادية الحسنة والمكاسب المالية الثرية . ولكن ليس كل من تتاح له تلك الفرص والمكاسب يرغب في مغادرة وطنه ، ولا كل من يرغب في مغادرة وطنه يستطيع النزوح ، ولهذا كان تأثير العوامل الاقتصادية يجرى ضمن اطار العوامل الحضارية والثقافية والسياسية والجغرافية .

مستوى الحياة - كثيرا ما لوحظ أن تيار الهجرة الدولية يجرى من البلاد ذات المستوى الحيوى المنخفض نحو البلاد ذات المستوى الحيوى المرتفع ، ولكن هذا الحكم يقتضي نصيبا من الاحتراز .

ينبغي اول الانتباه لتفاوت مستوى الحياة بين فئات السكان في البلاد ، فقد يهاجر فريق من الناس من بلاد غنية الى بلاد فقيرة اذا حسبوا أن ثرواتهم سوف تنمو بالهجرة ، وقد يوازن المزارع بين دخل مزرعته وربحه في بلد الاغتراب ، لأن الفرق حين يكون في صالحه أهم عنده من تفاوت مستوى الحياة في كلا البلدين وكذلك العامل ينظر في تفاوت الأجور بين البلاد الأصلية والبلاد المقصودة .

ثم ان المهاجر لا يبني عزمه على المقايسة بين شروط البلدين الراهنة فقط ، بل قد يستشف مستقبل تلك الشروط ، ويتأمل تبدل تلك الأحوال ، ويرجئ النجاح في اقتحام المخاطر ، ويؤثر الفوائد المؤجلة على المعجلة وأن كان الواقع الراهن عنده أهم اجتذابا واغراء .

وربما نظر في رخص الحياة ويسرها ان كان له دخل ثابت أو اهيل على المعاش ، أو أراد ان يؤوب الى بلاده فهو يتأمل القوة الشرائية للمال الذى ادخره بالنسبة لمستوى المعيشة .

وقد يحول مستوى الحياة المنخفض دون الهجرة اذا حجز وصول المعلومات الى الناس عن البلاد الأخرى أو حملهم بانخفاضه على الصبر والاذمان ، أو عجزوا بسببه عن نفقات السفر ، وقد وجد أن تيار الهجرة من أوروبا نحو العالم الجديد قد مس أول الأمر المناطق التي تأثرت بالحياة المدنية والتجارية ، وكان مستوى الحياة فيها مرتفعا بعض الشيء على خلاف المناطق الفقيرة جدا والمنعزلة بقلّة المواصلات اليها . وربما كان سكوت الكتل البشرية في آسيا نسبيا وقلة تحركها بالهجرة ناشئا عن شدة العوز والضيق .

**توافر الأراضي وخصبها . -** تتعلق الفرص الاقتصادية في الزراعة الى حد بعيد بسبب الحصول على اراض طيبة بسعر معقول ، وقد دفع شح الأراضي وندرتها في بعض المناطق سكانها الى انتجاع مناطق اخرى تتوافر فيها الأراضي الطيبة ، فكان ذلك الشح داعيا للهجرة .

قلة الأراضي قد نشأ عن كثافة الفلاحين ، وقد اعتبرت بعض الدراسات كثافتهم باوروبا سبباً للهجرة كما حصل في ايرلندا والمانيا والبلاد الاسكندنافية ابان القرن التاسع عشر وفي جنوبي اوروبا وشرقيها في غضون القرن العشرين ، فقد سار العرف والعادة في بعض تلك البلاد بتوزيع الممتلكات الزراعية على ورثة المالك . فكان نمو السكان جيلا بعد جيل يقضي الى تجزؤ تلك الممتلكات وتفتتها ، حتى غدا بعض الفلاحين بدون ارض فحملهم ذلك على الهجرة . وقد حصل خلاف ذلك في بريطانيا ابان النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فقد تجمع اكثر الأراضي بأيدي ملاكين كبار طفقوا يزعمونها بالحبوب ويحولون بعضها الى مراعي . فوجد الفلاحون والمزارعون الصغار أنفسهم مضطرين للنزوح نحو المدن او خارج البلاد ، كذلك معظم الأراضي في ايرلندا كانت للمالكين غير قاطنين فيها ، وكان الفلاحون فقراء او مستأجرين لا تربطهم بالأرض العلاقة واهية . حدث مثل هذا أيضا في شرقي المانيا والقسم الغربي من الامبراطورية الروسية حيث كانت تسود الملكيات الكبيرة ويستحكم الفقرا المدقع بين الفلاحين .

وقد أدت البحوث المبكرة لتلك الأحوال السيئة وعلاقتها بالهجرة الى الفرض التالي وهو ان النزوح متناسب شدته طردا مع الملكيات الكبيرة وعكسا مع الملكيات الصغيرة .

كانت صعوبة الحصول على الأرض في اوروبا ذات صبغة نابذة ، وقد دعم ذلك النبل الى حد بعيد جذب الأراضي الانتف ( العذراء ) المتوافرة بأسعار زهيدة او مجانا في العالم الجديد . كانت تلك الأراضي في الولايات المتحدة قوية الاغراء في القرن التاسع عشر ، حتى اذا استنزفت توزعها الايدي المهاجرة طفق المهاجرون ييمون وجوههم شطر كندا .

وكما في اوروبا كذلك كان اكتظاظ السكان الزراعيين الفقراء في آسيا داعيا لهم الى الهجرة . لقد دفع بهم البؤس الى النزوح من الصين والهند وكوريا واليابان ( قبل تصنيعها ) منذ منتصف القرن التاسع عشر واغراهم بالعمل في البلاد الاجنبية حتى باجور منخفضة وسيئة الشروط فنزحوا الى المزارع النائية والمناجم المظلمة والمصانع المرهقة . أمّا آسيا نفسها فليس فيها ما يفري المزارعين بالهجرة اليها حتى لو توافرت الأراضي ، ما عدا الشطر الآسيوي من سيبيريا في الاتحاد السوفياتي . ولقد بقيت اراضي منشوريا خلافا لبقية انحاء آسيا تستدعي هجرة جاليات صينية مدة طويلة .

يدل هذا على أن توافر الأراضي وحده لا يدفع الى الهجرة على مستوى عريض . فلقد كان في الولايات المتحدة عناصر اخرى رفدت ذلك التوافر ولفتت وجوه الناس نحوها . من هذه العناصر تحرك الرواد الأوائل نحو الغرب ، وقدمهم طريق اللحاق بهم صيادو الوحوش ، والمتاجرون مع الهنود الحمر ، والمنقبون عن المعادن والفلزات وغيرها كالذهب والنفط ، والزراع الذين تركوا مزارعهم الأولى بحثا عن مزارع اشد اتساعا في السهول الغربية . فاللاحقون من

المهاجرين كانوا ينزلون الأراضي المهددة والمعروفة ويسكنون في مزارع مستصلحة . ثم ساعد مدد السكك الحديدية ، ونمو طرق المواصلات الأخرى ، ونشوء المدن على توسعة المجال الاقتصادي أمام المحاصيل الزراعية في منافسة العالم القديم ، وفي رواجها بالأسواق الداخلية الجديدة .

أما أمريكا اللاتينية فلم تجتذب إلا عددا ضئيلا من المهاجرين لهدف العمل الزراعي . ولم يضرب هؤلاء في أعماق البلاد ما عدا الأرجنتين على الرغم من توافر الأراضي الواسعة ، ومن تشجيع السلطات . إلا أن نظم امتلاك الأراضي ووجود الضرائب جعلت من العسير الحصول على مزارع جيدة بأسعار مغرية . ثم أن التضاريس وعسر المواصلات وصعوبة المناخ وردائه وعدم التنسيق في التثمين الزراعي وفي خطط النمو الاقتصادي والاجتماعي حال كذلك دون استقرار المزارعين في تلك الأراضي الفيع الشاغرة كما عوّق النفوذ إلى أعماق تلك القارة .

واستراليا مثل آخر على أن توافر الأراضي وحده ليس كافيا لاجتذاب المهاجرين . فان ثلث أراضيها ظل خاليا ، لأن النفقات في استغلال الأراضي وانماؤها أكبر من قيمتها الانتاجية ، كما أن المشاق التي لقيها الرواد الأوائل كانت أشد منها في البلاد الأخرى .

**نمو النشاط غير الزراعي .** - كان نمو الصناعة والتجارة وامثالها سببا طغى في تبدل أحوال الهجرة على العامل الزراعي الذي برزت أهميته في القرن التاسع عشر . بل أن ازدهار الصناعة والتجارة وغيرهما من النشاط غير الزراعي غدا الحافز الأكبر على الهجرة قبل تصريم ذلك القرن . وحصل الأمر نفسه في أوروبا وكندا وأمريكا الجنوبية وزيلندة الجديدة . وهنا لا بد من تبين عامل الصناعة حين تقوم أركانها في البلاد وإيضاح تأثيره الإيجابي والسلبي في تدفق النزوح .

ففي الفترة الأولى لقيام الصناعة ورواج التجارة قد يطرأ تغيير في النظام الاجتماعي ، وهبوط في مستوى الحياة يحملان الناس على الهجرة . تلك هي العلة فيما دعى « حُمى الهجرة » التي أصابت أوروبا في أعقاب الثورة الصناعية . فقد تضاعفت أهمية الحرف اليدوية أمام الصناعة القائمة ، وعجز محترفوها عن الوصول إلى بلغ معيشتهم فدفعهم العوز إلى النزوح . كان بين النازحين من ألمانيا بعد منتصف القرن التاسع عشر أفواج من أصحاب الحرف اليدوية والصناعات البيتية وجدوا أنفسهم قاصرين عن منافسة المصانع التي كانت تزداد يوما بعد يوم . ومن الطبيعي أيضا أن تقع البطالة في المراحل الأولى من قيام الصناعة عند دخول الآلات الموفرة للعمل اليدوي فيلتمس الباهل ( العاطل عن العمل ) سبيلا آخر بعيد الشقة وهو النزوح .

وعلى العكس قد تنمو الصناعة والتجارة وامثالهما في البلد الذي كان اقتصاده زراعيا لا يوفر لسكانه حاجاتهم ومؤنهم ، فاذا بهم يتحسن مستوى حياتهم وتجول مكاسبهم ويصنفون عن الهجرة كما حصل لدى دول أوروبا الشمالية والغربية في أواخر القرن التاسع عشر وتباشير القرن العشرين . فقد ضوّلت الهجرة منها على حين تدفقت من شرقي أوروبا وجنوبيها ومن الشرق الأوسط إلى العالم الجديد ، وكان هذا التدفق معيناً على تصريف سلع تلك البلاد الشمالية والغربية وعلى زيادة ازدهارها . وغدت مدينها الكبيرة تمتص أهل الأرياف من مناطقها الزراعية . لقد كانت ألمانيا تصدر المهاجرين إلى العالم الجديد، فلما تقدمت الصناعة فيها إبان الربع الأخير من القرن التاسع عشر غدت موردا سائفاً لهم من أنحاء أوروبا .

أما في بريطانيا فلم ينقلب تيار الهجرة فيها ، ولكنه تضاعف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي الوقت نفسه كثر المهاجرون اليها من أيرلندا . وكذلك كان ازدهار الصناعة في روسيا ، وقد تأخر بعض الوقت ، سبباً في اجتذاب المهاجرين اليها من البلاد المجاورة . ومثله حدث في اليابان : كان النازحون يتدفقون منها عن طريق التماقد مع الشركات الأجنبية . فلما تقدمت الصناعة بعد الحرب العالمية الأولى فيها جنح الكوريون للعمل في مصانعها الفتية الناشئة التي كانت تزداد يوماً بعد يوم . ومع ذلك بقيت اليابان في الفترة بين الحربين العالميتين مصدراً للهجرة من ميدان الزراعة وغيره . وربما كان ذلك بدوافع غير اقتصادية كما سوف نشير الى ذلك في موضعه .

أما الأقطار التي تستقبل المهاجرين فقد كان اتساع المدن ونشاط الصناعة فيها السبب في اجتذاب الناس ، ولا سيما في العقدين أو العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين . لقد سجل أعلى معدل للهجرة الى الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية مباشرة حين ازدهرت الصناعة والتجارة جداً فيها . بل قبل ذلك الوقت بمدة لا بأس بها كان المهاجرون الى الولايات المتحدة تمتصهم مراكزها الصناعية أكثر من الأراضي الزراعية . والامر على هذا النحو في كندا وأمريكا الجنوبية وأفريقية الجنوبية وأستراليا وزيلندة الجديدة حيث يستقر المهاجرون في المدن ، تفريهم فرص العمل وارتفاع الأجور أكثر من الأراضي الشاغرة . ويبدو مدى تحكم النشاط الصناعي والتجاري في تيار الهجرة حين تدرس العلاقة بين التحولات السنوية لحجم الهجرة ومراحل دورة التجارة في البلاد المقصودة .

وقد لوحظ أخيراً أن هذه البلاد دخلت في طور جديد قل فيه اجتذابها للمهاجرين . فقد أصبحوا يجدون عقبات يعسر تدليلها في الإقامة وفي مباشرة العمل على حسابهم ، إذ غدت رؤوس الأموال اللازمة جسيمة لا قبيل لاكثرهم بها ، ولا سيما أن طائفة كبيرة من المشروعات التي نشأت لا يستطيع المرء أن يمول أمثالها وحده . فالذي ينوي الهجرة يجد نفسه أمام أحد حلين : أن يغدو فرداً من أفراد الطبقة الكادحة أما فيما وراء البحار أو في بلد قريب من مسقط رأسه . فهو يؤثر الحل الثاني وإن كان مستوى حياته يبقى أدنى منه في الأول . وقد برز من هذا التحليل سبب تمهل الهجرة العالمية في أوائل القرن العشرين ، ذلك أن المناطق الجديدة غدا عدد سكانها كثيفاً فقلت فرص العمل فيها .

**تقدم وسائل النقل .** - كان نداء الهجرة قويا حتى تغلب على مشقات السفر ووعثائه ونفقاته ولما تحسنت وسائل النقل والمواصلات حين تقدمت الصناعة والتجارة ذلت تلك العقبات المختلفة .

كان عبور المحيط شاقاً وخطيراً ، وكان السفر البري البعيد عسيراً وباهظ التكاليف حتى منتصف القرن التاسع عشر . كان يستغرق السفر في القرن السابع عشر من فرنسا الى كندا نحواً من شهرين ، وكان معدل الوفيات في الطريق يصل الى ٤٠ أو خمسين في المائة ، ثم صار الطريق حوالي سنة ١٨٥٠ يستنزف شهراً ونصف الشهر . ثم نقصت المدة الى أسبوع سنة ١٩٣٩ وهبط معدل الوفيات الى الصفر تقريباً . كان الرحيل بالمرائب الشراعية شائعاً قبل سنة ١٨٥٠ ، ولم يكد يحل عام ١٨٧٣ حتى غدا ٩٦ في المائة من المسافرين يمتطون البواخر . كما أن التنافس بين شركات الملاحة وتطبيقها التنظيمات العامة خفضت النفقات وقللت الأخطار .

كذلك ساعد ذبوع السكك الحديدية على تيسير الأسفار ، فشقت السكك البلاد من دانيها الى قاصيها وأعانت على استغلال البقاع النائية ، كما حصل ذلك في الولايات المتحدة . ثم شُقت الترع فكان لها قسط في تدفق تيارات جديدة من الهجرة ، كترعه السويس وترعة باناما اذ فتحتا سبلا حديثة للتجارة . حتى الملاحة النهرية لم تعدم اثرا في تلك التيارات .

**العوامل الاقتصادية التي تؤثر في معدلات الهجرة السنوية :** - تناولت بعض البحوث تفاوت معدل الهجرة العالمية تبعا لتفاوت المواسم الزراعية ولمراحل دورات التجارة . في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان عدد المهاجرين الذين يقادرون اوروبا تابعا للموسم الزراعي . وهنا تقدم ايرلندا ابلغ الامثلة وأشهرها على تأثير القحط . لقد ازداد سكانها في غضون القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم وقف الازدياد بحلول سنين عجاف بعد صامي ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ولا سيما بين ١٨٤٥ و ١٨٤٧ حين اجتاح القحط موسم البطاطا ، وهي غلة يعتمد عليها الناس في اقواتهم فابتعث تيارا كثيفا من النازحين . لقد اعتبر الباحثون المجاعة التي امت عام ١٨٤٧ السبب الرئيسي لدفقات المهاجرين التي شرعت تحمل كل سنة مائتي الف مهاجر ايرلندي في غضون السنين الثماني التي تلت ذلك العام . انها عجلت هجرة لا بد لها من ان تقع آجلا لأسباب أخرى هي اتساع الصناعة في بريطانيا وفي الولايات المتحدة وازدهار الاقتصاد فيها على حين كان مستوى المعيشة في ايرلندا منخفضا جدا والفلاح قليل الارتباط بالأرض لسوء الملكية . وقد تغيرت الظروف في السنوات الأولى من بداية النصف الثاني في القرن التاسع عشر ، فتحسنّت الأحوال الاقتصادية في ايرلندا ، ومع ذلك استمرت الهجرة لا هربا من بؤس اسود ، بل ابتغاء لمعيشة كريمة فضلى .

تلك المجاعة لم تؤثر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر في ايرلندا وحدها بل تجاوزتها الى بريطانيا ، كذلك كانت الهجرة من المانيا الى ماوراء البحار مرتبطة باضطراب الموسم . ولكن الارتباط خف ووهى بعد عام ١٨٥٠ حين تقدمت الصناعة فيها .

درس الباحثون ايضا الهجرة من السويد بين سنة ١٨٥٠ و ١٩١٠ فبدت لهم منوطة بالموسم الزراعي السنوي في اول هذه الفترة ثم ضعفت علاقتها به بعد عام ١٨٧٠ على حين ان التقلبات الدورية للاقتصاد الأمريكي بدت ذات اثر عميق فيها . وأيا كان الامر فان العوامل الزراعية اذا ضؤل اثرها في معدل الهجرة السنوي فهي لا تعدم اثرا ابان حقبة طويله من الزمان .

**جيروم** من أشهر الباحثين الذين درسوا تأثير التجارة في الهجرات الدولية . وقد تناولت دراسته الهجرة الى الولايات المتحدة خاصة في نصف القرن الذي سبق اعلان قانون ضبط الهجرة ( اى الفترة بين ١٨٧٠ و ١٩٢٣ تقريبا ) ، مع أن المؤلف يرجع حيننا الى اقدم من ذلك ، او يقتصر حيننا آخر على المعلومات التي تتعلق بالفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى . وقد استند في دورات التجارة الى قرينه تتعلق باحصاءات وظائف العمل ، وبالمعطيات غير المباشرة عن العمل ولا سيما ارقام الانتاج والاسعار والاستيراد ، فوجد ان مراحل الازدهار الاقتصادي كان يوازيها او يعقبها دفق اكبر من تيار الهجرة ، وان الازمات الاقتصادية قللت عدد المهاجرين دون ان توقف تماما ذلك السيل بحيث ان الوافدين لم ينقصوا قط عن النازحين خلال الفترة التي استوعبتها الدراسة .

ولم يقتصر جيروم على تأمل آثار دورات التجارة في الهجرة الى الولايات المتحدة بل انتبه للاوضاع الاقتصادية في البلاد الاصلية التي يغادرها المهاجرون كبريطانيا والمانيا وايطاليا فرأى ان الحال الاقتصادية في الولايات المتحدة هي صاحبة التأثير الاوفر على وجه العموم . ان دورات التجارة بالبلاد الاصلية كانت مشابهة في التقدم او التأخر لامثالها بالولايات المتحدة في اغلب الاوقات . فاذا ازدهرت الاحوال الاقتصادية في تلك البلاد جميعا زادت الهجرة الى الولايات المتحدة، واذا شحنت فيها جميعا نقصت وضوئت. واذا اتفق أن تفاوت الازدهار والشح بين تلك البلاد تبع تيار الهجرة حال الولايات المتحدة في الاتساع او الضيق وفي الرخاء او الشدة . اما الهجرة من بريطانيا والمانيا وايطاليا الى غير الولايات المتحدة فلا يوازي الخط البياني لها خط الهجرة الى الولايات المتحدة . ومن أجل ذلك يفضي جيروم الى هذه الخلاصة : وهي أن حركات الهجرة لا تتبع بالضرورة دائما الوضع الاقتصادي في المكان الاصيل ولا في المكان المقصود . وانما تتعلق اهمية تيار الهجرة السنوي في ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر بقوة « النداء » الاتي من البلد المقصود أكثر منها بعامل الضيق في البلد الاصيل .

هذا ، ومع صحة تلك الدراسة على التقلبات السنوية ، اى في المدى القريب ، لا يمكن انكار آثار العوامل الاقتصادية في المدى البعيد .

ولقد قام باحثون آخرون بدراسات على الهجرة فكانت نتائجهم قريبة بعض الشيء من نتائج جيروم . درس ونسميوس الهجرة الإيطالية الى الولايات المتحدة والى فرنسا والأرجنتين في فترة السنين ١٨٨٨ و ١٩١٣ ، فوجد أن تقلبات دورات التجارة في البلاد المقصودة كان لها اثر حاسم في سعة حركات الهجرة ولا سيما في النصف الثاني من الفترة المدروسة ، وذلك سواء وازت تلك التقلبات اشباهها في البلاد الاصلية أو لم توازها . وكذلك جرت بحوث على الهجرة من السويد فظهر أن تيار الهجرة هذه كان تابعاً للاوضاع الاقتصادية في الولايات المتحدة لا للاوضاع الاقتصادية في السويد . والنتيجة نفسها وجدت بالنسبة للهجرة من فرنسا الى الولايات المتحدة وان بدا لها الارتباط بعض الشيء بالوضع الاقتصادي في فرنسا بين ١٨٨٥ و ١٩١٤ ، فان المهاجرين لم يخرجوا من بلادهم ضيقاً بها ، وانما خرجوا التماساً لتحسين احوال معيشتهم وانماء دخلهم . وهكذا كان الازدهار الاقتصادي في البلد المقصود حافزاً لهم على ركوب متن الهجرة .

بيد ان دراسات أخرى ابانت أن المهاجرين لا يهاجرون الى امريكا الا حين يستطيع أن يدخر نفقات سفره اليها . وهذا يستلزم شيئاً من تحسن الاحوال في البلد الاصيل لكي يتيسر تجميع تلك النفقات . فالهجرة مثلاً من ايطاليا الى امريكا اشتدت حين تحسنت الاحوال الاقتصادية في ايطاليا ، وضعفت حين ساءت فيها وهذا كله يدل على أن ثمة وراء العامل الاقتصادي عوامل أخرى تستدعي الكشف والتحليل .

### ب - العوامل الديمغرافية

لنمو السكان الطبيعي اثر مباشر في العوامل الاقتصادية التي تتحكم الى مدى معين في تيارات الهجرة العالمية ، وقد سبقنا الإشارة اليه عرضاً. فزيادة السكان الزراعيين تساعد على استقلال الاراضي واتساعها ، أو على العكس قد تفضي الى قلة الاراضي وضيقها وعدم توافرها . كذلك

تقدم القطاع التجارى والصناعى لا يعدم اثرا في الهجرة من البلاد او اليها ، وهو متعلق بعض الشيء بالارتباط الواقع بين مدى الازدهارالاقتصادى ومعدل نمو السكان .

ان الناس حين يجمعون امرهم على الهجرة او يؤثرون البقاء في بلادهم لا يفكرون في العوامل الديمغرافية . ولكنهم ربما كانوا خاضعين في حلهم وترحالهم لها بعض الخضوع . بيد أن من الخطأ مجرد القول ان ارتفاع النمو الطبيعي للسكان يستدعي بالضرورة هجرة من البلاد ، وأن انخفاضه ( مع هرمهم وزيادة الوفيات بينهم ) يستدعي الهجرة اليها . نعى بذلك أن العلاقة بين الهجرة ومعدل النمو او غيره من القرائن الديمغرافية ليست ضرورية حتمية ، بل هي احتمالية ، على خلاف بعض البحوث التي نوهت بعلاقة دقيقة بينها في أزمنة وأمكنة مختلفة . فقد زعم بعضهم أن شدة الهجرة في كثير من البلاد الأوروبية في الفترة بين ١٨٥٠ و ١٩٣٠ تبعت ارتفاع نمو سكانها الطبيعي الذي سبق الهجرة بنحو عشرين سنة ، وأن الهجرة من أوروبا الشمالية والغربية والوسطى لما قلت حوالي نهاية القرن التاسع عشر وناب عنها تدفق الهجرة من أوروبا الجنوبية والشرقية كان السبب في ذلك انخفاض نمو السكان في البلاد الاولى لا تقدم الصناعة والتجارة ، بل في بعض الاحيان زادت الهجرة اليها على الهجرة منها لتناقص النسل . وقد غدت فرنسة على وجه الخصوص مقصدا يقصده المهاجرون لانخفاض معدل المواليد فيها ابان عشرات السنين .

على أنه قد تؤثر العوامل الديمغرافية تأثيرا عميقا في سياسة الهجرة . ذلك أن البلاد التي تخشى نقصا في سكانها تشجع الهجرة اليها حين يكون النقص خسارة لها في الميدان الاقتصادى والاجتماعى ، بل في ميدان الامن القومى ايضا . وفى مقابل ذلك قد يكون معدل النمو الطبيعي عاليا في بلدا والكثافة كبيرة فيه فتشجع حكومته الهجرة منه . بيد اننا قد نجد أحوالا أخرى تشجع الحكومات فيها الهجرة الى البلاد مع ارتفاع معدل النمو متى كان الاقتصاد قليل الازدهار والاراضي وفيرة والثروات كثيرة . ذلك ان الهجرة ليست وحدها الوسيلة لزيادة الناس . فقد يشجع الزواج وتكاثر الاسر لاتساع ذريتها وهلم جرا ، ولكن الهجرة لها مزية وهي أنها أسرع في زيادة السكان ، ثم يمكن بها اصطفاء المهاجرين بالنظر الى السن والذكورة والاثوثة ، فيزاد في العناصر الفتية والعاملة والذكور بالنسبة للشيوخ والعجزة وغير المنتجين والاناث .

ولقد كانت سياسة الهجرة التي تقصد الى اهداف الديمغرافية موضع نقاش في كثير من البلدان . فقد درست لجنة السكان الملكية في بريطانيا قضية الهجرة اليها لتردد بها معدل النمو الطبيعي القليل الارتفاع . وعمدت فرنسا الى فتح أبواب الهجرة لتتلافى تناقص سكانها الكامن وتقلل نسب الشيوخ وغير المنتجين . وقررت استراليا منذ حين أن تتلقى من المهاجرين نحو من سبعين ألفا كل سنة لتزيد سكانها بمعدل واحد بالمائة ينضم الى معدل النمو الطبيعي الذي هو ايضا واحد بالمائة .

وربما جاز في البلاد التي يكون نمو سكانها الطبيعي مرتفعا أن تفتح باب الهجرة اليها : هجرة اصطفايية تختار فيها الشبان العاملين لتخفيف أعباء العيلة او الامالة التي تمثلها كثرة الاولاد في البلاد فتزيد بأولئك الشبان قوة العمالة فيها . كذلك يمكن تشجيع الهجرة لايجاد التوازن بين

النساء والرجال ، فان استراليا بعد الحرب العالمية اعادت التوازن بين الجنسين بادخال افواج من المهاجرين عدد الذكور فيهم ضعفا عددا الاناث . وقد تنقلب هذه الاعتبارات فتشجع الحكومات الهجرة من البلاد . وكل ذلك لا يمكن ان ينفصل تماما عن العوامل الاجتماعية والثقافية

### ج - العوامل الاجتماعية

كل امرئ لا بد من ان ينتسب الى شعب وان يكون له اهلون واصدقاء في وطنه يتكلم معهم بلغته . انه قد اعتاد ثقافة بلاده وتمرس بالنظم السياسية والادارية والعلاقات الاجتماعية فيها . وهذه كلها عقبات تعترض في سبيل هجرته . ربما كانت تلك العقبات قوية في الماضي . فقلما كان المرء ينهض للتفكير في الهجرة من دولة الى اخرى تحسينا لمعيشته ، ولكنها ضعفت في العصر الحاضر ، ومع ذلك فما زالت قائمة شاخصة . بالاستناد الى مدى مقاومتها حاول بعض الباحثين ان يفسروا هجرة البريطانيين الى ربوع الكومنولث المتعددة . فاللغة والعادات تيسر نجعتهم كما تيسر نجمة الاسبان والبرتغاليين نحو امريكا اللاتينية ، والايرلنديين نحو الولايات المتحدة .

ومن العوامل الميسرة للسفر ايضا سهولة المواصلات والامام باحوال البلاد المقصودة ، كما ان الجهل بتلك الأحوال وصعوبة المواصلات من عوائق الهجرة . ومتى نشأ تيار من الهجرة بين بلدين ازدادت المعلومات عن البلد المقصود واشتد ذلك التيار بالتدريج ولا سيما اذا نجح المهاجرون الأوائل في أعمالهم ، فان نجاحهم هذا يحفز اقرباءهم واصدقائهم على اللحاق بهم . وربما بعث اولئك الى اهلهم بعون مادي يساعدهم على الهجرة . فقد جرت العادة في ايرلندا اذا هاجر فتى او فتية منها الى العالم الجديد وفرا نصيبا من المال لنفقات هجرة الباقي من الأسرة ولاعداد اقامتهم الجديدة . ويقدر عدد الذين هاجروا بهذا العون المادي من ايرلندا الى الولايات المتحدة بنسبة ٧٠ في المائة . في مقابل ذلك نجد من عوائق الهجرة في العصر الحاضر قيام الضمان الاجتماعي وتأمين مختلف الخدمات الاجتماعية في البلاد المتقدمة . فهذه الامور من شأنها ان تدرا عن السكان اشباح الضيق وتخفف عنهم اعباء المعيال لتمسكهم بأوطانهم . كذلك تامين العامل من طوارئ العمل ومن المرض ومن البطالة يجعله شديد التعلق ببلده ، وخصوصا اذا لم يتوافر له مثل ذلك في البلد المقصود البتة او لا يتوافر الا بعد انقراط سنين معدودة . فالتشريع الطيب لصالح السكان وصالح العمال قد يعترض في سبيل الهجرة او يحوّل وجهتها . عمدت بعض البلدان الى عقد اتفاقيات بينها وبين بلدان اخرى يكون بحسبها للعمال المهاجرين حقوق متساوية في الضمان الاجتماعي لدى كليهما كما جرى بين المملكة المتحدة من جهة وأستراليا وزييلندا الجديدة من جهة ثانية : واقامت البلاد الاسكندنافية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية « سوقا مشتركة للعمل » .

ربما يكون لبعض الشركات او الهيئات الاهلية او للبلاد نفسها مصالح في تشجيع الهجرة من البلاد او اليها ، كاتحاد ارباب العمل وشركات النقل واتحاد العمال وجمعيات الخير والاحسان وامثالها . وقد تبوأ هذا التشجيع مكانة كبيرة في اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ابان الهجرة الى العالم الجديد .

لقد حفزت شركات السكك الحديدية في الولايات المتحدة الناس على عمارة الاراضي التي على جانب السكك حين انتقلت ملكيتها اليها ، وذلك بالدعاية الواسعة وتخفيض اجور السفر



وانشاء مكاتب لاستقبال المهاجرين ومساعدتهم وتيسير دفع ائتمان تلك الأراضي . وكذلك كان لشركات الملاحة في اواخر القرن التاسع عشر اثر كبير في تنظيم الهجرة الى العالم الجديد وفي تيسيرها ، حين كانت تنشر المعلومات الوافية عن سبل العمل وتبحث عن الايدي العاملة وتعين على تمويلها في السفر . ثم منعت حكومات البلاد التي تصدر العمال مثل ذلك النشاط على تلك الشركات التي لم تكن تضع نصب اعينها مصالح العمال أنفسهم .

اما ارباب العمل فكانوا بطبيعة الحال يشجعون على الهجرة الى بلادهم الايدي العاملة المتوافرة الرخيصة والاختصاصية . ينبغي ان ننوه هنا بتلك الايدي النشيطة التي هاجرت من الصين واليابان والهند الى بعض القارات ولا سيما العالم الجديد ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة الاولى من القرن العشرين . فكانت نفقات السفر والاقامة يدفعها ارباب العمل على أن يعمل أولئك المهاجرون عندهم عددا من السنين يتفقون معهم عليه .

ثم رأت الحكومات عدم مشروعية تلك العقود فمنعتها ، بل حرم بعضها على ارباب العمل ان يأتوا بعمال من خارج البلاد .

ذكرنا آنفا ان اتحاد العمال او نقاباتهم قد تشجع على الهجرة . هذا ما حدث في بريطانيا حين عمدت نقابات العمال في الصناعات الاساسية الى انشاء صندوق خاص لمعونة العمال المنتسبين اليها عند هجرتهم وذلك في سنوات البطالة او الاضراب ، وان عجزت في بعض الاحيان عن رفدهم بالمال . ولما توطدت مراكز تلك النقابات في المضمار الاقتصادي والسياسي صدقت عن تشجيع الهجرة .

لا يخفى ان سياسات الحكومات نحو الهجرة من البلاد او اليها ذات آثار كبيرة في تلك الحركات . وذلك بما تضعه من تشريع يشجع عليها او يحصرها او يمنعها .

وربما كان من المناسب ان نذكر في هذا السياق بعض الامثلة . لقد خصصت حكومات بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر مبالغ مناسبة للبحث على هجرة الفقراء منها تخفيفاً للضغط الديمغرافي فيها ، وتقوية لعلاقات الامبراطورية بمستعمراتها . فقد سهلت السلطات المسؤولة اذ ذاك في الفترة بين ١٨٤٧ - ١٨٦٩ نزوح ٣٣٩ ألف مهاجر الى استراليا والى مناطق اخرى من الامبراطورية . وكذلك يسرت بعد الحرب العالمية الاولى بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣١ مغادرة اربعمائة الف شخص الى الدومنيون .

وشجعت إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية الهجرة منها ، فمنحت الشركات الإيطالية بعض العون حين يكون لها مشروعات في خارج إيطاليا تستطيع ان تستعمل فيها عمالا إيطاليايين .

وكذلك فعلت حكومة اليابان في الفترة بين الحربين العالميتين فدفعت بالمهاجرين من ابنائها الى امريكا الجنوبية والى منشوريا . وكان من اهدافها تخفيف اكتظاظ الزراعيين على اراضيها من جهة ، والتوطئة لسيطرتها الاقتصادية والعسكرية في الشرق الاقصى . ويسجل التاريخ في اطوائه قديما وحديثا محاولات متعددة من هذا النوع الاستعماري .

وأحيانا يحدث العكس . وهو ان البلاد تضيق على الهجرة منها . وهذا ما حصل في أوروبا خلال القرن الثامن عشر ، وفي الصين من سنة ١٧١٨ الى سنة ١٨٦٠ ، وفي اليابان لم يسمح بالهجرة الا منذ عام ١٨٦٥ . وقد عقدت اليابان مع الولايات المتحدة اتفاقية بموجبها لزم خفض عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة وماجاورها من المناطق . وفرضت الهند قيودا على العمال من ابنائها صونا لهم كيلا يتعاقدوا مع شركات أجنبية ، ثم منعت هجرتهم عن طريق التعاقد منذ سنة ١٩٠٢ . وأحاطت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية نفسيهما بسياسات من التدابير لقلل الهجرة منهما . ومن المعلوم ان الاتحاد السوفياتي والبلاد الاشتراكية تمنع الهجرة منها حماية لرعاياها وتفهما انسانيًا للعدالة الاجتماعية .

وسنرى مثل ما سبق تقريبا حين نتأمل أسباب الهجرة الداخلية .



### اسباب الهجرة الداخلية

تكاد تكون الاسباب التي تحفز على الهجرة من بقعة الى أخرى في داخل البلاد مماثلة للاسباب التي تحفز على الهجرة الخارجية . فحيثما توافرت أسباب العمل وتيسرت سبل الوظائف وارتفعت الأجور والرواتب وازدهرت المرافق الاقتصادية وجادت غلات الاراضي الزراعية او معدنية او نفطية اشتدت النجعة اليها . وكذلك اذا تفاوت معدل النمو الطبيعي ، الذي هو الفرق بين معدلي المواليد والوفيات من منطقة الى أخرى في البلاد ، فقد يستدعي هذا التفاوت تيارا داخليا للهجرة من المنطقة التي فيها معدل النمو الطبيعي مرتفع الى المنطقة الأخرى . ولما كانت البلاد واحدة يسودها نظام تشريعي وسياسي واحد وتفهمها ثقافة واحدة تقريبا فؤل عامل الثقافة والسياسة والتشريع في هذا المجال عنه في مجال الهجرة الخارجية .

بيد أن ثمة ضربا من الهجرة الداخلية ذامكانة بارزة في المجتمعات . وهو الهجرة الريفية الى المدن . انها تتبع درجة تقدم الصناعة وتفير الثقافة وتبدل نمط المعيشة ، وهذه كلها من خصائص التطور الاجتماعي الحديث في مختلف بقاع الدنيا . ولهذا نعالج هنا على وجه الخصوص هذه الهجرة الريفية ولا سيما أنها تؤلف غالبية الهجرة الداخلية . ونجرب على النسق الذي سلف في الشطر الأنف فنلم بالعوامل الاقتصادية أولا ، والديمغرافية ثانيا ، والثقافية والاجتماعية ثالثا ثم نشير الى اثر العوامل الجغرافية ولا سيما المسافات التي تفصل بين المناطق التي ينتابها تيار الهجرة من جهة الى أخرى .

### ١ - العوامل الاقتصادية :

لا شك أن تيار الهجرة الداخلية يخضع للأثار الاقتصادية كما في الهجرة من دولة الى أخرى . بل يبرز هذا الخضوع أشد وأعمق لان الحواجز التي تحول دون الانتقال من منطقة الى أخرى في الدولة الواحدة هنا ضئيلة وضعيفة من اليسير التغلب عليها ان وجدت . ولتيسير البحث نصنف العوامل الاقتصادية لثلاثة أصناف ١ - نابذة ٢ - جاذبة ٣ - عامة .

**١ - العوامل النابذة -** تتعلق على الغالب بالزراعة ، وتصدر عن نظام التملك للأراضي . فإذا كان في المنطقة ملاكون كبار وعمال زراعيون يكدحون ولا ينالون إلا الزهيد من الأجر أغرتهم الهجرة الى المدن للعمل فيها حيث يكون كسبهم أعلى . على أنه قد تحدث هجرة ريفية في مناطق يملك جزءا كبيرا من الأرض مزارعون صغار . بل قد تحدث أيضا حين تكون الأراضي بأيدي ملاكين صغار مستقلين ، سجلت ذلك بحوث المسح المعدة في هذا الشأن . ويرى بعض الباحثين أن من عوامل الهجرة هذه قوانين الميراث التي تمنع تجزئة الأراضي ، فتحمل الشبان على مغادرة قراهم الى المدينة التماسا للعمل والرزق . على أنه قد تكون تجزئة الأراضي في المقابل اجزاء صغيرة جدا يعجز ربع استثمارها لصفرها عن سد حاجات الأسرة دافعة الى انتجاع المدن .

لقد تحسنت وسائل الزراعة واشتد اعتمادها على الآلات في البلاد المتقدمة ، فقلل ذلك من الحاجة الى الأيدي العاملة في استغلال الأراضي . فمن الطبيعي أن يهاجر الفائض من تلك الأيدي العاملة الى المدن . كانت الزراعة في الماضي وسيلة لدى الزارع للحصول على بلوغ معاشهم وحاجات أسرهم . ولكنها تطورت مع الزمن فأصبحت سبيلا للتجارة والربح . وغدا الزارع المتصل بالأرض يحسب حسابه وينظر في الربح المادي الذي يكسبه من العمل في الأرض واستغلالها . فهو يرتبط بالأرض عن طريق ذلك الربح . فان نقص بعد كل حساب مما يمكن أن يكسبه من المال في المدينة حفزه حب المال على ترك أرضه وإهمالها .

ويرى بعض الباحثين أن النظام الرأسمالي مسؤول عن تلك الهجرة ، لأن من شأنه أن يضعف الطلب على الأيدي العاملة الزراعية ويزيد من طلب الأيدي العاملة الصناعية . وهكذا يتكون فيض من الأيدي العاملة الزراعية في الأرياف تعيش في الضيق والقلّة ، فهي تنزح نحو المدن .

توجد هذه الهجرة في البلاد الاشتراكية . ولكن ظروفها تختلف عما سبق . ذلك أن مردود العمل الزراعي في المزارع الجماعية حكومية أو أهلية يكون عاليا . فالعدد الفائض من الأيدي العاملة يواجه أما نحو أراض جديدة تستغل وتستثمر ، أو نحو مراكز صناعية . ويتم هذا التوجيه المنسق بإشراف الدولة حرصا منها على مصالح رعاياها وتلافيا للآلام أو العنت الذي قد يعترض المهاجرين العفويين .

وليس من الضروري أن تكون المناطق الفقيرة جدا هي التي يركب أبناؤها متون الهجرة الى المدن . فقد يهاجر من المزارعين من غلاتهم مرتفعة نسبيا ولكنهم يأملون في هجرتهم أن يجدوا أحوالا أفضل وانسب لهم مما هم فيه . وقد تكون تلك الآمال أكثر مساورة لنفوس المزارعين أولى الغلال الحسنة منها لنفوس أولئك الذين سد الفقر عليهم نوافذها ومسار بها .

وقد تجري الهجرة بين مناطق ريفية متفاوتة في الخصب والغلال بالبلد نفسه . فتكون الشروط الحسنة المتوافرة للزراعة ذات شأن كبير في اجتذاب الريفيين من مناطقهم التي تضيق بهم ويضيقون بها . ولقد كان هذا الأمر في الأزمنة الحديثة ذا مكانة عالية في تطور بعض البلدان كما سبقنا الإشارة إليه .

**٢ - العوامل الجاذبة .** تتوافر وظائف العمل في المناطق الصناعية ، وتتكاثر أسرع من

أمثالها في المناطق الزراعية . وكلما ارتفع دخل المرء اشتد طلبه للسلع المصنوعة والخدمات المتهية في المدينة . وقد أدى تنظيم الفلات الزراعية الى انتقال مراكز النشاط الاقتصادي التابع لها من القرى الى المدن ، كالتهيئة النهائية لمشتقات الالبان وتحضير اللحوم وحفظها . وهكذا تكثر سبل الموارد الاقتصادية في المدن . ثم أن نمو السكان الطبيعي في المدن أضعف عادة منه في الارياف . وهكذا يتم بطبيعة الامور انجذاب طائفة من الريفيين الى المراكز المدنية ، والى الوظائف غير الزراعية فيها بصرف النظر عن تفاوت الاجور واختلاف مستوى المعيشة .

فكيف اذا انضم الى تلك الامور أن مستوى المعيشة والاجور في المدن أعلى منها في الارياف . بل أن وظائف العمل فيها أكثر انتظاما وربما كانت أشد ثباتا ؟ !

ويذكر بعض الباحثين مثالا على عرض وظائف العمل وأهميتها في اجتذاب الناس حكاية قديمة بعض الشيء وهي مدينة زلين Zlin في تشيكوسلوفاكيا انشيء فيها مصنع للاحذية فلما بدأ المصنع يتسع طففت المدينة الصغيرة التي لم يكن عدد سكانها يزيد سنة ١٩٢٤ على ٤٥٠٠ نسمة تجتذب اليها سكان المزارع المجاورة حتى بلغ عدد سكانها سنة ١٩٣١ ثلاثين الفا .

٣ - **العوامل الاقتصادية العامة** - ظاهرة الهجرة الى المدن او منها مرتبطة بالظروف الاقتصادية ارتباطا وثيقا . فاذا ازدهرت تلك الظروف احتاجت الاماكن الصناعية الى مزيد من الايدي العاملة التي تأتي في الغالب من الريف . فالريف بهذا الاعتبار ذخر الايدي العاملة . واذا ساءت الظروف توقفت الهجرة الريفية او ضعفت وحلت البطالة . بل قد ينقلب تيار الهجرة فيحمل بعض الدين لا عمل لهم في المدينة الى الريف .

الواقع أكثر اشتباكا مما سلف ذكره . ذلك أن تيار الهجرة ذو اتجاهين في وقت واحد . تشتد الهجرة من الريف عند ازدهار الظروف الاقتصادية في المدن ، كما تقدم . ولكن في الوقت نفسه يهاجر من المدن الى الريف بعض قدماء المهاجرين ، يؤوبون الى مساقط رؤوسهم لدى بزوغ النشاط الاقتصادي في تلك القرى ، اولانهم لم يجدوا عملا فأبوا الى اهليهم ، أو هم قد اجمعوا أمرهم على الهجرة نحو مدينة أخرى . يضعف هذا التيار في اتجاهيه حين تحل الازمات ، فلا تتوافر وظائف العمل كما لا يتوافر المال لتأمين السفر . ثم أن بعض الدول تمنح عونا ماليا للذين لا عمل لهم ، فهم يمكنون حيث يقبضون ذلك العون .

ان تكاليف السفر ونوع المواصلات عاملان مهمان في تيسير الهجرة او تعويقها . ولكن الازمنة الحديثة من خصائصها البارزة أن وسائل المواصلات على تفاوتها قد تقدمت تقدما كبيرا من سيارات وقطر تدرع جوانب الارض او بواخر تجوب البحار والانهار أو طائرات كالنسور تجوز الافاق . وكل ذلك من شأنه ان يسر الهجرة بانواعها .

### ب - **العوامل الديمغرافية**

بصرف النظر عن التفاوت في ازدهار الاقتصاد نجد أن العوامل الديمغرافية نفسها لا تعدم أثرا في توجيه تيار الهجرة وذلك بسبب الاختلاف في معدل نمو السكان بين مناطق البلاد .

من المعلوم ان معدل المواليد في الارياف أعلى منه في المدن ، وينجم عن ذلك أن معدل النمو في الأولى أكبر منه في الثانية على الرغم من ان معدل الوفيات في القرى أكبر منه في المدن . هذا ما هو حاصل في الوقت الحاضر . ذلك ان معدل الوفيات قديما ربما كان في القرى أضعف منه في المدن لأمدة قريب . بيد أن الأمر قد انقلب في عقود السنين الثلاثة الأخيرة فأصبح في المدن أقل منه في الارياف لأعمار معينة .

لقد تغيرت أحوال المدن في العصر الحاضر عنها في الغابر . فقد تقدم العمران واتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافق الحياة وجُرئت المياه النقية إلى البيوت وتيسرت التدفئة والتكييف، كما انتشرت النظافة، واشرفت الحكومات على تأمين السلع الضرورية من أغذية وملابس ومسكن ، إلا أنه ما يزال في المدن مجال للتأمين في أحوال المصانع ولهاثاتها الداكن المؤذي ، وفي محروقات مطايا المواصلات كالسيارات والشاحنات وأمثالها ، وما يزال الدخان والضجيج والازدحام يرهق الحياة في المدن . ومع ذلك تتوافر السيطرة فيها على العلل الحادة والأمراض المعدية فمعالجتها الحسنة أسهل منها في الريف .

ثم ان الصحة لا تتعلق بالأجر ولا بالملاطولا بالخدمة الصحية بل تتعلق أيضا بعادات الناس وهي التي تتحكم فيها التربية والدكاء ، وتتعلم بالغذاء وبمستوى المعيشة ، وترتبط بمقدار الدخل ولو أن هذا الارتباط أخذت تخفف منه قوانين تأمين الطب والضمان الاجتماعي .

أرباء معدل الوفيات نسبيا في الريف يعزل بعض الشيء من معدل المواليد المرتفع أيضا فيه ، ولكنه يبقى على ارتفاع معدل النمو السنوي للسكان في القرية بحيث تكون الزيادة أكبر على وجه العموم في الريف . تلك الزيادة لا بد لها من أن تفدى المدن القليلة المواليد نسبيا . هذا ما حصل في مدن أوروبا الصناعية الكبيرة من أمثال باريس ولندن وبروكسل وفيينا وبرلين وغيرها .

ثم هنالك عوامل ديمغرافية أخرى تؤثر في الهجرة الداخلية كالزواج ، بأن يكون الزوجان المتحابان مقيمين في بلدين مختلفين، يذكر الباحثون ان العادات في بعض قرى الهند تفرض على أهل القرية ان يتزوج ابناؤها وبناتها من أهالي قرية أخرى . وبسبب هذه العادات ينجم جزء لا بأس به من الهجرة الداخلية عن عقود الزواج .

هذا وفي المدن الشرقية الكبيرة أكثر المهاجرين إليها من الذكور الشباب على حين تحمل الهجرة من الارياف في شمالي أوروبا كالسويد مثلاً الفتيات اللاتي يضقن ذمعا بريفهن إلى استكهلم وأبسالو وغوتبرغ وأمثالها للعمل فيها إلى حد أن هذه الهجرة الانثوية الداخلية تؤدي إلى أزيمات في زواج الذكور الريفيين الذين بقوا متصلين بأراضيهم الزراعية حيث يفوق عددهم عدد الاناث .

### ج - العوامل الثقافية والاجتماعية

ليست الهجرة الريفية إلى المدن مترتبة على توافر وظائف العمل وحده . بل هي منوطة إلى جانب ذلك باطلاع المهاجرين على ذلك التوافر ووجوهه . فقد تكون قلة اطلاع الناس في منطقة على أحوال منطقة أخرى في بلد متسع حائلة بعض الشيء دون الهجرة . وكذلك تكون:

حائلة دونها شدة الروابط في الأسرة او بين ابناء القرية كلها . بيد انه قد انتشر التعليم وذاغت الثقافة وسهلت المواصلات واشتد اختلاط الناس بين مختلف المناطق في المجتمع الواحد وزاد اطلاع بعضهم على شؤون بعض . وهذا كله مما يبرق تيار الهجرة ويزيده .

ومع ذلك ما تزال توجد في الدولة الواحدة الشاسعة الاطراف عوائق امام الهجرة الداخلية . منها اختلاف العرق وتفاوت اللغة وهما اللذان يفسران بعض التفسير ضعف تيار الهجرة في الهند لتعدد اللغات فيها ونظام الطبقات وتفاوت العادات والثقافات .

وهنا تأتي سياسة الدولة في دعم تيار الهجرة من منطقة الى اخرى او في تعويقه وحجزه .

يكون دعم تيار الهجرة بفتح مكاتب تعطي معلومات عن مجالات العمل في مختلف المناطق ، وباعداد برامج لأنواع التدريب المهني اللازمة للعمل كي يتلاءم العامل المهاجر مع العمل الذي سوف يمارسه .

وقد يكون التشجيع على الهجرة بمنح رقع من الأرض المهمة للمهاجرين كي يستغلوها ، كما حصل سابقا في الولايات المتحدة وكندا وبلاد امريكا اللاتينية وزيلندة الجديدة وغيرها ، او بمنح عون مالي كما حصل في الاتحاد السوفياتي لحمل المزارعين والايدي العاملة المتخصصة على الهجرة الى المدن في شرقي البلاد .

وقد تكون في البلاد مناطق مكتظة بالسكان واخرى متخلخلة بهم . فتعمد الحكومات الى تشجيع الهجرة من الاولى نحو الثانية . لقد نظمت الحكومة الاندونيسية الهجرة فيها من جزيرة جاوة المزدحمة الكثيفة الى الجزر المجاورة القليلة السكان . وشجعت الحكومة اليابانية على الهجرة من الجزر المتوسطة ذات الكثافات العالية الى جزيرة هوكايدو في الشمال . ومع ذلك فلم تنجح مثل هذه المحاولات النجاح الكافي لتخفيف الضغط بالمناطق المزدحمة .

ويكون تعويق الهجرة الريفية دعما للزراعة في الارياف وذلك بادخال الاصلاحات الاقتصادية والزراعية والاجتماعية والصحية والثقافية . فقد توزع فيها الملكيات الكبيرة ويشجع العمران وتقام صناعات متممة للزراعة وتنشط الحياة الثقافية والاجتماعية .

### العوامل الجغرافية

تتناول بعض البحوث علاقة الهجرة الداخلية بالمسافة التي يجتازها المهاجر . ان اختيار المكان وبعد الشقة منوطان بعوامل مختلفة كتوافر المعلومات المفيدة الدقيقة عن ذلك المكان ، وسبل العمل فيه وتشابه الحياة الصناعية في البلد الاصلي وفي البلد المقصود .

على ان ستوفر Stouffer لم يجد علاقة ضرورية بين الانتقال والمسافة وانما وجدها بين بين الانتقال وتوافر سبل العمل ووظائفه . فزعم ان عدد المهاجرين الذين يجوبون مسافة ما متناسب طردا مع وظائف العمل المتوافرة في نهاية الطريق ، وعكسا مع وظائف العمل التي تتهيأ في ابان الطريق . ومع ذلك فان قضية الهجرة اشد اشتباكا من تلك العلاقة المبسطة . وسنعود الى تأمل رأيه في صدد قياس حركة الهجرة .

هذا وان الحواجز الطبيعية تؤلف حائلا يقف امام سهولة الهجرة الداخلية في البلاد الواحدة كما هو حاصل في سويسرة وفي النرويج . فربما كانت التضاريس الجبلية قد قللت بعض الشيء من شدة اتساع عمران مدنها .

وفي مقابل ذلك قد يكون لكبر الدولة واختلاف مرافق الحياة فيها وتعدد تلك المرافق شأن في زيادة تيار الهجرة .

واذا تمعنا في هذا الامر تفهمنا بالقياس الى الهجرة الداخلية حركة الهجرة من دولة صغيرة قليلة المرافق الى دولة كبيرة متعددة المرافق .

وقد يكون للمناخ العديء الجيد اثر عميق . وقد قيل ان لطف مناخ كاليفورنيا كان أشد جذبا للمهاجرين من يريق الذهب .

• • •

### القسم الثاني

#### الآثار الاقتصادية للهجرة

١ - لما كانت الهجرة تحمل الفئات الفتية المنتجة لزم ان تغيّر نسبة عدد المنتجين الى العيال . ولذلك كانت ذات مكانة في ميزان النفقات التي تقتضيها اعاشة العيال من شيوخ وأطفال . فاذا كان الشعب الذي يتلقى الهجرة هرما بالمعنى الديمغرافي ( اى قليل المواليد ) نجم عن تلك الهجرة تخفيف اعباء العيلة . وقد يكون للدولة المهاجر اليها سياسة في الحث على الزواج والانسال فتزيد كثرة المواليد في البداية اعباء العيلة ولذلك تكون هجرة الشبان من العاملين الى البلاد مرحباً بها اذ تخفف تلك الاعباء .

ان هجرة العناصر الفتية من الناس هجرة عمل منتج ، ولكن هذا العمل المنتج يحمل في اطوائه المبالغ التي قدمتها البلاد الاصلية لتنشئة تلك العناصر وتربيتها واعادها طوال مدة الفتوة والشباب ، كما يحمل ريعها وثمراتها . كل ذلك يقدم هدية الى البلاد المقصودة في قوى أولئك العاملين الجسدية والفكرية . وهكذا يستبين كيف ان تيارات الهجرة التي حملت الالوف المؤلفة من الاوروبيين ومن سكان الشرق الاوسط الى امريكا وفرت على امريكا نفسها تلك النفقات الكبيرة التي يقتضيها ذلك الاعداد وتلك التربية والتنشئة . فحملت في اشخاص المهاجرين اليها ثراء كبيراً وريعاً متاعظاً . ومن الصعب حساب مقدار ذلك الريع والثراء . وقد أجرى مثل ذلك الحساب الذي يتتبع تكاليف الانسان منذ ولادته الى ان يبلغ سن العمل والهجرة ولكن الأرقام ليست الا تقريبية ، اذ كانت تختلف وسائل التربية والتنشئة والاعداد باختلاف الاشخاص والمجتمعات وبتفاوت الأعمال والاختصاصات .

تذهب تلك المبالغ هدرًا اذن بالنسبة للبلاد التي يهاجر منها المهاجرون ، وكأن هؤلاء يتهاربون مما هم مدينون به لمجتمعهم الاصيل . ولما كان جلهم او كلهم من الشبان كما ذكرنا كانوا يخلفون

وراءهم طائفة كبيرة من الشيوخ والعجزة والأطفال الصغار أى يريدون أعباء العيلة فى ذلك المجتمع الذى غادروه . على أنه قد يمتد المهاجرون أهلكهم بالمال حيناً بعد حين ، فيتلافون بذلك تلك الأعباء أو يؤوبون بشرواتهم بعد تجميعها الى أوطانهم الأولى .

ب - يرى باحثون أن هجرة أدوات الإنتاج تفضي الى تعادل أسعارها في مختلف البلاد . فإذا كانت الأيدي العاملة رخيصة ومزدحمة في مكان وهاجرت الى مكان آخر هي فيه قليلة وغالية ، أدى ذلك الى انخفاض أجورها في الأماكن المقصودة وارتفاعها في الأماكن الأصلية حتى ينتهي الأمر الى درجة التعادل .

يصح هذا الرأي حين تنافس اليد العاملة المهاجرة اليد العاملة الوطنية في أسواق العمل . ولكن هذه المنافسة أصبحت ضيقة المجال نادرة الوقوع بسبب التشريعات التي تحث من الهجرة وتحمي اليد العاملة الوطنية . وبسبب عدم اختصاص المهاجر أحياناً وقلة اطلاعه على شروط العمل في البلاد المتقدمة صناعياً فقد يقع التنافس في الأعمال التي لا اختصاص فيها ، وعندئذ يستغل أرباب العمل جهود المهاجر حيث يعمل فيحمي أبناء البلد أسباب العنت والمشقة . ومع ذلك فقد يؤدي انخفاض الأجور في المجالات غير الاختصاصية الى انخفاضها في مجال الاختصاص .

على أن ذلك الانخفاض لا يقع حين تكون اليد العاملة المهاجرة مقيمة لليد العاملة الوطنية داعمة لها مكتملة أباهاً في بلاد تنشأ فيها مشروعات واسعة جديدة تزيد في الإنتاج الوطني وتوسع الموارد الاقتصادية ، فترفع بالتالي مستوى الأجور وذلك كما حدث في الهجرة الى الولايات المتحدة سابقاً . فانه لما زاد عرض اليد العاملة غير الاختصاصية أبان الهجرة إليها تفتحت آفاق جديدة للعمل أدت الى رفع مستوى الحياة ورفع الأجور معه .

أن التنسيق بين الأجور وأسعار السلع المصنوعة يحتاج لبعض الوقت ، ولهذا كان انتظام الهجرة يسمح بأمثال ذلك التنسيق وتكون الأجور أقل تعرضاً للاضطراب مما لو جرت الهجرة بدفقات مفاجئة غير متوقعة . على أن نقابات العمال في البلاد المتقدمة تشرف على مستوى الأجور وتحول دون انخفاضه .

والتحليل نفسه ينطبق على الأجور في البلد الأصلي الذي تصدر عنه الهجرة . نعم هنا يكون التأثير مباشراً فالعامل لا يجهل شروط العمل وهو لا يصطدم بتشريع يحدد له مقامه . ربما يسبق الى الوهم أن الأجور ترتفع لنقص اليد العاملة ولكن ذلك لا يحدث دائماً . فقد تكون الهجرة حائلة دون نشوء مشروعات جديدة فلا تزيد الموارد الاقتصادية ولا يرتفع مستوى الحياة .

ج - هذا وغالباً ما يظن أن الهجرة الى البلد تعرض طائفة من سكانه لخطر البطالة وأن الهجرة منه تقلل ذلك الخطر .

ربما كان هذا التخوف سبباً في تحديد نطاق الهجرة ببعض البلاد أيام الأزمات عند حلول البطالة فيها ، كما كان سبباً في حمل بعض البلاد على تشجيع الهجرة منها . بيد أن دراسات جديدة انتهت الى نتائج مغايرة . لذلك لظن .



## الهجرات وحركات السكان

يأتي المهاجرون من ميسادين مُعيَّنة . ويقعون بمناطق مُعيَّنة أيضا ، فلا ينافسون مباشرة اليد العاملة الوطنية . وربما دخلوا في مشروعات جديدة فسدَّوا الحاجات المطلوبة في بعض الصناعات وزادوا النشاط الاقتصادي . وربما أدى النزوح في المقابل من بعض ميسادين العمل في البلاد الأصلية الى ضيق وعسر ينتهيان الى البطالة وشح الموارد .

ثم ان المهاجرين مستهلكون ايضا زيادة على كونهم منتجين ، فهم يحتاجون الى سلع الاستهلاك المختلفة من مساكن واثاث وملابس وأطعمة وغيرها ، فهجرتهم تزيد الطلب على امثال تلك السلع .

واذا ضم المهاجرون بينهم ممثلين لشتى انواع العمل فلا يلزم من هجرتهم حلول البطالة في البلد التي يهاجرون اليها .

لا يزاحم الأطباء والحلاقون احدا على حد تعبير « ألفرد سوفي » ، لأن المهاجرين انفسهم بحاجة الى حلاقين وإلى خدمات طبية متنوعة .

وينطبق التحليل نفسه على احوال البلد الأصلي الذي تصدر عنه الهجرة . ومعنى ذلك ان عواقب الهجرة في هذا المجال ليست بسيطة ، وانما تتداخل هي وشؤون أخرى بحيث تكون احتمالية .

- ان البطالة في التحليل الماركسي عاقبة لامندوحة منها لتراكم رؤوس المال في المجتمعات الرأسمالية . ويمكن خفض البطالة بتشجيع الهجرة من البلاد عندئذ . ذلك ان الرأسمالية قد اتسعت في النصف الاول من القرن التاسع عشر اتساعا سريعا ، وكانت الهجرة من اوروبا ضئيلة فانتشرت البطالة وحلَّ الشقاء بين افراد الطبقة لكادحة في اوروبا الغربية . ولما اشتدت الهجرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتمست الدول الغربية لها اسواقا جديدة في مستعمراتها كان ذلك علاجا غير مباشر للبطالة وللضيق عندها . ثم بدأت الهجرة من جنوبي اوروبا وشرقيها ولكنها لم تكن كافية لكي تعدل آثار تراكم رؤوس الاموال . ولما حلَّ القرن العشرون اشتد تكدس رؤوس الاموال في اوروبا وتجاوزا مكان التنسيق بين البطالة واستغلال اسواق المستعمرات الكثيرة على الرغم من تدفق تيار الهجرة فكثرت البطالة وتدنَّت الأجور . ويقدر بعض الباحثين عدد العمال المهاجرين من اوروبا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩١٠ بخمسين الى ستين مليون عامل . يدخل في هذا العدد الابناء المنحدرون من المهاجرين انفسهم . فلو لم تتدفق تلك الهجرة الى خارج اوروبا لكانت البطالة المزمنة التي ستستحكم بين اولئك العمال حافزا على اندلاع الثورات في بلادهم .

وايا كان الامر فان الرويَّة تقتضي تأمل سياق الهجرة ، وتستدعي تبين مختلف العوامل المرافقة لها في البلاد التي تمسها ، وتستلزم استبانة غزارتها وطول أمدها وآثارها القريبة والبعيدة .

هذا ولا بد في صدد بحث الآثار الاقتصادية من الاشارة الى الاموال التي يأخذها المهاجر او يهربها الى مكان هجرته الجديد خوفا عليها من ان تمسها يد التأميم . وكذلك لا يفوتنا التلويح

بالمبالغ التي يدخرها المهاجر في بلد هجرته ويرسلها إلى أهليه وذويه كما سلف أو يرجع بها عند أوبته النهائية . والمهم هنا حسن التصرف بتلك الأموال وتثميرها في كلا الجانبين ، وكذلك حسن تلافي خروجها أو دخولها . فلكل امر جانب سلبي وآخر إيجابي .

ولا شك أن هذه المواقب الاقتصادية ملتزمة بالآثار الديمغرافية .

### الآثار الديمغرافية

سبق أن معنا بأن ارتفاع معدل النمو الطبيعي للسكان في قطر يحفز على الهجرة منه ، وأن انخفاضه يشجع على الهجرة إليه . في المقابل تستطيع الهجرة نفسها أن تكون مؤثرة في معدل النمو الطبيعي على التفصيل الآتي :

أو بقي الناس في امكنتهم الأصلية لتصعب عليهم حسن استغلال الموارد الطبيعية في العالم ، كما يتصعب عليهم أن يفسحوا في مجال العيش لأفواج جديدة ما تفتأ تفتد إلى العالم في قُمط المواليد . لقد ساعدت هجرة الناس إلى أماكن قليلة السكان كما حصل في أمريكا وكما يحصل في سيبيريا على إقامة التوازن بعض الشيء بين عدد الناس والموارد المتوفرة . من وجهة النظر هذه يمكن القول أن الهجرة دعمت زيادة النمو الطبيعي للسكان في العالم على فترات طويلة وإلى مدى بعيد، وأنه لولاها لامتنع على ذلك المعدل أن يزيد .

أما معدل نمو السكان الطبيعي في الأماكن المقصودة أو في الأماكن الأصلية فمن الصعب إيضاح علاقات عامة حتمية لآثار الهجرة فيه . تلك الآثار متعلقة بصفات الهجرة هل هي نهائية أو طويلة الأمد ، وبأعمار المهاجرين وجنسهم من ذكور وإناث ، وبمعدلي المواليد والوفيات في تلك الأماكن المقصودة ، وبخصب السكان المحليين ووفياتهم ، كما يمكن استشفاف تلك الآثار أيضا في سكان الأوطان الأصلية التي صدرت الهجرة منها .

**الهجرة إلى البلاد وأثرها في نمو السكان** - يرى بعض الباحثين أن الهجرة إلى البلاد لا تؤثر في زيادة سكانها إلا إذا حملت معها تنظيما اقتصاديا جديدا ناجعا أو غيرت نمط استهلاك السلع بينهم . ومن الواضح أن هذه النظرة تعزى إلى نظرية مالتوس في السكان .

ويرى آخرون أن تلك الهجرة قد يكون لها أثر ولكنه غير مباشر في معدل نمو السكان ، وأن أثرها هذا قد يكون خفض ذلك المعدل حين تزيد في عمران المدن وفي تقدم الصناعة وتحسين مستوى المعيشة وتبديل نمط السلوك من الوجهة النفسية . وإذا أقام المهاجرون بالمدن كان مقامهم عائقا لهجرة الريفيين من أهل البلاد إلى تلك المدن فيحافظ الريفيون على معدل نموهم الطبيعي . وهكذا نجد أن الأمور احتمالية ، وليس من التبصر في شيء أقحام علاقة حتمية ثابتة في هذا الشأن .

إذا اغفلنا السكان الأصليين في المكان الذي وصل إليه المهاجرون فإن زيادة سكان هذا المكان بالمهاجرين أنفسهم تابعة لآمد الهجرة ، فإن كانت الهجرة نهائية واستمر مقامهم بالمكان ربوا وازدادوا ازديادا كبيرا أول الأمر وذلك بسبب تركيبهم الفتي ، فإن أكثرهم من الشباب ومعدل الوفيات بينهم ضئيل . بيد أن هذا الازدياد الشديد لا يلبث أن يتمهل إلا إذا استمرت الهجرة . فإن

توقفت أو ضوّلت لم يلبث عامل الزمن أن يغير تركيبهم العمري ، ويوجهه نحو الشيخوخة والهرم فينقص عندئذ معدل المواليد بينهم ويرتفع معدل الوفيات .

ويلاحظ في الهجرة الخارجية أرباء الذكور في العدد على الإناث وهذا يفضي الى ارتفاع نسبة الزواج بين النساء المهاجرات ، وإلى التبكير فيه فيرتفع معدل الخصب بينهن أيضا . ولكن ربما يتمهل الازدياد بعض الشيء أن بقي جزء من الذكور عزابا . وقد يختلطون بالسكان الأصليين ويتزوجون من نسائهم فيكون ذلك عاملا في زيادة السكان .

أن المهاجرين في الغالب يأتون كما سبق من بلاد معدل المواليد فيها عال فيبقى هذا المعدل بينهم في مقامهم الجديد عاليا أيضا . ولكنهم بالتدريج قد يكتسبون عادات البلد الجديد ويتجهون نحو الانصهار فيه اتجاهها سريعا أو بطيئا بحسب الظروف . وقد يكون البلد الجديد صناعيا فيحملهم طراز الحياة فيه على تنظيم أسرهم ، وضبط نسلهم . ولكن هذا الضبط لا يكاد يتم الا بعد جيل أو جيلين .

ويرى هلفاكس وهو عالم اجتماعي من مدرسة دوكايم الفرنسية أن العامل المرفولوجي ذو اثر بليغ في زيادة النسل أو قلته ، وأن الناس في هجرتهم نحو مناطق قليلة السكان يريد نسلهم بصورة عامة . وبالمقابل اذا وصلوا الى مناطق غاصّة لا بد أن يحدثوا من ذريتهم كما يفعل المرء في الزحام حين يلثم من ذاته . وكل ذلك يأتي بصورة غير مباشرة عن طريق التأثير بنفقات المعيشة وأنماط التفكير والسلوك المشترك .

**الهجرة من البلاد واثرها** - لقد ألمنا بعض الشيء بأثر الهجرة في معدل نمو السكان للبلد المقصود فما هو اثرها في ذلك المعدل نفسه للبلد الأصلي الذي انطلقت منه الهجرة ؟ هنا أيضا يصعب الوصول الى علاقة حتمية جازمة . ذلك أن بعض الباحثين يرون أن هذه الهجرة حين تخفض الضغط الديمغرافي في البلد الأصلي وتنقص عدد بعض الافواج فانها على المدى الطويل تنشيط الزواج فيه وتدعم خصب الانسان وتزيد العاقبة معدل النمو . ويرون أن أوروبا انما ازدادت ذلك الازدياد السريع إبان القرن التاسع عشر بعد هجرة طائفة كبيرة منه . نستطيع أن نتفهم هذا الرأي حين نشبه المجتمع بالجسد . فكما ينشط الجسم بالتعويض حين يؤخذ جزء ضئيل من دمه كذلك يتكاثر الناس ويرب المجتمع حين تهاجر طائفة منه . ويرى الباحث الإيطالي كورادو جيني أنه قد يصح ذلك في بعض البلاد ولكنه لا يصح في أخرى .

هذا الادعاء يرفضه آخرون حين يزعمون أن أوروبا يكون عدد سكانها اكبر بكثير لو لم يمسسها تيار الهجرة إذ كان يزداد سكانها ثمانية وثمانين مليونا فوق ما ازدادوا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩١٠ لولا اجتياح ذلك التيار لها .

هذان الموقفان المتعارضان محتملان بالنظر الى سياق صروف الهجرة . فالهجرة من البلاد قد تخفض الضغط الديمغرافي فيها وتحفز على النشاط كما سلف بالتبكير في الزواج وبالترغيب في الذرية وبخفض وفيات الرضع ، أو قد تففعائقا إذ يكون المهاجرون من البلاد على الغالب شبانا فتدخل الهجرة خلافا في توازن فئات الأعمار بين الذكور والإناث ويرتفع معدل الوفيات ، لأن

وفيات المهاجرين الشباب أقل من وفيات المقيمين . وربما نقص بسبب الهجرة معدل المواليد في البلاد أيضا .

وهكذا يختلف النظر الى آثار الهجرة من البلاد هل تستطيع ان تخفض حقا مقدار الضغط الديمغرافي الحاصل بكثرة المواليد ؟ لقد تبين للباحثين ان هذا الخفض اسهل سبيلا واقرب مآتي حين يحصل عن طريق التصنيع ورفع مستوى المعيشة وتحسين وسائل الزراعة وزيادة الوعي والثقافة خصوصا في بلاد العالم الثالث ، وان الهجرة ليست الا بسما وقتيا لذلك الضغط يهدىء ولكنه ليس بالعلاج الناجع .

هذا وعند اعتبار الهجرة الداخلية نوهت نظريات عرقية كآراء هانسن في المانيا أواخر القرن القرن التاسع عشر بأهمية العرق الصافي المغامر الكثير التوالد في الأرياف وهو الذى يمد المدن بفيض من ابنائه الأشاوس المقادير ، ولكنهم يختلطون بغيرهم في المدن ويتأثرون بعادات هجينة وتنقص بذلك مواليدهم وينضب بالتدريج ذلك المعين الثر المتحدر من الأرياف الذى هو ذخر المجتمع ومصدر حضارته الخلاقة . وقد تبنت تلك الآراء على العموم ، ولكن الباحثين مع ذلك يرون ان معدل المواليد العام في البلاد لا بد من ان يتناقص بوجه عام بسبب تيار الهجرة الريفية التي تحمل الشباب الى المدن وتغير من عاداتهم الديمغرافية فيها ، كما تترك فراغا ديمغرافيا بالأرياف وراء تلك الفئات المهاجرة .

ومهما يكن من أمر هذه البحوث المتعارضة فان عددا من الأمم كاليابان مثلا اجتاحتها تيار الهجرة الريفية وزاد سكانها على الرغم من ذلك حتى وقت قريب .

هذه الآثار كلها وثيقة الصلات بالأمور الثقافية والاجتماعية .

### الآثار الاجتماعية

ليس المهاجرون منتجين ومستهلكين فقط، وانما هم أيضا اناس هاجروا بعاداتهم ولغاتهم وأفكارهم ونحلهم الدينية وآرائهم السياسية ونوازعهم الشخصية وماضيهم السحيق وآمالهم المجنحة ، فلا بد من التوفيق بين ذلك ومقتضيات مجتمعهم الجديد . وهو عملية قد يطول امدها او يقصر ، يتم بنجاح او يخفق . وذلك متوقف على تدابير السلطات المسؤولة عنهم في مكان الوصول وعلى البيئة الانسانية التي ينزلون بين ظهرانيها .

عناصر الانسجام والتلاؤم متعددة لا بد من الإشارة الى بعضها .

قد يقع تنافس اقتصادى بين المهاجرين واهالي المنطقة فينبج من حذر وكراهية عميقان، والا فالحياة سهلة والوفاق غير عسير .

وربما يتمطل المهاجر عن العمل او يصيبه المرض فيبيت عبثا على الدولة المضيفة . فاذا منحت الدولة الصناعية المهاجرين حقوق رعاياها من التأمين على المرض والبطالة سهلت عليهم الاندماج ودرت عنهم اشباح البؤس وما يجره من عواقب وخيمة واعباء ثقيلة على المجتمع نفسه .

على انه قد تختلف العادات والتقاليد واللغة فيتصعب الاندماج وتكثر مشكلات تنم على الشذوذ المدني وتشرف عن النشوز الاجتماعي . والزواج المختلط بؤرة شقاق ونزاع في بعض الاحيان .

وبدلل المهاجرون جهودا نفسية للمواءمة ، فان لم تنجح ظهرت عنها اضطرابات عقلية متفاوتة ولا سيما بين ابناءهم ، لان الآباء يعيشون في اجواء نفسية شبه منعزلة بسبب العادات المتأصلة لديهم . ولكن ابناءهم يمزقهم التفاوت بين عادات اهليهم وعادات اترابهم في المجتمع الجديد ، بين الاسرة وجو المدرسة ، بين الطباع الموروثة والتطبع المكتسب .

قد يتجمع المهاجرون من الشعب الواحد في بلد الهجرة ويحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم فيؤلفون ما يدعى بالجالية وظهور امثال هذه الجالية يثير مشكلة التعايش بينها وبين السكان الاصليين . وقد يتجه هذا التعايش نحو الانصهار بين الطوائف بحيث يؤثر بعضها في بعض ويفقد كل منها بعض خصائصه ، او نحو الاندماج بحيث يزول بعضها ويدوب في البعض الآخر ، او هي تحافظ على التفرقة العنصرية بحيث تقيم هي من عاداتها وقوانينها ونظمها حواجز فاصلة .

هذا وربما كان من المناسب ان نذكر هنا بعض الامثلة على النشوز الاجتماعي والاضطراب النفسي اللذين يتعرض لهما المهاجرون .

ان المسح الذي جرى على البولونيين في فرنسا كشف عن ان الدين اجرموا منهم وظهرت عليهم اعراض الاختلال العقلي كانوا عمالا زراعيين يعيشون في مزارع نائية معزولة لا سبيل لهم الى الاتصال بالناس .

لقد جرت محاولات لوصف مغبات الهجرة على شخصيات المهاجرين وعلى تكيفهم النفسي وعلاقة ذلك بالامراض العقلية . ف لوحظ ان اعلى نسبة للمرض العقلي موجودة عند المهاجرين الذين وقعوا في ضروب من الصراع الدائي ابان تلاؤمهم مع ثقافة اجنبية جديدة . وقديما رأى ابقرات ان المبعدين عن اوطانهم الاصلية تساورهم نوازع من الاضطراب شديدة . ولقد جاء في الشعر العربي :

وارحمتا للغريب في البلد الناء      زح ماذا بنفسه صنعنا  
ضيئ اخوانه فما انتفعوا      بالعيش من بعده ولا انتفعنا

يدل مضمون هذين البيتين على حالة الضياع والقلق والحزن التي تخامر نفس المهاجر البعيد . وقد وضع هوفر Hofer عام ١٩٨٥ لفظة النوستالجيا اي الحنين لتدل على حال المهاجرين الذين تلوح عليهم امارات التفكير الدائم في اوطانهم ومعها سمات الحزن والارق والزهد في الطعام والضعف والقلق وخفوق القلب والدھول وكتمان المشاعر . ولكن قد تنطوي الموازنة بين المهاجرين وسكان البلاد الاصلية على مزالق خفية . ذلك ان المهاجرين الذين استجابوا لتيار الهجرة قد اصطفاهم هذا التيار اصطفاء شديدا وهم لذلك يشتركون في صفات خاصة تؤثر في نسبة المرض الذي قد يصيبهم .

لقد ساق مثلا تيار الهجرة الماضي الى ماوراء البحار الشبان الذكور من افقر الطبقات الاجتماعية في اوربوا وفي غيرها ، كما ساق فئات أخرى من مختلف الاعمار ذكورا واناثا ، فلا تجوز عندئذ المقايضة بين اولئك المهاجرين جملة وبين السكان الاصليين المضيفين . لا بد عندئذ من الانتباه لبعض العوامل كتأثير قوانين الهجرة الاصطفائية وتأثير السن او الجنس للتعرض للأمراض . ان بعض الذين هاجروا هم اناس يحبون التنقل ويكرهون الاستقرار ، وربما كانوا مهئين بذلك لمرض انفصام الشخصية . فكانهم اصطفوا انفسهم لركوب متن الهجرة . لقد كان هذا الاصطفاء الذاتي التفسير المفضل في ارتفاع معدل المصابين بالفصام بين النرويجيين الذكور الذين هاجروا الى مينيسوتا . واثبتت الكشوف السريرية أن الهجرة قد تصيب صاحبها بمرض البارانويا . يمكن ان نسمي صاحبها باللغة العربية البرشاع او الفجفاج . ويعالج هذا المرض باعادة المصاب الى الوطن الذي تركه والى الثقافة التي اعتادها وعاش في جوها ولاءمت ميوله ونواذعه .

والطريف في البحوث التي اجريت على المهاجرين عند اضطرابهم انها اظهرت الاوضاع الاجتماعية لمريضهم من خلال ضروب هذيانهم . فلقد أبرز مرضى الفصام في الولايات المتحدة بين الذكور المنحدرين من اصل ايرلندي او اصل ايطالي مجموعة من الاعراض المتناقضة تتعلق تعلقا ظاهرا بثقافتهم الاصلية . يكابد الايرلندي الادمان على السكر ، كما يستحوذ عليه الاهتمام بالاثم والجرم فيغدو رهن الهذيان المستمر . ويجنح الايطالي نحو الشذوذ الجنسي ( الجنسية المثلية ) ويضطرب سلوكه ويبرز عداؤه للسلطة . هذه الفروق تعزى الى تأثير محيطهم الاجتماعي والثقافي . وقد جرت دراسة مشابهة على الايرلنديين والايطاليين مكنت الباحثين من توقع طائفة من ردود افعالهم . الاسر الايرلندية تسيطر فيها الامهات ، والآباء ظلال لا شأن لها ، والاولاد اطفال واعباء ابدا قلقون مكبوتون جنسيا ، لهم مواهب الخيال لا العمل . ويسيطر في الاسر الايطالية الآباء ويطلقون لابنائهم حرية التعبير عن الانفعال والامتداء ( الجسدي ) والقضايا الجنسية .

واذا التقت مجتمعات على غاية من التعارض في العرق والثقافة كما كان الامر عندما استوطن الاوروبيون في افريقية نشأت ضروب من الصراع الاجتماعي والسياسي تنغص حقا حياة الناس وتؤدي الى اضطراب الهيئات الاجتماعية اضطرابا جزئيا او كليا . وامثال ظاهرة الماوماو في كينيا وتقديس البضائع المشحونة في غينية الجديدة والحركات الوطنية الافريقية واعمال العنف العرقي في المجتمعات المختلفة ، كذلك الجرائم الفردية بين الاطراف المتقاتلة المتقابلة في جنوب افريقية ، كل تلك الظواهر يمكن ان تعتبر ضروبا شتى للصراع الاجتماعي والثقافي والسياسي .

ذلك ان بعض انواع الهجرة ضرب من الغزو المستعمر بل قد رافقت الحملات العسكرية فعلا . ولا شك ان الاستعمار الغربي كان آفة كبيرة على كثير من الاقوام في مختلف نواحي الارض . وايا كان الامر فان ثمة من الدراسات الواسعة التي تدخل في هذا النطاق ما يكاد يتجاوز الحصر .

### آثار الهجرة الداخلية

هذا وان آثار الهجرة الداخلية تشبه في مختلف المجالات آثار الهجرة الدولية . وبشيء من التأمل يمكن عرض آثار الهجرة الداخلية على غرار آثار الهجرة الدولية في المجال الاقتصادي والديمقراطي والاجتماعي ، مع بعض الفروق في التنظيم والاستمرار والتوجيه .

ان المدن تنمو كما سبق بالهجرة الريفية اليها . واذا لم تنظم تلك الهجرة اشتد الازدحام في المناطق الفقيرة وتجاوز أمر تخطيط المساكن في الضواحي طاقة الحكومة . وقد تتصدع الاسر ويتشرد الاطفال وتستشرى الجنح والجرائم وتضطرب الاخلاق وتشتد العلل . ولكن هنالك تطورا عاما في العادات يجرى في مختلف المناطق قريبه او بعيدة ، دانيه او قاصيه . ويريد اشراف الحكومات في الوقت الحاضر على مختلف مرافق الحياة العامة والخاصة .

ان الهجرة الريفية في العصر الحاضر هي التي جعلت المدن تتكاثر وسكانها يزدادون ذلك الازدياد المتعظم العملاق الى الحد الذي نجده اليوم . كان الريفيون قديما اكثر من المدنيين بوجه العموم . واليوم انقلب الميزان في البلاد الصناعية بسبب التطور الاقتصادي فأصبح مجموع سكان المدن اعلى بكثير من مجموع سكان الارياف . وبهذا الاتساع الكبير تغيرت حياة الانسان نفسها في المجال الاجتماعي والنفسي والتمويني . لقد قل شأن الجماعات الاولى كالاسرة الكبيرة والعشيرة والطائفة وامثالها مما كان يؤلف اطارا يحف بالمرء من كل جانب ويمسكه في معتزل الحياة ويربطه بمحيطه الانساني وبمدينته . تفرقت تلك الجماعات وانتشرت في غمار الحياة وغدا المرء كائنا منغفلا بين سيول الجماهير الفقيرة يشعر بوحدته ولا يرتبط الا بعمله ووظيفته ، وحلت العلاقات المالية محل العلاقات الودية الشخصية وصار الانتاج والاستهلاك هما المولتين الهامتين في كيان المدينة الكبيرة المتسعة .

ان التاريخ لا يرجع الى الوراء واشكال الحياة المتمهلة لن تعود . وهذا الوضع الحاضر انما هو عاقبة التطور الاقتصادي العميق . والمهم الآن هو اسباغ مزايا القلب والروح في اجواء المدن بالاضافة الى حسن التخطيط والتنظيم العقليين .

على ان الاتساع الكبير في عدد السكان المدنيين جعل الحكومات في بعض البلدان تتخذ التدابير المناسبة لتقوية تيار الهجرة الى الارياف ولا شك ان وسائل المواصلات اليسيرة وجمال الريف وادخال بعض الصناعات فيه يدعم ذلك ، كما ان شيوع الهاتف والراديو والتلفزيون يقلل العزلة فيه ويزيد من الاتصال بالمدن اى زيادة .

لقد اسهنا في بيان اسباب الهجرة الخارجية والداخلية وآثارهما ما اتسع لنا مجال القول ، وذلك في توازن شديد بين الاسباب والامثار وفي تشابه كبير بين هاتين الهجرتين . وقد آن لنا ان نعرض طرق قياس الهجرة وتخمين عناصرها .

• • •

### القسم الثالث

#### قياس الهجرة وتخمين مقاديرها

يعتمد العلم على القياس الى درجة أنه قيل في تعريفه أنه قياس المقادير . ذلك أن الظواهر اذا تلامحت بشكلها الكيفي بقيت غامضة وداخلها نصيب من الابهام . ومتى انقلبت بالقياس الى مقادير كمية ازداد وضوحها واشتدت دقتها وانجلت جوانبها العلمية . والهجرة كبقية الظواهر الديمغرافية تحتاج الى أن يتناولها القياس وتفتقر الى أن تعبر عنها الأرقام . وثمة طرق متعددة لقياسها أصبحت متعارفة يسهل عرضها . ولكن لما كانت الهجرة مشتبكة العوامل ، متفاوتة المعلومات في الدقة ، لزم الانتباه لذلك عند كل تطبيق ولدى اجراء كل حساب احصائي في هذا الشأن . ونحن نعرض هنا أشمل هذه الطرق وأخصها بالتعليم .

#### القياس المباشر -

يتيسر هذا القياس حين يتيسر تسجيل حركة الهجرة كما تجرى في الواقع . واذا تمت الهجرة بالبحر او الجو من دولة الى دولة يصح الاعتماد على كشوف المسافرين في الباخرة او الطائرة لمعرفة نوع انتقالهم ، وذلك عند الاقلاع او الارساء . ولكن اذا كانت الحدود بين الدولتين برية غدا الاحصاء اقل دقة ما لم تتخذ التدابير لتمييز المهاجرين من السياح الذين لم يغيروا محل اقامتهم ولضبط حركة المرور على الحدود . وبوجه عام تؤخذ المعلومات في مراكز الهجرة عن خصائص المهاجرين الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والقومية حين يهاجرون من دولة الى أخرى ثم تجمع وتصنف وتبوب وتعد وصالحة للاستفادة . وقد يعتمد في احصاء الهجرة على جوازات السفر أو سمات الدخول أو تصريحات الإقامة أو تصريحات العمل . فهي كلها تبرز هجرة الأجانب . أما في شأن الهجرة الداخلية فان بيانات تغيير محل الإقامة ، والجوابات عن بعض السؤالات المطروحة في التعداد وسجلات الأحوال المدنية وسجلات المعاهد العلمية وغيرها تشف عن هذه الهجرة .

فمجموع القادمين الى البلاد والنازحين منها يدعى حجم الهجرة كما سلف ، وينسب الى متوسط عدد السكان في السنة أو في خلال فترة زمنية مسمّاة فيحصل معدل حجم الهجرة . وهو يقيس حركة الهجرة الخارجية التي تحدث من البلاد الى خارجها والعكس ، فيظهر هذا القياس مدى نشاط تلك الحركة .

والفرق ما بين القادمين والنازحين والداخلين والخارجين يدعى « صافي الهجرة » أو « ميزان الهجرة » . وهو فيض الهجرة اذا اربى عدد المهاجرين الى البلد و « غيظ الهجرة » ان نقص . وينسب صافي الهجرة الى عدد السكان في منتصف السنة فيحصل معدل صافي الهجرة أو معدل فيض الهجرة أو معدل غيظ الهجرة بحسب الاعتبارات .



ويمكن أن ننسب النازحين الى متوسط عدد السكان خلال السنة فذلك معدل النزوح أو معدل الهجرة من البلاد ، أو ننسب القادمين اليه فذلك معدل القدوم أو معدل الهجرة الى البلاد . وهكذا يتحصل معنا أربع علاقات بسيطة متميزة :

$$\text{معدل حجم الهجرة} = \frac{ق + ن}{ك} \times ثا \quad (١)$$

$$\text{معدل صافي الهجرة} = \frac{ق - ن}{ك} \times ثا \quad (٢)$$

$$\text{معدل النزوح} = \frac{ن}{ك} \times ثا \quad (٣)$$

$$\text{معدل القدوم} = \frac{ق}{ك} \times ثا \quad (٤)$$

... (ق) عدد القادمين ، (ن) عدد النازحين ، (ك) متوسط عدد السكان في السنة (ثا) عدد ثابت يعتبر في الغالب مائة أو ألفا .

ان الهجرة الى المجتمع بمثابة المولودية ، فهي تزيد في السكان ، والهجرة منه بمثابة الوفاة فهي تنقص السكان ، وان كان البون كبيرا جدا وشاسعا بين الوفاة والهجرة من الوجهة الفردية ومن الوجهة الانسانية ، اطل الله اعمار المهاجرين ورد غريبتهم . ولكن النظرة الديمغرافية على الاغلب حسائية . ثم ان معدل صافي الهجرة يشبه الى حد ما معدل النمو الطبيعي الذي هو الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات .

على انه يمكن أن نلاحظ ما يلي :

١ - معدل المواليد ومعدل الوفيات يتعلقان بمجتمع ما . بيد ان معدل الهجرة الى البلد يقرب طائفة من مجتمع بمجتمع آخر قد يختلف في كثير من الخصائص عنه .

٢ - معدل المواليد ومعدل الوفيات وامثالهما امور عامة ومستمرة في مختلف المجتمعات لا يخلو منها مجتمع ، على حين تيار الهجرة تتغير جهاته ويشهد او يضعف بحسب الظروف وبحسب البلدان والمجتمعات .

٣ - يمكن أيضا حساب نسب خاصة بأعمار المهاجرين من البلاد أو اليها . وبجنسيهم من الذكور والاناث ، وبقومياتهم وبصفات أخرى لهم اقتصادية أو ثقافية أو غيرها .

٤ - مهما دق ضبط الهجرة فهي لا شك اقل انضباطا من تسجيل المواليد والوفيات ولذلك كانت معدلاتها اقل دقة أيضا .

٥ - في حساب الهجرة الداخلية قد تعد هجرة المهاجر من مكان الى آخر مرتين : مرة بصفة النزوح ومرة بصفة القدوم .

التخمين او القياس غير المباشر :-

١ - يكون ذلك بطريقة الاحصاء الحيوى ، اذ يحسب الفرق بين نمو السكان الكلي المشتمل على الهجرة ونمو السكان الطبيعي المقتصر على المواليد والوفيات . فالفرق يعطينا ذلك التخمين:

$$ك = م - و + ص$$

(ك) عدد السكان في التعداد الاول ، (م) عدد نفوس في التعداد الثاني الذى جرى بعد فترة (ز) من الزمن ، (و) المواليد خلال الفترة ، (ص) صافي الهجرة

$$فيكون ص = (ك - م) - و$$

وفي هذه الحال ينبغي ان يكون تسجيل المواليد والوفيات دقيقا .

٢ - وكذلك تعتمد طريقة التعمير في القياس غير المباشر . وهي ان يؤخذ عدد السكان في التعداد الاول ثم ينتبه لنسب التعمير في فئات الاجيال المختلفة ويحسب ما يصير اليه عدد السكان في زمن التعداد الثاني . والفرق بين التعداد الثاني وحصيلة حساب التعمير يعطي صافي الهجرة :

$$ص = ك - م$$

ولما كان هذا الحساب يجرى على اجيال مختلفة من السكان امكن ان يكشف حاصل الحساب عن صافي الهجرة في كل فئة من فئات الاعمار .

٣ - وقد يلجأ الى طريقة مكان الميلاد . ذلك ان اغلبيه التعدادات في العالم تضع سؤالا عن مكان ميلاد الشخص . فيصح عندئذ ان نقارن مكان الميلاد بمكان الاقامة الحالي لنستخلص صافي الهجرة في زمن التعداد . فنحن اذ ذاك نطلع على مقدار المهاجرين بين المقيمين من السكان . ولكن هذه الطريقة لاتعلمنا شيئا عن زمن هجرة المهاجر . وكذلك لا تشف عنها دائما ، اذ ربما عاد المهاجر بعد هجرته الى مكان اقامته الاصلي قبيل التعداد .

٤ - يضاف الى جميع ما سلف المسوح السكانية . فهي تستطيع ان تستشف بطرقها الخاصة عن تيارات الهجرة . ولكن طرق المسح بالعينة هذه عامة وليست مقصورة على الهجرة . فتكفى الاشارة اليها .

هذا ، ومتى عرفت المقادير السالفة امكن حساب قرائن او ادلة عديدة مختلفة تشف عن مدى الفائض او الفائض من الهجرة في كل بلد كما يلي :

$$\frac{\text{النازحون}}{\text{القادمون}} = \frac{ن}{ق} \quad (1)$$

## الهجرات وتحركات السكان

(٢)	حين ق < ن	$\frac{ق - ن}{ق}$	=	فيض الهجرة القادمون
(٣)	حين ن < ق	$\frac{ن - ق}{ن}$	=	فيض الهجرة النازحون
(٤)		$\frac{ق}{ق + ن}$	=	القادمون حجم الهجرة
(٥)		$\frac{ن}{ق + ن}$	=	النازحون حجم الهجرة
(٦)		$\frac{ق - ن}{ق + ن}$	=	فيض الهجرة حجم الهجرة

وربما يجدر ان نذكر امثلة على بعض العلاقات السابقة فنأخذها من استراليا :

عدد المهاجرين اليها خلال سنة ١٩٦١ = ١٢٧٠٥٨٦

عدد المهاجرين منها خلال سنة ١٩٦١ = ٩٥١٤٧

عدد سكان استراليا مقدرا في ١ تموز ( يوليو ) سنة ١٩٦١ ١٠٥٠٨١٨٦

$$معدل القدوم = \frac{١٠٠٠ \times ١٢٧٠٥٨٦}{١٠٥٠٨١٨٦} = ١٢٤١$$

$$معدل النزوح = \frac{١٠٠٠ \times ٩٥١٤٧}{١٠٥٠٨١٨٦} = ٩٠٦$$

الفرق بين المعدلين يعطي معدل ميزان الهجرة وهو فيض = ٦٤٥

جمع المعدلين يعطي معدل حجم الهجرة او مدى نشاطها = ١٧٤٧

اما القرائن التي سلفت فمن السهل حسابها . منها مثلا :

$$\%٥٤ = \frac{٦٨٤٣٩}{١٢٧٠٥٨٦} = \text{فيض الهجرة القادمون}$$

وهذا معناه ان نسبة الفائض الى القادمين هو ٥٤ في المائة .

وكذلك يمكن ان نحسب :

$$\%٣٧ = \frac{٨٦٤٣٩}{١٨٦٧٣٣} = \frac{ق - ن}{ق + ن}$$

اي نسبة الفائض الى حجم الهجرة هو ٣٧ في المائة هكذا ..

ولو أجرينا الحساب على إيطاليا عام ١٩٦١ لوجدنا ان ميزان الهجرة فيها هو غيظ لان تيار النزوح اقوى من تيار القدوم .

وقد ينسب فيض الهجرة الى مقدار النمو الطبيعي للسكان فنحصل على النسبة المثوية لنمو السكان بالهجرة الى نموهم الطبيعي .

$$\frac{ق - ن}{م - و} \times ١٠٠$$

( ق ) القادمون كما سبق ، ( ن ) النازحون ، ( م ) المواليد ، ( و ) الوفيات .

نأخذ المثال الآن على جاميكا بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠

ميزان الهجرة = ١٣٠٦٠٥ -

النمو الطبيعي للسكان = ٣٦٦٠٧٥

وعليه يكون =  $\frac{١٣٠٦٠٥ -}{٣٦٦٠٧٥} \times ١٠٠ = ٣٥٠٧ -$

اى ان اكثر ثلث كمون نمو السكان مضاع بالهجرة من جاميكا .

هذا ويمكن حساب احتمال الهجرة او التعرض لها لفئة من فئات الاعمار وليكن العمر لهذه الفئة ( ز ) وذلك في فترة سنة اى ز ، ز + ١

$$نح = \frac{نز}{لز + ١/٢ وز}$$

باعتبار ( ح ز ) احتمال نزوح الفرد من تلك الفئة او ذلك الفوج ، ( ن ) عدد النازحين من ابناء ذلك الفوج بذلك العمر في غضون السنة ، ( ك ) عدد ذلك الفوج في منتصف السنة ( و ) عدد الوفيات في ذلك العمر خلال السنة نفسها . اما القادمون الذين هم في سن ( ز ) وهم معرضون للهجرة فقد انضوا في عداد الفوج ( ك ) . ( ز )

بيد ان احتمال القدوم لا يمكن اسناده الى عدد سكان منطقة الوصول لان القادمين هم من غير هؤلاء السكان وليسوا جزءا منهم .

هذا ومن المناسب ان ننتبه الى ان عدد المهاجرين لا يعادل عدد مرات الهجرة ، لان مهاجرا واحدا قد يقوم بالهجرة عدة مرات في خلال حقبة من الزمان ولا سيما اذا تطاولت الحقبة . ويقترب عدد المهاجرين من عدد مرات الهجرة كلما قصرت تلك الحقبة . ولذلك اعتبرت السن في التصنيف الانف معيارا لطول مدة الإقامة او مدة الغيبة

### الهجرة والنموذج الرياضي

كان العلماء عامة يتكلمون في بحوثهم على القرائن الكلية والنظريات العامة . وقد طرا تطور في فلسفة العلوم على اعتباراتهم ، فاصبحوا يحددون الآن في الغالب بدلا من تلك الالفاظ عن

النموذجيات . ومن المناسب هنا ان نورد بعض النموذجيات الرياضية الكثيرة المستعملة خاصة في تبين تيار الهجرة الداخلية كي نوفي البحث بعض حقه . وفي سياق بحثنا نبرز شيئا فشيئا صفات النموذج الرياضي لننتهي الى بعض تعبيراته المطبقة في هذا المجال .

النموذج الرياضي نظرية شرطية استنتاجية ومعنى ذلك انه جملة من القضايا او المصادرات تؤدي بعد قبولها الى جملة من النتائج والاعتبارات .

قد يعرض الباحث هذه الاعتبارات والنتائج على محك التجربة وعلى ميدان المشاهدة والملاحظة لمعرفة انطباقها على الواقع . ولكن يمكن الاستغناء عن هذه المقايسة . امكان الاستغناء هذا عن المقايسة اول السبيل للتفريق بين النظرية والنموذج ، لان النموذج امر فكري صرف يقدم حلا يمكن قبوله او رفضه . ربما يصح القول ان بعض النموذجيات اكثر واقعية من غيرها . ولكن لا يجوز هنا القول انها صادقة او الصق بالصدق بالمعنى المنطقي للصدق . ومع ذلك فالنموذج ليس مجرد تركيب اعتباطي .

النموذج نظرية تحاول ان تفسر طبيعة ظاهرة ما بصرف النظر عن كونه اما صادقا واما كاذبا على حد التعبير المنطقي . وهذا معناه انه لا مانع من وجود عدة نموذجيات تقدم ايضاحات متفاوتة لظاهرة واحدة دون ان يلغى بعضها بعضا . وهذه سمة ثانية لتفريق النموذج عن النظرية بالمعنى العام التي لا بد من ان تكون لها صفة الشمول او الكلية . لقد قالوا قديما : لا علم الا بالكليات . ولكن النموذج الرياضي قد يفسر حادثة خاصة او ظاهرة مفردة . لقد اتخذ النادر او المفرد في العصر الحاضر مكانه في فلسفة العلوم ، لان المفرد او النادر بصفته نادرا او مفردا قد يعارض العام والكلي فيستدعي اعادة النظر في المكاسب العلمية لتوسعة وجهة النظر . هذه امور معروفة في فلسفة العلوم نوه بها المفكر الفرنسي الراحل غاستون بشلاد . ويمكن ذكرها هنا في مجال النموذج التي يطبق في الاحوال المفردة او الخاصة احيانا من المجال الانساني او الاقتصادي . يمكن مثلا التعبير عن قواعد سير مشروع من المشروعات الصناعية او الاقتصادية بنموذج رياضي . بل يمكن القول ان تقدم الرياضيات والعلوم الانسانية الحديث كان متصلا بدراسة الامور الخاصة او المفردة وتحليلها . لا شك ان النموذج بطبيعته يشتمل على قضايا كلية . ولكن احكام القضايا الكلية كانت تعجز وحدها عن ايضاح تلك الظواهر فكان لا بد من ان يلحق بها بعض القضايا الجزئية او الاحكام المفردة .

هذه التوطئة البسيطة اردنا ان نقدمها لنشرح بعض النموذجيات الرياضية التي وضعها الباحثون لايضاح ظاهرة الهجرة الداخلية وقياسها . وتظهر محاولات تطبيق النموذجيات الرياضية عليها جانبا من جوانب التطور في تطبيق الرياضيات على العلوم الاجتماعية .

لقد ظن الباحثون منذ منتصف القرن التاسع عشر انهم يستطيعون ان يضعوا قوانين او نظريات عامة للهجرة . لكن درس رافنستين Ravenstein ظاهرة الهجرة في الكلترا وهذا درس من المجتمعات الاخرى سنة ١٩٠١ ، ولخص نتائج دراسته في سبع قضايا يمكن ان نعتبر مجموعها ضربا من النموذجيات السكونية المشتقة من الواقع . وهذه الاحكام او القوانين هي الآتية :

١ - اغلب المهاجرين يؤثرون الامكنة القريبة ومسارات الشقة قل المهاجرون .

٢ - الناس الذين هم على مقربة من المدن الكبيرة يهاجر بعضهم اليها حين تزدهر الموارد الاقتصادية فيها ، والفراغ الذي يتركونه في افعالهم يملؤه مهاجرون ريفيون يأتون من الاماكن القاصية في البلاد .

٣ - كل تيار للهجرة يقابله تيار معاكس يعدله .

٤ - اهل الحضر اقل اندفاعا نحو الهجرة من اهل الريف .

٥ - كلما كانت الهجرة قريبة اربى العنصر الانثوى فيها على الذكور .

٦ - تقدم الصناعة يزيد في معدلات الهجرة .

٧ - رغبة الناس في تحسين احوالهم الاقتصادية اقوى حافز لهم على الهجرة . هذا الى جانب حوافر اخرى غيره مؤثرة .

لقد مر نحو تسعين سنة على بيان تلك العلاقات ، وما زال اكثرها سليما وان كان غير حتمى . ومن المعلوم ان الامور الاجتماعية وعلاقاتها الجارية انما هي رهن التغير الدائم خلال الزمان بتغير الاحوال ، فهي « لا تدوم على وثيرة واحدة ومنهاج مستقر » كما كان يقول ابن خلدون .

وكانت ميكانيك نيوتون مهيمنة على عقول العلماء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يحسبون انه يمكن اعتمادها في مختلف الاعتبارات ومتفاوتات البحوث ، فقرروا في ايضاح ظاهرة الهجرة بينها وبين قانون تجاذب الكتل سواء كانت مغناطيسية او غيرها . ولما كانت الكتل هنا عبارة عن المدن والارياف زعموا اول الامر ان تيار الهجرة متناسب طردا بين كتلتى قطبين من السكان او مركزين لهم ، والكتلة هنا عدد السكان في كليهما ، ومتناسب عكسا مع مربع المسافة :

$$T = \frac{K \times K'}{P^2}$$

يعتبر **ذيف Zipf** أن توزيع السكان في بلد ما ينظمه توازن قوتين متضادتين : قوة التنويع ، تيسر نقل المواد الأولية تيسيرا اقتصاديا الى مراكز الانتاج ، وقوة التوحيد ، تنظم نقل السلع والغلات الى المستهلكين . فالتوزيع الحاصل يجعل نفقات النقل في حدها الأدنى : وهي نفقات نقل السلع والاشخاص . ويختار العلاقة الانفة على الشكل  $K \times K'$  ، فيطبقتها على طائفة كبيرة من

الارقام التي تتعلق بوسائل الاعلام والمواصلات « كالبرقيات والمخابرات الهاتفية وحمولات السكك الحديدية والباصات والطائرات » في داخل الولايات المتحدة . وقد عمد باحثان آخران هما **جون. ك. ستوارت John, Q. Stewart** و **وليام وارنتز William Warntz** من انصار ما ندموه بالفيزياء الاجتماعية الى استعمال العلاقة في رسم ما دموا مصورات القوى الكامنة لتوزيع السكان مستنديين الى التشابه بين علاقتي **ذيف** و **نيوتون** . وهنالك خطوط متساوية الكمون كما في الفيزياء .

ولما درس تيودور أندرسون Th. Anderson مؤخرًا احصاءات الهجرة في الولايات المتحدة اعتبر العلاقة  $T = \frac{K \times K'}{B}$  ، ووجد أن (يه) فيها تتغير من ٤ر. الى ٣ر٣ . فالقيم الضئيلة

تتعلق بهجرة أهل المدن ، والقيم المرتفعة تتعلق بهجرة أهل الريف ، وإنها بوجه عام هبطت بعض الشيء في غضون قرن ( من ١٨٥٠ الى ١٩٥٠ ) . ومن الواضح أن ( ثا ) في العلاقة يمثل عددا ثابتا آخر .

تلك العلاقة التي هي نموذج رياضي تدعى علاقة باريتو زيبف أحيانا نسبة الى العالم الاقتصادي المشهور باريتو وإلى الباحث الذي عاود معالجتها . وهو نموذج بُني أول الأمر على اعتبارات نظرية محض . ولا شك أنه هو وأمثاله لا يشف عن سداد الفروض التي يستند إليها إلا بعد عدد واف من الأمثلة التي ينطبق عليها .

ثم إن الذي يسوغ وجود ( ك ) و ( ك' ) في البسط ( أو الصورة ) هو أولا أن عدد الراغبين في الهجرة بالمكان الأصلي متناسب طردا مع عدد سكانه ، وإن عدد وظائف العمل الفارغة في المكان المقصود متناسب أيضا مع عدد سكانها .

يبد أن هذا الفرض الأخير معرض للنقد ، وهو أنه إن كانت تلك الوظائف الفارغة متناسبة في المكان المقصود مع عدد سكانه فذلك حين تكون حركة الهجرة قائمة على التعويض . أما حين تنشأ وظائف عمل جديدة في المجتمع الأصلي أو المجتمع الآخر فلا بد من تغير ذلك التناسب . وربما كان الأفضل في دراسة هجرة الغرباء إلى البلد المقصود أن نعتبر ( ك' ) ممثلة لعدد الغرباء فيه لا لعدد سكانه .

ثم إن علاقة باريتو - زيبف تقدم لنا نظرا دقيقا في التجاذب بين سكان منطقتين . ولا شك أن تيار الهجرة من منطقة مسماة إلى منطقة ثانية تختلف شدته عنها من المنطقة الثانية إلى الأولى . ولكن هذا الاختلاف يمكن تلافيه بتغيير العددين الثابتين حسب اعتبار النزوح من المنطقة أو القدوم إليها .

نموذج الهجرة هذا من مزاياه البساطة . ومن السهل معرفة المتغيرات الداخلة فيه . ولذلك كثر استعماله مع تعديلات متعددة واعتبارات متفاوتة مشتقة من مجرد النظر أو مبنية على الواقع .

يبد أن باحثين آخرين اقترحوا نماذج أخرى طبقوها على الهجرة . ولا بد ههنا من إيراد بعضها لزيادة الفائدة . وهي تعطي نتائج قريبة من دستور باريتو زيبف ، ولكنها تقتضي إدخال عدد أكبر من الثوابت . ويرداد سداد تطبيقها مع زيادة هذه الثوابت .

اقترح غ. كلفورف G. Kulldorf علاقة أسية على الشكل التالي :

$$T = \lambda - \mu ( \lambda - \mu )$$

حيث ( تي ) عدد المهاجرين من المكان الأصلي ، ( ثا ، ل ، ه ) ثوابت موجبة وحيث البعد بين البلدين ب \\\ ه ، و ط هو العدد الأسّي في اللوغاريتم الطبيعي ( e ) .

ثم اقترح علاقة ثانية على الشكل : 
$$تي = \frac{\frac{\theta}{ب}}{\frac{ط}{\frac{2(لوب - ر)}{2ي_2}}} = \frac{\theta}{ب} \cdot \frac{2ي_2}{ط(لوب - ر)}$$

حيث  $ب < ١$  و (  $\theta$  ،  $ر$  ،  $ي$  ) ثوابت ، (  $\theta$  ) إشارة الى اللوغاريتم .

ان أ. هـ. جونسن O.H. Johnson ينظر الى الهجرة على انها سيال يصدره مركز وتمتصه

بيئة هي السكان المقيمون في المكان المقصود . والعلاقة عنده هي : 
$$تي = \frac{\frac{\theta}{ب}}{\frac{\theta - ر}{ب}}$$

(  $ط$  ) العدد الاسي في اللوغاريتم الطبيعي ، (  $ر$  ) ثابت الامتصاص ، (  $ب$  ) البعد ، (  $\theta$  ) عدد

ثابت .

وكل من هذه العلاقات النموذجية قد تستعمل في غرض آخر غير حساب الهجرة . فقد جربت هذه العلاقة الأخيرة في دراسة انتشار غبار الطلع من الازهار .

وقد تقدمت هذه الدراسات حين استطاع س. أ. ستوفر سنة ١٩٤٠ ان يقترح نموذجاً رياضياً استغنى في التعبير عنه عن ذكر المسافة الجغرافية المباشرة . فافترض أن عدد المهاجرين الى مسافة مسماة يتناسب طردياً مع عدد « وظائف العمل المعروضة » في نهاية المسافة ، وعكساً مع مجموع وظائف العمل المعروضة في خلال هذه المسافة .

هنا تقع المشكلة في تعريف وظائف العمل المعروضة وحسابها . وكل ما يمكن فعله هو حساب مجموع المهاجرين الذين وصلوا الى المنطقة وكانوا مقيمين بها في فترة الزمن المعتبرة اياً كان مصدر هجرتهم ، وهو ما اعتمدته ستوفر نفسه . والتعبير الرياضي لهذا النموذج هو :

$$تي = \frac{\Delta}{س} \theta$$

(  $تي$  ) هو دائماً عدد المهاجرين من المكان الأصلي المقيمين في المكان المقصود ، (  $\Delta$  س ) عدد وظائف العمل المعروضة في المكان المقصود ، (  $س$  ) عدد الوظائف المعروضة في الدائرة التي مركزها نقطة تمثل المكان الأصلي ونصف قطرها  $ب$  الذي هو البعد الجغرافي . ويتمثل المكان المقصود بشريط دائري عرضه (  $\Delta$  ب ) محصور بين دائرتين متحدتي المركز نصف قطريهما  $ب$  -

$\frac{\Delta}{2}$  ،  $ب + \frac{\Delta}{2}$  ، فتكون (  $\Delta$  س ) عدد وظائف العمل المعروضة في هذا المكان الشريطي ، (  $س$  ) عدد الوظائف المعروضة في دائرة ثالثة متحدة المركز مع الدائرتين الأولىين ونصف قطرها (  $ب$  ) .

وقد اقترح ستوفر نمطاً آخر لنموذج الهجرة الرياضي اخذه ووسعه الباحثان اومرغال

Omer Galle وكارل تاوبر Karl Taeuber نكتفي بالإشارة اليه خوف الإطالة .

وقد نجح تطبيق هذين النموذجين على الهجرات الأمريكية نجاحاً كبيراً ، ولكنهما لم يمتنعا عن النقد ولا سيما حول ما يراد بالوظائف المعروضة . فقد تتسع الصناعة اتساعاً كبيراً في منطقة ما ، فلا يشغل بعض الوظائف فيها وهكذا اذا حسبنا عدد الوظائف بشاغلها لا يكون الحساب دقيقاً . اما في المناطق الريفية فالزراعة تستطيع ان تغذي شخصاً جديداً مثلاً دون زيادة وظيفة معينة



له . فالقياس الذي يقتضي حساب العدد الكلي للمقيمين في المنطقة ربما لا يقابل العدد الحقيقي للوظائف المعروضة . ثم ان عدد المهاجرين المتوقع الذي يقيس تيار الهجرة هو جزء من العدد الكلي للمهاجرين المستعمل في النموذج والمعتمد في قياس الوظائف المعروضة . فالنتيجة يتضمنها الفرض .

وثمة نماذج رياضية للهجرة غير ما سبق تناولها من جهة تطورها وتبدل شدتها في خلال الزمن ، وهذه يمكن ان ندعوها تطورية . وقد اقتصرنا على النماذج القليلة الأنفة اذ كانت تشتمل على القليل ، المهم من المتغيرات كعدد السكان وعدد المهاجرين والبعد بين البلدين وعدد وظائف العمل المعروضة .

وللنماذج اصناف كثيرة منها النظري ومنها الوصفي ، منها السكوني ومنها التطوري ، منها الحتمي ومنها الاحتمالي ، وهلم جرا .

ومجمل الكلام ان عدد المهاجرين المتبادل بين منطقتين تابع طردا لقوة التبدل في المكان الاصلي ، وقوة الجذب في المكان المقصود ، وعكسا للبعد الجغرافي اى المسافة المكانية او لعدد الوظائف المعروضة في الطريق وهو ما يمكن تسميته بالبعد الاجتماعي .



### القسم الرابع

#### الهجرة في البلاد العربية

يختلف النظر الى الهجرة في البلاد العربية باختلاف موقف الباحث ، فاذا نظر اليها على أنها وطن واحد كانت الهجرة من بعضها الى بعض هجرة داخلية . واذا نظر الى الدول القائمة فيها اعتبرها هجرة خارجية دولية . اما الموقف الاول فيسوّغه ان الشعب فيها يكاد يكون واحدا ، وقد اختلط بعضه ببعض في غمار التاريخ مكونا بلفته وثقافته وحضارته وعاداته ومآذيه وأمجادهم وآلامه وآماله كتلة من البشر متجانسة متماسكة من أرسخ شعوب الدنيا كيانا واعمقها وجودا في الأرض وفي السماء .

واما الموقف الثاني فيسوّغه أن لكل جزء منها حكومة ذات سيادة على أرضها وعضوية في هيئة الأمم ونظاما اقتصاديا وسياسيا يختلف عن نظام البلد الآخر . ومع ذلك فالهجرة البشرية على الرغم من تلك الحواجز مستمرة بين تلك الدول (التصغير هنا للتجنب) ، لان اقامة الحواجز لا تستطيع ان تحول دون مجرى الظواهر الطبيعية ولا ان تمس الجذور القوية الممتدة في باطن تلك البلاد . وكل شيء في تطور الانسانية يحفز على الظن ان تلك الربوع سوف يزيد تقاربها وتضامنها وتعاونها في شتى الميادين . واذا كانت أوروبا على اختلاف قومياتها ولغاتها وعاداتها ومآذيهما وتقارب وتحاول تأليف كتلة ذات كيان متضامن ومتعاون فان البلاد العربية لكي تضمن تقدمها ولحاقها بالموكب الانساني الحضاري لا بد من ان تزيد تقاربها وتآلفها وتعاونها في مجالات متعددة وان بقيت السيادة الكاملة لكل منها مصونة ومحصنة .

وهكذا لا مندوحة من دراسة الهجرة في كل دولة منها . وحقا تكاد تكون الهجرة على الرغم من تشابهها فيها من بعض الجوانب متفاوتة الخصائص جدا . ويحتاج تأمل الهجرة في كل دولة من تلك الدول وإيضاح سماتها الى افاضة واسعة في تأمل الأرقام وتبين التطور الاقتصادي والديمقراطي والاجتماعي والسياسي . وهذا يؤلف موضوعا يحتاج الى معالجة مستقلة ربما تتاح في المستقبل القريب . ومع ذلك يجدر ذكر بعض الامثلة البسيطة مع الأرقام للدلالة على جوانب من تلك الهجرة . وربما لا تميز هذه الأرقام أحيانا بين العرب والاجانب من المهاجرين .

لقد غدت بعض البلاد العربية مناطق تستقبل المهاجرين كإمارات العربية المتحدة وقطر والكويت وليبيا والسعودية بسبب التطور الاقتصادي المتصل باستخراج النفط على ان بعضها الآخر كان وما زال مصدرا للمهاجرين كسوريا ولبنان . ونحن هنا نلم ببعض خصائص الهجرة في الكويت ثم في سوريا ولبنان .

الكويت بلد من اصغر البلاد في العالم ودخل الفرد فيه من أعلى المستويات . من اهم الملامح الديمغرافية لهذا البلد وجود عدد كبير من المهاجرين غير الكويتيين فيه وقد جاوزوا في العدد السكان الاصليين في السنين الاخيرة . والجدول الآتي يعطي فكرة واضحة عن عدد المهاجرين والاصليين في البلاد وهو يبين التركيب السكاني في أربعة تعدادات للسكان بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٧٠ .

السنة	الكويتيون	غير الكويتيين	المجموع
١٩٥٧	١١٣٦٢٢	٩٢٨٥١	٢٠٦٤٧٣
١٩٦١	١٦١٩٠٩	١٥٩٧١٢	٣٢١٦٢١
١٩٦٥	٢٢٠٠٥٩	٢٤٧٢٨٠	٤٦٧٣٣٩
١٩٧٠	٣٤٧٣٩٦	٣٩١٢٦٦	٧٣٨٦٦٢

معدل النمو السنوي العام في الفترة بين ١٩٥٧ و ١٩٧٠ يبلغ ١٠ ، ٣ ٪

واذا طرحنا معدل النمو الطبيعي في الكويت وهو حول ٣ ، ٥ ٪

حصل معدل فيض الهجرة وهو ٦ ، ٨ ٪ وهو معدل مرتفع جدا .

ويرجع هذا الارتفاع الى ان الاقتصاد الوطني يتسع اتساعا كبيرا لا مندوحة فيه عن الحاجة الى الطاقات البشرية . هذا برغم ارتفاع معدل النمو الطبيعي وتشجيع الدولة له وهو من أعلى المعدلات في العالم .

ان معظم النشاط الاقتصادي يقوم به المهاجرون والجدول الآتي يبرز التفاوت بين الكويتيين والمهاجرين ذكورا واناثا في عامي ١٩٦٥ و ١٩٧٠ .

النسبة المئوية للقوة العاملة في مجموع السكان			النسبة المئوية للقوة العاملة في مجموع السكان			
المجموع	اناث	ذكور	المجموع	اناث	ذكور	
١٨٤٨	٠ ، ٦	١٨٠٢	١٩٠٦	٠ ، ٥	١٩٠١	الكويتيون
٤٥٠٢	٣ ، ٧	٤١٠٥	٥٧٠١	٣ ، ١	٥٤٠٠	غير الكويتيين
٣٢٠٨	٢ ، ٣	٣٠٠٥	٣٩٠٥	١ ، ٩	٣٧٠٦	المجموع

ويتبين مما سبق ان سكان الكويت يزدادون بسرعة كبيرة وإن أكثر من نصف هذا الازدياد يعود الى الهجرة . ولا شك أنه في التقديرات السكانية لمستقبل الكويت تبرز الهجرة الخارجية عاملا من اهم العوامل الديمغرافية . هذا وإن شدة تيار الهجرة الى البلد ومنه مسألة تتعلق بسياسة الدولة وهذا أمر لا يمكن توقع اتجاهاته المقبلة على الرغم من ان البلاد ما تزال بحاجة الى مزيد من الأيدي العاملة في النشاط الاقتصادي لسنين عديدة .

### الهجرة من سوريا ولبنان

هذه الهجرة قديمة العهد نسبيا وكانت في الغالب تابعة لتيارات الهجرة العالمية كلما حصل تيار حمل معه فريقا من السكان . والذي كان يسهل هذه التبعية في السابق الاستعمار والضييق وتجزئة البلاد وقلة الاستقرار الاجتماعي وسوء توزيع الثروة . كان اللبنانيون يطلق عليهم السوريون ولهذا قرنا ذكر سوريا ولبنان معا في الهجرة .

حملت الهجرة أول الأمر السوريين الى بقية البلاد العربية ولا سيما مصر فأقاموا في القاهرة والاسكندرية وهذا شيء طبيعي يجري في بلاد شقيقة . وكان في طليعة المهاجرين المثقفون هربا من الضغط التركي ثم التجار والعمال . ولما أن وصل تيار الهجرة العالمية في أواخر القرن التاسع عشر الى سوريا بدأت الهجرة تستخف السوريين دفعات قوية الى الولايات المتحدة حول سنة ١٨٩٠ ولكن القوانين التي وضعتها هذه البلاد في سبيل الهجرة خفف تيارها . وقد جذبت المكسيك السوريين واللبنانيين اليها حتى بلغ عدد المهاجرين منهم خمسة عشر الف نسمة سنة ١٩٢٧ . ثم صدف المهاجرون عنها للاضطهادات الدينية التي نشبت فيها ، وتحول القسم الأكبر من المهاجرين الى امريكا الجنوبية ولا سيما البرازيل والارجنتين والاورغواي ، وبعضهم توقف في بوليفيا وفنزويلا . ثم شرع السوريون ينتجعون افريقية ولا سيما بعد سنة ١٩٣٥ . وقد حدثت الهجرة الى الشرق الأقصى بطريق غير مباشر اذ يسافر السوري مبدئيا الى الولايات المتحدة ويجمع بعض الثروة ويعبر المحيط الهادي . وقد تحصل الهجرة الى تركيا وايران في بعض الظروف . وما تزال الهجرة تجري نحو امريكا الجنوبية وافريقية وذلك ان بعض الأسر كانت قد هاجرت اليهما فهي تدعو بعض أفرادها او أقربائها الى اللحاق بها . ويكاد يوجد السوريون واللبنانيون الآن في أغلب بقاع الأرض .

وقد بلغت شدة الهجرة من لبنان وسوريا بالنسبة لعدد السكان حدا جعل الشعراء يشيدون بالأوبى ويتفتنون بالحنين الى الوطن . وربما استطاع الشعراء ان يقول في بعض الأحيان ما لا يقوله النثر في بيان آفات الهجرة . يقول الشاعر القروي :

ردوا على الوطن القديم ترابه	هذا أقل البر يا غيابه
ذاك الالهاب الغض تحت ثيابكم	بالأمس كان اهابه وثيابه
تتعجبون لضعفه ولو أنكم	فيه لكنتم جنده وحرابه
ليت الأوبة عند ازماع النوى	للقرب أغلق دونهم أبوابه
او ليت بر الشام أدرك أن في	سفر الزنود العامرات خرابه

ويصعب احصاء المهاجرين السوريين واللبنانيين في العالم ويزيد في صعوبة هذا الاحصاء ان فريقا من المهاجرين تنسوا بالجنسية الأجنبية . ويقدر عدد المهاجرين بمليوني نسمة تقريبا أكثرهم في أمريكا الجنوبية .

ويؤثر المهاجر مكانا على مكان في هجرته اذا كان له قريب او صديق فيه والا تبع ذلك مجرى الصروف . وللاخبار المروية عن مكان الهجرة واحوال الأبيين منه والقوانين الموضوعة حول ذلك تأثير كبير . وتألفت نجوم كثير من المهاجرين في ميادين الثقافة والادب والعلم والسياسة والاقتصاد . وأدب المهجر الحديث يذكرنا بأدب الأندلس القديم . ولكن تلك الجاليات بدأت تنصهر في المجتمعات الأجنبية شيئا فشيئا وتنسى ذرياتها لغتها الأصلية بالتدريج .

وقد توطن هؤلاء المهاجرون الأماكن التي هاجروا إليها ما عدا فريقا آخر الإياب الى الاوطان منهم من أخفق في هجرته ولم تفتح أمامه ابواب العمل والرزق فانكفأ الى اهليه . ومنهم من جمع ثروة ضخمة تكفيه وتكفي أسرته فرجع حامدا لجماعته .

ويبدو من ذلك ان لهذه الهجرة بعض المزايا وهي جلب الثروات المجمعة في البلاد الأجنبية . ويضاف ان المهاجرين لا ينسون اهليهم فهم يمدونهم بالمال في الحين بعد الحين . وتلوح هذه الهجرة الديمغرافية مستتبعة لهجرة مالية أضعف منها تجرى بعكس اتجاهها . هذا زيادة على الدعاية الجيدة التي يقوم بها المهاجرون لبلادهم الأصلية .

بيد ان مساوئ الهجرة أكثر من مزاياها اذا انها تلحق بالبلاد نقصا في القوى الديمغرافية والاقتصادية . فالمهاجرون كما سلف شباب أو كهول أي هم في سن العمل والانتاج . فلما هاجروا اضاعت البلاد فيهم رجلا منتجين ، كما تضيع فيهم مجموع النفقات التي استدمتها تربيتهم وتنشئتهم وريعتها ، ولا تفي بهذه الخسارة ثروتهم المجمعة ان عادوا بها الى البلاد أو أرسلوا نصيبا ضئيلا منها الى اهليهم ، لانهم في بلد الاغتراب قد اشتغلوا واشتركوا في بعض المشروعات أو استصلحوا الأرض فزادوا رأس المال هناك . ولولبثوا في بلادهم الأصلية وعملوا فيها لبقيت آثارهم فيها وتضاعفت العوائد والفوائد . ومع ذلك فثم مجال للمناقشة تتلامح جوانبه مما سبق في القسمين الأول والثاني من هذا البحث ، وهناك دراسات حديثة تقدر توزع اللبنانيين في العالم سنة ١٩٥٩ على الشكل الآتي :

أمريكا الشمالية	٤٢٠ ٠٠٠	( منهم ٤٠٠ ٠٠٠ بالولايات المتحدة )
أمريكا اللاتينية	٦٩٢ ٠٠٠	( منهم ٣٥٠ ٠٠٠ بالبرازيل ) ( و ٢٠٠ ٠٠٠ بالأرجنتين )
أفريقية	٧٠ ٠٠٠	( منهم ٣٠ ٠٠٠ في مصر )
أوقيانوسية	٢٧ ٠٠٠	
أوروبا	٥ ٠٠٠	
جزر الكناري أو الخالدات	٣٥٠	
آسية	١٥٠	( وربما كان هذا التقدير منخفضا )
المجموع :	١٢١٤ ٥٠٠	

أى حوالي مليون وربع المليون . وفي تلك السنة نفسها كان عدد اللبنانيين اولى الجنسية اللبنانية في لبنان نفسه مليونا ونصف المليون . وعندئذ يؤلف المهاجرون من اللبنانيين ٤٥٪ تقريبا من الرعايا اللبنانيين عامة . فكأن لبنان المثقف الممول يضع رجلا على الجبل في ارضه ورجلا على اليابسة في ما وراء البحار .

اما الهجرة الخارجية الى سوريا ولبنان فقد كانت على دفعات بسبب بعض الكوارث كهجرة الأرمن على أثر مذابحهم سنة ١٨٩٤ و ١٨٩٥ وبعد تسلط حزب تركيا الفتاة على الحكم . وكذلك هجرة الآشوريين سنة ١٩٣٣ . بيد ان أهم هجرة تلقفتها سوريا بل أكبر آفة عرفتها البلاد العربية منذ هجمات التتر والحروب الصليبية هي الهجرة الصهيونية . انها غزو سياسي وعسكري تحت ظاهر قومي لأناس ينتسبون لقوميات مختلفة وتحت ظاهر ديني دين موسى براء منه . وقد تسببت بجلاء الفلسطينيين الى مختلف البلدان . ولعل في الآفاق العالمية ما يبعث على الأمل في احلال السلام وتوطيد العدالة .

هنالك هجرة دائمة بين سوريا ولبنان ، ولبنان هو الذي يتلقى الآن هجرة العمال السوريين لارتفاع مستوى الأجور وللنشاط الاقتصادي الواسع فيه . وقد تلقى ايضا هجرة الاغنياء والتمولين السوريين مع رؤوس أموالهم المهربة اليه .

وربما كان من المناسب هنا ان نورد تحقيقا احصائيا بالعيينة أجرته مديرية الاحصاء المركزي ببيروت على القوى العاملة بلبنان في تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ ظهر فيه ان عدد الفرياء من عرب وأجانب يبلغ حوالي ١٧٧٦٧٥ يؤلف المهاجرون العرب منهم ٩٠٪ والأجانب ١٠٪ . ذلك العدد لا يشمل الفلسطينيين الذين يقدر عددهم بحوالي ١٣٠٥٠٠ ممن يعيشون في المخيمات ، وربما وصل عددهم الآن الى ٣٠٨١٧٥ . أما مديرية الأمن العام فتقدر عدد الفرياء المقيمين في لبنان بنحو ٥٦٤٠٥١ بالاستناد الى تصريحات الاقامة وتجديداتها . منهم ٢٧٩٥٤١ سوريا و ١٩١٢١٧ من بلاد عربية أخرى و ٩٣٢٩٨ من الأجانب .

واذا قدر سكان لبنان في تلك السنة بما يقرب من ٢٠٣٩٥٠٠٠ فان الفرياء يؤلفون ربع السكان تقريبا ( ٢٣٪ بالضبط ) .

اما الهجرة الداخلية في سورية ولبنان فلاندحة من الامام بها . اذ يهاجر الفلاح او القروي الى المدينة متى تعلم نظرا للبون الكبير بين حياة المدن وحياة الريف ولا تساع مجال العمل له في المدينة . والريف السوري في الداخل على جماله مهمل للغاية . ولا يكاد المرء يجد فيه الضروري من الشروط الصحية والاجتماعية والثقافية . ولوانه اخذ بالعناية والانعاش والتمهد وحسنت الأحوال الصحية والاجتماعية فيه لأمكن خلق تيارات للاصطياف والاستجمام على الأقل . ومن الناس من يغلب عليهم حب الطبيعة والميل الى الهدوء والتأمل فيؤثرون المقام في الريف ولو بعض أشهر السنة .

ويهاجر الفلاحون المعوزون الى المدينة طلبا للعمل والرزق والكفاف ويقومون عادة في ضواحيها قبل ان تنالها يد التنظيم . وقد يتشرد اطفالهم ولا يزال التشرد في بلاد الشرق احدى الآفات الكبيرة . وتبعته لا تقع على الافراد فحسب بل على المجتمع الذي لا يعالجه معالجة ناجمة .

ويغد كثير من الفلاحين وفودا موسميا رجالا ونساء الى المناطق الزراعية في موسم الحصاد ليقوموا به تلقاء بعض الأجور الزهيدة فتتملى بهم اسواق المدن قادمين اليها من القرى القريبة . وهم حين يكونون في ساحات حمص وحماة بانتظار عقود العمل يقومون برقصات الدبكة الشعبية الجميلة الشائعة للتسلية . وقد ضوّلت هذه التحركات بسبب دخول آلات الحصاد الحديثة .

كذلك نجد في بادية الشام تحركا موسميا للبدو الرحل في رعاية الماشية . وفي لبنان الشمالي هجرة موسمية طريفة يترجح بها سكان قرية زغرتا بين هذه القرية ابان الشتاء للاعمال الزراعية وبين قرية أهدن في الجبل للكسب حين يحل موسم الاصطياف .

وسوف يوزع الفلاحون في سوريا على اراضي الجزيرة توزيعا منظما بعد الانتهاء من سد الفرات .

على انه لا يسعنا في نهاية هذا البحث الا ان نوه بتيار من الهجرة جديد وفريد في نوعه الى البلاد المتقدمة الغنية ، وهو هجرة العقول . ونخص هنا في البحث هذه الهجرة من سوريا .

### هجرة العقول

ذلك ان البلاد المتقدمة بسبب تقدمها المطرد السريع بحاجة ماسة وملحة الى العلماء والمتخصصين ولا تكاد تسد الجامعات والمعاهد العلمية تلك الحاجة المتزايدة ، كما ان نفقات اعدادهم وتخصصهم كبيرة باهظة . ثم ان عوامل التنافس بين الدول الصناعية المتقدمة تقتضي الاعتماد على الكفايات العلمية الكبيرة . ولهدا طفت تلك الدول تجتذب تلك الكفايات بالمغريات المادية والمعنوية ، ولا سيما من بلدان العالم الثالث .

ان الحاجة التي نوهنا بها الى العلماء قد اشتدت في السنين الأخيرة بسبب مقتضيات النمو والانتاج ، كذلك نجد الربح الكبير الذي أفادته الدول المتقدمة في المال وفي الوقت من هجرة العقول اليها قد عزز ذلك التيار ودعمه . وكل زيادة في جانب يقابلها خسران في الجانب الآخر . فقد ألت الخسارة بالبلاد التي تنطلق منها عناصر ذلك التيار ولا سيما ان تلك العناصر في الغالب ناشئة فتية تومض بالوعود . فكان فقدها في بلادها الأصلية « ضيغنا على ابالة » كما يقول المثل العربي القديم . وليس ما يمنع تلك الدول المتقدمة ازاء الربح من رأس المال البشرى هذا من ان تضع لامتصاصه خططا سرية وعملية باطنة وظاهرة .

ان هذا التيار في الحقيقة يندفع من مختلف البلاد متقدمة ومتخلفة بحسب الاغراء المادي والظروف الملائمة . ولكن نسبة الكفايات الفكرية المهاجرة في مجموع السكان لدى بعض البلدان المتخلفة أعلى منها لدى البلدان المتقدمة حين تهاجر طائفة من علمائها ومفكرها الى بلاد اوسع منها وأكثر اغراء . ذلك ان بعض الكفايات العلمية في ايطاليا وفرنسا وانكلترا وغيرها تهاجر الى الولايات المتحدة ، على حين ان كثيرا من العناصر الفتية العلمية تهاجر من بلاد العالم الثالث الى مختلف نواحي العالم المتقدم .

والذي يسترعى الانتباه ازدياد عدد الاختصاصيين الذين يهاجرون من البلاد العربية الى اوربا والولايات المتحدة . وهذه الزيادة ناشئة من قوتي نبد وجذب كما هو شأن تيارات

الهجرة عامة . قوة النبل في البلد الاصلى ضالة الرواتب والاجور واضطراب الاحوال الاجتماعية وقلة المختبرات التي يستطيع المتعلم الناشيء فيها ان يمارس اختصاصه ودرايته ، كذلك ضالة فرص العمل العلمى وانخفاض المردود في البحث وعدم وجود ميزانية تدعم الباحث وتزوده بالعناصر الضرورية في بحثه وانتاجه ، على حين يقابل كل ما سلف في البلاد المتقدمة مزيد من المكافآت المالية والمعنوية واعداد هائل من الاجهزة والمراجع ووسائل البحث والنشر والتقدير وسهولة تبادل المكاسب العلمية وتتمام الاختصاصات المتنوعة بحيث تتعاون اسباب المعرفة المتفاوتة على تقدم سير العلم وتضامن جوانب الرقي .

هذه الهجرة التي تجتاح البلاد الاصلية تستنزف خيراتها وتطيح بمواردها وتموق تقدمها . ان العالم الذي اعدته بلاده قد كلفها نفقات باهظة عليه ان يعوضها بعد تكونه العلمي بانتاجه وباسهامه في تقدمها ، وذلك انما يتم في سني حياته المنتجة ، فكان هجرته الى البلاد الغنية هدية من فقير معدم جمع بُلْعَ معيشتة وقدمها للموسر الثرى ليزيد ثراه ويساره ، ولا سيما ان تلك السنين المنتجة سوف تمضي في البلد المقصود .

هنالك تخمينات كثيرة حول تلك الهجرة في مختلف البلدان ، ربما يكون من المناسب ان نعطي مثالا واحدا على هذا النوع من الهجرة في بلد عربي على الاقل وهو سورية .

#### تخمين هجرة الكفايات العلمية في الفترة ١٩٥٦ - ١٩٦٩

الطب	الهندسة	العلوم الاساسية	الطب البيطري	الزراعة	الاسنان طب	الصيدلة	المجموع
٢٧٦٩	٣٠٤٩	١٣٩٢	٤٤	٤١٩	١٩٥	٣١٤	٨١٨٢
%٦٥	%٦١	%٥٩	%٥٠	%٣٩	%٣٤	%٣٣	%٥٧

من هذا الجدول يبدو ان اكثر من نصف المختصين في سوريا يغادرونها الى بلد آخر واذا علمنا ان البلاد في أمس الحاجة الى هؤلاء النازحين ، وقد خسرت عليهم مبالغ طائلة في تنشئتهم العامة واعدادهم الاختصاصي ، تبينت لنا العواقب الفاشمة لهذه الهجرة والمواقف العاقبة لأولئك المهاجرين . ولا بد من اتخاذ التدابير التشريعية والاجتماعية والمالية لاسترداد تلك الكفايات والامساك بها واسباغ التكريم لها والعمل على تهيئة المجال المناسب لانتاجها المثمر . وقد كان للعلم في ماضي البلاد العربية اعلى مكانة واجل شأن واسمى غاية . ومثل هذا الفبن واقع في بقية البلاد العربية . وهو من العقبات العالقة التي تعترض في سبيل تقدمها السريع . ولا شك ان الخسارة من هذا النوع تستدعي خسارات تالية متفاقمة . ان العالم في الحقيقة بمثابة مدرسة يخرج حوله العلماء ويدربهم ، ولذلك خسارته ليست خسارة فرد واحد ولا ضياع مبلغ من المال وانما هي فقدان افراد متعددين ، ومبالغ طائلة وامكانات معنوية كثيرة . ولذلك ينبغي اعطاء العالم مكانة طليعية في تنمية المجتمع ، وتقديم افضل الاحوال المناسبة ، وعونه على القيام باعباء رسالته الفكرية وتشجيع انتاجه ونشاطه على صعيد وطنه وفي المجال العالمي ان امكن .

### خاتمة

ان سمات الهجرة منذ الحرب العالمية الأخيرة تبدلت تبديلا عميقا في انحاء الأرض فقد اتسع اشراف الدول على تيارات الهجرة واستحكم ، ولا سيما عقب الفوضى التي استمرت طوال الحرب في هذا الشأن فاصبح تيار الهجرة في العصر الحاضر موجها او مأخوذا على الأقل بالضبط اى بالتشجيع او التعويق حسب سياسات الحكومات . ثم ان اقواما جلوا عن مساكنهم واطنانهم بسبب الحرب الفاشية وبعض الاتفاقيات التي تلتها بعضهم استقر ، وبعضهم آب او يرغب في الاوبة ، وبعضهم يرغب في هجرة جديدة . كل ذلك جعل هيئة الأمم المتحدة وطائفة من الدول تولي عنايتها الاشراف على اولئك الناس واعادتهم الى مواطنهم الاصلية ، او تتكفل مساعدتهم بوجه عام ، ولو الى امد محدود ، سواء كانوا لاجئين او منقولين او مهاجرين . وربما كان من المناسب في ختام هذا البحث ان نلقي نظرة على الهيئات العالمية والحكومية التي تجعل نصب اعينها الاشراف على تلك التحركات . فلقد تألف اكثرها بغاية هذا الاهتمام الى زمن محدود وهي :

- ١ - لجنة الحكومات لعون اللاجئين (C.I.R.)
- ٢ - ادارة هيئة الأمم المتحدة للعون والتعمير (U.N.R.R.A.)
- ٣ - الهيئة العالمية لعون اللاجئين (I.O.R.) وقد خلفت المنظميتين السابقتين من سنة ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ وكان مركزها جنيف .
- ٤ - اللجنة العليا للاجئين في هيئة الأمم المتحدة (U.N.H.C.) اتت بعد الهيئة السالفة وتجديدت مدتها عدة مرات .
- ٥ - هنالك جمعية غير تابعة لهيئة الأمم مركزها جنيف تهتم بالمهاجرين الاوربيين وتساعدهم في هجرتهم وهي (C.M.E.) تكونت سنة ١٩٥١ بمبادرة من الولايات المتحدة .
- ٦ - وثمة لجان اضيق مما سبق تهتم بالمهاجرين . منها لجنة في المجلس الاوربي ، ومنها منظمة الصليب الاحمر وغيرها .
- ٧ - وفي البلاد العربية وكالة غوث اللاجئين (UNRWA) تهتم باللاجئين الفلسطينيين . ولكنها على خلاف المنظمات السابقة لا تستطيع ان تساعد على الرجوع الى اوطانهم . وجل عملها تخفيف البؤس الذي هم فيه .

تلك المنظمات على الرغم من اعمالها الجيدة لا تسمو الى غاياتها المجيدة .

والخلاصة ان الانسان بطبيعته يتداوله عاملا النبد والجذب الاجتماعيان ، وتتنازعه قوتان : النزوع الى الحركة والتنقل والتغير ، ثم الميل الى الهدوء والاقامة والمحافظة . فهو يضطرب ويقيم ، ويتحرك ويسكن ، وهلم جرا . وهو اينما حل وحيثما رحل يجازف ويركب الاخطار . وينجم عن كل ذلك ظواهر انسانية واجتماعية ليست الا جزءا من الظواهر الطبيعية



العامّة . لقد استعرنا فيما سبق لفظ التيار من بعض الظواهر الطبيعية كتيارات البحار والسيول والمد والجزر للتعبير أحيانا عن ظاهرة الهجرة . ولما كانت الظواهر الطبيعية تحتاج الى التنظيم للاستفادة منها ولتوزيع خيراتها الثرة الثرية بدلا من التعرض لآفات المدمرة ، كذلك نرى لزوم الاهتمام بالظواهر الانسانية التي تنضوي الهجرة في نطاقها ، لكي تنظم ، ان في الداخل وان في الخارج ، تنظيمًا معقولا يتحامى الفتن ويتلافى الكوارث ويمنع الحروب ويدفع النزاع ويسعى لوثام المجتمعات واسباغ العدالة والسلام في ربوع امنا الأرض .

على اننا في عصر يؤذن كل شيء فيه بالتغير نظرا للتطور الكبير في التكنولوجيا . ولا احد يستطيع ان يستشف المستقبل وأن يتوقع ما فيه من مفاجآت . وربما جاء يوم فتتح فيه في باب الهجرة فصل يتعلق بعدد النازحين الى كواكب جديدة ملائمة .



## معجم المصطلحات

فرنسي	انكليزي	عربي
Probabilité	Probability	احتمال
Statistiques migratoires		
Statistiques de migrations	Migration statistics	احصاء الهجرة
Minorité	Minority	اقلية
Rapatriement	Repatriation	اعادة للوطن
Surpeuplement		
Surpopulation	Over-population	اكتظاظ السكان
Accomodation	Absorption	امتصاص
Production	Production	انتاج
Intégration	Integration	اندماج
Fusion	Fusion	انصهار
Acculturation	Acculturation	انطباج ثقافي
Chômage	Unemployment	بطالة ، تعطيل عن العمل
Exchange de population	Population exchange	تبادل السكان
Sous-peuplement	Under-population	تخلخل السكان
Sous-population		
Autorisation de séjour	Residence permits	تصاريح الإقامة
Autorisation de travail	Labour permits	تصاريح العمل
Coexistence	Coexistence	تعايش
Ségrégation	Segregation	تفرقة السكان
Assimilation	Assimilation	تمثل
Colonie	Colony	جالية
Exode	Exodus	جلاد
Déterminisme	Determinism	حتمية
Migration totale	Gross migration	
Volume total des migrations	Volume of migration	حجم الهجرة
Mobilité	Mobility	حرارة ، تحرك ، انتقال

## الهجرات وتحركات السكان

فرنسي	انكليزي	عربي
Mouvement naturel de la population	Natural population movement	حركة السكان الطبيعية
Mouvement général de la population	General population movement	حركة السكان العامة
Cycle économique	Business cycle	دورة التجارة
Visas d'entrée	Visas Entry permits	سمات الدخول ، تأشيرات الدخول
Voyageurs	Travellers	سياح
Politique migratoire	Migration policy	سياسة الهجرة.
Migration nette Balance migratoire	Net migration Balance of migration	صافي الهجرة او ميزان الهجرة
Pression démographique	Population pressure	ضغط السكان
Expulsion	Expulsion	الطرد
Méthode de mouvement naturel	Vital statistics technique	طريقة الاحصاء الحيوى
Méthode des coefficients de survie.	Survival ratio technique	طريقة نسب التعمير
Durée d'absence	Length of absence	طول الغيبة
Emigration nette	Net emigration	فيض الهجرة
Immigration nette	Net immigration	فيض الهجرة
Listes de passagers	Passenger records Passenger lists	كشوف المسافرين
Réfugié	Refugee	اللاجئ
Durée de présence	Duration of stay	مدة الإقامة
Niveau de vie	Level of living Standard of living	مستوى المعيشة
Enquête	Survey	مسح
Taux de natalité	Birth rate	معدل المواليد
Taux de mortalité	Death rate	معدل الوفيات
Lieu d'origine	Place of origin	المكان الاصلي

فرنسي	انكليزي	عربي
Lieu de départ	Place of departure	مكان المغادرة
Lieu de destination	Place of destination	مكان الوصول
Lieu d'arrivée	Place of arrival	المكان المقصود
Personne déplacée	Displaced person	المنقول
Accroissement naturel	Natural increase Natural growth	نمو طبيعي
Accroissement brut	Total growth	نمو عام او كلي
Modèle	Model	نموذج
Migration	Migration	الهجرة
Immigration sélective	Selective immigration	الهجرة الاصطفائية
Immigration	Immigration	الهجرة الى البلاد (القدوم)
Migration de retour	Return migration	هجرة الاياب
Migration externe	External migration	هجرة خارجية
Migration extérieure		
Migration interne	Internal migration	هجرة داخلية
Migration intérieure		
Migration internationale	International migration	هجرة دولية
Emigration	Emigration	هجرة من البلاد (التروح)
Migration saisonnière	Seasonal migration	هجرة موسمية

المراجعالعربية عامة

- ١ - المعجم الديموجرافي التعدد اللغات - وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٦
- ٢ - عبد الكريم اليافي - في علم السكان - جامعة دمشق ، ١٩٥٩ .
- ٣ - عبد الكريم اليافي - فصول في المجتمع والنفس - دمشق ، ١٩٧٤

خاصة

- ٤ - القوى العاملة في لبنان - تحقيق بالمينة - مديرية الاحصاء المركزي بيروت ، ١٩٧٢ .

الانكليزيةعامة

- 1 — Multilingual demographic dictionary — English Section — United Nations Population studies, n°29, 1958.
- 2 — The determinants and consequences of population trends, ST/SOA/Ser.A/17 United Nations, 1953.
- 3 — Bogue, D. J., Principles of demography, U.S.A., 1969.
- 4 — Shryock, H. C., Siegel J.S. and Associates, The methods and materials of demography, Bureau of Census, U.S.A., second printing, 1973, Vol. 2.
- 5 — Spiegelman, M., Introduction to demography, Revised edition, U.S.A., 1970.

خاصة

- 6 — Demographic measures and population growth in Arab Countries, Cairo demographic centre, n°I, 1970.
- 7 — Eckwa — Demographic situation in Kuwait, pop. con. 5/E, 1974.
- 8 — Galle Omer R. and Taeuber Karl E., Metropolitan migration and intervening opportunities — American sociological review, 1966. Vol. 31.
- 9 — Hagerstrand, T., Migration and area  
Lund studies in geography, n°13, 1957.  
Geographic measurements of migration — Entretiens de Monaco en Sciences Humaines, 1962.
- 10 — Jerome, H., Migrations and business cycles  
National bureau of economic research, N.Y. 1926.
- 11 — Khoury, F., From village to suburb  
Order and change in greater Beirut  
University of Chicago Press, 1974.

- 12 — Murad, J., Brain drain  
Ecwa/pop. con. 1 up 6/E., 1974
- 13 — Olsson, G., Distance and human interaction  
a migration study, Geografiska annaler, vol. 47, 1965.
- 14 — Ravenstein, E.G., The laws of migration, Journal of the royal statistical society, 1885 and 1889 (U.K.).
- 15 — Stouffer, S., Intervening opportunities : A theory relating mobility and distance,  
American sociological review vol. 5, n°4, 1940.  
Intervening opportunities and competing migrants Journal of regional science,  
vol. 2, 1960.
- 16 — Zipf, G.K., The P1 P2/D Hypothesis : On the intercity movement of persons  
American sociological review, vol. 11, 1946.

### الفرنسية عامة

- 1 — Dictionnaire démographique multilingue  
Volume français — Nations Unies — Etudes démographiques n°29
- 2 — Hugon, P., Démographie, Dalloz, 1971.
- 3 — Landry, A., Traité de démographie, Ed. Payot, 1945.
- 4 — Sauvy, A., Théorie générale de la population, vol. 2, Ed. PUF, 1966.
- 5 — Courbage, Y. et Fargues, Ph., La situation démographique au Liban Tome 2  
Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth 1974.

### خاصة

- 6 — Courgeau, D., Les champs migratoires en France  
I.N.E.D., cahier n°58, 1970.
- 7 — Dollat, L., Migrations humaines, „ Que sais-je ? ”, n°224, PUF, 1965.
- 8 — Safa, E., L'émigration libanaise, Univ. St. Joseph, Beyrouth, 1960.
- 9 — Touma, T., Paysans et Institutions féodales chez les druzes et les maronites au  
Liban du XVIIe siècle à 1914.  
Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth 1971.  
Un village de montagne au Liban (Hadeth-el-Jobbé), Paris et la Haye, 1958.

د. عبد الكريم أحمد

## مشكلة الزيادة السكانية وأثرها في تطور التنمية في البلاد النامية

شهدت الاعوام القليلة الماضية ظاهرة ملفتة للنظر ، وتشير قدوا كبيرا من القلق ، هي التزايد السريع في عدد السكان في العالم . اذ تؤكد كل التوقعات أن عدد سكان العالم ، الذي يبلغ الآن أقل من أربعة آلاف مليون نسمة ، سيصل في غضون ٤٠ عاما الى حوالي ثمانية آلاف مليون نسمة ، اي الضعف تماما اذا استمرت الزيادة بالمعدل الراهن . وبرغم أن هذه الزيادة ليست مفاجئة ، بمعنى انها جاءت نتيجة لعوامل طبيعية معروفة تماما، فانها برزت على السطح في السنوات الأخيرة ، واتخذت ابعادا دفعت عددا كبير من الخبراء الاجتماعيين والاقتصاديين الى الاصرار على انها باتت خطيرة فعلا وارتفعت أصواتهم تحذر من نتائجها ، وتدمر بشدة والحاح الى

تكتيل الجهود لمواجهةها ، وتؤكد ان « الانفجار السكاني » يهدد الحضارة البشرية كلها بكارث فظيعة اذا نحن فشلنا في ايجاد الحلول الملائمة بها . (١)

ومنذ أربع سنوات أصدرت الأمم المتحدة دراسة عن حالة سكان العالم ، كانت العبارة الأولى التي استهلكت بها هذه الدراسة هي : « يمكن أن نقول عن يقين أن العصر الحديث شهد تحولاً ثورياً حقيقة في ميزان تكاثر الجنس البشرى . . . فلم يتسن قط في أى عهد من عهود التاريخ خفض معدل الوفيات بين البشر إلى المدى الذى تسنى في غضون السنوات المائة الأخيرة » . وتعقد الدراسة مقارنة بين البلاد النامية والمتقدمة في هذا الصدد ، فتشير إلى أن هذه الظاهرة السكانية ( هبوط معدل الوفيات ) بدأت في البلاد المتقدمة . منذ منتصف القرن الماضى ، أما في البلاد النامية فقد برزت الظاهرة إلى الوجود « بروزاً أكثر فجائيةً وأكبر حجماً ابتداءً من منتصف القرن الحالى فحسب » .

وقد يساعدنا على توضيح أبعاد هذه الزيادة أن نعرض صورة لتطور الزيادة السكانية في العالم مستقاة من نتائج دراسة نشرتها منظمة اليونسكو في مايو الماضى ضمن حملة التنبيه والتحذير التى أشرنا إليها .

كان عدد سكان العالم في مطلع القرن الماضى ، أى منذ أقل من ١٧٥ سنة ، حوالي ألف مليون نسمة ، ثم زاد هذا العدد إلى ٢٠٠٠ مليون نسمة في عام ١٩٣٠ ، ثم إلى ثلاثة آلاف مليون في عام ١٩٦٠ ، وسيصل إلى حوالي ٤٠٠٠ مليون في العام القادم . أى أن عدد سكان العالم ، الذى زاد حوالي ٣٠٠ مليون نسمة فقط في ستة آلاف عام ، ثم زاد حوالي ٧٠٠ مليون نسمة في الـ ٢٠٠٠ عام التالية ، (٢) زاد حوالي ١٠٠٠ مليون في ١٣٠ سنة ( من ١٨٠٠ إلى ١٩٣٠ ) ، ثم ألف مليون أخرى في الـ ٣٠ سنة التالية ( من ١٩٣٠ - ١٩٣٦ ) ثم ألف مليون ثالثة في حوالي خمسة عشر عام فقط .

أن هذه الصورة الرقمية لاشك مقلقة ، وهي تفسر إلى حد كبير تشاؤم القائلين بأنه اذا استمرت الزيادة بهذا المعدل فإن سكان العالم سيصلون إلى ٦٥٠٠ مليون نسمة قبل نهاية هذا القرن .

وكما أشرنا ترجع هذه الزيادة إلى عملية طبيعية بحثة لا تنطوى على عنصر المفاجأة ، فكما تقدم الإنسان في مدارج الرقى صار أكثر قدرة على محاربة العوامل التى تجعل عمر الفرد أقل مما يستطيع أن يصل إليه بحكم تكوينه البيولوجي ، مثل المجاعات والكوارث الطبيعية والأمراض

( ١ ) من أهم الشواهد على الخطورة التى يفسلها الخبراء على نتائج هذه الظاهرة أن الإنباء طالعنا مؤخراً بأن هيئة الأمم المتحدة دعت إلى عقد مؤتمر عالمي ضخم يضم ممثلين عن ١٥٠ دولة للنظر في مواجهة آثارها . وقد تم انعقاد هذا المؤتمر في النصف الثاني من شهر أغسطس الماضى ، وقال كورت فالدهايم في خطاب افتتاحه « أن هذا المؤتمر أخطر وأهم مؤتمر دولي تنظمه الهيئة - إذ يتعين على المؤتمر إيجاد الحلول المناسبة لمشكلة الانفجار السكاني المصحوبة بانخفاض المواد الغذائية في جميع أنحاء العالم مما يهدد بحدوث مجاعات رهيبية وخاصة في الدول النامية » .

( ٢ ) يقدر الخبراء أن عدد سكان العالم قبل استقرار الجنس البشرى في الزراعة ( أي منذ حوالي ٨٠٠٠ عام ) كان لا يزيد عن عشرة ملايين نسمة بآى حال من الأحوال ، بل لعله كان أقرب إلى خمسة ملايين . وأنه بلغ ٣٠٠ مليون نسمة منذ ألفي عام فقط .



**الوبائية ، والحد من آثارها المدمرة .** وأدت ذلك بدوره الى انخفاض معدل الوفيات وإطالة الفترة التي يستطيع فيها الفرد أن ينجب . وقد تحقق هذا التقدم كله تقريبا في المائتي سنة الماضية — وهي الفترة التي زاد فيها عدد السكان من ١٠٠٠ الى ٤٠٠٠ مليون نسمة دون أن نتنبه لمغزى هذا التصاعد السريع في معدل الزيادة . وهكذا وجدنا أنفسنا لأول مرة في التاريخ البشري ، أمام « ثورة ديموجرافية » تهدد في رأى البعض ، بكارثة ماحقة .

**ولسنا في حاجة ، ونحن حيال هذه الصورة الى تأكيد ان مثل هذا التزايد في السكان له آثار عميقة على الجهود المبذولة لنشر التعليم وتحسين نوعيته ، وبخاصة في البلاد النامية .** فالجانب التربوي من الصورة يشير الى أن مجموع من هم في سن الدراسة من ( ٥ الى ١٩ سنة ) قد زاد في الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٨ حوالي ٢٠٠ مليون تلميذ ، أي بمعدل زيادة سنوية ٢٣٥ (٢) ويرى الخبراء أن متوسط الزيادة السنوية في عدد هذا القطاع من السكان سيصل الى ٣٦ مليون نسمة سنويا طوال الربع قرن التالي، أي أن على الاجهزة التربوية ان تستعد لمواجهة عبء اضافي على ما تحمله الآن يقدر بحوالي الف مليون تلميذ قبل ان ينتهي هذا القرن .

فاذا ادخلنا في اعتبارنا ان هذه الأرقام تنصب على العالم كله ، الدول المتقدمة والنامية على السواء ، وانها تمثل في الواقع عبئا بالنسبة للبلاد النامية اكبر بكثير مما تمثله بالنسبة للبلاد الأخرى ادر كنا بعض أبعاد المشكلة بالنسبة لنا ، وعندما نضيف الى ذلك الأعباء الإضافية التي تقع على عاتق الاجهزة التربوية في المنطقة التي يعيش فيها كما سيأتي تفصيلا والمعوقات الكثيرة الأخرى التي تقلل من فعالية أية جهود تبذل في سبيل التغيير الاجتماعي عموما فيها ، نصبح في وضع أفضل لدراسة هذه المشكلة وتقدير متطلبات مواجهتها .

لقد حاولنا في هذه المقدمة ان نعرض الخطوط الرئيسية للقضية المطروحة ، ويبقى أمامنا الآن ان نتناول كلا من هذه النقاط بشيء من التحديد فيما يتصل بالبلاد النامية ، ولكن قبل ان نخوض في هذا الجزء من البحث ينبغي أن نشير الى حقيقتين هامتين ، تتعلق أولاهما بالقضية ككل ، والأخرى بظروف البلاد النامية بصفة خاصة .

ان هذا التزايد المذهل في عدد سكان العالم ، الذي بلغ من حدته أن صار يطلق عليه « الانفجار السكاني » ، ليس ظاهرة منعزلة ، بل هو جزء من تطور واسع النطاق يمثل ثورة حضارية شاملة في جميع مناحي الحياة ، الاقتصادية والعلمية ، وأكبرها — ونجم عنها — تغير ضخيم في الخريطة السياسية للعالم ، وبخاصة وضوح انقسام الجنس البشري الى مجموعتين متميزتين من الشعوب — شعوب متقدمة وأخرى نامية (٤) . وقد صاحب هذا التطور الضخم تطور آخر على صعيد الوعي الاجتماعي والفردى هو في الحقيقة الذي يضاف على كل التطورات الأخرى مغزاها الحالي .

( ٢ ) زاد عدد سكان العالم في نفس الفترة أكثر قليلا من ٥٠٠ مليون نسمة أي بمعدل ٢٪ سنويا وهو أقل من معدل زيادة لتلاميذ المدارس كما نرى .

( ٤ ) يرى البعض أن أهم المشكلات التي يواجهها العالم الآن ثلاث : زيادة الهوة بين الأمم الغنية والأمم الفقيرة . زيادة العدد المطلق للأميين . الانفجار السكاني ( وقائع اليونسكو ١٩٧٢ ) . ولكن من الجلى أن هذا الرأى لا يمس إلا بعض جوانب الصورة .

**والحقيقة الأخرى** التى نريد الإشارة إليها هنا هي أنه من الخطأ أن نتصور أن كل المشاكل التربوية التى تعانيها البلاد النامية ترجع أساسا إلى ما يطلق عليه الانفجار السكاني ، فهناك عوامل أخرى عديدة يتطلب الأمر عرضها حتى تأتي الصورة متكاملة ويمكن الإحاطة بالمشكلة وجذورها إذا أن البلاد النامية تختص بمجموعة من السمات المشتركة التى لها أثر كبير في تفاقم المشكلة وفيما يترتب عليها من ظواهر تربوية خاصة، ولا مندوحة أمام الباحث من التعرض لهذه السمات إذا أراد أن يعطى انطبعا صححيا عن القضية ، خصوصا وأن هذه السمات تترك آثارا مباشرة وغير مباشرة في كل مناحي النشاط البشرى ، الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، في هذه البلاد بحيث لا يمكن استيعاب خلفية أية قضية من قضاياها دون الإلمام بها . (٥)

فكل البلاد النامية تقريبا تعرضت مثل السيطرة الأجنبية ، واستغلال اقتصادى شوها نموها وأضعف بنيتها الاجتماعية والاقتصادية بصورة تكاد تكون متماثلة فيها جميعا ، ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نمزو كل ما بين البلاد النامية من تشابه في السمات إلى هذا العامل وحده ، إلا أنه لا ريب في أن التشوية الذى تعرض له نموها بسببه كان له أثره الواضح فيها جميعا .



كان متوسط المواليد في البلاد النامية والمتقدمة على السواء حتى منتصف القرن الماضي يبلغ حوالي ٤٠ في الألف والوفيات حوالي ٣٠ في الألف ، ثم بدأ معدل الوفيات ينخفض في البلاد المتقدمة حتى وصل الآن إلى أقل من ١٠ في الألف، بينما ظل ثابتا تقريبا في البلاد الأخرى حتى منتصف القرن الحالي ، أي منذ أقل من خمسة وعشرين عاما ، إذ ظل معدل الوفيات فيها فوق ٣٢ في الألف . ولكننا لا نلبيث أن نفاجأ في السنوات القليلة الماضية ( ومما يسترعى الانتباه أن هذه الفترة ذاتها هي الفترة التى بدأ فيها انحسار الاستعمار الغربي ) بهبوط معدل الوفيات في هذه البلاد إلى النصف تماما ، أي حوالي ١٦ أو ١٧ في الألف ، كما صاحب ذلك بطبيعة الحال ارتفاع في متوسط الأعمار من حوالي ٤٠ سنة إلى أكثر من خمسين سنة .

**وبذلك صارت المحصلة التى لدينا الآن هي أنه إذا كان الجنس البشرى كله يتزايد في الوقت الحاضر بما يقدر بحوالي ٧٠ مليون نسمة سنويا ، فإن أكثر من ٥٥ مليون منها في البلاد النامية وحدها ، بينما لا تتجاوز الزيادة السنوية في البلاد المتقدمة في أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا واليابان أكثر من ١٤ مليون ، أي بنسبة ٤ إلى ١ .**

وفيما يتصل بالأطفال، وهم العنصر الرئيسى حاليا في الجانب التربوي من المشكلة ، فإن معدل الوفيات بينهم في البلاد النامية هبط من ٢٣٠ إلى ١٤٠ في كل ألف طفل ، بل أن بعضها هبط فيه

( ٥ ) لا يفوتنا هنا أن نسجل أن ذلك لا يعني أن كل البلاد النامية متطابقة بعضها مع بعض ، فهناك اختلافات واضحة بينها وتنفرد كل منها ، أو كل مجموعة منها ، بعدة خصائص يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند محاولة اكتشاف الحلول الملائمة لمشاكلها . ولهذا السبب عمدنا إلى تخصيص مكان خاص للبلاد العربية في هذا البحث . وفيما يتصل بالسمات المشتركة بين البلاد النامية ، انظر مثلا « عبد الكريم أحمد » « القومية والمذاهب السياسية » القاهرة ١٩٧٠ . حيث يوجد بحث مسهب حول الموضوع والآراء المختلفة فيه وقائمة بالمراجع التى تعالجه .

المعدل الى مادون ٣٠ في الالف - حوالى المعدل السائد في بعض اكثر البلاد تقدما . (٦) ويعنى ذلك ان على الأجهزة التعليمية ان تواجه زيادة سنوية في مجموع من يجب تعليمهم تبلغ ٤٪ على الأقل من هذا المصدر وحده، بالإضافة الى الزيادة الأصلية .

كما يعنى من ناحية أخرى، لها صلة مباشرة أيضا بالواقع التربوى في البلاد النامية أن أية محاولة لتحسين مستوى المعيشة وتحسين أوضاع الطبقات الأقل دخلا ، التي تتألف منها الأغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد ، مقضى عليها بالفشل الى حد كبير ، او على الأقل لا يمكن ان تصيب سوى نجاح ضئيل جدا ، لأن ارتفاع معدلات الزيادة السكانية تبتلع معظم نتائج الجهود المبذولة في هذا السبيل ، كما يبدو بوضوح من نتائج التجربة الجزائرية والمصرية في هذا المجال ، وهما من التجارب الرائدة التي كتلت فيها كل امكانيات المجتمع لتحقيق هذا الهدف .

وعندما نعود الى الجانب التربوى البحت نجد في معظم البلاد النامية عاملين آخرين مهمين ساعدا على ذلك التدفق الرهيب الذى شاهده المدارس فيها .

ففى مواجهة الاستعمار الأجنبي كان لطلب « الاستقلال » والتخلص من النير الأجنبي والاستقلال الاقتصادى المصاحب له أولوية خاصة على الاهداف الأخرى في هذه البلاد ، فكرست له شعوبها أكبر قدر من جهودها على حساب غيره من الاهداف ، ومن بينها العمل على تعليم أبنائها ، فظلت النسبة الغالبة بينهم محرومة منه . وقد حصلت معظم هذه الشعوب على استقلالها بعد نضال طويل ودام في كثير من الحالات ، وكان على رأس هذه الحركات النضالية عادة قيادات من المثقفين من أبناء البلاد ممن لا ينتمون الى « طبقة » اجتماعية معينة ، وبحكم أن هذه القيادات تفقد الى التأييد الطبقي في دعم حكمها للبلاد بعد الاستقلال فانها لم تجد أمامها سبيلا سوى السعى للحصول على تأييد الجماهير . وفى الغالب كان من أهم ما قدمته القيادات الجديدة لجماهير شعوبها اتاحة فرصة التعليم وتيسير سبله وتخفيض نفقاته ، أو رافعها كلية عن عائق التلميذ . ومن الجلى أن ذلك أدى الى تدفق سيل ضخم من الطلاب والتلاميذ مما ألقى عبئا ثقيلا تنوء به اكتاف الأجهزة التربوية في هذه البلاد .

وعلىنا أن نضيف الى ذلك مصدرا آخر من مصادر زيادة عدد من يجب أن يتمتعوا بالخدمات التعليمية في البلاد النامية، ونعنى به ظاهرة الإقبال على تعليم الفتيات في مناطق كثيرة من هذه البلاد . فالى عهد قريب كان عدد البنات في المدارس أقل بكثير من الأولاد ، وكان ذلك يرجع الى عزوف الأهالى عن ارسال بناتهم الى المدارس لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية . ولكن في الفترة الأخيرة بدأت تظهر في عدد كبير من هذه المناطق اتجاهات اجتماعية تؤدي الى زيادة الاهتمام بتعليم البنات ، والنتيجة الطبيعية لذلك هي زيادة مجموع التلاميذ من ناحية ، وضرورة تغيير بعض جوانب مهمة من النظام التعليمي ذاته من ناحية أخرى . وكلها أعباء تعتبر جديدة ، ومفاجئة ، على الأجهزة التربوية خصوصا في المناطق التي مازالت تطالب بأن يكون للاناث مدارس خاصة لا يختلطن فيها بالذكور .

( ٦ ) جمعت هذه المعدلات والتوسطات وما سبقها ، من نشرات هيئة الأمم المتحدة وبعض وكالاتها المتخصصة ومن النشرات الإحصائية الرسمية المتاحة التي تصدرها بعض الدول .

هذا ، ولعل التركيب السكاني من الناحية العمرية دورا غير صغير في زيادة المشاكل التربوية حدة في البلاد النامية . اذ ان نسبة من هم في سن الدراسة التقليدية - اى اولئك الذين بين الخامسة والخامسة عشرة على الأقل - الى مجموع السكان تزيد في هذه البلاد عنها في البلاد المتقدمة كثيرا ، ففي الاولى تبلغ هذه النسبة حوالي ٢٣ في المائة - وتصل في البلاد العربية الى ما يقرب من ٢٧٪ - ولا تكاد تصل في الثانية الى اكثر من ١٨ في المائة . وبعملية حسابية بسيطة نجد **اولا** : ان المجهود الذى يجب ان تبذله الاجهزة التعليمية في البلاد الاقل حظا تزيد - عندما يتساوى عدد السكان - حوالى ٥٠٪ عن المجهود الذى يلقى على عاتق الاجهزة المقابلة في البلاد الاكثر تقدما بسبب هذا العامل وحده ، وثانيا ، بنفس العملية الحسابية البسيطة نستطيع ان نتبين ان في مثل هذه الاوضاع تكون نسبة ما يبقى بعد ذلك من السكان القادرين على الانتاج - اى اولئك الذين بين الخامسة عشرة والخامسة والستين - اقل في البلاد النامية منها في البلاد الاخرى ، وبالتالي فان عدد من يمكن توفيرهم للقيام بالخدمات التربوية ، وكذلك ما يمكن تخصيصه من امكانيات مادية ، اقل بكثير ايضا . واذا اخذنا في الاعتبار ما نعرفه من ضعف انتاجية الفرد في بلادنا عموما ، وأنه لا يستطيع عادة ان يستمر في العمل الى الخامسة والستين ( بل ان متوسط العمر نفسه لا يصل الى هذا السن (٧) ، وكذلك ان نسبة كبيرة من الاناث في كثير من المناطق النامية لا يسمح لها حتى الآن بالعمل أو تعمل في اعمال غير منتجة مثل الخدمة في المنازل ، لعزوف الكثيرين عن تعليم بناتهم كما اسلفنا ، استطعنا ان نتصور مدى العبء الكمي وحده ، الذى تروح تحته الاجهزة التعليمية في البلاد النامية .

وقد اندفعت معظم المجتمعات النامية ، بعد ان تخلصت من الاستعمار مباشرة ، ولم يحدث ذلك الا منذ عهد قريب جدا بالنسبة لعدد كبير منها ، في صراع مرير ضد عوامل التخلف الداخلية الثلاثة ، الفقر والجهل والمرض . واعتبر قادة هذه المجتمعات ان التغلب على الجهل بالذات ونشر التعليم على اوسع نطاق هو الضمان الوحيد للمحافظة على الاستقلال الذى حققته بلادهم باعتباره الوسيلة الرئيسية في القضاء على العاملين الآخرين وفي تحقيق التنمية التى تتيح لشعوبهم الحياة الانسانية الكريمة .

فاذا أضفنا الى ذلك ان القيم الاجتماعية تغيرت كثيرا في معظم هذه المجتمعات بعد ان دخلت في مضمار الدول المستقلة ، وخصوصا تلك التى مرت بثورات اجتماعية ، بحيث ان « الجدارة » - التى تحولت في البلاد النامية الى مجرد الحصول على « الشهادة المدرسية » - أخذت تحل محل الانتماء الاجتماعي في بعض المجتمعات ومحل المال في مجتمعات أخرى ، في توفير الامتياز الاجتماعي والاقتصادى . وقد جعل هذا التحول في القيم التعليم الوسيلة الرئيسية للرقى الاجتماعي والاقتصادى بالنسبة للأفراد في هذه البلاد ، وبذلك برز عامل آخر من العوامل التى حدثت

( ٧ ) يبلغ متوسط عمر الفرد في البلاد المتقدمة ٧١ سنة ، ولا يتجاوز ٥٨ سنة في البلاد النامية .

بالجمهير الى التدفق على المدارس . ودفعت القيادات الى زيادة هذا التدفق اشتعالا باعتبار ان التعليم هو العصا السحرية التي يمكن أن تحقق للمجتمعات سبل التقدم (٨) .

الا ان البلاد النامية في اندفاعها نحو التعليم لم يكن لديها الوقت الكافي ، ولا الامكانيات الفنية والمادية ، لتطوير نماذج تربوية خاصة بها تسد احتياجاتها الحقيقية ، ولذلك عمدت في اغلب الاحيان الى التقليد الاعمى للنماذج الأوروبية باعتبارها خلاصة ما بلفته « التربية الحديثة » من تقدم وفعالية . بل كثيرا ما رأينا بعض التربويين في بلادنا يقبلون على نماذج ثبت فشلها فعلا في البلاد التي وضعتها أصلا . كما سارع بعضهم الى التقاط أى اتجاه جديد في تكنولوجيا التربية يظهر في البلاد المتقدمة - التي تختلف ظروفها وواقعها تماما - حتى قبل أن يتثبت أصحابه أنفسهم من صلاحيته . وقد أدى ذلك الى ارتفاع نفقات التعليم بشكل يتجاوز كل الحدود المتصورة للعائد منه ، كما كان عاملا مساعدا في القضاء على النماذج التعليمية الخاصة التي كانت أصلا في هذه البلاد - مثل « الكتائب » في بعض البلاد العربية - وكانت هذه النماذج ذات قيمة تربوية لا تنكر ولكنها تحطمت باسم « تحديث التربية » دون أن تبدل أية جهود حقيقية لتطويرها بحيث تتفق مع التغيرات الكبرى الأخرى التي تمر بها المجتمعات النامية .

واكثر من ذلك ، كان من نتائج هذا الاندفاع في تقليد النماذج التربوية الغربية أن أصبح النظام التعليمي في البلاد النامية أكثر تأثرا باحتياجات البلاد المتقدمة التي نقلت عنها هذه النماذج منها باحتياجاتنا التي تختلف تماما . وقد كان لذلك آثار ضارة في كثير من الأحيان ، ليس أقلها أنها أرغمتنا على زيادة الاعتماد على البلاد المتقدمة أكثر فأكثر ، في حين أصبحت لدينا أعداد ضخمة من الخريجين في مجالات لا حاجة بنا اليها ، ونقص واضح في المجالات التي نحن في أمس الحاجة اليها فعلا ، مما نجم عنه مشكلة عسيرة الحل هي مشكلة بطالة ذوي المؤهلات العليا وما يترتب عليها من آثار اقتصادية وسيكولوجية واجتماعية سيئة . (٩) فمن الأمور

( ٨ ) يعبر احد خبراء التربية في معرض شرحه للجهود المبذولة في تحديث « التربية في جنوب آسيا عن وجهة نظر مقاربة قائلا : ان التعليم يمكن ان يصير اكثر العوامل فعالية في تصحيح الهوية مع الوقت بين الرخاء والفقر ... اذ برغم ان التعليم لا يستطيع ان يساعد كثيرا على التقريب بين الدخول على المدى القصير ، فانه بالتأكيد يستطيع ان يفعل الكثير في الرأى حياة الفقراء كما في حياة الاغنياء . ويختم رايه بان « المجتمعات النامية تستطيع ، بمعونة النوع الملائم من التربية ان تحقق اكتفاء وتوافقا لا يستطيع تحقيقها بعض المجتمعات الثرية » .

Prem kirpal ,, Modernization of Education in South Asia ; The Search for Quality.,, International Review\_of Education No. xvII 1971.

( اوردتها تقرير لجنة فور ص ٣ )  
وبرغم ان الكاتب يسجل عدة اتجاهات في هذه العبارة قد لا تتفق معه في بعضها ، الا ان حديثه ينهي عن مدى ما يعلقه بعض التربويين في البلاد النامية على التعليم كدواء للازمات التي تعاني منها هذه البلاد وكوسيلة لتحقيق اهدافها .

( ٩ ) يذهب بعض علماء الاجتماع الى ان اندفاع البلاد النامية في الاخذ بالتنمية على الانماط الغربية أدى الى عدة نتائج ضارة بهذه البلاد ا - تركيز التنمية في المدن على حساب الريف مما يؤدي الى اتساع الهوية الاقتصادية والاجتماعية بين سكان المدن والريف ب - صارت الانماط الانتاجية والاستهلاكية تعكس حاجات الاغنياء اكثر مما تعكس حاجات الفئات الفقيرة حالا ، ج - تزايد الاعتماد من جانب البلاد النامية على البلاد الفنية ، ولتأنيص القدرة على الاعتماد على الذات د - تحكم ايدي قليلة في الانتاج واستبعاد الجبهة الساحقة من التأثير فيها .

Peter Harper : ,, Prospects " Vol. III No. 2 1973 P. 192.

والرأى هنا ينصب علم 'تنمية بمعناها الواسع الا أننا نرى بأعيننا انه ينطبق تماما على التنمية في المجال التربوي .

المسلم بها ان النظام التعليمي عندما يكون مجرد تطبيق لنماذج قامت في بيئة مختلفة يثير مشاكل ويترك فجوات تحدث أضرارا بالغة على كل المستويات ويعرقل النمو الطبيعي للمجتمع الذي يتعلق به الأمر .

وعلى اكتاف هذا النظام التعليمي المشوه والأجهزة الفاسدة القيت أعباء الزيادة المتصاعدة في أعداد التلاميذ الناجمة عن الانفجار السكاني والعوامل الأخرى التي اشرنا اليها . وقد بذل العاملون في الخدمات التعليمية في بعض البلاد النامية - بمعونة مشكورة من جانب بعض المنظمات الدولية - جهودا بطولية لمواجهة هذه الأعباء وبرغم ذلك كانت النتائج مخيبة للآمال وغير مرضية بالنسبة لجميع الأطراف ، وتمالت الأصوات من كل جانب وتواتت الاتهامات بالعجز والتقصير وكثرت الحلقات والمؤتمرات واللجان المتخصصة لاستقصاء الأسباب وعلاج الحالة .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن رجال التربية والمشتغلين بالخدمات التعليمية في البلاد النامية ومحاولة تبرئتهم من هذه النتائج التي خيبت الآمال البراقة الأولى المعقودة على التعليم . ولكننا لابدأن نسجل بعض المعوقات وجوانب النقص والأعباء الإضافية الملقاة على عاتق الأجهزة التعليمية في البلاد النامية حتى تتضح الصورة أكثر امامنا .

اولا : ان كل البلاد النامية تقريبا تمر ، بحكم ظروفها وتطلعها الى التقدم ، بفترة من الانتقال السريع من مجتمعات زراعية تقليدية الى مجتمعات تلعب فيها الصناعة دورا متزايدا في الانتاج ، ويصاحب هذا الانتقال عادة قلقة اجتماعية واقتصادية عميقة الاثر في تكوينها ، كما تتطلب تدريبا شاقا على وسائل الانتاج الحديثة ، وتكوين المهارات والخدمات التي تفتقد اليها واللازمة لسير المجتمع الحديث في جميع المجالات - ومن الجلى أن العبء الأكبر في القيام بهذه المهام يقع على عاتق الأجهزة التربوية بمختلف انواعها ، بما فيها أجهزة تعليم الكبار .

ونستطيع ان نضيف الى هذه الظاهرة ان اللفتة على التنمية الاقتصادية السريعة بهدف رفع مستوى المعيشة لدى شعوب طال حرمانها من كثير من مستلزمات الحياة ، دفع البلاد النامية الى تكثيل الجهود في هذا الاتجاه وتكريس كل الامكانيات المتاحة لهذا الغرض . وتحت هذا الشعار ربط النظام التعليمي في كثير من الحالات بالاحتياجات الاقتصادية في اطار ما يسمى « بخطط العمالة » . ومن المعروف ان محاولة تنظيم البناء التعليمي بما يتفق مع متطلبات التوسع الاقتصادي ( الذي قد يتطلب مثلا زيادة عدد الفنيين المتوسطين اكثر مما يتطلب زيادة عدد المؤهلين تاهيلا جامعي ) تواجه عادة عقبات شديدة ناجمة عن تطلع معظم التلاميذ الى الالتحاق بالتعليم العالي والجامعي ، لما يعود عليهم به من مزايا اقتصادية واجتماعية ، حتى عندما تكون الامكانيات المتاحة غير كافية لاستيعابهم جميعا . وعلى الأجهزة التعليمية ان توفق بين هذه الاتجاهات المتعارضة والا تكون قد فشلت في جانب هام من مهمتها .

ولا يسعنا هنا الا الاشارة الى أن الضعف المشهود للامكانيات المادية والفنية في البلاد النامية يجعل قيام الأجهزة التربوية فيها بهذه المهام أصلا بطريقة مرضية مشكلة عسيرة جدا ، خصوصا

بالنظر الى أن من السمات المشتركة بين هذه البلاد أنها جميعا تقريبا تعاني هجرا شديدا في معظم الكفاءات الفنية والادارية الضرورية للقيام بالمهام التي تتطلب تدريبا علميا طويلا ومكلفا (١٠).

**ثانيا : لا يقتصر العبء الملقى على عاتق الاجهزة التعليمية في البلاد النامية على القيام بالمهام الخاصة السابقة ، بالإضافة الى المهام العادية التي تقوم بها الاجهزة المقابلة في البلاد المتقدمة ، وفي ظل ظروف اجتماعية قاسية وتقص شديد في العناصر الأساسية في العملية التربوية ، هناك مهمة أخرى ضخمة تقوم بها هذه الاجهزة تتطلب جهودا شاقة وخبرات متعددة ومرونة كبيرة في مواجهة مشكلاتها، وهي مهمة محو الأمية. فمن المعروف ان الأمية متفشية بشكل وبائي في معظم البلاد النامية ؛ وقد بدأت بعض هذه البلاد في محاربة هذا المرض منذ عشرات السنين ، ولكن برغم كل الجهود المبذولة في محو الأمية يزداد العدد المطلق للأميين عاما بعد عام ( وان كانت نسبتهم لمجموع السكان تقل ) بسبب النمو السكاني الكبير . ففي حين كان عدد الأميين في العالم ٧٠٠ مليون في عام ١٩٥٠ صار يقدر بأكثر من ٧٨٣ مليون في ١٩٧٠ - أي بعد عشرين عاما من الجهود المتصلة في هذا المجال . فضلا عن ان نتائج التجارب العديدة التي نشاهدها في ميدان محو الأمية في مختلف البلاد النامية اثبتت بما يدع مجالا للشك أن الأساليب الحالية المستخدمة لا تحقق الأهداف المرجوة ، ولا حتى ما يقرب منها، في المدة المحددة لها . وما زال أمام التربويين الذين يعملون في هذا الميدان أن يبذلوا جهودا أكبر لبلورة الأساليب المثلى التي تحقق نتائج أسرع وأكثر ثباتا .**

**ثالثا : لقد تبين بالأحصاءات الدقيقة أن هناك خسائرا كبيرة في الطاقات والمال تحدث أثناء العملية التعليمية في البلاد النامية ، من أبرز شواهد هذا ترك الدراسة قبل انتهائها لأسباب مختلفة ترجع في كثير من الأحيان لأسباب اقتصادية . إلا أن قسما كبيرا من هذا الفاقد يرجع أيضا الى عيوب في النظم التعليمية يمكن تلافيها .**

فالنظام التعليمي في معظم البلاد النامية مثلا يعطى أهمية خاصة لاجتياز « الامتحان » في الانتقال من سنة دراسية الى أخرى . ويؤدي ذلك الى نتيجتين مباشرتين . فهو يدفع عددا من التلاميذ الذين « رسبوا » الى الانصراف كليسة عن التعليم قبل أن يكونوا قد حصلوا أى شئ له قيمة دائمة وبذلك ينضمون الى جحافل الأميين ، كما تكون النفقات التي تكبدها المجتمع لتعليمهم قد ذهبت هباء . ومن ناحية أخرى لا يخفف انصراف هؤلاء « الراسبين » عن التعليم من العبء الكلى لأن أعدادا مقابلة من الذين يراسبون يبقون « للاعادة » وهم كفيلون بزيادة العبء الى ما كان عليه أو أكثر . (١١) .

ولا شك في ان جانبا غير صغير من الفاقد التعليمي الكبير الذي يزيد من تكلفة التعليم في البلاد النامية ، ويلقى أعباء من نوع خاص على المدرسة يعود ايضا الى ضعف المستوى الصحي

( ١٠ ) من الأمثلة البارزة على ذلك ان الاستقصاء الذي أجرته اليونسكو في عام ١٩٦٦ حول الأوضاع التعليمية في افريقيا جاء فيه أن خريجي العلوم يمثلون ٢,٠ لكل ١٠.٠٠٠ من السكان ويتقابل هذا الرقم ٢,٠ ، ١,٢ ، ٢ على التوالي لآسيا ( بما فيها اليابان ) وأمريكا اللاتينية والبلاد العربية .

( ١١ ) بدأت بعض البلاد النامية في الاتجاه الى تعديل نظمها التعليمية لتلافي هذه الظاهرة ، ولكنها ما زالت حتى الآن منتشرة على نطاق واسع وفي حاجة الى جهود جادة للتخلص منها بصورة مرضية .

بين التلاميذ ، بسبب سوء التغذية والعادات غير الصحية المنتشرة بين الفئات الأفقر حالا من سكان هذه البلاد ، وما ينجم من ذلك من ضعف عام في مستوى التحصيل والاداء بينهم . لذلك نجد ان من الواجبات الرئيسية التي تطالب بها المدرسة الاهتمام بنوع خاص بصحة روادها ، بل وتغذيتهم مجانا في كثير من الاحيان ، وما يترتب على ذلك من مجهود خاص للقيام بالمهام الكثيرة المتعلقة به .

**رابعا :** هناك نوع آخر من المهام التي تفرضها الظروف على العملية التربوية في كثير من البلاد النامية تتطلب جهودا اضافية وتعقد المناهج وتقتطع جزءا غير صغير من وقت وطاقات الأعداد المحدودة المتاحة من المعلمين . ففي عدد من البلاد النامية ، وبخاصة تلك التي تتألف من جماعات مختلفة لغويا أو دينيا أو سلاليا وتسعى الى دعم وحدتها، يقع على عاتق المدرسة دور كبير في القيام بهذه المهمة وتطالب بالاسهام بنصيب الأسد عادة في اعداد سكانها لتقبل فكرة الوجود في دولة واحدة . ويكون ذلك شاقا بصفة خاصة في البلاد التي تتمدد فيها الجماعات المختلفة لغويا وتجد المدرسة نفسها مضطرة الى القيام بمهامها المختلفة بأكثر من لغة مع المحافظة على عدم المساس بأي من القيم المتباينة التي يثير المساس بها حساسيات خاصة في مثل هذه التجمعات السكانية المختلفة .

يزداد هذا النوع من المهام تعقيدا عندما يكون على النظام التربوي في بلد من البلاد النامية أن يواجه اختلافات كبيرة في مستوى التعليم وانتشاره وكفاية عناصره بين منطقة ومنطقة داخل البلد الواحد - كما هو الحال بين المدينة والريف في الأغلبية الساحقة من هذه البلاد . (١٢)

ولا يقتصر هذا النوع من المهام على البلاد المؤلفة من جماعات مختلطة ذات خلفيات حضارية متباينة ، وهي مهام لا يدرك عادة مدى تعقيدها واثرها العميق في العملية التربوية سوى من يعانونها فعلا ، بل يشمل جانبا آخر من المجهود التعليمي في كل البلاد النامية تقريبا . فهذه البلاد كما اشرنا حظيت بالاستقلال بعد نضال شاق بحيث صارت المحافظة على هذا الاستقلال هدفا تربويا قائما بذاته ؛ ولذلك صار من واجبات المدرسة العمل على المحافظة على « الشخصية القومية » وبث « روح الوطنية » ودعم « الوحدة القومية » . وقد يبدو أن هذه المهمة ليست ذات شأن كبير بالنسبة لما أسلفنا من مشاكل ومهام ، وبخاصة ان شيئا من هذا القليل يقع أيضا على عاتق المدرسة في البلاد المتقدمة . ولكننا نستطيع ان نثبت ان أي مدى تحتل هذه المهمة مركزا متميزا بين أهداف التربية في البلاد النامية ومقدار ما تستقرقه من طاقات ووقت ، عندما نراجع مقررات المؤتمرات والحلقات التي تعرض لمشكلات التعليم وأهداف التربية في هذه البلاد ، فان مطلب المحافظة على الطابع القومي وترسيخ دعائم الشخصية القومية يعتبر مهمة ذات أولوية خاصة نجد صداها بوضوح في البرامج المدرسية والمواد الاضافية التي تلتهم جزءا غير صغير من جهود المدرسين والتلاميذ على السواء (١٣) .



( ١٢ ) لا يقلق الامر عند الاختلاف بين المدينة والريف ، فقد توجد هذه الاختلافات بين مناطق باكملها . ففي الهند مثلا تبلغ نسبة عدد المقيدين في المدارس في المرحلة الاعدادية ٧١٪ في كمبالا بينما لا تزيد عن ٢٢٪ في بيهار . ويبلغ الفرق أكثر من ذلك في السودان بين بعض المناطق الشمالية والجنوبية .

( ١٣ ) انظر مثلا ما تيوذ وعقراوى ، « التربية في الشرق الاوسط العربي » ص ٦٩٣ ، وهو ترجمة عربية لدراسة قاما بها في البلاد العربية من ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ . وهما وان كانا يتحدثان عن هذه الظاهرة اصلا في البلاد العربية فانها تشمل كل البلاد النامية باختلاف درجات نموها . ففي مؤتمر البندقية الذي عقد في ١٩٧٢ يعبر مندوب فينينا عن افكار من هذا القبيل قائلا « ان بعث ثقافة وطنية يعني تمكين البلاد من ان تجد من جديد روحها وتوازنها المعنوي واعدادها لاستيعاب التقدم دون ان تلوب فيه » ( وقائع اليونسكو . اكتوبر ١٩٧٢ )



هذه هي بعض المهام التي تلقى على عاتق أجهزة التعليم والتربية في البلاد النامية والعقبات التي تواجهها . وهذا هو جانب من الظروف القاسية التي عليها أن تقوم بدورها في ظلها .

وعلىنا أن نشير هنا الى ان « المدرسة » في هذه البلاد يفترض فيها أن تقوم بهذه المهام جميعا ، بالإضافة الى المهمة التقليدية ، في غمرة تطور سريع لا تكاد تستطيع أن تلاحقه ، وبدون أية مساعدة جديّة من المؤسسات والوسائل التربوية الأخرى في المجتمع ، مثل وسائل الاعلام الحديثة التي يفترض فيها أنها من الوسائل الأساسية في التعليم (١٤) .

وعندما نأخذ ذلك كله في الاعتبار نستطيع ان نتصور الدلالات الحقيقية للتزايد السكاني السريع ، الذي يزيد كل مشكلة من هذه المشاكل حدة ويجعل كل عقبة أكثر خطورة وأصعب حلا ، وأن ندرك مدى تأثيره في تطور التربية في البلاد النامية .

وسنحاول ان نعرض بالتفصيل نتيجة واحدة من النتائج التي تفجرت بصورة يكاد يعجز معها الجهد التربوي عن تحقيق أي تقدم في البلاد النامية ، وهي مشكلة « الكم والكيف » التي تعتبر أخطر ما يواجه التربويين في هذه البلاد من قضايا .

ولكن لما كانت هذه القضايا كلها حيوية جدا وخطيرة حقيقة بالنسبة لبلادنا فاننا سنفرد السطور التالية لتسجيل دلالات ما تقدم بالنسبة للعرب .

منذ قرابة عشرين عاما ألقى أحد رواد التربية الحديثة من العرب محاضرة يحذر فيها من مخاطر الزيادة السكانية السريعة ويعزو ظاهرة « أن الإنسانية في كثير من أنحاء العالم تتعذب لما يعانيه الأفراد والجماعات من ألم الجوع إلى « الزيادة المطردة في السكان » . ثم ينتهي إلى أن هذه الحالة الأسيفة « حدث بأحد علماء الانثروبولوجيا أن يتساءل : هل لنا بعد هذا أن نعيب على الاسكيمو الذين يقتلون المعجّزات ؟ » (١٥)

وليس بغير أن ترتفع إحدى الصيحات الأولى للتنبيه إلى خطورة المشاكل الناتجة عن التزايد السريع في عدد السكان من بلد عربي . إذ أن عدد سكان البلاد العربية زاد في غضون الستينيات الماضية وحدها بنسبة تقرب من ٣٢٪ من مجموع السكان ، أي أن العرب زادوا حوالي ٣٠ مليون نسمة في عشر سنوات بمعدل نمو سنوي ٣٫٢٪ ؛ وهو معدل لا تكاد تعرفه أية منطقة أخرى

( ١٤ ) قد يكون من المفيد هنا أن نورد بعض الأرقام التي تدل على ضعف ما يمكن أن يكون لوسائل الاعلام الحديثة من فعالية في هذا الميدان في البلاد النامية فقد قدرت نسبة الصحف في افريقيا بنسخة واحدة لكل ١٠٠٠ من السكان ، وفي البلاد العربية ١٨ نسخة لكل ١٠٠٠ ، وفي أوروبا وأمريكا ٣٥٠ لكل ألف . وتقدر نسبة أجهزة الراديو بجهاز واحد لكل ١٠٠٠ في افريقيا ، أما في أمريكا فعدد أجهزة الراديو أكثر من عدد السكان ( ١٣٣٩ لكل ١٠٠٠ ) . ومن أجهزة التلفزيون لا يوجد في كل البلاد النامية سوى خمسة ملايين جهاز بينما يوجد منها في البلاد المتقدمة حوالي ٢٤٥ مليون ، أي بنسبة واحد إلى ٤٩ برفم من أن عدد السكان الأولي يبلغ ثلاثة أمثال الثانية .

( ١٥ ) د . امير بقطر في محاضرة القاها في ٢٦ ديسمبر ١٩٥٣ بعنوان « التربية الجنسية ومشكلة السكان » نشرت في مجلة « التربية الحديثة » العدد الرابع - ابريل ١٩٥٥ . ونحن وأن كنا نختلف معه فيما يوحى به من أن السبب في الجوع الذي يعانيه عدد كبير من سكان العالم هو مجرد « الزيادة المطردة في السكان » ، إلا أننا اردنا أن نسجل هنا صيغة التحذير المبكرة هذه .

في العالم ، ربما باستثناء بعض المناطق في أمريكا اللاتينية . فأعلى معدل لتزايد السكان في الفترة ذاتها في البلاد النامية الأخرى هو حوالى ٢٦٪ ، بينما تكاد تقف الزيادة السكانية في البلاد الأكثر تقدماً عند ١٪ فقط . (١٦)

وتشير الدراسة التى اعتمدنا عليها فى توضيح ابعاد هذه الصورة الى أنه من المتوقع أن ترتفع نسبة الزيادة السكانية فى السبعينات الى اقل قليلا من ٣٩٪ أى حوالى ٤٨ مليون نسمة فى السنوات العشر من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ .

فما هو نصيب المدرسة العربية من هذه الأرقام ؟ فى عام ١٩٧٠ كان عدد من هم فى سن المدرسة من أبناء العرب ( بين ٥ - ١٤ سنة ) يبلغ حوالى ٣٣ مليون تقريبا ، ومن الطبيعى أن نتوقع زيادة هذا العدد بصورة يقول عنها كاتب هذه الدراسة أنها « زيادة خطيرة ومحرجة » خلال السبعينات ، وهى حوالى ٣٤ مليون طفل جديد . أى أن الزيادة المتوقعة خلال السبعينات ستبلغ حوالى ٧٥٪ من المجموع فى عام ١٩٧٠ .

وتؤكد الدراسات التى تجرى حاليا فى بعض أجهزة الإحصاء السكانى والتربوى فى البلاد العربية أن هذه الأرقام غير مبالغ فيها ، بل أنها تكاد تكون أقل مما تسفر عنه المؤشرات المختلفة (١٧) .

الا ان المدرسة العربية لا تستوعب كل هذا العدد كتلاميذ ، فهناك قسم غير صغير منهم ، بخاصة فى المناطق الريفية والصحراوية ، لا تراهم المدارس . ولكننا نستطيع أن نتصور العبء الكمي على مدارس التعليم العام بمراحلة الثلاث ، الابتدائى والاعدادى والثانوى ، عندما نرجع الى الأرقام المتاحة فى هذا الصدد من النشرات الرسمية لبعض الدول العربية . ونستطيع أن نأخذ نموذجا الإحصاءات التعليمية فى مصر ، اذ هى تمثل أكثر من ثلث مجموع سكان البلاد العربية كلها .

فى العام الدراسى ٦٦/٦٧ كانت المدارس الابتدائية فى مصر تضم قرابة ثلاثة ملايين ونصف وفى عام ٧٢/٧٣ كان الرقم قد اقترب من أربعة ملايين تلميذ ، بمعدل زيادة سنوية من ٣٪ الى ٣٥٪ فى السنوات الثلاث الأخيرة .

وبلغ عدد تلاميذ المرحلة الاعدادية فى ٦٦/٦٧ حوالى ٦٧٨ ألفا ، ارتفع الى أكثر من مليون فى العام الماضى ٧٢/٧٣ ، بمعدل زيادة بين ٦٩٪ وأكثر من ١٠٪ فى السنوات الثلاث الأخيرة . وفى

( ١٦ ) الدكتور محمد الفنام « التربية فى البلاد العربية » مطبوعات المركز الاقليمى لتخطيط التربية وادارتها فى البلاد العربية - بيروت ) ص ٨ وما بعدها . وهذا المؤلف وثيقة مهمة من الوثائق التربوية العربية تتضمن كثيرا من الإحصاءات والأفكار البنية على دراسة مستقبلية للواقع التربوى العربى . ويحدد الفنام المعدلات السنوية المتوسطة للزيادة فى البلاد العربية المختلفة ( مستندا الى تقديرات قسم السكان فى منظمة الأمم المتحدة ) من عام ١٩٦٣ و ١٩٦٨ كما يلى : الجزائر ٢٩٪ ، السعودية ١٧٪ ، البحرين ٢٤٪ ، العراق ٢٤٪ ، الأردن ٢٤٪ ، الكويت ٦٨٪ ، ليبيا ٢٧٪ ، المغرب ٢٩٪ ، قطر ٧٦٪ ، مصر ٢٥٪ ، السودان ٢٩٪ ، سوريا ٢٩٪ ، تونس ٢٢٪ ، جنوب اليمن ٢٢٪ .

( ١٧ ) تمل الإحصاءات التقديرية الرسمية فى مصر على أن عدد السكان زاد من حوالى ٢١٥ مليون فى ١٩٥٢ الى ٢٤٨ مليون بمعدل نمو سنوى ٢٨٪ من ١٩٥٢ الى ١٩٦٠ و ٢٥٤٪ من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ ثم هبط الى ٢٢٤ بعد عام ١٩٧٠ - ويمزى الهبوط فى المعدل فى السبعينات الى نقص فى معدل المواليد نتيجة لحملات تنظيم الاسرة والارتفاع العام فى مستوى المعيشة والتعليم .

المرحلة الثانوية وصل عدد التلاميذ في ٦٦/٦٧ الى ٢٤٤ ألفا ارتفع الى ٣٢٢ ألفا بمعدل زيادة وصلت الى ٤٨٪ في عام ٧٢/٧١ و ٣٪ في العام الماضي (١٨) .

ونستطيع أن نخلص من هذه الأرقام الى حقيقتين لكل منهما اثره البالغ في الأعباء الملقاة على عاتق المدرسة العربية . الأولى هي أن عدداً للخدمات التعليمية حالياً في البلاد العربية لا تصل الا الى ثلث من يجب أن تصل اليهم على أحسن الفروض ، وأن لنا أن نتوقع أن يتزايد هذا العبء بسرعة كبيرة في السنوات القادمة . **والحقيقة الثانية** هي أن معدلات الزيادة في عدد تلاميذ التعليم العام مرتفعة عن معدلات النمو السكاني كما هو واضح من معدلات الزيادة في المرحلة الإعدادية في السنوات الثلاث الأولى من السبعينات التي تفوق كثيراً معدل النمو السكاني في أوائل الستينات . ولا شك أن الحقيقة الأولى تساعد كثيراً على تفسير هذا الارتفاع في معدل زيادة التلاميذ بالنسبة لمعدل النمو السكاني . ولكن هناك أيضاً أسباب أخرى هي بعض ما أشرنا اليه فيما يتعلق بالبلاد النامية . ولعل أوضح هذه العوامل ، وما يمكن أن نتحقق منه بالأرقام ، هو الاقبال المتزايد في مصر على تعليم البنات ، فقد ارتفع عدد التلميذات في التعليم العام بمراحله الثلاث ، ومعه دور المعلمين والمعلمات ، من حوالي ١٢٣ ألف في عام ٥٣/٥٤ الى ما يقرب من ٢ مليون في عام ٧٢/٧١ أكثر من ثلاثة أرباعه في المرحلة الأولى الابتدائية ، أي أن هذه الأعداد ستتزايد أكثر فأكثر في المستقبل القريب جداً (١٩) .

**وهناك عامل آخر هام** ، من العوامل التي سبقت الإشارة إليها عند الحديث على البلاد النامية عموماً ، ينطوي أكثر من غيره على تفسير للاندفاع نحو التعليم في مصر في السنوات الخمس والعشرين الماضية ، هو تغير وجهة النظر العامة الى التعليم واعتباره أحد العناصر الرئيسية ، بل والعنصر الأول ، في التقدم الاجتماعي والاقتصادي مع التشجيع الكبير من جانب القيادات الحاكمة لهذا الاتجاه . ولا نعتقد أنه يمكن تفسير زيادة عدد التلاميذ المقيدين في المدارس الابتدائية مثلاً الى ثلاثة أمثاله في أقل من عشرين عاماً ( من ١٤ مليون في ١٩٥٣ الى قرابة ٤ مليون في ١٩٧٢ ) الا اذا ادخلنا في الاعتبار هذا العامل .

ولا يقتصر العبء الكمي الذي تتحمله معظم المدارس العربية على هذا التصاعد السريع في عدد الاطفال الجدد . إذ الى جانب أولئك الذين لم يبدأوا تعليمهم بعد ، هناك أولئك الذين بدأوا المرحلة الأولى ولم يستطيعوا اكمالها لأي سبب من يجب تعليمهم منذ البداية . ( ٢٠ )

( ١٨ ) هبط معدل الزيادة السنوي في المرحلة الثانوية في مصر من ١٦٩٪ في ٦٦/٦٧ الى ٦٨٪ في ٦٨/٦٩ ثم الى ٦٨٪ في ٦٩/٦٨ و ٦٩٪ في ٧٠/٦٩ وأخيراً الى ١٧٪ في ٧١/٧٠ ثم عاد الى الأوضاع ثانياً الى ٤٨٪ في ٧٢/٧١ ، وليس هناك تفسير ديموگرافي أو اجتماعي واضح لهذا الهبوط الأخير . وقد يرجع السبب الى تعديلات في بعض الأوضاع الإحصائية التي عدل عنها في السنوات التالية .

( ١٩ ) اخذت هذه الأرقام من دراسة نشرها مركز التوثيق التربوي في القاهرة عام ١٩٧٢ بعنوان « التربية والتعليم في جمهورية مصر العربية » .

( ٢٠ ) هذا ويقدر البعض بأن قرابة نصف عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية لا يستمرون الى نهايته ويخرجون بعد سنة أو اثنتين أو ثلاثة ، أي أنهم لا يمكن أن يكونوا قد استفادوا شيئاً ويجب العمل على استعادتهم الى حظيرة المدرسة وتعليمهم منذ البداية . ( نشرت الصحف القاهرية أن وزير التربية والتعليم فاجأ بعض مدارس التعليم الإلزامي ووجد أن أغلبية التلاميذ الذين مرت عليهم أربع سنوات ما زالوا لا يعرفون القراءة والكتابة بصورة مرفوعة ) . والتقدير السائد بين المشتغلين بالتربية في مصر مثلاً أن حوالي ثلث الميزانية المخصصة للتعليم الإلزامي يضيع بسبب هذه الفئة التي لا تتم تعليمها الى نهاية المرحلة الابتدائية ولا تكون قد استفادت شيئاً .

**ويؤدي التوزيع السكاني في البلاد العربية الريف والحضر الى زيادة الخدمات التعليمية صعوبة بالنظر الى الأوضاع السائدة في الريف العربي وانخفاض مستوى المعيشة فيه .** ومن المعروف ان نسبة سكان المدن في البلاد العربية أقل من ٤٠٪ من مجموع السكان ويعيش الباقي في الريف - بالإضافة الى نسبة صغيرة مازالت تعيش كبدا برغم الجهود المبذولة لتوطينهم وتويعيدهم على الاستقرار الزراعي والحرفي . وبمعنى آخر فإن أكثر من نصف العرب الذين يجب ايصال الخدمات التعليمية اليهم يتطلبون جهودا مضاعفة في ظل ظروف لا تتوافر فيها العناصر الأساسية للعملية التعليمية بصورة تتيح للأجهزة المختلفة أداء دورها التربوي بشكل جدي . (٢١)

وأخيرا ، وليس آخرا ، لا يسعنا هنا إلا الإشارة الى أن البلاد العربية كانت من أوائل البلاد النامية التي أخذت بمفهوم تكافؤ الفرص التعليمية وتشبثت بمبدأ ديمقراطية التعليم وعملت جاهدة على تطبيقه (٢٢) .

وكانت نتيجة كل هذه العوامل توسعا ضخما في التعليم امتد الى كل ركن في الساحة العربية برغم الظروف الشديدة القسوة التي تحدثنا عنها .

**والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هنا هو :** هل أمكن تدبير متطلبات هذا التوسع ، من مدرسين مؤهلين تأهيلا ملائما ، وأبنية مدرسية وأدوات كافية وكتب مدرسية ووسائل تربوية مساعدة في مستوى لائق ؟ أو بمعنى آخر هل أمكن الاحتفاظ بالمستوى المأمول . (٢٣) وهو مستوى مرتفع الى حد كبير اذا صدقنا الشعارات المرفوعة ، للتعليم ؟

يجيب على هذا التساؤل أحد خبراء التربية العرب قائلا : هناك ما يشبه الاجماع على أن توسع التعليم في هذه البلاد لم يصاحبه بوجه عام تحسين مقابل نوعيته ، بل أن هذا التوسع لم يحصل في الغالب إلا على حساب هذه النوعية ؟ (٢٤)

ان مشكلة الكم والكيف هذه ليست قاصرة على البلاد العربية كما أشرنا ، وليس السبب فيها هو التصاعد المستمر في معدل الزيادة السكانية وحده ، ولكن ، لا شك أن هذا العامل هو أحد العوامل الرئيسية التي أدت الى هذه الظاهرة وزادتها حدة وبروزا في البلاد النامية كلها .



( ٢١ ) ان ضعف الخدمات التعليمية في الريف في البلاد العربية امر ملحوظ استرعى انتباه معظم المشتغلين بامر التربية في البلاد . وقد كانت « قلة حظ أبناء الريف من فرص التعليم » أحد أوجه النقص في التعليم العربي التي سجلها مؤتمر وزراء التربية العرب الذي عقد عام ١٩٧٠ في مراکش .

( ٢٢ ) كان من مقررات مؤتمر وزراء التربية العرب المذكور تأكيد حق كل مواطن عربي في التعليم بالقدر والجودة اللازمين للحياة المعاصرة .

( ٢٣ ) جاء في مقررات هذا المؤتمر ايضا « الأخذ بمفهوم التربية المستندة إلى التكامل أنماه لشخصية الإنسان ، وتجديدا للمعرفة ، ومواكبة للتطورات العلمية والاجتماعية في عصر سريع التغير » و « أهمية تحقيق التوازن الكمي والتحسين النوعي للتعليم وكذلك بين الجوانب النظرية والعملية في التربية المدرسية »

( ٢٤ ) الفنام ، المرجع السابق ص ٣ . وهو يصل الى هذه النتيجة بعد ان أكد ان جميع البلاد العربية تقريبا تشكو من نقص خطير في معظم عناصر العملية التعليمية من المعلمين الي المباني والأجهزة الى مستوى الكتب ونتائج الامتحانات .

**كان التوسع الكمي في التعليم في البلاد النامية نتيجة شبه حتمية للعوامل المدينة التي**  
**أشرنا إليها . وقد صاحب هذا التوسع هبوط ملحوظ في نوعية التعليم في معظم هذه البلاد .**  
 فهل أصبح لزاما على قادة البلاد النامية وشعوبها أن يختاروا بين الكم والكيف ، بمعنى أنه من  
 المستحيل ، أو على الأقل من العسير جدا ، تحقيق التوسع الكمي في التعليم إلا على حساب نوعيته  
 مادامت الامكانيات المادية والفنية المتاحة قاصرة عن تحقيق الهدفين ، الكم والكيف معا ؟ وأنه إذا  
 أريد تخريج مواطنين متعلمين تعليما حديثا وجيدا فلا بد من الحد من عدد الذين تتاح لهم  
 فرص التعليم بحيث يصبح وقفا على نخبة متميزة تختار على أساس معايير محددة ، مثل درجة  
 الذكاء أو القدرة على التحصيل أو القدرة على الانفاق .

هذا هو ما يطالب به البعض الآن كما قال مدير عام اليونسكو في تقريره الذي أشرنا إليه  
 سابقا . فهو يتحدث عن ذلك متسائلا : ان البعض يطالب الآن بالحد من سرعة الانطلاق الرائع الذي  
 شهدته الستينات في التعليم في البلاد النامية بحجة المحافظة على الكيف : فهل هذا هو الحل  
 الأمثل ؟

وهل إذا سلم الخبراء التربويون وقادة البلاد النامية بوجود هذا التناقض بين الكم  
 والكيف يستطيعون التحدث بعد ذلك عن « ديمقراطية التعليم » ، وهل تقبل شعوب البلاد  
 النامية هذا الحل ؟

لأشك أن « ديمقراطية التعليم » هدف تصبو الى تحقيقه كل الدول ، متقدمها وناميها  
 على السواء . ولكن في حين أن الدول المتقدمة استطاعت أن تقطع شوطا طويلا في تحقيقه في  
 ظروف مواتية وفي مدة زمنية مريحة نسبيا بحيث كان في وسعها أن تغلب شيئا فشيئا على كثير من  
 المشاكل التي تراكب مثل هذه المسيرة ، فإن البلاد النامية في تطاعها الى تحقيقه بدورها وجدت  
 نفسها فجأة تواجه أنواعا جديدة من المشاكل الصعبة وبخاصة المشكلة التي نتحدث عنها ،  
 مشكلة الكم على حساب الكيف أو الكيف على حساب الكم .

وقد كثر النقاش حول هذه القضية واختلطت فيها المفاهيم بحيث تراكمت الأفكار  
 والحلول بصورة تتطلب من الدارس أن يبذل جهدا خاصا في تحليل مضامينها وتنسيقها حتى  
 يستطيع أن يتبين خيوطها الأساسية .

ان أول ما يطالعنا في هذا الخليط من الأفكار هو تساؤل يلح في طلب اجابة واضحة تنير السبيل  
 لما يمكن أن يأتي بعد ذلك ، وهو : ماهي مقتضيات الديمقراطية في ميدان التربية ، وبمعنى آخر  
 ماهو جوهر مفهوم تكافؤ الفرص التعليمية ؟

من الملاحظ أن الاقبال المتزايد على التعليم ظاهرة عامة في جميع انحاء العالم وفي كل المجتمعات  
 ايا كان مقدار تقدمها أو نموها وأيا كانت أوضاعها الاجتماعية والسكانية أو ثقافتها أو مميزاتها  
 الحضارية . ومن ناحية أخرى فإن آراء الناس في أي بلد في العالم وتصوراتهم عن مجتمعاتهم في  
 المستقبل مهما تنوعت فإن عنصرا رئيسيا من عناصر هذا التصور لا بد أن يكون تنمية الموارد  
 الطبيعية والبشرية التي يملكونها .

فهل هذا الاقبال هو نتيجة الرغبة في التنمية ، أم أن هناك قيمة أخرى تتدخل في  
 الامر بحيث لا يمكننا تفسير ديمقراطية التعليم في ضوء هاتين الحقيقتين ؟

**هناك إجابتان مختلفتان على هذا التساؤل ، تذهب احدهما الى أن ديموقراطية التعليم ، وهي**  
هنا مقترنة بمفهوم تكافؤ الفرص التعليمية ، تعنى « مقعدا في قاعة الدرس لكل راغب في  
التعليم » في المجتمع . وبرغم أن هذه الاجابة تنصب على أن المجتمع عليه أن يكفل مكانا في  
المدارس لجميع أبنائه دون اشارة الى محتوى ما يتلقاه التلميذ أو نوعية التعليم ، وبالتالي نوعية  
المواطن الذي تخرجه المؤسسات التعليمية، فليس هناك في الوقت الحاضر ، في حدود علمنا ، من  
يقبل هذا التفسير ، بل يصر أصحاب هذه الاجابة دائما على أن الكم يجب أن لا يكون على حساب الكيف  
بأى حال ، وانهما يجب أن يسيرا جنبا الى جنب في كل خطوة يتقدمها المجتمع الى الامام تربويا ؛  
وان كانوا لا يحددون ماهية هذا « الكيف » أو الاسس التي يتصورونها لتحديده .

**ويذهب اصحاب الاجابة الثانية الى أن ديموقراطية التعليم هي اساسا مفهوم يتحقق**  
بالارتقاء بالمجتمع ككل تربويا وسد احتياجات التقدم تكنولوجيا واجتماعيا بحيث يعم « الخير » جميع  
أبناء المجتمع . فالديموقراطية هنا لا تنصب على تكافؤ الفرص التعليمية لأفراد المجتمع دون تمييز  
باعتبار أن ذلك هو « خير » المجتمع تربويا ، بل تنصب على « خير » آخر أكثر عمومية وأوسع  
نطاقا .

ولكن أول ما يتبادر الى الذهن هنا هو أن تحقيق هذا الهدف يتطلب اختيار أكثر الأفراد  
قدرة على ملء الفجوات الموجودة ، أو المتصورة ، في البناء الاجتماعي ومنحهم فرصة أوسع ونصيبا  
أوفر في الجهود التربوى للمجتمع . وهذا في رأينا برغم أنه يخلصنا من مشكلة الكم والكيف من حيث  
تصبح الزيادة الكمية غير مطلوبة لذاتها ، ينطوى على نفى مباشر لمفهوم ديموقراطية التعليم. كما  
تفهمه أغلبية الناس عموما .

إذا أن الاهتمام تربويا « ببعض » أفراد المجتمع دون الآخرين ، أيا كانت المبررات  
« والخير » الذى يحققه ذلك ، يجعل من مبدأ تكافؤ الفرص مفهوما مشوها ، خصوصا عندما  
نأتي الى المعيار الذى سيختار بمقتضاه المحظوظون وتعيين الحكم الذى سيضع مواصفات أولئك  
الذين يرشحون لملء الفجوات ، بل ومن الذى يحدد هذه الفجوات ؟ وهل معيار تحديد أولويات  
ملء الفجوات - حتى إذا اتفق عليها - هو احتياجات المجتمع القائم أم مجتمع المستقبل ؟  
وغير ذلك من الثغرات الأخرى التى تخلق مشاكل جديدة بدلا من أن تحل المشكلة التى تواجهها  
أصلا .

**ولنعد الآن الى تحليل الاجابة الأولى لعلمنا نخلص منها الى بعض الافكار التى قد تنير امامنا**  
السبيل .

علينا أولا أن نسجل أن ديموقراطية التعليم لا يمكن ، كما أسلفنا، أن تعنى مجرد تكافؤ الفرص  
للجميع في الحصول على مقعد في مدرسة ، أو أن يكون التعليم - بصرف النظر عن نوعيته - في  
متناول كل راغب فيه ، بل انها تعنى أيضا وبنفس القدر من التركيز أن يكون مضمون التعليم وأهدافه  
مما يحقق الاهداف الديموقراطية بصفة عامة ، وأن يرتفع مستوى الفرد من جميع النواحي  
معنويا وماديا - أي أن لا يكون مجرد وسيلة لاعداده لكسب لقمة العيش .

ومن ثم فإن مجرد المساواة في فرص الدخول في المدارس لا تعنى التكافؤ في الفرص التعليمية ،  
حيث أن أولئك الذين لديهم قدرة اقتصادية مرتفعة يستطيعون الحصول على مساعدات

تعليمية اضافية تتيح لهم سد النقص في الخدمة التعليمية التي يتلقونها مع زملائهم الأرق حالا ، كما يساعد على التفوق المدرسى على هؤلاء الزملاء أى أن انخفاض مستوى الخدمات التعليمية تعنى في الحقيقة تمييز « البعض » على غيرهم حتى وان وصلت هذه الخدمات الى الجميع .

نستطيع ان نخلص من ذلك اولا الى أنه لا ديموقراطية في التعليم ، ولا تكافؤ في الفرص التعليمية ، الا اذا سار التقدم في الاتجاهين معا - زيادة مطردة في عدد من تصل اليهم الخدمات التعليمية وتحسين في نوعية هذه الخدمات - فهما يمثلان في الواقع جانبين مترابطين تماما لقضية واحدة . وعلينا ان ندرك أنه برغم الضغوط الهائلة التي يمثلها التصاعد الكبير في النمو السكاني وغيره من العوامل الأخرى التي تزيد من التدفق على التعليم ، فان التوسع الكمي غير المصحوب بجهود مقابلة لتحسين النوعية لا يحل المشكل ، بل انه في الحقيقة يخلق مشاكل جديدة أكثر خطورة وينحدر بفكرة التربية بأكملها الى مستوى الشعارات الديماغوجية التي تعتبر مرضا متفشيا في كثير من البلاد النامية . بل ان شعوب هذه البلاد ذاتها قد بدأت ، كما تدل الشواهد التي يستطيع ان يلمسها كل من يهمهم الأمر ، ترفض هذا النوع المشوه من التعليم وصرنا نسمع اصدااء المطالبة بتحسين النوعية في كل المحافل (٢٥) .

ان عدم التناقض بين الكم والكيف في التعليم والترابط العضوي بينهما قد صار أمرا مسلما به من الجميع نظريا ، ولكن التطبيق الفعلي مختلف تماما . اذ يبدو أن الأجهزة التعليمية في البلاد النامية وما يتوفر لديها من امكانيات مادية وفنية أضعف من أن تتحمل أعباء هذه المهمة المزدوجة ، ومن المشاهد بصفة عامة أن النظام التربوي في بلدنا عندما يعجز عن ملاحقة الزيادة في الاعداد او سرعة التطور الاجتماعي ينخفض مستوى الخدمات التي يقدمها ، وهكذا تنشأ مشكلة الكم والكيف .

والواقع ان الضغوط الاجتماعية والسياسية المختلفة التي أسلفنا الإشارة إليها دفعت العاملين في الخدمات التعليمية في البلاد النامية الى منح الأولوية للتوسع الكمي والتركيز على تخطي العقبات التي تعترضه بحيث أخذت القضايا الأخرى التي تتعلق بالمضمون والمستوى تتراجع عما هي جديرة به من اهتمام . فلم يعد لدى هؤلاء التربويين وقت او طاقة كافية لمواجهة القضايا التي يتطلب التغير السريع إعادة النظر فيها مثل علاقة التربية بالمجتمع وبالتعلم نفسه او علاقة التربية بالمعرفة . بل ان المشتغلين بالتخطيط التربوي ، الذين يعتبرون الدعامة التي يعتمد عليها المجتمع في المحافظة على التوازن المطلوب بين الهدنين ، انصرفوا عن هذه القضايا ولم نجد نجد في انشطتهم وكتاباتهم اهتماما حقيقيا بالمستوى والمضمون .

وقد جاءت فقرة في التقرير الذي قدمه مدير عام اليونسكو في اوائل عام ١٩٦٩ عن نشاط المنظمة ما يؤكد هذه الظاهرة اذ يقول : « ان الدور الاساسي الذي قامت به نظريات

( ٢٥ ) جاء في تعليق على مؤتمر وزراء التربية الافريقية الذي عقد في نيروبي ١٩٦٨ ، « ان المبدأ العام الذي يحظى الان بالتأييد والقبول بان النمو ( الكمي ) ليس هدفا يمكن تحقيقه بمعزل عن نوعيته ومن ما يسهم به في التوافق الاجتماعي والسعادة البشرية ، ان هذا المبدأ ينطبق ايضا على التربية » .

R. Ochs , "Prospects " Vol. III N2 Summer 1973.

التخطيط التربوي وتطبيقاتها لادماج التربية في خطط التنمية في بلاد العالم الثالث ومواجهة مقتضيات التزايد السكاني وانطلاق الامانى الديمقراطية نتيجة للاستقلال ، ان هذا الدور يفسر دون شك ان تلك النظريات والتطبيقات كانت في البداية تنحصر تقريبا في النواحي والعوامل التربوية التى يمكن قياسها كميا ؛ ثم يستطرد مدير عام اليونسكو موضحا « كان تخطيط التربية يبدو وكأنه مقياس لكميتين : الاهداف من جهة والوسائل من جهة اخرى ، وفيما بين اعداد النماذج الاقتصادية القياسية من جانب ، واقامة أجهزة التعبئة من جانب آخر ، أغفلت حقيقة التربية ، وهى السلوك التربوي الانساني ، حتى صارت في المكان الثانى من الأهمية ... لقد كان تخطيط التربية ينظر اليه ويستفاد منه على الاكثر في ترشيد التوسع الكمي للتعليم في البلاد النامية» . ونحن وان كنا نوافق مدير عام اليونسكو على أن الضغوط المختلفة تفسر اندفاع المخططين التربويين لتكريس جهودهم في الاتجاه الكمي وإهمالهم لما اطلق عليه « حقيقة التربية » ولكنها ، في نظرنا ، لا تبرر هذا الإهمال . كما تختلف معه في ان ذلك حدث في « البداية » فقط ، لأنه ما زال يحدث حتى الآن على جميع المستويات ولا يقتصر على التخطيط التربوي وحده ، بل ينصب على جهود الخبراء من كل نوع تقريبا في ميدان التربية . اننا نرى بأعيننا ، بل ويشارك بعضنا مرغمين في ذلك ، كيف يلجأ العاملون في المؤسسات التربوية أحيانا الى مواجهة الزيادة الكمية في التلاميذ بواسطة اجراءات يعلمون تماما ما تحدثه من أضرار بالغة ، مثل تحميل أحد عناصر العملية التربوية أعباء أكثر مما أعدت له لتخفيف الضغوط التى يتعرضون لها - فعندما لا تتوفر الامكانيات لبناء مدارس مثلا يضطر بعضهم الى الالتجاء الى نظام الفترتين في اليوم الواحد فتستخدم الابنية المتاحة لفريق من التلاميذ صباحا ولاحر مساءوا يتجهون الى استخدام ابنية غير صالحة بالمرّة كقاعات للدرس ، وهم يعلمون تماما أن عدد المعلمين المتاحين وطاقاتهم لا يمكن ان تكفى لمواجهة هذا الاجراء الذى يلقي أعباء شبه مستحيلة على المدرسين وعلى العناصر الأخرى مما يترك أثرا بالغ السوء في نوعية الخدمات التعليمية المقدمة ، ولكنهم يحتجون بأن عملية اعداد المدرس اللائق شاقة ومكلفة وطويلة وأن محاولة توفير المدرسين دون اعداد كاف أسوا تأثيرا في النوعية في نهاية المطاف .

ان مواجهة مشكلة الكم والكيف هذه لا تتحقق بالحلول الجزئية والجزافية أو الشعارات الديماغوجية الجوفاء والاجراءات التى تخفف الضغوط . ان الامر يتطلب حولا جذرية شاملة تنصب على اعادة النظر في اهداف التربية ذاتها واساليبها ونظمها . ان هذا ، في رأى معظم من يعتد برأيهم من الخبراء ، هو الأمل الوحيد في التوفيق بين مطلبين ملحين بنفس الدرجة لا معنى لديموقراطية التعليم الا بهما معا . وفي سبيل ذلك ينبغى عدم الضن بأى جهد لا اجتداب ذوى الكفاءات الرفيعة الى مهنة التعليم ودعم أجهزة البحث التربوي بأفضل الخبرات .

ان القدرة البشرية التى سجلت التقدم المدهل الذى عرفه العصر الحديث في مختلف مناحى الحياة لا يعجزها ان تجد الحلول الملائمة لهذه المشكلة - التى لا يكون هناك معنى لأى تقدم اذا لم نحلها .

ومن الحلول المطروحة في هذا الصدد محاولة الحد من النمو السكاني المطرد الذى يشهده العالم الآن . وبرغم أن الريادة السكانية الضخمة ليست هى العامل الوحيد الذى أدى الى المشكلة الكبرى



التي يواجهها التطور التربوي الآن ، وبرغم أن علاج هذه الزيادة لن يؤدي إلى أكثر من تخفيف الضغط وتأجيل الحاجة الملحة إلى حل المشكلة في جوهرها فإن من واجبنا الانتهاء هذه الدراسة قبل أن نسجل بعض الأفكار المتصلة بها .

الواقع أن وجهات النظر تختلف بشكل واضح فيما يتصل بخطورة الزيادة السكانية السريعة في العالم وأساليب التعامل معها. فالبعض يذهب إلى أن هذه الزيادة تهدد العالم في المستقبل القريب بكارثة بحيث إذا لم تتخذ إجراءات حاسمة وسريعة فلن تمضي بضع سنوات حتى « يأكل الناس بعضهم بعضاً » .

وهناك فريق آخر يجنح إلى التفاؤل على أساس أن التقدم التكنولوجي الباهر الذي تحقق حتى الآن ، والذي يتحقق كل يوم ، كفيلاً بسد حاجات الملايين الزاحقة من البشر .

وبرغم أن هذه الفريق يعلن صراحة اعتراضه على التركيز المغالى فيه على بعض الإجراءات ، مثل تنظيم الأسرة وسياسات تحديد النسل ، بل ويعتقد دعائه أن الزيادة السكانية هي زيادة في عدد الأيدي العاملة ومن الممكن أن تكون ميزة كبرى إذا أحسن استخدامها ، فإنه يتفق مع أصحاب الرأي الأول في أن هناك حاجة ماسة إلى إصلاحات جذرية ، اقتصادية واجتماعية وتربوية وسياسية ، على نطاق عالمي .

ولكن ماهي « الإجراءات » التي يقترحها كل من الفريقين ؟ يؤكد بعض أصحاب الرأي الأول ، وهم الذين يطلق عليهم « المالتسيون الجدد » New Malthusists ضرورة إيقاف النمو السكاني بصورة حاسمة عن طريق الوسائل الدعائية إن أمكن ، والا فبالإجراءات التشريعية ، بل وعن طريق التدخل البيولوجي إذا تطلب الأمر. كما يطالب هذا البعض كذلك بالحد من التعليم بحيث يقتصر على سد احتياجات العمالة .

وينظر عدد من دعاة هذا الاتجاه إلى القضية على أنها أساساً مشكلة أخرى من مشاكل البلاد النامية ويجب معالجتها على هذا الأساس . فالهدف الجوهري في رأي بعضهم هو أن تحقق البلاد النامية معدلاً متوسطاً لنمو الانتاج القومي الإجمالي لا يقل عن ٦٪ ، لأنه بذلك إذا أمكن إيقاف معدل النمو السكاني عند ٢.٥٪ زاد الناتج القومي للفرد بنسبة ٣.٥٪ في السنة وهذا كاف لمضاعفة الدخل المتوسط للفرد خلال عشرين عاماً . (٢٦)

**والملاحظة التي تسترعى الانتباه في مثل هذا الرأي أنه في الوقت الذي تطالب فيه الدول النامية بالحد من التزايد السكاني ، نجد بعض الدول المتقدمة تسعى إلى « استيراد السكان » ، فبرلين مثلاً تدفع إعانة مهاجرين . وقد ترددت أصداؤه الملاحظة في أقوال المدافعين عن الاتجاه الثاني الذين يذهب بعضهم ، كما جاء في مقدمة التقرير الذي وضعته اللجنة الدولية لتنمية التربية**

( ٢٦ ) دينال بهرمان « كيف يسخر العلم والتكنولوجيا في خدمة التنمية » وهو مقال نشر في « وقائع اليونسكو » أكتوبر ١٩٧٢ ، تعليقاً على أعمال لجنة الأمم المتحدة الاستشارية لتطبيق العلوم والتكنولوجيا في مجالات التنمية . ومن الجلي أن كاتب المقال يرى أن مضاعفة دخل الفرد في البلاد النامية - على انخفاضه الشديد حالياً - في عشرين عاماً هدف كاف ، أما التطلع إلى مستوى قريب مما تحقق في البلاد الأخرى فامر في رأيه بعيد النال وحتى ذلك الهدف التواضع لا يمكن أن يتحقق إلا بإيقاف النمو السكاني عند ٢٪ سنوياً .

برئاسة ادجار فور ، الى أن مثل هذه العلاجات من شأنها أن تدمم الفوارق غير العادلة القائمة الآن داخل كل مجتمع وبين الشعوب المختلفة وتعميقها وأن تزيد من التشويه الاجتماعي الذي يعتبر لب المشكلة . (٢٧)

ويهاجم هذا التقرير وجهة نظر « المالتسيين الجدد » من ناحية أخرى ، على أساس أنه حتى لو قبلت وجهة النظر هذه فإنه من العسير جداً تطبيقها لضعف امكانيات التنبؤ باحتياجات العمالة ومواصفاتها في ظل التغير الاقتصادي والتكنولوجي السريع والمستمر الذي يمر به العالم الآن ، وبخاصة فيما يتصل بالبلاد النامية .

وكانت التوصية التي انتهت اليها اللجنة صاحبة التقرير فيما يتصل بالربط بين التعليم والعمالة هي « أن هدف التربية فيما يتصل بالعمالة والتقدم الاقتصادي ينبغي ألا يكون مجرد أعداد للشباب والبالغين لمهنة محددة بذاتها طوال الحياة ، بقدر ما يكون العمل على خلق أفضل الظروف والمواصفات للتحرك داخل المهن المختلفة وتوفير الحافز الدائم لاثارة الرغبة في التعليم والتدريب لدى الفرد » ، وهي توصية تنطوي كما نرى على اتجاه معاكس تماماً لما يدعو اليه المالتسيون الجدد .

ويعبر ، بصورة أوضح وأكثر تأكيداً ، عن هذا الاتجاه المعاكس للمالتسية الجديدة بحث القى في المؤتمر الذي عقدته اليونسكو في باريس في مطلع هذا العام حول موضوع « السكان والقانون » جاء فيه « أن نمو السكان يؤدي الى أنجاز اقتصادي أفضل ، على المدى الطويل ، من الجمود السكاني » ، ثم يضيف صاحب البحث أن وجهة النظر القائلة بأن خفض معدل الزيادة السكانية في البلاد النامية خطأ ، « وقبولها واصدار قوانين للحد من النسل على أساسها قد يؤدي الى مأساة » .

ومما هو جدير بالذكر أن وجهات النظر الرسمية المعلنة التي عارضت الدعوة الى سياسات الحد من النمو السكاني تنقسم الى نوعين . فبعضها يتخذ هذا الموقف على أساس أيديولوجي ، والبعض الآخر يتخذ على أساس ما تمليه ظروفه الطبيعية والمادية .

فقد قال **المراقب الصيني** في اجتماع لجنة السكان التابعة لهيئة الأمم الذي عقد في جنيف في نوفمبر من العام الماضي « أننا قد تعلمنا من تجربتنا الخاصة أنه غير صحيح وغير صادق القول بأن الزيادة السكانية هي السبب الرئيس في فقر البلاد في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وتخلفها ، وإن اتباع سياسة سكانية يؤدي بصورة قاطعة الى حل مشكلات الفقر والتخلف » .

ويحدد السوفييت وجهة نظرهم في هذه القضية على أساس أيديولوجي أوضح كما يأتي : « تدل التجربة التاريخية على أن النمو السكاني لا يمكن أن يكون عقبة للنمو الاقتصادي والثقافي . اذ لما كانت الحياة الاجتماعية أساسها هو مستوى الانتاج المادي وظروفه ، فإن حل مشكلة المواءمة بين النمو الاقتصادي والاجتماعي والنمو السكاني لا يتطلب الحد من النمو السكاني لابتلاء مع النمو الاقتصادي ... ، ولكنه يكمن في تحقيق معدلات من النمو الاقتصادي تتجاوز معدل النمو السكاني وتضمن ارتفاعاً في مستوى المعيشة » .

( ٢٧ ) Learning to Be من مطبوعات اليونسكو ١٩٢٧ . ولنا عودة الى هذا التقرير فيما بعد والى بعض التعليقات التي اثيرت حوله .

**اما النوع الثانى** من وجهات النظر الرسمية التى تعارض الدعوة الى سياسات الحد من النمو السكاني فتمثلها بعض الدول النامية التى تملك مساحات شاسعة من الارض وموارد ضخمة بالنسبة لعدد سكانها مثل البرازيل وشيلي . وتذهب وجهات النظر هذه الى أن التركيز على مشكلة زيادة السكان بهذا الوصف ودون ربطها اصلا بالوارد الطبيعية غير المستغلة فى كل بلد امر غير مقبول ، فالبلاد التى تزايد عدد سكانها فى القرن الماضى اعتمادا على الموارد الطبيعية للبلاد الأخرى - وهى لا تزال تعتمد على هذه الموارد لرفاهتها ، بل ولحياتها حتى الآن - تريد من البلاد النامية ان تحد من الزيادة السكانية فيها حتى لا يزيد عدد سكان العالم الى حد يهدد بكارثة . اى ان البلاد التى يبلغ معدل السكان فيها بين ١٠٠ و ٣٠٠ لكل كيلو متر مربع لا تتحمل اية اعباء فى مواجهة الكارثة التى تهدد العالم ، فى حين يطلب الى البلاد التى يبلغ المعدل فيها اقل من ٢٠ نسمة للكيلو متر المربع ان تتحمل وحدها العبء الرئيسى فى علاج المشكلة .

ومن هذا المنطلق قال مندوب شيلي فى هيئة الامم المتحدة فى نوفمبر ١٩٧١ ان مشكلة النمو السكاني قضية مصطنعة تثيرها الدول المتقدمة كحجة تبرر بها تقاعسها عن القيام بواجباتها حيال المجتمع العالمى ، وان ما يتطلبه الامر حقيقة هو « مواجهة اسباب التخلف عن طريق زيادة المساعدات التجارية والمالية وتسهيل انتقال التكنولوجيا الحديثة والتعاون بين البلاد المتقدمة والنامية فى جميع ميادين المساعدة الفنية . »

ومن ناحية أخرى نرى بعض البلاد النامية الأخرى تتبنى وجهة النظر المعارضة على اساس انها « تدرك تماما أن رفع مستوى معيشة الفرد وحل مشكلة البطالة ، أو حتى ضمان استمرار المعدل الحالي للتعليم المدرسى، يكاد يكون مستحيلا اذا استمر المعدل الحالي للنمو السكاني » كما قال مندوب تونس .

**وبين البلاد العربية تبنت كل من مصر وتونس والمغرب سياسات تهدف للحد من التزايد السكاني،** فقد اصدرت الحكومة التونسية مثالا عددا من التشريعات فى هذا الاتجاه ، مثل رفع سن الزواج وتحديد المعونات العائلية لمن لديهم أكثر من ثلاثة ابناء ، واباحة عمليات الاجهاض .

وهكذا نرى أن القضية تتمدد فيها الاتجاهات بحيث لا يكاد يعرف عن يقين أى سبيل هو الصحيح ، ويعتمد أكثر الخبراء اترانا فى الوقت الحاضر الى الاكتفاء باطلاق صيحات التنبيه والدعوة الى العمل على اكتشاف الحلول ، كما فعل مدير عام اليونسكو فى تقريره عام ١٩٦٩ الذى اسلفنا الإشارة اليه عندما قال « المهم ان يعرف المجتمع البشرى الآن أنه سائر فى عملية تحول سكاني وتقنى وفكرى وخلقى على نطاق لم يسبق له مثيل ، وإن تغيير التعليم جذريا يقع فى صميم هذه العملية . وحل مشكلة التعليم ... عامل مؤثر فى درجة الوضوح والتمكن من فهم الانسانية لهذا التحول والسيطرة عليه ، ومن ثم فعليه تتوقف الى حد ما طبيعة هذا التحول » ، او كما فعل سكرتير عام هيئة الامم المتحدة فى خطاب اعلانه لعام ١٩٧٤ « (عام السكان العالمى) » قائلا « (يولد كل سنة ١٢٧ مليون طفل ، ويبلغ سن الدراسة ٩٥ مليون فرد ، ويصل ١٩ مليون الى سن الخامسة والستين ،

وينتظر أن يرتفع هذا المعدل في المستقبل . . ان كل أمة وكل مجتمع وكل أسرة يجب أن تقيم بآانة مدى تأثير هذه الاتجاهات في آمالها في الحياة الأفضل وفي التربية الارتفاع وفي الصحة الاحسن وفي السعادة» . (٢٨)

ان هذه التصريحات الرصينة تلم بأطراف القضية كلها تقريبا وتدعو الى العمل الجاد على حلها ، لكن بعض البلاد المكتظة فعلا بالسكان مثل مصر لا تستطيع أن تحلها بمفردها حلا جذريا يستأصل المشكلة من منابعها ، كما انها لا تستطيع أن تنتظر حتى يتكثل الجنس البشرى ويسخر قدراته العظيمة في الوصول الى جوهر هذا التحول والسيطرة عليه ، وليس امامها الا أن تلجأ الى بعض الحلول الجزئية المطروحة لتخفيف الضغط والحصول على متنفس مؤقت : فترة من الوقت تمكنها من التقاط أنفاسها وتتيح لها المشاركة في إيجاد الحل .

وليس لهذا السبب وحده تلجأ بعض مثل هذه البلاد الى الدعوة لتحديد النسل وتنظيم الأسرة ، فللأمر جانب آخر مهم جدا بالنسبة لها . فتتطلب الأسرة له هدف آخر ينصب على رفع مستوى « الأسرة » - وهي الوحدة البشرية الأساسية - وعلى تأكيد كرامة المرأة والطفل بمنح المرأة فرصة حرمت منها طويلا ومنح الطفل نصيبا أكبر من الرعاية الضرورية لنمو الكائن البشرى في المراحل الأولى من نموه .

فالى عهد قريب جدا كانت المرأة في معظم المجتمعات التقليدية ينظر اليها على ان مهمتها الوحيدة في الحياة هي الانجاب وتربية الاطفال والاعمال المنزلية الاخرى ، وان الرجل هو المسئول عن النشاط الخارجى الذى يوفر للأسرة الدخل الذى يعيش به . ولكن الملاحظ الان في جميع بلاد العالم تقريبا أن عدد النساء اللاتى يعملن في الأنشطة الاقتصادية المختلفة خارج المنزل يتزايد ، بحيث بدأت الفوارق بين الجنسين في هذا المجال تزول شيئا فشيئا . وكان من آثار ذلك أن بدأ الاتجاه الى تعليم الفتيات لاعدادهن للقيام بأعمال أفضل تدر عائدا اقتصاديا اوفر - وليس لاعدادهن لحياة أفضل وأسعد في مجتمعاتهن . وقد آن الاوان لتغيير هذا الاتجاه والاهتمام بالمرأة لذاتها ، ولعل الجهود المبذولة في بعض البلاد لتنظيم الأسرة تكون بداية خطوة سليمة في هذا الاتجاه .

كما أنه من الملاحظ أن أطفال الاسر الصغيرة العدد يتمتعون عادة بصحة أفضل ومستوى اقتصادى وثقافى أرفع ، ومن هنا أيضا كان تنظيم الأسرة هدفا ضروريا اذا أردنا لابنائنا حياة أسعد .

ولكن ما الحل في القضية الرئيسية التي يدور حولها البحث ، قضية تزايد السكان بهذه الصورة المدهلة ؟

ان القضية من الخطورة بحيث تتطلب مناواقفة قصيرة من التأمل نحاول فيها البحث عن الطريق المؤدى الى حل . فالعالم يمر الآن فعلا بمرحلة من التغير السريع الذى كادت أبعاده تفلت من مقدرة البشر على الاستيعاب والمحاولات التى يبذلها خبراء التربية ، والخبراء الاخرون في

( ٢٨ ) The Unesco Courier مايو ١٩٧٤ . وهو عدد خاص أصدرته المنظمة بمناسبة « عام السكان العالمى » بعنوان

« وفدا كم سيكون عددا » .

مختلف الميادين الاجتماعية والتقنية للحاق بالتغير السريع ، ومحاولة التنبؤ بخط سيره في كل من هذه الميادين لم تحقق حتى الآن النجاح الذي يتوقعه أولئك الذين يحسنون الظن بالتقدم الذي بلغه الإنسان في العصر الحديث .

ولسنا هنا بمعرض البحث عن حل شامل للقضية بجميع جوانبها العديدة ، وكل ما نطمح فيه هو إثارة بعض النقاط التي قد تفيد في تحديد الطريق الذي يمكن أن نسير فيه سعياً وراء حل للجانب التربوي منها .

ولكن برغم أن التربية ، كما يقول تقرير « لجنة قور » ، عالم قائم بذاته ، فأنها في الوقت ذاته انعكاس للعالم كله . أنها جزء من المجتمع تعمل على تحقيق أهدافه وتنمية موارده ، ولكنها أيضاً تؤثر فيه ربما أكثر من أي عامل مفرد آخر .

### فما هي حقيقة المشكلة التي تواجه التربية الآن ؟

إن المشكلة الحقيقية في اعتقادنا هي أن الأنماط التربوية التقليدية التي حددنا أنفسنا داخل أطارها في البحث عن الحلول هي في الواقع أنماط قامت أصلاً لفائدة قلة في عالم يعيش فيه الكثيرون ، مثلها في ذلك مثل الأنماط الاقتصادية والاجتماعية التقليدية الأخرى . وعندما بدأت القيم التي تعتمد عليها هذه الأنماط تنهار فوجئنا بأن هؤلاء «الكثيرين» يريدون أيضاً ، ومن حقهم ، أن يحصلوا على ما كان متاحاً للقلة فقط . وعندما عجزنا عن إيجاد الحلول على أساس الأنماط التقليدية تهيجنا واتجهنا إلى تحطيم ما هو قائم دون تفكير جدي في البديل . لقد حططنا الأساس التربوية القائمة وهبطنا بمستواها إلى الحضيض تقريباً واكتفينا بأن نلقى التبعة على مشكلة « الكم والكيف » لأننا عجزنا عن إيجاد الحلول - وكان من الطبيعي أن نمجز مادماً قد كبّلنا أنفسنا مقدماً بأسس ونظم وأساليب تربوية لم تعد صالحة أصلاً لمواكبة التفسيرات الكبرى التي يمر بها الجنس البشري الآن . إن التغير المطلوب صعب ، ومحاولة القيام به على الأساس التقليدية مستحيل .

**ومن المعروف أن تغيير النظام التربوي في مجتمع ما حتى يتكيف مع الظروف المتغيرة أمر عسير ، لأن النظام التربوي تملك على حد قول البعض ، قوة دفع ذاتية تدفعها إلى المحافظة على ذاتها وإلى مقاومة التغيير .** ولكننا لا نتحدث هنا عن صعوبة تغيير النظام التربوي في مجتمع ما ، بل نتحدث عن الصرح التربوي القائم بأكمله ، نتحدث عن - « وجهة نظر » الجنس البشري في طريقة حياته بأكملها ، وعن تغيير أسس الحضارة الغربية التي سادت العالم المعاصر بأكملها .

إننا نتحدث عن ثورة يجب أن تقوم داخل عالم التربية حتى تواكب التغير الثوري الذي يمر به العالم وتمهد السبيل لوجهة نظر جديدة تجعلنا في وضع أفضل لحل المشاكل الكبرى التي نواجهها . إن ربط التخطيط التربوي « بالعمالة » مثلاً قد أصبح الشعار المفضل في معظم البلاد النامية ، وبعض البلاد المتقدمة ، برغم أننا جميعاً نعرف عن يقين أن التعليم عندما يوضع في خدمة التنمية الاقتصادية يؤدي إلى التركيز على تنمية إحدى قدرات المتعلم على حساب قدراته الأخرى ويخلق منه كائناً ذا جانب واحد . فهل فكرنا في ربط « العمالة » بميول الناس وقدراتهم، بدلاً من إخضاع هذه القدرات والميول للعمالة ؟

ان تقرير لجنة فور الذى اشرنا اليه يعتبر من السمات التى تتميز بها التربية فى العصر الحديث ان نموها يجنح الان على نطاق العالم ، ولاول مرة فى تاريخ البشرية ، الى ان يسبق التنمية الاقتصادية ، بعد ان كانت التربية تتبع باستمرار النمو الاقتصادى . ويؤكد ان الدول السابقة فى هذا المضمار بنجاح هى اليابان والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية !! .

ان هذا ، فى رأينا ، لم يحدث من قريب أو بعيد ، وكل ما حدث هو ان التربية كانت تتبع النمو الاقتصادى فى ظل مبدأ اقتصادى واجتماعى معين ، وهو مبدأ حرية التعامل laissez faire ، وصار ذات الشئ يحدث الان فى ظل مبدأ اقتصادى واجتماعى آخر هو « التخطيط » .

ثم يحدد التقرير المذكور سمة أخرى من سمات التربية فى العصر الحديث ، وهى ان التربية تعمل الان ، ولاول مرة فى التاريخ ايضا ، على اعداد الناس لنوع من المجتمعات لم توجد بعد . ويشير الى ان هذا الاتجاه يبدو بوضوح فى البلاد التى تسعى نحو اقامة مجتمعات تختلف جذريا عن حاضرها فى اعقاب تغييرات عميقة حدثت فى نوعية قيادتها الاجتماعية او السياسية . ولا شك ان ذلك صحيح الى حد بعيد جدا ، فأحدى سمات العصر الحديث كله ان « تتصور » طلائع المجتمعات تنظيما جديدا تراه أفضل لمجتمعاتهم ويقنعون شعوبهم باستخدام ارادتها فى خلق المجتمعات التى تصورها ، ويعملون بكل الوسائل الدماجية ، ومنها التربية ، لتحقيق هذا الهدف . ولكن هذه المجتمعات التى « لم توجد بعد » تقوم فى الحقيقة على الاسس والانماط القديمة برغم كل ما يحيطها من بريق ، وليست دور التربية فى هذا كله سوى « أداة » أو « مخلب القط » ، فليس لها أى دور ايجابى حقيقى فى اعداد الناس لان يتصوروا بانفسهم نوع المجتمعات التى تلائم قيمهم الجديدة قبل ان تعدهم للعيش فيها .

**والسمة الثالثة** التى يتحدث عنها التقرير هي التناقض الذى بدأ يظهر بين انتاج المؤسسات التعليمية وحاجات المجتمعات التى تعمل فيها هذه المؤسسات ؛ وهذا ايضا صحيح ، والسبب الرئيسى فيه يؤيد وجهة النظر التى نحاول عرضها هنا . أنه يرجع فى جوهره الى التغيير الجذرى فى القيم ، التى أصبحت ترى ان من حق الكثيرين « أن يحصلوا على الخير ، والثبات العنيد للانماط التقليدية ، التى قامت فى خدمة القلة .

• • •

وما دنا بصدد الحديث عن محاولة التخلص من الانماط ذاتها باعتبارها قيما على حركتنا يجعلنا عاجزين تماما عن اكتشاف الحلول الجذرية الشاملة لمشاكلنا الكبرى ، فان الفرصة مواتية للتحدث عن فكرة « التقدم » فى البلاد النامية والانماط التى صيغ فيها .

ان مفهوم التقدم بمعنى « اللحاق » بالمجتمعات الاكثر تقدما ينطوى بوضوح على ان البلاد النامية يجب ان تسير فى ذات الطريق الذى سارت فيه البلاد الاخرى وان « تتقوّل » فى الانماط السائدة فيها .

ومن وجهة النظر التي نعرضها يعتبر مفهوم التقدم بهذا المعنى قيذا على البلاد النامية ويضعها فيما يشبه « قميص المجانين » الذي يصنع خصيصا ليشل حركتهم حتى يمنعهم من الابداء .

ولكن لحسن الطالع بدأت بوادر التغيير في هذا الاتجاه تبدو هنا وهناك ؛ اذ برغم ان « النموذج الغربي » ظل هدفا رئيسيا من اهداف التنمية والتقدم بالنسبة للبلاد النامية ، فإنه قد أخذ الآن يفقد بعض بريقه لديها . فقد بدأت بعض المجتمعات النامية تفكر في تطوير نظم اجتماعية وسياسية خاصة بها . « نابعة من تراثها » ، وان كانت المحاولات التي قامت في هذا الاتجاه لم تحقق نجاحا لانها لم تستطع ان تخلص من الانماط الاجتماعية والسياسية التقليدية في بلورة افكارها . ولكن البذرة وجدت ، وستنمو اذا هيئت لها الظروف المواتية .

لقد آن الاوان لان يتخذ التقدم في البلاد النامية من البلاد المتقدمة نماذج لا ليحتذى بها ولكن ليتجاوزها بهدف خلق حضارة اكثر تلاؤما مع القيم الجديدة التي تمخض عنها تطور الوعي البشري .

ان المشكلة التي يواجهها الجنس البشري الآن جديدة تماما ، ومن ثم فهي تحتاج الى حلول جديدة قد يكون بعضها بمثابة قفزة في الظلام . الا اننا نستطيع ان نقلل من مخاطرها الى الحد الأدنى اذا نحن وفرنا لها ما هي جديرة به من جهود ومكانيات مادية وتقنية ومهارات بشرية متاحة .

ومن الطبيعي أن تعجز البلاد النامية عن القيام بهذه المهمة وحدها في وقت مناسب ، ولكن هل المشكلة هي مشكلة البلاد النامية وحدها ؟

يبدو أن هذا هو التصور الغالب في كثير من دوائر الغرب . فعلماء البلاد المتقدمة ومفكروها قد اكتفوا حتى الآن بتقديم النصائح الجاهزة التي لا تستند الى دراسة جادة او بحث علمي عظيم . ونظرة واحدة الى مجموع ما ينفق في أنشطة البحوث فيها تدل على أن ما نقوله لا يمكن الا أن يكون صحيحا . ( ٢٩ )

**ان المشكلة ليست بالقطع مشكلة البلاد النامية وحدها ، بل ان ظواهرها في البلاد المتقدمة تكاد تكون أكثر شيوعا .** وفي ميدان التربية وحده تكفي مظاهرات التمرد والقلق التي ظهرت بين الطلبة في اكثر بلاد العالم تقديما في السنوات الاخيرة للدلالة على مدى حاجة الانظمة التربوية فيها الى تغيير . فالحاجة الملحة الى القيام بثورة في المفاهيم التربوية ليست مقتصرة على بعض البلاد في العالم دون البعض الآخر . انها ظاهرة عامة نجمت عن سرعة نمو الوعي البشري وعدم ملاحقة التغييرات الاجتماعية والفنية والاقتصادية لهذا النمو بسرعة كافية ، وهي تقض مضاجع التربويين في جميع انحاء العالم .

---

( ٢٩ ) يقدر أن ٩٨٪ من مجموع أنشطة البحوث والتنمية التي تجرى في العالم ( خارج البلاد الاشتراكية ) تسطوع بها امم متقدمة وتخصص منها حوالي ثلثها لثئون الدفاع والفضاء والطاقة الذرية ، كما ينصب ٢٦٪ منها على البحوث الصناعية المرتبطة بالاستهلاك و ٢٢٪ للبحوث الاساسية ، ولا يبقى سوى ١٪ تقريبا للبحوث التي يفترض انها تهم العالم الثالث .

وحتى اذا كانت هناك مشاكل تمس البلاد النامية أكثر من غيرها ، هل يعني ذلك ان تظل البلاد النامية بلدا نامية وتظل البلاد المتقدمة بلادا متقدمة ؟

ان انقسام العالم الى دول متقدمة واخرى نامية ، فضلا عن انه ليس الصورة المثلى للعالم في الوعي البشرى الجديد ، يعرقل جهود الجنس البشرى ككل في الاستفادة من قدراته العظيمة ، ولن نرى بشائر الفجر الجديد الا عندما نتكاتف جميعا على تحقيق الوحدة لعالم متناسق نعيش فيه في سلام .

★ ★ ★



على اسمي \*

## المدخل الإداري لعلاج المشكلة السكانية بالدول النامية

تحتل المشكلة السكانية اهتماما بالغا لدى الاقتصاديين والسياسيين ورجال علم الاجتماع وغيرهم من المشتغلين بقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وقد اسهمت فروع مختلفة من المعرفة الانسانية في محاولات تحليل تلك المشكلة وتحديد مظاهرها ومسبباتها . كما شاركت جميعا وبدرجات متباينة في تقديم مقترحات علاجها والتخفيف من آثارها .

وبرغم انقضاء السنوات الطويلة منذ الكشف عن خطورة المشكلة السكانية واحتمالاتها المدمرة للرفاهية الانسانية عموما ، وبرغم الحصيلة العلمية الوافرة من الدراسات والنظريات التي تحاول سبر غورها والتماس الحلول لها ، فما زال التقدم نحو الحل الحاسم لتلك المشكلة العالمية يسير وثيدا . والاحساس بتفاقمها واحتمال خروجها عن السيطرة يهدد الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي لكثير من شعوب العالم .

---

\* الدكتور علي السلمي استاذ ادارة الاعمال المساعد بكلية التجارة بجامعة القاهرة ، والممار للتدريس بكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الكويت . له العديد من المؤلفات والبحوث . ومن اهم مؤلفاته : الادارة العلمية والسلوك الانساني في الادارة .

وفي بحثنا هذا سنحاول تحليل العلاقة الحقيقية بين المشكلة السكانية وبين عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، واستعراض المداخل التقليدية لعلاج مشكلة تزايد اعداد السكان ، ثم نطرح مدخلا جديدا يناقش كثيرا من تلك المداخل السابقة ، ويقدم اطارا متكاملا للتعامل مع السكان باعتبارهم عنصرا فعالا في احداث النمو الاقتصادي والاجتماعي ، ويبعد الفكرة الشائعة من ان الكيان السكاني للمجتمع يمثل عبئا اقتصاديا يجب التخلص منه او تقليصه .

ويعتمد مدخلنا في دراسة وتحليل المشكلة السكانية على مفاهيم ونظريات علم الادارة (١) باعتباره العلم المختص بدراسة طرق تحليل المشكلات واتخاذ القرارات ، واعداد الخطط الهادفة الى تأمين العلاج الأمثل للمشكلة، وصولا الى تحقيق نتائج وغايات ينشدها المجتمع او بعض فئاته ، وذلك في حدود ما هو متاح من موارد وامكانيات ، وفي اطار الظروف والامور السائدة وما قد تفرضه من قيود على حرية الحركة والتصرف .

وعليه فان بحثنا يتعامل مع المتغيرات الآتية :

= المشكلة السكانية .

= التنمية الاقتصادية .

= التنمية الاجتماعية .

كذلك يحاول البحث اختبار بعض الفروض الأساسية وهي :

— ان تزايد عدد السكان المستمر هو العامل الأساسي في احداث التخلف الاقتصادي والاجتماعي .

— ان الزيادة المضطربة في اعداد السكان تعوق جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .  
— ان السبيل الأمثل للدولة النامية لكي تحقق النمو الاقتصادي والاجتماعي يتحدد في ضبط الزيادة السكانية ووضع قيود على اعداد السكان .

— ان انخفاض عدد السكان في الدولة النامية يؤدي الى الاسراع بمعدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وسوف نعمل الى تحليل هذه الفروض واختبارها معتمدين على اسلوب التحليل المنطقي، الذي يستند الى الاسس والمفاهيم النظرية . ولابد لنا اذن من ان نحدد اولاً الاطار الفلسفي الذي يدور هذا البحث في نطاقه .

١ - يمثل علم الادارة المعاصر حصيلة متكاملة من البادئ والمفاهيم والمعارف مستمدة من التحليل النظري والتجريبي للمشكلات الانتاجية ، والتي تتفاعل مع كثير من العلوم الاجتماعية والرياضية في تكوين اطار فكري شامل .

### الإطار الفلسفي للبحث

ينطلق هذا البحث من ركيزة فلسفية مؤداها أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية هي عملية حركية Dynamic ومستمرة ، تحتاج الى حشد كل الموارد والإمكانات المتاحة من ناحية ، كما تحتاج الى التخطيط والتنظيم العلميين من ناحية أخرى . ومن ثم فإن أحداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية انما يتوقف بالدرجة الاولى على أمرين : الأول هو انواع وكميات الموارد والطاقات المتاحة للاستغلال في المشروعات الانمائية ، والثاني هو اسلوب وكفاءة ادارة عمليات الانماء (٢) .

وانطلاقا من هذا المفهوم نصل الى الاسس المبدئية الآتية :

- ١ - ان السكان هم عنصر في أحداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية في اى مجتمع .
  - ٢ - ان عدد السكان ليس هو البعد الوحيد للاسهام في التنمية ، بل ان نوعيات هؤلاء السكان وخصائصهم تمثل بعدا اخطر واهم في عمليات التنمية .
  - ٣ - ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا تعتمد فقط على الطاقات المتاحة فعلا ، بل تركز الى حد كبير على ما يمكن الكشف عنه من طاقات وما يظهر من موارد محتملة .
  - ٤ - ان القدرة على الاستفادة القصوى من الطاقات والموارد المتاحة والمحتملة هي العنصر المتحكم في تحديد معدل النمو الاقتصادي والاجتماعي . وان هذه القدرة ترتفع بالسكان دون غيرهم من عناصر وموارد الانماء .
- وحيث نصل بتفكيرنا الى هذه المرحلة ، فان المنطق يقودنا الى استنتاج رئيسي يحكم التحليل الوارد في هذا البحث تماما ، وهو ان كفاءة الادارة وفعاليتها في المجتمع تمثل العامل الحاسم في تقرير مصير جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

### المشكلة السكانية :

تختلف الاساليب المستخدمة في التعبير عما يسمى بالمشكلة السكانية وذلك بحسب الخلفية العلمية والاهتمام الخاص بمن يقوم بالتعبير . فالتعبير الاقتصادي عن المشكلة السكانية يتبلور عادة في انها الزيادة المستمرة في اعداد السكان بمعدلات تفوق معدلات انتاج السلع والخدمات اللازمة لاشباع احتياجاتهم ، الامر الذي ينعكس في انخفاض نسبي للدخل القومي ، وتقلص نصيب الفرد من هذا الدخل ، ومن ثم ينحدر مستوى المعيشة ويتهدد المستوى العام للرفاهية الاقتصادية في المجتمع . ويستخدم تعبير « الانفجار السكاني » عادة للدلالة على الزيادة الصافية المتعالية في اعداد السكان بالقياس الى احجام السلع والمنتجات ، خاصة الفدائية منها .

٢ - يتفق معظم كتاب الادارة الآن على ان مشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية هي في الاساس مشكلة ادارية ، ومن

ثم يركزون على اهمية ما يسمى « ادارة التنمية » Development . Administration

ومن ناحية ثانية نجد علماء الاجتماع ينظرون الى المشكلة السكانية من زاوية آثارها الاجتماعية من حيث التغير المترتب عليها في الهيكل الاجتماعي ، واختلاف الاهمية العددية للطبقات الاجتماعية المختلفة . وهم يركزون على المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الزيادة السكانية، ومنها مشكلات انحراف الشباب وانتشار الجرائم، والتحول في الاخلاق في المعتقدات والقيم الناشئة عن الفقر وانخفاض مستوى المعيشة . كذلك يهتم علماء الاجتماع في تحليلهم للمشكلة السكانية بآثارها على الحركة الاجتماعية Social Mobility وعلى حركات الهجرة سواء الداخلية او الخارجية . وهم يخلصون في النهاية الى استنتاجات تشير بشكل او آخر الى الاخطار المصاحبة لزيادة اعداد السكان ، ومن ثم فهم يباكون الحلول القائمة على منطق ضبط الزيادة السكانية بشكل عام .

وعلى النقيض من اسلوب علم الاقتصاد ومنهج علم الاجتماع ، فان علم الادارة ينظر الى المشكلة السكانية نظرة شمولية متكاملة ، يأخذ بعين الاعتبار ابعادها المختلفة ، وذلك وفقا لمنطق أن السكان هم احد عناصر المجتمع ، وبالتالي فهم يمثلون نظاما فرعيا Sub-System ضمن نظام اكبر Total-System (٣) هو التكوين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري للمجتمع .

وبالتالي فان المشكلة السكانية في التصور الاداري هي عدم القدرة على استغلال الطاقات والموارد البشرية المتاحة والقدرات والمهارات الانسانية التي يملكها المجتمع بدرجة تحقق الاهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لهذا المجتمع . ومن ثم فان المنطق الاداري يرفض اعتبار زيادة السكان في حد ذاتها مشكلة ، كذلك فان هذا المنطق لا يعتبر أن تحقيق خفض في عدد السكان سوف يؤدي بالضرورة الى تحسين الاوضاع الاقتصادية او المعيشية للناس في مجتمع معين .

ان المشكلة السكانية الحقيقية في التحليل الاداري هي توفر طاقات بشرية لا تسهم في انتاج السلع او الخدمات التي يحتاجها المجتمع ، او تسهم ولكن بقدر اقل مما تسمح به امكاناتها الفعلية . ومن ثم فانه طبقا للتحليل الاداري نحن نعاذل بين المشكلة السكانية وبين انخفاض كفاءة استخدام العنصر البشري في الانشطة الانتاجية للمجتمع . وعلى ذلك فان القضية الاساسية في موضوع السكان يمكن ان تتبلور في الابعاد الاتية :

١ - أن عدد السكان في أي مجتمع هو محصلة لتفاعل عديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (٤) .

٢ - نحن نشير بذلك الى مفهوم النظام The systems Concept والذي يسود الفكر الاداري الحديث . ويقصد بالنظام ذلك الهيكل او التكوين الكلي الذي يتركب من اجزاء او نظم فرعية تقوم بينها علاقات تفاعل واعتماد متبادل بحيث ان السلوك النهائي او الموقف العام للنظام الاكبر يكون محصلة لتفاعل الاجزاء المكونة له .

٣ - يقسم بعض المختصين هذه العوامل الى درجات من حيث مدى تأثيرها في حجم السكان الى طويلة الاجل ، متوسطة الاجل ، وعارضة ، انظر

٢ - ان المحتوى الحقيقي لتلك العوامل المؤثرة في عدد السكان ينحصر في النظام الادارى Administrative System السائد في المجتمع، ودرجة الكفاءة في ادارة عمليات الانماء الاقتصادى والاجتماعى ، ومن ثم الكفاءة في استخدام طاقات السكان المتاحة .

٣ - ان تركيب السكان من حيث درجات المهارة والمعرفة والقدرة على الانجاز يفوق في اهميته عدد السكان من حيث الارتباط بالنشاط الاقتصادى والانتاجى للمجتمع ، كذلك فان هذا التركيب السكاني هو في حد ذاته نتاج للنظام الادارى السائد ، ودرجة تطوره وكفاءته في اعداد وتأهيل السكان لمباشرة الاعمال الانتاجية بكفاءة .

من التحليل السابق نخلص الى حقيقة هامة هي ان المشكلة السكانية كما حددنا هي نتيجة مباشرة لمستوى الكفاءة الادارية السائدة في المجتمع ، ومن ناحية اخرى فان هذه المشكلة بذاتها تعود مرة اخرى لتسهم في خفض مستوى الكفاءة الادارية بالمجتمع ، وهكذا تدور العلاقة في حلقة جهنمية تبدى للناظرين في مظاهر اقتصادية واجتماعية مضللة تبعدهم عن التصور الصحيح للمشكلة .

ان قصور وتخلف النظام الادارى في المجتمع، وانخفاض مستوى الكفاءة الادارية به ينعكس على شتى مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية . وتتضح مظاهر انخفاض الكفاءة الادارية بالدرجة الاولى في :

١ - عدم الدقة في تحديد الاهداف الاقتصادية والاجتماعية ، ومن ثم توجيه الموارد والطاقات المختلفة نحو مشروعات ومجالات للتشغيل ليست هي الافضل أو الامثل ، وبالتالي يتدنى العائد منها وتحقق خسائر صافية للمجتمع في صورة ضياع فرص افضل للاستثمار.

٢ - عدم الدقة في التخطيط ( او عدم الالتجاء الى اسلوب التخطيط اصلا ) بما يؤدي اليه ذلك من سوء التوقيت وتضارب الانشطة وتداخل الجهود بشكل يقلل من الانتاجية الكلية ، ويحول بين عناصر الانتاج وبين ان تصل بكفاءتها الى الحد الامثل . كذلك فان سوء التخطيط يتجلى في ضعف التنسيق بين مجالات الاستخدام المختلفة ، الامر الذي يترتب عليه وفرة في المتاح لبعض المجالات اكثر من حاجتها ، وندرة في المتاح لمجالات اخرى بما يقل عن حاجتها ، والمحصلة النهائية لكل تلك المظاهر هي قصور الناتج الكلي عن الوفاء بالاحتياجات التي تتطلبها المجتمع .

٣ - عدم الدقة في التنظيم والتنسيق ، وتداخل الاختصاصات وتضارب السلطات وتناقضها ، وخلق تنظيمات واجهزة تستفرق كميات هائلة من موارد المجتمع دون ان تسهم بانتاج يتعادل وتلك الموارد . ان بطء الاجراءات وتعقد اساليب العمل ، وتجمد القواعد والسياسات كلها مظاهر متكررة وشائعة للتخلف الادارى ، بما يترتب عليه من تواضع الانجازات وارتفاع تكلفتها الحقيقية بالنسبة للمجتمع .

٤ - غياب الرقابة الموضوعية والمتابعة المستمرة لوجه النشاط المختلفة ، بما يسمح بوقوع الاخطاء والانحرافات واستمرارها ، وتفاقم آثارها السالبة على الجهاز الاقتصادى والكيان الاجتماعى .

ان الدعوى الاساسية التي نطرحها في هذا الجزء من البحث هي ان التخلف الادارى في المجتمع هو السبب المباشر للمشكلة السكانية ، وبالتالي للمظاهر الاقتصادية والاجتماعية المترتبة عليها . كذلك فان هذه المشكلة ومظاهرها تعود مرة اخرى لتدعم وتكرس التخلف الادارى لتزداد المشكلات حدة وتتعقد مظاهرها وتتداخل بما يباعد بينها وبين الحل السليم .

ان هذه العلاقة المتبادلة بين المشكلة الادارية وبين المشكلة السكانية هي في تصورنا لب المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الدول النامية . ولنا ان نستدل على سلامة هذا الاستنتاج من الدلائل التالية :

١ - ان الدول النامية سواء في افريقيا او آسيا او امريكا اللاتينية تعاني جميعا من التخلف الادارى بدرجات شديدة . وانها جميعا تتسم بسيطرة التنظيمات البيروقراطية التقليدية على النظم الاقتصادية فيها .

٢ - ان الدول النامية تتسم بصفة اساسية وهي الارتفاع النسبي في اعداد السكان بها . ان معظم هذه الدول تعاني مما اصطلح الاقتصاديون على وصفه بالانفجار السكاني .

٣ - ان معظم هذه الدول النامية تعاني من ارتفاع مستمر في معدلات المواليد ومعدلات الزيادة الصافية سنويا في اعداد السكان .

٤ - كذلك تتسم هذه الدول بتخلف التركيب النوعى للسكان كالآتي :

أ - ارتفاع نسب الاطفال والشيوخ بين السكان .

ب - ارتفاع نسب النساء غير المستغلات .

ج - انخفاض نسبة القوى العاملة الى اجمالي السكان .

د - انخفاض نسبة القوى العاملة المنتجة الى القوة العاملة الاجمالية .

هـ - ارتفاع نسبة العاملين في اعمال الخدمات والمهن غير المنتجة ( كالباعة الجائلين ، والخدم ، والاعمال المعاونة في الهيئات والمؤسسات والشركات ) .

و - ارتفاع نسبة العاملين باجهزة الادارة الحكومية البيروقراطية بالقياس الى المشتغلين بالمهن الصناعية والانتاجية .

ز - تخلف التركيب المهني للقوة العاملة وشيوع العمل بالمهن اليدوية والتي لا تتطلب قدرا عاليا من المهارة .

ح - انخفاض المستوى التعليمي العام للسكان وشيوع الامية بين افراد القوى العاملة .

ط - انخفاض المستوى الصحى العام وشيوع الامراض بين افراد القوى العاملة .

ى - انخفاض المستوى العام للانتاجية بين افراد القوى العاملة .

فإذا أضفنا إلى الدلائل السابقة دليلاً آخر هو أن معظم الدول النامية تشتغل أساساً بأنواع النشاط الاقتصادي الأقل إنتاجية كالزراعة أو التعدين ، وحتى تلك الدول التي تتمتع بثروات خاصة كالنفط أو بعض الحاصلات الزراعية الهامة كالقطن والحبوب مثلاً ، إلا أننا نجد أنها غير قادرة على استثمار تلك الثروات بالاتجاه إلى تصنيعها وتحقيق العائد الأمثل منها . بالعكس فالشاهد أن هذه الدول تعتمد أساساً على تصدير هذه الثروات إلى الدول المتقدمة اقتصادياً في صورتها الخام لتستبدلها بالسلع الاستهلاكية في المقام الأول .

كذلك يلاحظ يلاحظ أن هذه الدول النامية والتي تعاني من الزيادة في أعداد سكانها لم تحاول الاستفادة من الوضع السكاني للدول المتقدمة التي تفتقر إلى اليد العاملة ، ولم تلجأ إلى استثمار طاقتها البشرية الهائلة كمصدر للدخل القومي من خلال التهجير إلى تلك الدول الفنية على نطاق واسع منتظم .

نخلص من كل ما سبق إلى أن المشكلة السكانية ليست هي زيادة أعداد السكان بل هي في الأساس عدم قدرة الجهاز الإداري في المجتمع على استثمار طاقات هؤلاء السكان ، وتحويلها إلى إنتاج نافع له قيمة . ومن ثم فالمشكلة إدارية وليست ديموجرافية أو اقتصادية .

واستكمالاً للتحليل فإننا نتوجه الآن إلى دراسة **التغير الثاني** في بحثنا وهو التنمية الاقتصادية لكي نستدل على مدى ارتباطه بالمشكلة السكانية ، وللتأكد من سلامة ما توصلنا إليه من استنتاجات تتعلق بتلك المشكلة .

### التنمية الاقتصادية :

تمثل التنمية الاقتصادية إحدى العلامات البارزة في التاريخ الحديث لكثير من بلدان العالم ، وهي التحدي الرئيسي الذي يواجه شعوباً متعددة في عالمنا المعاصر . وقد اختلفت الآراء حول ماهية التنمية الاقتصادية ، كذلك اختلفت المداخل الهادفة إلى إحداثها ، وتركز أهداف التنمية الاقتصادية عادة في القضاء على مظاهر التخلف الاقتصادي والتي تبدو فيما يلي :

١ - انخفاض مستوى الدخل الفردي وما يترتب على ذلك من سوء التغذية ، وانتشار الأمراض وارتفاع نسبة الأمية وتمدور حالة الإسكان للغالبية من أفراد المجتمع .

٢ - انشغال الغالبية من السكان باشغال النشاط قليل الإنتاجية ، خاصة في الزراعة والخدمات وانتشار ظاهرة البطالة المقنعة ، حيث يزيد عدد العاملين دائماً عن الاحتياجات الحقيقية للعمل .

٣ - ازدياد الميل إلى الاستهلاك مع ضعف مستويات الادخار والاستثمار .

٤ - انخفاض المستوى العام للإنتاجية في المشروعات وارتفاع التكلفة النسبية للإنتاج .

ولقد كانت مظاهر التخلف الاقتصادي محل اهتمام ودراسة اقتصاديين لفترات طويلة ، كما

جذبت انتباه المفكرين الاجتماعيين الى المشاركة في ايجاد حلول لها ومن اهم النماذج الشائعة عن مداخل احداث التنمية الاقتصادية ما يلي :

**اولا : النموذج الاقتصادي الكلاسيكي (٥) :** الذي يقوم على اساس الاقتناع بأن القانون الطبيعي هو الفلسفة الحقيقية في الحياة، وبالتالي فان « الحرية » هي محرك النمو والازدهار في المجال الاقتصادي . وتتلخص مبادئ الفكر الكلاسيكي عن التنمية الاقتصادية في الآتي :

١ - القانون الطبيعي هو اساس تنظيم الحياة الاقتصادية ، ومن ثم تكريس الحرية الاقتصادية .

٢ - تقسيم العمل الى الحد الذي يقبله السوق .

٣ - تحرير التجارة الخارجية حيث تقوم كل دولة بتصدير السلع التي تتمتع فيها بمزايا نسبية .

٤ - احداث تراكم رأسمالي يتم تمويله من القيمة الفائضة .

٥ - الاهتمام بالتكوين الرأسمالي الجديد والتطوير التكنولوجي للتغلب على مضار الريادة في السكان خاصة والموارد القومية محدودة او ثابتة .

ويقوم المنطق الاساسي للنموذج الكلاسيكي على اساس ان ضغط الريادة السكانية على الموارد الطبيعية المحدودة يؤدي الى تعويق عملية النمو على الرغم من الريادة في التكوين الرأسمالي . اي ان المشكلة السكانية بمعناها الاقتصادي واضحة في هذا المنهج الفكري باعتباره انها عائق في سبيل التنمية .

**ثانيا : نموذج الابتكار كمدخل للتنمية (٦) :** وقد روج له الاقتصادي شومبيتر Schumpeter حيث اوضح ان التجديد والابتكار هما مصدر الارباح ، وان المزيد من الارباح هو اساس التنمية الاقتصادية . ويعود التجديد والابتكار في نظرية شومبيتر اساسا الى « المنظم Entrepreneur الذي يمارس وظائف البحث عن الجديد في الانتاج ويقوم على تنفيذه .

ويتسع مفهوم التجديد في نظرية شومبيتر ليشمل محاولات تغيير معدلات الموارد الى الاستخدامات ، وزيادة الطلب الفعال ، وتخفيض اسعار عناصر الانتاج او تحقيق مزايا الوفورات في الانتاج . ومن خلال عمليات التجديد يحصل المجددون من المنتجين على مزايا اضافية تسمح لهم بتحقيق ارباح غير عادية ، مما يشجع على اجتذاب رؤوس الاموال لهذا النشاط الانتاجي ، الامر الذي يؤدي الى انخفاض نسبي لمعدلات الارباح نتيجة للتوسع الانتاجي . ومن ثم يواصل المجددون محاولات الابتكار للاحتفاظ بتفوقهم النسبي على منافسيهم . ومع كل موجة من موجات التجديد يرتفع المد الاقتصادي للمجتمع وينتقل خطوة في طريق النمو والتقدم .



المدخل الإداري لمعالجة المشكلة السكانية بالدول النامية

ويبرز من نظرية شومبيتر بعض الأفكار الهامة التي سنعود الى تأكيدها حين نناقش المدخل الإداري للتنمية الاقتصادية ، وهذه الأفكار هي :

١ - ان الإدارة العلمية للإنتاج التي يمارسها المنظم في رأى شومبيتر هي العنصر الحاسم في أحداث التجديد ومن ثم النمو الاقتصادي .

٢ - ان منطق الانماء عند شومبيتر هو منطق ايجابي يستند الى فكرة الخلق والانشاء الجديد .

٣ - ان التكنولوجيا لها دور هام في أحداث النمو .

تلك الأفكار مترابط معاً ، وسيكون لها مكانها الهام في المنطق الإداري عن التنمية الاقتصادية .

**ثالثاً : لقد عبر آرثر لويس (٧) عن مفهوم آخر للتنمية الاقتصادية يستند الى ان التنمية هي في الأساس عملية تراكم رأس المال الذي يستخدم لتجهيز طاقة العمل التي يتم نقلها من قطاع الزراعة الى قطاع الصناعة . ان انتقال الأيدي العاملة من قطاعات الإنتاج الأقل إنتاجية مثل الزراعة الى القطاعات الأعلى إنتاجية كالصناعة يحقق زيادة في الإنتاجية الكلية للمجتمع .**

ويتضح ان نموذج لويس يقتصر على إبراز دور رأس المال في أحداث التنمية ، وانما يشترك أيضاً عنصر العمل وقبيل فكرة تحسن الإنتاجية كعامل مساعد للنمو الاقتصادي .

وبرغم اختلاف النماذج الاقتصادية في مفاهيمها عن التنمية الاقتصادية ، الا انها تركز بشكل عام على أربعة عناصر تعتبرها محركات للنمو الاقتصادي هي :

١ - تراكم رأس المال .

٢ - التغير في حجم السكان .

٣ - التنظيم .

٤ - تقسيم العمل .

وقد كانت نظرة الاقتصاديين الى السكان مختلفة فيما يتعلق بأثر الزيادة السكانية على النمو الاقتصادي . فالبعض منهم كان يعتقد ان الزيادة السكانية ستعوق التنمية ، وتقلل معدلاتها كما كان ريكاردو و سميث يعتقدان (٨) . بينما كان كيث يرى ان زيادة عدد السكان تعني زيادة الطلب ، وهو من العوامل المشجعة على الاستثمار والنمو الاقتصادي (٩) .

٧ - W.A. Lewis, Economic Development with Unlimited Supplies of Labour, The Manchester School, May, 1954.

٨ و ٩ - Meier, G.M. & Baldwin, R.E. : Economic Development, N.Y., Wiley, 1957.

### التصور الإداري للتنمية الاقتصادية :

أن الفارق الأساسي بين التصور الإداري للتنمية الاقتصادية وبين التصورات الاقتصادية لها يمكن أن يتضح من النقاط الآتية :

١ - أن المداخل الاقتصادية تركز على واحد أو أكثر من عوامل الإنتاج باعتباره المحرك الأساسي للتنمية ، بينما التصور الإداري ينظر إلى التنمية باعتبارها عملية متكاملة وشاملة تعتمد على تفاعل مجموعة العوامل الانتاجية وغيرها من المحددات الاجتماعية والانسانية لانتاج معدلات معينة من الانماء الاقتصادي .

٢ - أن المداخل الاقتصادية تعتبر التنمية مشكلة مستقلة إلى حد ما عن خصائص وصفات المجتمع الانسانية وتقاليد وعاداته الحضارية ، بينما المدخل الإداري لا يفصل بين محاولات الانماء الاقتصادي وبين التكوين الاجتماعي والحضارى .

٣ - أن دور السكان والزيادة السكانية غير متفق عليه في المداخل الاقتصادية للتنمية ، إذ تعتبره بعض النظريات عاملاً معوقاً لجهود التنمية ومبداً لآثارها ، بينما تميل نظريات أخرى إلى اعتبار أن السكان والزيادة في أعدادهم من العوامل المساعدة على أحداث التنمية .

٤ - أن المداخل الاقتصادية عموماً تميل إلى تصوير التنمية الاقتصادية باعتبارها تغيراً مفروضاً على المجتمع من الخارج ، أى بفعل قوى ومؤثرات خارجية يتم ادماجها في الكيان الاقتصادي للمجتمع من خلال أحداث زيادات في التكوين الرأسمالي ، أو استيراد أشكال من رأس المال أو التطوير التكنولوجي . أما المدخل الإداري للتنمية فإنه يعتبرها تغييراً ذاتياً ينبع من داخل الكيان الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع ولا تتحقق له الفعالية إلا من خلال قبول أفراد وجماعات المجتمع له ، وتحمسهم لأحداثه والمشاركة الإيجابية في تحقيقه . ومن هنا نجد التصور الإداري للتنمية الاقتصادية يضع أهمية كبرى في خصائص التكوين السكاني للمجتمع ، من حيث مدى تقبلهم لمفاهيم التنمية والتغيير والتطوير ، أو معارضتهم لمثل هذه الاتجاهات .

وفي ضوء هذه النقاط يمكن إبراز التصور الإداري للتنمية الاقتصادية في أنه محاولة أحداث تغيير شامل وجذري في نظم وعلاقات الإنتاج والعمل ، وأسس استخدام الموارد والطاقات المتاحة ، وخلق الظروف المناسبة لتطوير الطاقات والموارد ، واستقبال الطرق والأساليب الجديدة في الإنتاج ، كل هذا بهدف تحسين وتطوير الكفاءة الكلية للتشغيل الاقتصادي للمجتمع ، وتحقيق زيادات صافية في الانتاج القومي كما ونوعاً ، وترشيد توزيع الناتج القومي بين المساهمين في انتاجه وفقاً لأسس ومعايير اقتصادية واجتماعية عادلة ومقبولة .

وتتركز أهم خصائص المدخل الإداري في التنمية الاقتصادية في الآتي :

١ - أن الإدارة العلمية تحقق بالتخطيط والتنظيم والمتابعة الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة ، ومن ثم تصل إلى أفضل النتائج الممكنة في إطار القيود والمحددات السائدة .

المدخل الإداري لمعالجة المشكلة السكانية بالدول النامية

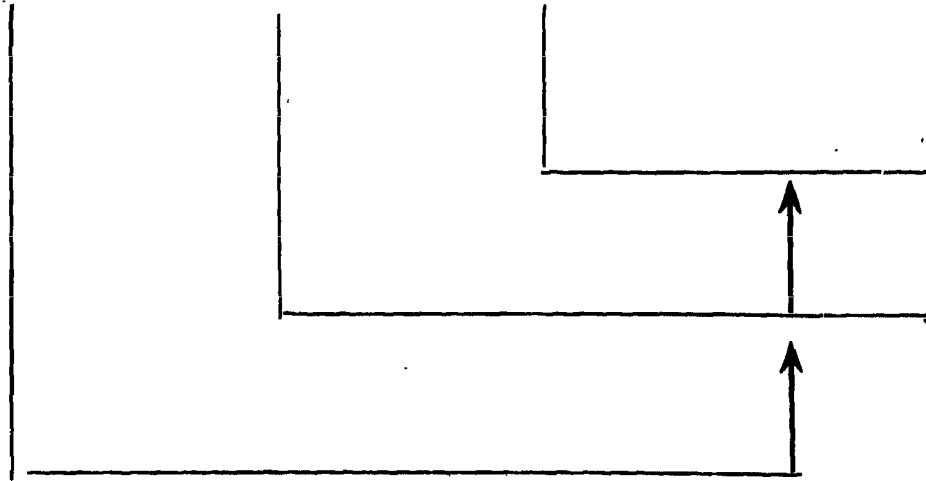
٢ - أن المنطق الإداري يعتبر العنصر البشري هو الركيزة الأساسية لجهود التنمية ، ومن ثم فإن توافر عناصر الإنتاج الأخرى لا قيمة له إلا إذا توفر العنصر البشري القادر والراغب في الإنتاج والعطاء .

٣ - أن التنمية الاقتصادية هي في حقيقتها تنمية للطاقات البشرية ، ومحاولة رفع كفاءة القوى العاملة ، وزيادة معدلات أسهامها في الإنتاج القومي .

أن الكفاءة الإنتاجية هي محور التفكير الإداري في التنمية . وبالتالي فإن جهود الإنماء يجب أن تتركز جميعاً في محاولة رفع الكفاءة الإنتاجية في الأنشطة الاقتصادية . وحيث أن السكان هم المصدر الأول للكفاءة الإنتاجية ، إذن فالتنمية الاقتصادية تتوقف تماماً على مدى كفاءة السكان ودرجة الاستفادة منهم في تعظيم الناتج القومي .

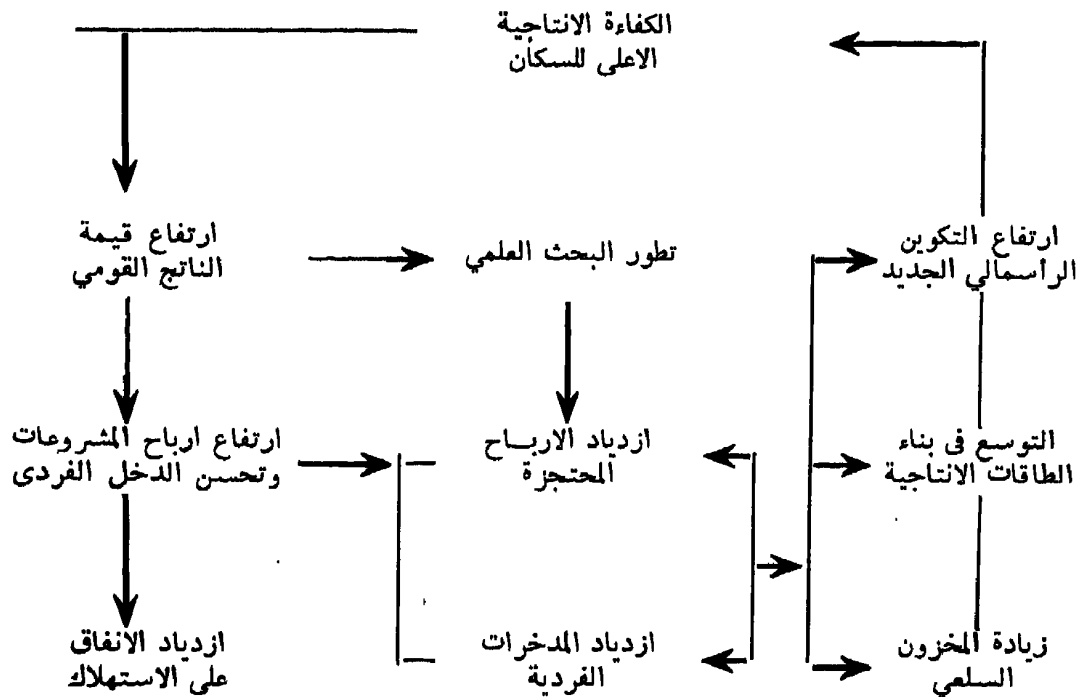
ولذلك فإن المدخل الإداري للتنمية الاقتصادية يعتمد على المنطق الآتي :

$$\text{الكفاءة الإنتاجية الكلية} = \frac{\text{قيمة الناتج القومي الإجمالي}}{\text{قيمة رأس المال المستخدم} + \text{قيمة المواد وعناصر العمل البشري المستخدم} + \text{قيمة الطبيعة المستخدمة}}$$



أي أن قيمة العمل البشري هي مصدر تنمية قيم رأس المال وعناصر الطبيعة ، ومن ثم هي مصدر الزيادة الحقيقية في الناتج القومي الإجمالي .

**شکل و رقم ( ۱ )**



ان الكفاءة الانتاجية للسكان هي مفتاح التقدم والنمو ، ومن ثم فان المدخل الادارى للتنمية الاقتصادية يركز على تعظيم هذه الكفاءة الانتاجية ، ومن ثم فانه يقدم حلاولا مختلفة للمشكلة السكانية كما سيرد تفصيلا في جزء تال من هذا البحث .

### التنمية الاجتماعية :

لعل تعبير « التنمية الاجتماعية » من أكثر التعابير الشائعة غموضاً نظراً لكثرة استخدامه للدلالة على أشياء مختلفة . وسبب اهتمامنا بدراسة هذا الجانب هو ارتباطه الشديد بالمشكلة السكانية ، وتعارض المفاهيم السائدة حول العلاقة بين السكان وبين محاولات التنمية الاجتماعية . وكما كان الشأن بالنسبة للتنمية الاقتصادية ، فإننا نعرض هنا تحليلاً لمفهوم التنمية الاجتماعية توصلنا إلى الكشف عن العلاقة بينها وبين المشكلة السكانية من ناحية ، وبين المنطق الإداري في الإنماء من ناحية أخرى .

لقد شاع في كثير من الدول النامية ارتباط بين جهود التطوير والانماء الاقتصادي من ناحية ، وبين الرغبة في تحسين حال المجتمع وتوفير اسباب الرفاهية للمواطنين من ناحية اخرى . ومن ثم

اقترنت التنمية الاجتماعية بالتنمية الاقتصادية في مشروعات وخطط الإنماء الخمسية والعشرية لدول العالم النامية .

ويلاحظ باستمرار أن مفهوم التنمية الاجتماعية السائد يخضع لمنطق تقديم مزيد من الخدمات ، وأشكال الرعاية الاجتماعية للمواطنين بهدف التخفيف من أعباءهم ، والإسهام في حل مشكلاتهم ذات الأساس الاقتصادي غالباً . من ذلك ما نلاحظه أن جهود التنمية الاجتماعية تتجه في أكثر الأحيان إلى :

١ - توفير درجات أعلى من الأمن الاجتماعي من خلال تطوير نظم وبرامج التأمينات الاجتماعية، والضمان الاجتماعي وغير ذلك من أشكال وضروب إسهام الدولة في تأمين حد أدنى من الدخل للمواطنين حال إصابتهم بما يقعدهم عن العمل ، أو ضمان هذا الدخل الأدنى لذويهم في حالة الوفاة .

٢ - تطوير وتحسين مستوى الخدمات الصحية والعلاج الطبي لفئات المواطنين ذوي الدخل المحدود ، والعمل على مكافحة الأوبئة والأمراض المتوطنة ، ونشر الوعي الصحي بين أفراد وجماعات المجتمع .

٣ - تأمين مستوى مقبول من الإسكان لذوي الدخل المحدود ، وتوفير فرص الحصول على سكن مناسب للعائلات الكبيرة التي قد تعجز بمواردها الذاتية عن تديره .

٤ - محاولة رفع المستوى الثقافي للمواطنين من خلال برامج هادفة إلى تقريب الثقافة الحديثة لمفاهيم الإنسان العادي ، ونشر التذوق الفني بين الجماهير .

٥ - العمل على نشر التعليم وتخفيض تكلفته ومكافحة الأمية ووضع البرامج لتعليم الكبار .

كل تلك المظاهر لا تنتمي في تحليلنا إلى التنمية الاجتماعية برغم أن هذا هو الاسم الذي يطلق عليها . ونحن نضع تلك الجهود جميعاً في فئة أنشطة الرعاية الاجتماعية أو ما يطلق عليه Social Welfare حيث هي لا تهدف إلى إحداث تغييرات جذرية في الأوضاع والعلاقات الاجتماعية، بل يقتصر أثرها على مجرد التخفيف من حدة الشعور بالمشكلات الاقتصادية وعدم العدالة الاجتماعية ، وبالتالي فإن تأثير هذه المحاولات على الكفاءة الانتاجية للسكان يكون محدوداً إلى حد بعيد للأسباب الآتية :

١ - أن هذه الجهود في الرعاية الاجتماعية تتعامل مع جوانب متفرقة من الحياة الاجتماعية للإنسان ، ولا تتعامل مع المحددات الفعلية للكفاءة الانتاجية بشكل مباشر .

٢ - أن محاولات الرعاية الاجتماعية لا تصل إلى الأسباب الحقيقية للتخلف الاجتماعي والذي يؤثر تأثيراً سالباً على الكفاءة الانتاجية للسكان ، وإنما تتجه بالدرجة الأولى إلى محاولة علاج مظاهر هذا التخلف الاجتماعي .

٣ - ان الاجهزة القائمة على توفير تلك الرعاية الاجتماعية تتعدد وتباين في اهتماماتها واساليبها ، ولا تصدر من سياسة موحدة او خطة متكاملة . وبالتالي فكثيرا ما يحدث ان يستفيد بعض المواطنين من خدمات مكررة لبعض هذه الاجهزة ، بينما يفشل آخرون في الحصول على اى قدر منها .

٤ - ومن الملاحظ ايضا ، ان تلك الجهود المبذولة في سبيل الرعاية الاجتماعية تتجه في الغالب الى المواطنين في المناطق الحضرية من الدولة ، بينما لا تكاد تصل الى الآخرين في المناطق الريفية وذلك نظرا لبعدهم عن مراكز التأثير السياسي من ناحية ، ولتركز البيروقراطية الحكومية في المدن من ناحية اخرى . وبرغم الاتجاه السائد في بعض الدول مؤخرا والذي يطلق عليه اسلوب « تطوير المجتمع Community Development » والذي يرمي الى تجميع جهود الاجهزة العاملة في مجال الخدمات الاجتماعية وتركيزها بالنسبة لمنطقة معينة ( قرية ، او حي باحدى المدن ) وتخطيط توفيرها على اساس تكاملي ، الا ان المنطق الذي تقوم عليه هذه الجهود ما يزال هو منطق الرعاية الاجتماعية وليس التنمية الاجتماعية الشاملة .

ومن ثم فان المنطق الادارى العلمى يعتبر ان تشتت جهود العمل الاجتماعى ، وعدم فعاليتها ينعكسان على المشكلة السكانية بشكل مباشر ، حيث لا يوفران الاساس السليم لرفع كفاءة السكان الانتاجية ، وبالتالي يتواجد اعداد من السكان لا يملكون القدرة او المهارة او الدافع للعمل الانتاجي ، وهذا ما يتمثل في المظاهر الاقتصادية للمشكلة السكانية ، اى زيادة اعداد السكان بمعدلات تفوق معدلات الزيادة في الانتاج القومي .

### التصور الادارى للتنمية الاجتماعية :

ان التنمية الاجتماعية في المفهوم الادارى شأنها شأن التنمية الاقتصادية هي عملية تغير جذرية تستهدف القضاء على اوضاع وعلاقات اجتماعية سائدة ، واحلال اوضاع وعلاقات جديدة محلها . وبشكل محدد فان التنمية الاجتماعية في التصور الادارى هي محاولة علمية مخططة ومتكاملة تستهدف تغيير انماط السلوك الاجتماعى للأفراد في مجتمع معين بما ينعكس على الكفاءة الانتاجية للسكان بشكل ايجابي .

وبالتالى فان التنمية الاجتماعية تتصف بالخصائص الآتية :

١ - انها عملية شاملة ومتكاملة تتعامل مع المحددات الاساسية للسلوك الاجتماعى ، وتتركز التفاعل والتداخل بين تلك المحددات .

٢ - انها عملية مستمرة نظرا للتغير المستمر في محددات السلوك الاجتماعى ولضرورة متابعته بما يضمن استمرار توفر الظروف المساعدة على التحول الاجتماعى الايجابى ، وتجنب الارتداد الى الاوضاع والعلاقات الاجتماعية السابقة .

ولقد وضع لنا ان التنمية الاجتماعية تستهدف في الاساس اعادة تشكيل التكوين السكانى للمجتمع وذلك من خلال التأثير على انماط السلوك الاجتماعى السائدة ، ونتيجة للدراسات في مجال

العلوم السلوكية (١٠) فقد تحدد طريق العمل من أجل التنمية الاجتماعية لرفع الكفاءة الانتاجية للسكان في أمرين :

**الاول : محاولة التأثير في خصائص الانسان :** وذلك بالعمل على تغيير مكوناته الشخصية وهي :

= مدركات الانسان واسلوبه في الفهم والادراك .

= دوافع الانسان ورغباته واهدافه .

= خبرات الانسان وتجاربه .

= اتجاهات الانسان ووجهات نظره .

= القيم والمعتقدات التي يؤمن بها .

= العادات والتقاليد التي يقدرها ويلتزم بها .

**الثاني : محاولة التأثير في خصائص البيئة التي يعيش فيها الانسان ، وهي ذات شقين بيئة مادية واخرى اجتماعية .** والهدف هنا يتمثل في العمل على تغيير الجوانب الآتية في حياة الانسان :

= البيئة المادية المباشرة التي يعيش فيها وهي المسكن ومكان العمل .

= البيئة المادية المحيطة وهي المنطقة السكنية التي يقطنها والمنطقة التي يقع بها مكان العمل .

= البيئة الاجتماعية المباشرة في مكان العمل .

= البيئة الاجتماعية المحيطة في نطاق الاسرة والاصدقاء والاقارب .

= البيئة الاجتماعية غير المباشرة وهي تتمثل في المجتمع الكبير الذي ينتمي اليه الانسان .

وفي ضوء هذا التصور لمفهوم التنمية الاجتماعية تأخذ محاولات رفع الكفاءة الانتاجية للسكان بعدا جديدا ، كما تنبع حلول غير تقليدية للمشكلة السكانية .

#### وضع التكوين السكاني في مشكلة التنمية :

من خلال التحليل السابق توصلنا الى عدد من الاستنتاجات الاساسية التي يقوم عليها المنطق الذي يستند عليه بحثنا وهي :

١ - ان قضية السكان تمثل عنصرا هاما في مشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٢ - ان التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية لا تنفصلان ، بل هما وجهان لنفس المشكلة ، وهي الرغبة في تطوير حياة الافراد والجماعات في المجتمع ، وتهيئة ظروف معيشية افضل لهم .

٣ - ان الكفاءة الانتاجية للسكان هي المحدد الاساسي والعامل الحاسم في فعالية جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٤ - انه يمكن باستخدام منطق واساليب الادارة العلمية رفع الكفاءة الانتاجية للسكان ، ومن ثم تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وهذا الانماء الاقتصادي والاجتماعي يسهم بدوره في رفع الكفاءة الانتاجية للسكان ومن ثم تتراكم الآثار الايجابية للعمل الاقتصادي والاجتماعي .

وبخلاصة هذه الاستنتاجات ان التكوين السكاني يقع في صميم مشكلة التنمية ، ويلعب دورا مؤثرا في علاجها او تعويقها ، وذلك وفقا للخصائص الفعلية للسكان . ويصور الشكل التالي علاقة التكوين السكاني بعملية التنمية المتكاملة :

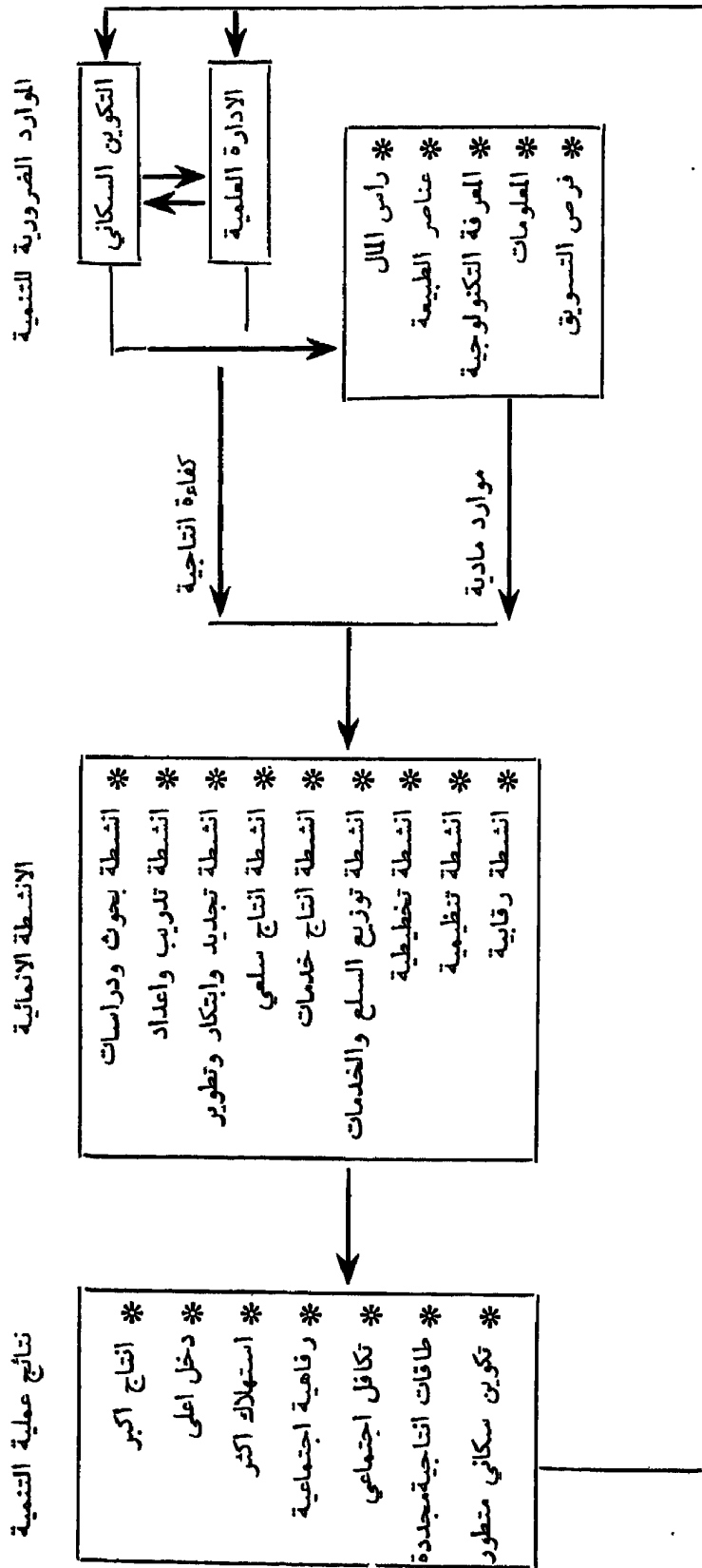
من الشكل السابق (رقم ٢) يتضح لنا ان توجيه اساليب الادارة العلمية نحو تعظيم الفائدة من التكوين السكاني ينتج مستوى معين من الكفاءة الانتاجية . كذلك فان تفاعل الادارة العلمية والكفاءة الانتاجية للسكان يتيح فرصة لاستغلال الموارد المادية (خلاف العمل الانساني) المتاحة للمجتمع ، ومن جماع الكفاءة الانتاجية والموارد الاخرى المتاحة يكون اداء الانشطة الانمائية امرا ممكنا . وكنتيجة للعملية الانمائية تتحقق للمجتمع الفوائد المستهدفة والتي تتمثل بالدرجة الاولى في انتاج ودخل اعلى بما يتيح مستوى افضل للاستهلاك والرفاهية الاجتماعية . كذلك تزداد القدرة على التكافل الاجتماعي من خلال نظم توزيع الدخل . كما يكون في الاستطاعة خلق وتجديد الطاقات الانتاجية الجديدة للمجتمع بتأثير الاستثمارات وعمليات التكوين الرأسمالي . واخيرا فان خصائص التكوين السكاني ذاتها تتعرض لتغيرات من تأثير الانشطة الانمائية ونتاجها ، وبشكل عام فان التكوين السكاني في نهاية دورة ما من دورات عملية التنمية سوف يصبح اكثر تقاربا مع المواصفات التي تتسم بها التكوينات السكانية في الدول المتقدمة صناعيا .

#### التكوين السكاني المتوافق مع متطلبات التنمية :

ان التساؤل الاساسي الآن يتعلق بخصائص التكوين السكاني الامثل ، ونقصد ذلك التكوين السكاني الذي يتصف بخصائص مساعدة لعملية التنمية ومتوافقة مع متطلباتها .

ويلاحظ ان الفكر الاقتصادي حين يتعرض للتكوين السكاني الامثل فانما يهتم بالدرجة الاولى بالعدد الامثل للسكان . وفي هذا المجال ترددت فكرتان حول العدد الاقصى من السكان ، والعدد





شكل رقم ( ٢ ) عملية التنمية المتكاملة

الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحلية والدولية

الادنى منهم (١١) وبرغم ان هذه الافكار تتعلق بتحليل في حالة السكون Static ، الا انها لا تثير الاهتمام الادارى كثيرا . وانما التكوين الامثل للسكان في المفهوم الادارى يتجه الى خصائص السكان وتركيبهم النوعي والمهني ، وصفاتهم النفسية والاجتماعية والقيم والمعتقدات التي يؤمنون بها . اما العدد من السكان فيأتي في مرتبة تالية من الهمية .

ونستطيع ان نقدم بعض الملامح التي اوضحت الدراسات الادارية الحديثة ضرورة توافرها في السكان حتى تنهيا الفرص للتنمية الاقتصادية :

١ - توفر نسبة كافية من السكان في فئة العمر المناسبة للعمل والانتاج وهي تتراوح بين عشرين وخمسة واربعين سنة . ففي تلك الفئة العمرية يوجد السكان الذين يسهمون في المتوسط بدرجة اعلى واكفا من غيرهم في فئات العمر الادنى او الاعلى .

٢ - ارتفاع المستوى التعليمي بين السكان بشكل عام وبين الافراد في فئة العمر ٢٠ - ٤٥ بشكل خاص ، نظرا لانعكاس هذا التعليم المرتفع على امكانيات وقدرات الافراد في العمل .

٣ - ارتفاع نسبة القوى العاملة المنتجة الى اجمالي عدد السكان ، اي ارتفاع نسبة القادرين على العمل والراغبين فيه الى اجمالي السكان . وهذا الارتفاع في نسبة القوى العاملة يتيح فرصا للعمل الانتاجي ، ويسمح بتشغيل واستثمار الطاقات والموارد الانتاجية المتاحة .

٤ - توفر صفات نفسية محايية للنمو والتقدم بين السكان واهمها :

١ - وجود درجة عالية من الدافع الى الانجاز Need Achievement وهو الرغبة في تحقيق نتائج واهداف متميزة . وقد اثبت احد الباحثين وجود ارتباط بين الدافع الى الانجاز وبين درجة التقدم الاقتصادي للمجتمع (١٢) كذلك اوضحت الدراسات ذاتها ان اكثر افراد المجتمع تمتعا بالدافع الى الانجاز هم الاقدر على النجاح في الاعمال المتصلة بمجالات الانماء الاقتصادي .

ب - توفر درجة عالية من الرغبة في المشاركة Participation والانخراط في العمل Job Involvement بين السكان . ان هذه المشاركة والانخراط في العمل تعني ان اسهام الفرد في تحقيق اهداف الانتاج لا يقتصر على ادائه لواجباته الروتينية فحسب ، بل سوف يقدم على الابداع

١١ - يقصد بالعدد الاقصى للسكان Maximum Population ذلك العدد من السكان الذي يتحقق عند تساوى معدل الوفاة ومعدلات المواليد ، اي عندما تصبح الزيادة الصافية في السكان صفرا وذلك عند مستوى معين من الخبرة الفنية واساليب وطاقت الانتاج . وقد يتحقق هذا الحد الاقصى اما بفعل ارتفاع معدل الوفيات مع ثبات معدل المواليد ، او انخفاض معدل المواليد وثبات معدل الوفيات ، او تغير المعدلين في اتجاهين مضاين وذلك نتيجة لاسباب صحية ، واجتماعية وسياسية واقتصادية . اما الحد الادنى للسكان فهو اقل عدد ممكن من السكان الواجب توافره لامكان قيام حياة ونشاط اقتصادي او اجتماعي في بقعة ما .. راجع IAN, Bown, op.cit. p. 124.

١٢ - توصل عالم النفس دافيد مكلاند من اثبات وجود ارتباط بين درجة توفر الدافع الى الانجاز في شعب من الشعوب وبين درجة التنمية الاقتصادية التي يحققها هذا الشعب . وقد أجرى مكلاند دراساته على بيانات تاريخية عن الولايات المتحدة الامريكية وايطاليا وانجلترا . راجع مؤلفه :

McClelland, D.C., The Achieving Society Princeton : D. Van Nostrand Co., Inc., 1961.

والخلق والابتكار في محاولة لحل مشكلات العمل ، والتماس طرق واساليب اكثر تطورا في الانتاج تعود عليه وعلى المجتمع بالفائدة . ان الشعور بالمشاركة والانخراط في العمل يؤدي الى خلق الشعور بالمسؤولية الجماعية والمصلحة المشتركة . ويتبلور هذا الشعور في انماط سلوكية في العمل والانتاج تتميز بالايجابية والاقدام . ولقد اوضحت احدي الدراسات ان النجاح غير العادي الذي تحققه منظمات الانتاج في مجتمع ما يتوقف الى حد كبير على درجة الشعور بالمشاركة والانخراط في العمل بين العاملين في تلك المنظمات (١٢) .

ان هذه الصفة في التكوين السكاني من اهم ما تحتاجه جهود الانماء الاقتصادي في الدول النامية حيث تتبلور في اسهام المواطنين بالعمل من اجل الصالح العام ، والحفاظ على المكية العامة والثروة القومية ، والشعور بالمسؤولية الكاملة حتى فيما يخرج عن حدود عمل الفرد . وكلها صفات تفتقر اليها الدول المتخلفة اقتصاديا .

ج - توفر درجة عالية من الرغبة في الانتماء Affiliation Need وهي درجة ارتباط الفرد بوطنه او مجتمعه او جماعته ، ومدى شعوره بالرغبة في العمل من اجله . ان اهم ما تعاني منه كثير من الدول النامية ذلك الشعور بالتباعد والانفصال الذي يتسم به ابناؤها ، خاصة هؤلاء الذين يحققون مستوى اعلى من العلم والثقافة والخبرة الخاصة . ولعل قضية استنزاف العقول Brain Drain هو دليل حاسم على ذلك . ان هؤلاء الذين يتم استنزافهم هم شباب من ابناء الدول النامية ، حققوا قدرا عاليا من العلم والخبرة ثم استقطبتهم دول كبرى غنية من خلال الاغراء بمغريات شتى ، مادية وغير مادية . ولكن ما يعيننا هنا ان بلادهم النامية تحرم من خبراتهم وعلمهم بسبب نقص الرغبة في الانتماء لديهم . ان هؤلاء الشباب اذ يبعدون انفسهم عن اوطانهم ، ومن ثم تتدننى مساهمتهم في انماءها انما يدللون على قيمة توفر الرغبة في الانتماء لدى سكان دولة ما ، حتى تتوفر ظروف افضل للتنمية . وهنا لابد من ان نورد تحذيرا هاما هو ان الرغبة في الانتماء يجب الا تفهم بمعنى التواجد المادي في الوطن ، ولكن القصد هو الانتماء الفكري والعاطفي للوطن ، والعمل من اجل تحقيق اهدافه حتى ولو كان الفرد يقيم خارجه . ومن ذلك يستقيم في تصورنا مبدأ الهجرة من اجل تخفيف المشكلات الاقتصادية مع استمرار وجود الانتماء للوطن ، وذلك اذا عمل ابناء الوطن المهاجرون على الاسهام في تمويل ودفع حركة الانماء في بلدهم ، ولو بشكل غير مباشر . ولعل في نجاح حركة الهجرة لانباء لبنان واستمرار ارتباطهم بوطنهم ، دليل على ما تقدم ، برغم ان كثيرين من هؤلاء المهاجرين قد تنسوا بجنسيات بلاد المهجر .

د - توفر درجة عالية من الرغبة في القدرة على تحمل المخاطر Risk-taking ان صفة اساسية في انشطة الانتاج والاعمال المرتبطة بالتنمية هي نسبة المخاطر التي تحوط هذه الانشطة ، وعدم القدرة على التأكد من نتائجها . ان عدم التأكد Uncertainty ينشأ بسبب عوامل ومتغيرات كثيرة تتفاعل جميعا لتجعل نتائج نشاط اقتصادي او انتاجي معين غير واضحة وقت

الاعداد لهذا النشاط . ومن ثم فان القائم باتخاذ قرار في هذا الشأن لا بد وان يتصف بدرجة مناسبة من الرغبة في تحمل المخاطر حتى يكون قادرا على اتخاذ قرارات تتسم بالجراة والحسم من ناحية ، وحتى يتمكن من اتخاذ القرارات في التوقيت السليم من ناحية اخرى . ولقد وضع من دراسات عديدة ان المديرين في قطاع الاعمال الذين يحققون معدلات نجاح اكبر ، هم الذين يتصفون بالميل الى تحمل الاخطار (١٤) . وكذلك فانه يمكن التعميم بأن درجة التقدم الاقتصادي لدولة ما تتأثر الى حد بعيد بمدى ميل سكانها الى قبول المخاطر وتحمل النتائج المترتبة على القرارات التي يتخذونها . والى جانب تلك الصفات النفسية التي يجب توافرها في سكان دولة ما حتى يصبحوا عنصرا فعالا في احداث التنمية الاقتصادية ، هناك عدد آخر من تلك الصفات نوردتها فيما يلي :

- الرغبة في القوة والميل الى السيطرة .
  - الرغبة في التنافس والميل الى تحدى الآخرين .
  - قبول التغيير وعدم التمسك بالقديم لداته .
  - المرونة في التفكير وامكان تعديل الاراء والاتجاهات .
  - القدرة على الحركة السريعة في مواجهة المواقف المتغيرة .
  - القدرة على الاقناع والتأثير في الآخرين .
  - تقدير الوقت واهميته .
  - تقدير الدقة والحرص على التدقيق في الامور .
  - القدرة على مواجهة الواقع وقبول ما يفرضه من التزامات .
  - النظرة المستقبلية للامور والقدرة على التنبؤ والتوقع .
  - النظرة الشاملة للامور والقدرة على ادراك الجوانب المختلفة للظاهرة او المشكلة .
  - القدرة على التحليل والتدبر وفصل الظواهر الخارجية عن حقائق الامور .
- وحين نعدد هذه الصفات المرغوبة ، فنحن لا نقصد ضرورة توافرها في كل سكان دولة ما ، او ان توجد بدرجات متساوية ، ولكن القصد انه اذا توافرت تلك الصفات في نسبة مؤثرة من السكان الذين يشغلون مراكز قيادية في حركة الانماء وفي تلك الفئة من السكان الذين ينتمون الى القوة العاملة المنتجة فان ذلك كفيل باحداث حركة انمائية سريعة ومستمرة .

١٤ - Atkinson, J. W., „ Motivational Determinants of Risk-Taking Behavior ", in Motives in Fantasy, Action and Society, ed. J. W. Atkinson. Princeton, N. J. : D. Van Nostrand, Co. Inc., 1958.

واخطر ما يتعلق بتلك الصفات المرغوبة في السكان أنها ليست جميعا موروثية ، أى ان توافرها يخضع فقط لعوامل وراثية تخرج عن سيطرة الانسان ، ولكن النسبة الكبيرة من هذه الصفات مكتسبة من البيئة الاجتماعية والحضارية ، وبالتالي يمكن اكسابها للأفراد المعنيين من خلال اعادة تشكيل الجو الاجتماعي المحيط بهم . ومن هنا تتبع خطورة واهمية الترابط العضوى بين التنمية الاجتماعية وبين التنمية الاقتصادية . ذلك اننا اوضحنا فيما سبق ان التنمية الاجتماعية تستهدف تغيير انماط السلوك الاجتماعي تغييرا جذريا ، وهذا التغيير هو في حقيقته اكساب الافراد صفات وخصائص جديدة تتوافق مع مطالب التنمية الاقتصادية .

ويتم احداث هذا التغيير الجذري في صفات وخصائص السكان ( او الفئة المقصودة منهم بالتغيير ) من خلال استخدام اساليب ومفاهيم الادارة العلمية ، المستندة الى حصيله المعرفة النابعة من العلوم السلوكية .

### التكوين السكاني من وجهة النظر الادارية

من خلال التحليل السابق نصل الى تحديد للنظرة الادارية الى السكان . ان علم الادارة على عكس علم الاقتصاد لا يعتبر السكان عبئا اقتصاديا ، وعلى عكس علم الاجتماع لا ينظر اليهم باعتبارهم مجموعة من المشكلات والصراعات الاجتماعية . ان السكان في المنطق الادارى لهم وظائف اساسية لها تأثيرها الهام على مستوى التنمية الاقتصادية ومعدلاتها . هذه الوظائف هي :

#### ١ - الوظيفة الانتاجية :

ان السكان هم مصدر العمل وهم بالتالي عنصر الانتاج الرئيسي . وبرغم اهمية عناصر الانتاج الاخرى ( رأس المال ، المواد ) الا ان العمل الانساني هو اهم عناصر الانتاج جميعا . وتباين درجة اسهام فئات السكان المختلفة في العملية الانتاجية ، ومن ثم يعظم قدر السكان ، كلما زادت نسبة قوة العمل المنتجة بينهم ، وكلما ارتفع مستوى المهارة والقدرة للعاملين منهم .

وتهتم النظرة الادارية بالقوة العاملة الكلية بين السكان من ناحية ، كما تهتم اكثر بالتركيب الوظيفي والمهني لهذه القوة العاملة . وتعمل الجهود الادارية الى احداث تناسب وتوازن في التركيب الوظيفي للقوة العاملة - بحيث تتوازن الاعداد العاملة في الوظائف التالية :

١ - الوظائف والاعمال الادارية .

ب - الوظائف والاعمال اليدوية المصنعية .

ج - الوظائف والاعمال المتعلقة بالخدمات الانتاجية .

د - الوظائف والاعمال اليدوية الزراعية .

هـ - الوظائف والاعمال الذهنية والفكرية « خلاف الادارية » .

و - الوظائف والاعمال المتعلقة بالخدمات غير الانتاجية .

وتميل المساهمة الانتاجية للسكان الى التزايد كلما اتجه هيكل القوة العاملة الى احتواء نسبة اعلى من شاغلي الوظائف الادارية والذهنية والفكرية . ومن ناحية اخرى فان الافراد العاملين في كل نوع من الوظائف السابقة يمكن تصنيفهم الى درجات ومستويات مهارة كما يلي :

١ - المستوى الاعلى من المهارة .

ب - المستوى المتوسط من المهارة .

ج - المستوى العادى من المهارة .

د - مستوى العمال غير المهرة .

ولا شك ان نسبة تواجد العمالة غير الماهرة تقل الى حد بعيد بين شاغلي الوظائف الادارية والذهنية عموما ، وتزداد عادة بين شاغلي الوظائف اليدوية المصنعية والزراعية ، والخدمات الانتاجية وغير الانتاجية .

وتزداد درجة اسهام القوة العاملة في تحقيق الناتج القومي وتحسين مستواه كلما ارتفع مستوى المهارة بين شاغلي الوظائف المختلفة .

## ٢ - الوظيفة الاستهلاكية :

ان للسكان وظيفة اخرى هامة مكمله لوظيفتهم الانتاجية ، وهي قيامهم باستهلاك السلع والخدمات التي ينتجها الجهاز الانتاجي للدولة . ولا تقل الوظيفة الاستهلاكية في اهميتها عن وظيفة الانتاج ، نظرا لان الاستهلاك من العوامل الاساسية المحركة لنظام الانتاج والنشاط الاقتصادي عموما . ان الدورة الانتاجية المتكاملة تبدأ في حقيقة الامر من نقطة الاستهلاك الاخير ( السوق ) وذلك حين تحاول الادارة التعرف على احتياجات المستهلكين ورغباتهم ، التي يعمل الجهاز الانتاجي على تحويلها الى سلع وخدمات يقبل المستهلكون على شراءها مقابل ائمان يتكون منها ايرادات المشروعات ، ومنها يتم تمويل حصول المشروع على عناصر الانتاج اللازمة لاستمرار العملية الانتاجية . ومن ذلك يتضح ان حجم السوق الحقيقي هو المحدد الفعلي لمستوى النشاط الانتاجي . ولا يقتصر اهتمام الادارة بالمستهلكين على الجانب العددي لهم ، بل ان اهتمامها يتجه اكثر الى الخصائص الاجتماعية والنفسية لهم ، ومنها على سبيل المثال ما يلي :

١ - حجم الطلب الفعال للمستهلكين المتمثل في القوة الشرائية المصحوبة بالرغبة في الشراء .

ب - دوافع الشراء والعوامل المحددة للقرارات الاستهلاكية .

ج - انماط الاستهلاك السائدة واسس توزيع الدخل القابل للانفاق على بنود السلع والخدمات المختلفة .

ان التكوين السكاني ، بامتباره أداة الاستهلاك ، يمثل عنصرا هاما في تحريك أنشطة الانتاج ، وخلق فرص للاستثمار وتشغيل الطاقات المادية للمجتمع ، ومن ثم خلق فرص للعمل وانتاج

الدخل . ومن الصفات الأساسية للمجتمعات المختلفة اقتصاديا تدني مستويات الاستهلاك ، وتختلف الانماط الاستهلاكية السائدة ، بينما تتسم المجتمعات المتقدمة اقتصاديا بارتفاع معدلات الاستهلاك وتطور انماطه . وبالتالي فان نمط ومستوى الانفاق الاستهلاكي أصبح الآن من معايير قياس التقدم الاقتصادي .

### ٣ - الوظيفة الابتكارية :

ان للسكان وظيفة ثالثة وهامة هي انهم مصدر الحاول الابتكارية الخلاقة للمشكلات التي تواجه المجتمع . ان العلم والمعرفة والفنون والآداب هي أدوات يستغلها افراد المجتمع من اجل تعظيم رفاهيته وتطوره . ولا شك ان ارتفاع المستوى العلمى والثقافى للسكان ينعكس ايجابيا على الانتاج من حيث الكم والنوع ، كذلك ينعكس على اساليب وطرائق الانتاج . ومن هذا الجانب يبرز تأثير هام للتكوين السكاني من خلال ادراكه واستخدامه لمفاهيم الادارة والتنظيم ، التي تسهم ايجابيا في رفع كفاءة الاداء وترشيد الانشطة الانتاجية والاقتصادية .

### ٤ - الوظيفة الاستثمارية :

واخيرا فان التكوين السكاني للمجتمع يمثل اصلا من الاصول الراسمالية الرئيسية . ان من المستطاع النظر الى افراد المجتمع بما يتميزون به من علوم ومعارف وخبرات على انهم فرص للاستثمار يمكن الحصول على عائد كبير من وراء تشغيل خبراتهم في مجتمعات اخرى تفتقر اليها . ولعل ابرز الامثلة على ما نقصد اليه بهذه الوظيفة هو التكوين السكاني في مصر . ان مصر تتميز بوفرة في سكانها يزيدون عن احتياجات التشغيل الاقتصادي الامثل للحجم الحالي من الطاقات الانتاجية المتاحة ، وفي ضوء المستوى التكنولوجي والتنظيمي السائد ، ولكن مصر في الوقت ذاته تنفق جزءا كبيرا من دخلها القومي في اعداد وتكوين هؤلاء السكان ، واكسابهم خبرات علمية متنوعة في شتى مجالات العمل الانتاجي واعمال الخدمات .

وبالنظر الى الحدود المفروضة على الجهاز الانتاجي في مصر حاليا ، فان قدرته على استيعاب هذه الاعداد الوفيرة من اصحاب الخبرات محدودة ، ومن ثم يلجأون الى البحث عن مجالات للعمل في خارج مصر سواء في الدول العربية والافريقية المجاورة ، او في الدول الاوروبية والأمريكية (١٥) . وهؤلاء الافراد حين يبحثون عن اعمال خارج مصر ، فانهم يتعاملون على أساس فردي ، ويخضعون لصنوف من الاستغلال والمساومات وعدم الاستقرار الوظيفي لا تتعادل مع ما يسهمون به من خدمات للمجتمعات الجديدة التي يعملون بها . ومن هنا يأتي تصورنا للوظيفة الاستثمارية للسكان ، حيث لو تم تخطيط وتنظيم عملية تصدير العمالة الفائضة عن احتياجات المجتمع ، وتم تشغيلهم في دول اخرى وفقا لنظم واتفاقيات يؤخذ في الاعتبار عند عقدها عوامل الخبرة والمهارة والانفاق الاستثماري الذي انفقته الدولة المصدرة من اجل اعداد ابناءها وتاهيلهم ،

١٥ - اعلن وزير الصحة في مصر مؤخرا ان ما يقرب من ٢٧٪ من الأطباء المصريين يعملون خارج مصر .

كما يراعى فيها من جانب آخر نفقة الفرصة البديلة Opportunity Cost بالنسبة للدولة المستوردة (١٦) ، لو تم كل ذلك لا يمكن للدولة المصدرة تنمية مصدر هائل للدخل من ناتج عمل ابناءها بالخارج .

نخلص من كل ما سبق ان للتكوين السكاني دور ايجابي بناء في احداث التنمية الاقتصادية لا بد من استثماره واتاحة الفرصة له لكي يؤتي ثماره . والسبيل الوحيد لتحقيق هذه الغاية هي اتباع مفاهيم واساليب الادارة العلمية من اجل استثمار المورد السكاني الى اقصى حد ممكن . وهذا ما سنفعله في الجزء الاخير من بحثنا .

### استراتيجية التخطيط السكاني :

ان المنطق الادارى العلمي في تحليل المشكلات وايجاد حلول لها يتخذ النمط التالي :

- تحديد المشكلة تحديدا دقيقا يفصل بين الاعراض والمظاهر الخارجية من ناحية وبين اللب الحقيقي للمشكلة من ناحية ثانية .

- تحليل وتتبع العوامل والمتغيرات التي تنشأ المشكلة الحقيقية بفعل علاقاتها المتفاعلة ، وتحديد انماط العلاقات بين هذه المتغيرات وتأثيراتها النسبية على المشكلة موضوع البحث .

- التحقق من صحة الفروض حول اسباب المشكلة ، وسلوك المتغيرات المنشئة لها ، وذلك باساليب التحقيق العلمي المختلفة ( ابتداء من الملاحظة الشخصية ، ثم تجميع البيانات الميدانية ، انتهاء باجراء التجارب الميدانية والمعملية ) .

- تلمس الحلول البديلة للمشكلة وذلك في اطار الطاقات والموارد المتاحة على ان يؤخذ في الاعتبار القيود المفروضة على الحركة في مدى استخدام هذه الموارد .

- اختيار الحل الامثل الذي يحقق اقصى عائد مع ادنى التضحيات .

ان المنطق الادارى اذن يتجه في الاساس الى بناء استراتيجيات (١٧) كل منها تعد بتحقيق عوائد معينة في ظل ظروف متوقعة وتصبح مهمة اتخاذ القرار الادارى هي المفاضلة بين تلك الاستراتيجيات البديلة في ضوء الاهداف التي يحاول متخذ القرارات ان يصل اليها .

واعتمادا على هذا المنطق فان المدخل الادارى لعلاج المشكلة السكانية يتبلور اذن في ضرورة بناء استراتيجية للتعامل مع تلك الظاهرة بما يضمن الوصول الى نتائج معينة مستهدفة .

١٦ - يقصد بنفقة الفرصة البديلة ، تلك النفقات التي كان لا بد للدولة المستوردة للعمالة ان تنفقها والوقت الكالزم انتظاره حتى تستطيع هي تكوين افراد من ابناءها باعداد وخبرات معادلة للعمالة المستوردة .

١٧ - الاستراتيجية Strategy . في المعنى المستخدم هنا هي اسلوب استخدام وتحريك الموارد المتاحة للوصول الى هدف ( او اهداف ) محدد تحت ظروف وقيود معروفة او متوقعة .



وقبل ان نشرع في رسم ملامح مقترحة لتلك الاستراتيجية لا بد لنا من ابراز بعض خصائص التفكير الاستراتيجي الواجب اخذها في الاعتبار عند تكوين استراتيجية سكانية :

١- ان التفكير الاستراتيجي يتسم بالشمولية، اى الاحاطة بكل المتغيرات الممكن ادراك علاقتها وتأثيرها في الظاهرة موضع البحث . ومن ثم فالاستراتيجية السكانية يجب ان تأخذ في الاعتبار كافة الابعاد الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والسياسية للمشكلة السكانية .

٢ - ان الاستراتيجية الشاملة تبنى على اساس اهداف بعيدة المدى ، وفي ضوء نظرية معتدة الى المستقبل ، فهي لا تقتصر على ادراك الاوضاع القائمة فقط ، ولكنها تأخذ في الحسبان التطورات المحتملة في هذه الاوضاع . ومن ثم فان الاستراتيجية السكانية للدولة ما يجب ان تكون مستقبلية ، تستهدف تحقيق نتائج حاسمة في مدى زمني بعيد نسبيا .

٣ - ان التفكير الاستراتيجي في الوقت ذاته يتعامل مع المواقف الحاضرة في اطار تصور شمولي للاوضاع المحتملة في المستقبل ، وبالتالي يمكن بناء استراتيجيات قصيرة او متوسطة المدى لمعالجة المشكلة السكانية وذلك ضمن تصورات استراتيجية شاملة وطويل الاجل . ومن ثم تتكامل الجهود وتتراكم الآثار الايجابية على مدى الزمن الى ان تتحقق النتائج النهائية المرجوة .

٤ - ان التفكير الاستراتيجي يعتمد في الاساس اسلوبين لمعالجة المشكلات ، الاسلوب الهجومي Offensive والاسلوب الدفاعي defensive ويتوقف اختيار احد الاسلوبين على طبيعة الظاهرة موضع البحث وادراك المخطط الاستراتيجي لحقيقة الظروف المحيطة ، وتقييمه لمدى الموارد المتاحة والقيود المفروضة على استخدامها .

ان الاستراتيجية المقترحة لعلاج المشكلة السكانية في الدول النامية تقوم على الركائز الاتية:

١ - الهدف الاستراتيجي هو احداث تغييرات هيكلية في التكوين السكاني وصولا الى التكوين السكاني الأمثل المتوافق مع متطلبات مستوى معين من النمو الاقتصادي والاجتماعي .

٢ - يمكن ترجمة هذا الهدف الاستراتيجي الى هدف تكتيكي Tactical Objective هو العمل على الوصول بالكفاءة الانتاجية للتكوين السكاني الى اقصى حد ممكن ، في اطار تصور واضح للطاقات الانتاجية المتاحة وللتطورات المحتملة فيها .

٣ - اعتمادا على فهم معين للكفاءة الانتاجية مؤداه انها مقياس للناتج بالنسبة الى المورد المستخدم في الانتاج ، فان الكفاءة الانتاجية للتكوين السكاني =

### الناتج القومي الاجمالي

#### عدد السكان

وبالتالي فان الاستراتيجيات المطروحة للبحث من اجل زيادة القيمة النهائية لهذه النسبة

هي :  
١ - العمل على خفض عدد السكان من ثبات الناتج القومي =

- ب - العمل على زيادة الناتج القومي الاجمالي مع ثبات عدد السكان .
- ج - العمل على تخفيض عدد السكان بنسبة اعلى من الانخفاض المحتمل في الناتج القومي الاجمالي .
- د - السماح بزيادة عدد السكان مع زيادة الناتج القومي الاجمالي بنسبة اعلى .
- وتحدد الاختيارات بين تلك الاستراتيجيات البديلة على ضوء الاهداف القومية والاعتبارات الحضارية والعقائدية والسياسية .

٤ - وبناء على المنطق الاداري الايجابي الذي قدمناه في هذا البحث فان الاستراتيجية السكانية المثلى بالنسبة للدولة نامية هي استراتيجية تضم البديلين الثاني والرابع ، بمعنى ان تكون هناك استراتيجية قصيرة او متوسطة المدى تستهدف تحقيق خفض نسبي في عدد السكان ، مع العمل على زيادة الناتج القومي من خلال التحسين المستمر في نوعية وخصائص وقدرات ومهارات هؤلاء السكان، ثم يكون هناك استراتيجية اخرى طويلة المدى تستهدف تحقيق التكوين الامثل للسكان ، مع التطوير المستمر في خصائصهم ونوعياتهم تتناسب مع الزيادات الاكبر في الناتج القومي ، وتسمح باستيعاب القدر المتزايد من الانتاج وتتيح بذلك الفرص لاستمرار التوسع الانتاجي والتشغيل الاقتصادي للطاقات .

٥ - ويلاحظ ان البناء الاستراتيجي المقترح للسكان يتكامل مع استراتيجيات اخرى لا بد من تواجدها تستهدف رفع الكفاءة الانتاجية لعناصر الانتاج الاخرى وهي رأس المال وعناصر الطبيعة ( المواد ) كما تستهدف تحسين وتطوير الكفاءة الادارية وتطوير وترشيد اساليبها وقراراتها .

ونعرض فيما يلي ملامح كل من الاستراتيجيات السكانية المقترحة :

#### الاستراتيجية السكانية بعيدة المدى

وتستهدف تحقيق النتائج الاتية :

- ١ - تغيير التركيب النفسي للسكان .
- ٢ - تغيير التركيب الوظيفي للسكان .
- ٣ - تغيير التركيب الثقافي للسكان .
- ٤ - تغيير التركيب المهني للسكان .
- ٥ - تغيير تركيب المهارات للسكان .

وبصفة اساسية فان الاستراتيجية بعيدة المدى ترمى الى احداث تغيير هيكلي جذري في خصائص وهيكل التكوين السكاني للمجتمع ، تنعكس في المدى الطويل على الكفاءة الانتاجية

المدخل الإداري لعلاج المشكلة السكانية بالدول النامية

ومعدلات التنمية الاقتصادية ، ومن ثم تحقق في النهاية التكوين الأمثل للسكان ( العدد الأمثل والخصائص المثلى ) .

وتصل الاستراتيجية السكانية بعيدة المدى إلى تحقيق أهدافها من خلال سياسات وبرامج واساليب تتعلق بالعمل على تحقيق ما يلي :

- ١ - تغيير هيكل التنظيم الصحى واساليب الرعاية الطبية في المجتمع .
- ٢ - تغيير هيكل التعليم العام والمتخصص والعالي .
- ٣ - تغيير هيكل التنظيم الاجتماعي وتطوير النظم الاجتماعية السائدة من خلال تعديل هيكل التنظيم الاقتصادى ، وإعادة توجيه علاقات الإنتاج في المجتمع بما يسمح بتدفق في الاستثمارات من ناحية ، وتوازن في توزيع الدخل من ناحية أخرى .
- ٤ - تغيير النظم الثقافية وتطوير اساليب العمل في مؤسسات التنقيف والاعلام العامة .
- ٥ - تثوير البيئة السكانية من خلال إعادة البناء المادى للمناطق السكنية المتخلفة ، وخلق فرص النمو الاجتماعي وترشييد العلاقات الاجتماعية بها .
- ٦ - إعادة صياغة المفاهيم والعقائد والقيم الحضارية السائدة في المجتمع بالتعليم والتنقيف والتنظيم الاقتصادى الجديد .

#### الاستراتيجية السكانية متوسطة المدى :

تستهدف هذه الاستراتيجية احداث تحول مرحلي في تركيب القوة العاملة من بين السكان ، وزيادة مستوى الكفاءة الانتاجية للمشتغلين ، وذلك كهدف مرحلي يتكامل في المدى البعيد مع اهداف تغيير هيكل التكوين السكاني كله .

وتتجه هذه الاستراتيجية في الاساس الى تحقيق ما يلي :

- ١ - خلق مجالات للعمل الانتاجي لاعداد العاملين في اعمال غير انتاجية .
- ٢ - تحويل العمالة من الصناعات الاقل انتاجية الى الصناعات الاكثر انتاجية ( في ضوء الطلب وظروف السوق ) .
- ٣ - زيادة نسبة القوى العاملة الى اجمالي السكان ( بالعمل مثلاً على الاستفادة من النساء غير المشتغلات والاطفال حتى سن معينة ) وتوجيه القوة العاملة الجديدة الى الاعمال التي لا تتطلب قدراً كبيراً من المهارة او الخبرة .
- ٤ - زيادة فعالية القوى العاملة الاساسية في الصناعات ذات الانتاجية العالية من خلال التدريب المنظم والمستمر .
- ٥ - تغيير انماط السلوك الانتاجي للقوى العاملة بالعمل على تقليل مسببات ضعف الانتاجية

( الغياب ، التمارض ، تقييد الانتاج ، الاسراف في المواد ، عدم الدقة في التشغيل ) وذلك بالتدريب من ناحية ، وباستخدام نظم الحوافز الايجابية والسلبية من ناحية اخرى .

٦ - تحسين المستوى العام للكفاءة الانتاجية للقوى العاملة من خلال :

١ - التخطيط العلمي للقوى العاملة وتحديد الاحتياجات الدقيقة والنوعيات السليمة المطلوبة للعمل .

ب - التصميم العلمي للعمل Job design ووضع المعدلات القياسية للاداء وتصميم طرق واساليب العمل .

ج - الاختيار العلمي الموضوعي للأفراد ذوي المواصفات المناسبة للعمل ، وتدريبهم على طرق واساليب الاداء الموضوعة .

د - الاشراف العلمي على العاملين وتوفير التوجيه والارشاد اللازمين .

٧ - العمل على امادة تكوين وتدريب النوعيات والاعداد الفائضة من القوى العاملة عن احتياجات الجهاز الانتاجي بالدولة ، من اجل استثمار طاقاتهم وخبراتهم في مجالات العمل المتاحة بالدول الاخرى التي تعاني قصورا في مواردها البشرية .

### الاستراتيجية السكانية قصيرة الاجل :

وتتركز اهدافها على محاولة احداث تغيير سريع وملمس في مدى الضغط السكاني على الطاقات الانتاجية من ناحية ، والعمل على زيادة المساهمات الانتاجية للسكان بشكل عام وتبليور فيما يلي :

١ - اعادة توزيع القوى العاملة بين قطاعات الاقتصاد القومي المختلفة ، تحقيقا للتوازن بين العمالة وبين طاقات الانتاج الاخرى .

٢ - تسريع جانب من القوى العاملة ذات الكفاءة الانتاجية المتدنية والتي تمثل عبئا على العملية الانتاجية بما يحقق تحسينا في الكفاءة الكلية ( احالة الشيوخ والمسنين الى التقاعد ، توفير العناية بالمرضى وذوى العاهات ، منع تشغيل الاحداث دون سن الرابعة عشرة .. الخ ) .

٣ - تشجيع الهجرة الى الخارج في ظل ضوابط تمنع تسرب الكفاءات وتستبقي العمالة الاقل انتاجية .

٤ - تشجيع برامج ضبط النسل والتخطيط العائلي من خلال الحوافز الاقتصادية والاجتماعية .

٥ - التدريب السريع لرفع الكفاءة .

تلك كانت ملامح التفكير الاداري الاستراتيجي في موضوع السكان ، ولا شك ان التحقيق الامثل لهذه الافكار يتطلب وجود هيئة قومية في كل دولة نامية تعمل على اجراء الدراسات ، وتجميع المعلومات اللازمة لرسم الاستراتيجيات السكانية ، والاشراف على تنفيذها ، والتنسيق بين الجهات المختلفة المشاركة في التنفيذ ضمانا للفعالية والكفاءة .

بقلم : و.س. ويتنسكاى  
ترجمة : فاروق مصطفى سماعيل

## الموارد العالمية وعلاقتها بالسكان \*

ليست علاقة الموارد الطبيعية بالسكان ، او علاقة السكان بالموارد الطبيعية بالمشكلة الحديثة العهد ، بل هي ترجع الى الفترة التي كان الانسان فيها ينتابه الخوف من ان يصبح من الكثرة بحيث لا تفي موارده الغذائية باحتياجاته ، او الخوف من ان يصبح من القلة بحيث يعجز عن ان يحمي نفسه وموارده من اعدائه ، ولطالما كانت احدى مشاكل الانسان الرئيسية هي ان يحقق نوعا من التكيف والملاءمة بين موارده البيئية وعدد السكان حتى يستطيع ان يحيا الحياة التي يشدها .

World Resources in Relation to Population

\* العنوان الاصلى لهذا الموضوع هو

وقد نشر في كتاب Population and World Politics صفحات من ٤٦-٧٥ . ومؤلف المقال هو الاستاذ و.س.

ويتنسكاى المستشار الاقتصادى بمكتب العمل الدولى سابقا والمستشار الاقتصادى الرئيسى بهيئة الامن الاجتماعى

Twentieth Century Fund

ومدير البحوث بمنظمة القرن العشرين

Social Security Board

واستاد البحوث بجامعة هوبكنز Johns Hopkins Un.

ولقد ترتب على ذلك البحث عن مثل هذا التكيف الذى نسميه الآن « سياسة الموارد والسكان » أن ظهر الكثير من التنظيمات المتناقضة المتعلقة بالحقوق والواجبات الزوجية والأبوية لدى الجنس البشرى من ناحية ، وكثير من أساليب وطرائق الزراعة والرى البدائي وبناء السدود والقنوات من ناحية أخرى . ولقد كان انشغال الإنسان بمثل هذه المشكلات فى الماضى محدودا للغاية ومحصورا فى نطاق القبيلة والمدينة ، ولكن الذى يميز النظرة الحديثة هو التفكير فى هذه المشكلات فى ضوء الموارد « العالمية » وعلاقتها بسكان « العالم » .

وقد نجم عن هذا الاتجاه الجديد الى حد ما من الشعور بأن العالم قد تضاعف وانكمش بفضل وسائل المواصلات والاتصال الحديثة ، وذلك بالإضافة الى بعض الأسباب الملحة الأخرى التي تجعل من الضرورى معالجة مشاكل السكان والموارد على أنها مشكلات عالمية .

فقبل الحرب العالمية الثانية انتبه عدد من علماء الديموجرافيا فى أوروبا وأمريكا الى ظاهرة انخفاض معدل المواليد Birth Rate فى نطاق الحضارة الغربية فى مقابل النمو السريع للسكان فى اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية وآسيا وإفريقيا . ولقد ازداد الوعي فى السنوات الحديثة بخطر الاضطرابات السياسية والاجتماعية فى المناطق المتخلفة Under Developed Areas التي لا تستطيع ان تفي باحتياجات سكانها المتزايدين باستمرار ، وذلك وفقا لمستوياتهم الحالية والتي تميل الى الارتفاع باضطراب .

وتواجه دول الحضارة الغربية فترة من النمو السكاني المتواصل البطيء نسبيا . وليس من الواضح اذا ما كان سكان أمريكا الشمالية وأوروبا ( فيما عدا سكان اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ) سوف تحقق زيادة سكانية تصل الى ٥٠٪ فى الفترة ما بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م حسب تقدير فرانك نوشستين Frank Notestein فى عام ١٩٤٥ ، او بنسبة ١٧٥٪ حسب التقدير المبدي الذى ذكرناه فى كتابنا « سكان العالم والانتاج World Population and Production » . وبالمثل فان تنبؤات خبراء الأمم المتحدة التى تتوقع امكانية تزايد النمو السكاني بسرعة اكبر لا تتوقع ان يصل ذلك التزايد الى حد الخطر الجسيم فى منطقة الحضارة الصناعية الحديثة ، ويذهب هؤلاء الخبراء الى ان سكان تلك المنطقة التي تشمل أمريكا الشمالية وأوروبا الشمالية الغربية والوسطى والجنوبية وأستراليا سوف يصل عددهم الى ما بين ٥٤٨ مليون و ٦٥٥ مليون نسمة فى عام ١٩٨٠ فى مقابل ٤٨٦ مليون فى عام ١٩٥٠ ، وهذه تمثل زيادة تتراوح بين ٦٥٪ الى ٩٧٪ سنويا خلال ثلاثين عاما .

وليس من شك ان استخدام التربة المتاحة والغابات والمناجم بطريقة افضل ، بالإضافة الى نمو الموارد الجديدة والاستيراد من اجزاء أخرى من العالم ، سوف يزود السكان الذين يتزايدون بهذه المعدلات بكل ما يحتاجون اليه من الطعام والملابس والمأوى والضروريات الأخرى . والواقع ان الدول الصناعية الحديثة لن تواجه أية مشكلة تتعلق بالموارد السكان اذا نحن افترضنا ان الناس فى هذه المنطقة قد وصلوا الى مستوى معيشي مرتفع بدرجة معقولة ، لأنهم لا يتطلعون الى تحقيق مستوى افضل يتميز بازدياد مطالب الفرد من جميع انواع المواد الخام بطريقة مطردة .

ولكن المشكلة تصبح أكثر خطورة حين نفكر في سكان العالم ككل ، آخذين في الاعتبار إمكانية النمو السريع للسكان في المناطق النامية ، وإمكانية وضع افتراضات أكثر ديناميكية وواقعية بدلا من مجرد الحفاظ على مستوى المعيشة الحالي .

بالإضافة إلى ذلك فإنه من غير المجدي أن تقدر الموارد العالمية بالإشارة إلى مطالب السكان في المستقبل طبقا لأنماط الاستهلاك السائدة في الوقت الحالي ، فمن المؤكد أن مطالب الفرد من كل أنواع المواد الخام سوف تزداد سواء في الدول الصناعية المزدهرة أو في المناطق النامية ، والسؤال المهم هنا هو ما إذا كانت الموارد المتاحة سوف تكفي لسد المطالب المتوقعة . ولقد واجهت لجنة الرئاسة لسياسة الموارد ( لجنة بيلي ) The President's Materials Policy Commission ( Paley's Commission ) هذه المشكلة حين أرادت تقرير الموارد في الولايات المتحدة والدول الأخرى المتقدمة للفترة من عام ١٩٧٠ - ١٩٨٠ وقد افترضت أن النمو السكاني سوف يحدث بمعدلات معقولة ، بينما الطلب على المواد الخام سوف يرتفع بمعدلات غير مناسبة . وسوف أحاول هنا أن أضع مخططا تمهيدا لمجموعة من الافتراضات التي يمكن أن نستخدمها في تقرير كفاية الموارد العالمية مع نهاية هذا القرن .

#### افتراضات عن النمو السكاني :

ليس هناك تنبؤ للنمو السكاني في المستقبل القريب يمكن الزعم بأنه أكثر من مجرد تخمين يقوم على « معلومات أكيدة » . فبعد أن فشلت التجارب الخاصة بالتنبؤات عن السكان في المستقبل يتفق علماء الديموجرافيا الآن على أنهم لا يملكون الوسائل التي تمكنهم من وضع تنبؤات لفترات أطول من ٢٥ - ٥٠ سنة تقريبا ، لأن كثيرا من العوامل الوثيقة الصلة قد تتغير خلال هذه الفترة .

ومن ناحية أخرى فمن الصعب دراسة مشكلة الموارد العالمية في علاقتها بالسكان دون أن يكون لدينا فرص عمل حول حجم سكان العالم في المستقبل ، والحل المعقول للمشكلة هو أن نعترف بعدم جدوى كل المحاولات التي استهدفت تقدير سكان العالم في المستقبل ، وأن نحاول في ضوء هذه الحقيقة أن نصل إلى تقدير جديد ، أو أن نستخدم بعض التقديرات الموجودة بالفعل .

ولقد انتقد الكثيرون تقديرنا لسكان العالم عام ٢٠٠٠ م على أساس أنها تقديرات منخفضة جدا ، وربما كان لهذا النقد ما يبرره ، فلقد افترضنا أن الزيادة في سكان العالم ككل ، وفي كل قارة في الفترة من عام ١٩٥٠ إلى عام ٢٠٠٠ م سوف تكون ( في المليون ) كما يلي :

	عام ١٩٥٠	عام ٢٠٠٠	الزيادة المئوية
سكان العالم	٢٤٠٠	٣٢٥٠	%٥٥
أمريكا الشمالية	١٦٦	٢٢٠	%٣٣
أمريكا الوسطى والجنوبية	١٦٢	٢٨٠	%٧٣
أوروبا ( باستثناء اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية )	٣٩٦	٤٤٠	%١١

اتحاد الجمهوريات السوفياتية	١٩٣	٢٦٠	٪٣٥
آسيا ( باستثناء اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية )	١٧٢٢	١٧٥٠	٪٣٨
افريقيا	١٩٨	٢٨٠	٪٤١
استراليا	١٣	٢٠	٪٥٤

ففي عام ١٩٥١ قام خبراء الامم المتحدة بوضع نسق من التنبؤات يقوم على اساس تصنيف الدول في مجموعات ، وفق لاتجاهاتها الديموجرافية السائدة فيها وليس بحسب القارة التي تنتمي اليها ، وكانت تقديراتهم تغطي حياة جيل واحد - اى ثلاثين عاما - وتردها الى عام ١٩٨٠ . ولكي نجعلها قابلة للمقارنة بتقديرات العام ٢٠٠٠ م . فقد حاولت ان ادفعها للامام مفترضا حدوث انخفاض طفيف في معدلات النمو السكاني ، مع تخصيص للعقدين الاخيرين ٦٠٪ من الزيادة المتوقعة سلفا للعقود الثلاثة السابقة من ١٩٥٠ الى ١٩٨٠ . وعلى اساس هذا التقدير الاستقرائي فان التنبؤات الثلاث التي تقدمها لندراسة الامم المتحدة تعطينا التقديرات التالية لسكان العالم في عام ٢٠٠٠ م .

التقديرات الادنى	٣٣٢٠ مليون
التقديرات المتوسطة	٣٨٠٠ مليون
التقديرات الاعلى	٤٣٧٥ مليون

وتتفق تقديرات نوتستين Notestein وتنبؤاتنا مع تقديرات الامم المتحدة الادنى ، بينما تزيد تقديرات الامم المتحدة الاعلى بمقدار الثلث .

في عام ١٩٥٤ راجع خبراء هيئة الامم تقديراتهم ورفعوها وقدموا تلك التقديرات الجديدة الى المؤتمر الدولي للسكان في روما International Population Congress وفيها ابرزوا بشكل واضح معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات في السنوات الاخيرة ، وقد اهتموا بدراسة خمسة اوضاع ديموجرافية رئيسية هي :

- ١ - ارتفاع معدلات المواليد ومعدلات الوفيات على السواء .
- ٢ - ارتفاع معدلات المواليد مع ميل معدلات الوفيات للانخفاض ( وان كانت لا تزال مرتفعة الى حد ما ) .
- ٣ - ارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات نسبيا .
- ٤ - انخفاض معدلات المواليد مع انخفاض معدلات الوفيات نسبيا .
- ٥ - انخفاض او تدلب معدلات المواليد مع انخفاض معدلات الوفيات .

او قد صنفت جميع دول العالم وفقا لهذه الانماط او المناطق الخمسة ، ثم حدد المعدل النموذجي للنمو السكاني لكل دولة في كل قارة ( او لكل مجموعة من المناطق في القارة الواحدة ) .



وبتطبيق هذه المعدلات للنمو على السكان الذين سبق تقديرهم سلفاً في كل منطقة عام ١٩٥٠ استطاع خبراء الأمم المتحدة الوصول إلى التقديرات التالية عن سكان العالم في عام ١٩٨٠ .

٣٢٩٥ مليوناً	التقديرات الأدنى
٣٦٢٨ مليوناً	التقديرات المتوسطة
٣٩٩٠ مليوناً	التقديرات المرتفعة

وواضح ان هذه التقديرات الجديدة لعام ١٩٨٠ تكاد تقترب من تنبؤاتنا المرتفعة بالنسبة لعام ٢٠٠٠ م ، وهي التنبؤات التي تركز على تقديرات الأمم المتحدة السابقة ، ولو حملنا تنبؤات الأمم المتحدة إلى الامام فان سكان العالم في عام ٢٠٠٠ م سيصبحون كما يلي :

٣٨٠٠ مليوناً	التقديرات الأدنى
٤٣٣٣ مليوناً	التقديرات المتوسطة
٤٩١٢ مليوناً	التقديرات المرتفعة

وتسجل هذه الاعداد زيادة ملحوظة تصل إلى نحو نصف بليون نسمة تقريباً عن التقديرات الاستقرائية المستمدة من دراسة الأمم المتحدة السابقة ، ولكن التعارض بين التقديرات التي اعدّها فريق الخبراء ذاته في عام ١٩٥١ ثم في عام ١٩٥٤ يلفت النظر ، وهناك اسباب قوية تجعلنا نعتقد ان التقديرات الأخيرة تمثل تحسناً ملموساً إذا ما قورنت بالدراسة السابقة ، فالدراسة التي اجريت أخيراً تتصف بدرجة غير عادية من الدقة .

ومن ناحية أخرى فهناك ما يدعو للشك فيما إذا كان الانخفاض السريع الذي حدث أخيراً في معدلات الوفيات والزيادة في معدلات النمو السكاني تبرر مثل هذا التنقيح المتطرف لتقديرات السكان في المستقبل ، والواقع اننا نخشى ان تكون التغييرات المؤقتة في الاتجاهات الديموجرافية كما تبدو في تنبؤات الأمم المتحدة الحالية قد وجدت كثيراً من المبالغة والمغالاة .

وبناء على ذلك فاني اميل للاعتقاد بأن التقديرات الحالية لا تبطل تنبؤات عام ١٩٥١ ، ولكنها تبعث على مزيد من الشك فيها . فالحد الأدنى يظل كما في التنبؤ القديم الذي استقرىء لعام ٢٠٠٠ م ( ٣٣٢٠ مليوناً ) اما الحد الأعلى فان التنبؤ الجديد يشير إلى أنه سيكون ٤٩١٢ مليوناً ، وعلى أي حال فان الاتجاه الأكثر احتمالاً هو مجرد رأى أو وجهة نظر .

وتختلف التقديرات التي اعدّها مختلف الباحثين اختلافاً كبيراً فيما بينها ، فمن ناحية نجد ان والتر جريلنج Walter Greiling يتنبأ منعه غير بعيد بما سيكون عليه سكان العالم ، ويبنى تقديراته على أساس افتراض ان النمو السكاني في مناطق مختلفة ينمو بمعدلات سنوية ثابتة ، ويربط ذلك بافتراض ان هذا النمو سوف يستمر إلى منتصف القرن الحادى والعشرين ، ثم يتبع ذلك فترة من التوازن الديموجرافي Demographic Equilibrium عندما يصل سكان العالم إلى نحو تسعة بلايين نسمة ، وقد ذهب في تقديراته إلى ان هؤلاء السكان سوف يصلون إلى ٤٦ بليون في عام ٢٠٠٠ م ، وهو رقم يقترب من التقديرات المرتفعة للأمم المتحدة . اما التنبؤ بما

سيكون عليه الحال في منتصف القرن التالي فانه غير مؤكد الى حد كبير ، ومع ذلك فان ثمة اسئلة تثار ولا يمكن الاجابة عليها دون افتراض عدد من الافتراضات التعسفية عن التغيرات التي ستطرأ في المستقبل في طرق الحياة على هذا الكوكب ( الارض ) وعلى العكس فان معظم التنبؤات لعامي ١٩٨٠ ، ٢٠٠٠ تتم في نطاق ضيق نسبيا .

ويمكن لنا من اجل التحليل ان نفترض ان سكان العالم سوف يزدادون بليوناً او بليونين بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م ، وهذا يعني زيادة عدد السكان من ٢٤ بليون الى ٣٤ بليون او ٤٤ بليون تقريبا أى بنسبة تتراوح بين ٤٠٪ و ٨٠٪ .

### افتراضات عن مطالب المستقبل :

يعتمد تقدم المجتمع الانساني على عوامل كثيرة لا تحصى يصعب التنبؤ بها ، فمسرحة الاحداث السياسية والاجتماعية في عام ٢٠٠٠ سوف يختلف عما نشاهده اليوم تماما مثلما تختلف اوضاعنا الراهنة عما كانت عليه عام ١٩٠٠ ، وسوف يكون الاختلاف في اسلوب الحياة على مستوى الكم والكيف معا . وان كثيرا من ادوات الانتاج على نطاق واسع وانماط الاستهلاك الحالي سوف تصبح مجرد اثر يحتفظ به في المتاحف . ومن المحتمل ان تخفض بعض المواد الخام المعروفة الآن والتي تستخدم على نطاق واسع لتحل محلها مواد اخرى جديدة ، كما كان بعض هذه المواد التي نعرفها اليوم غير معروفة من قبل ، والمعروف ان الولايات المتحدة استخدمت في عام ١٩٤٩ من البلاستيك مثلا اكثر ما استخدمت من الرصاص والزنك والقصدير والنحاس والنيكل والالومنيوم والمغنيسيوم معا . بينما كانت مطالبها من هذه المواد في عام ١٩٢١ تزيد بأكثر من عشرين ضعفا عن حاجتها الى البلاستيك ، ويمكننا ان نتوقع مثل هذه التغيرات في المستقبل ، فالسيارة الحديثة سوف تعتبر من مخلفات الماضي بعد نحو نصف قرن من الزمان ، ولن تختلف النظرة اليها عن نظرتنا نحن الآن الى المركبات التي تجرها الخيول . من العيب ان نحاول معرفة ما اذا كان الفحم سوف يستخدم في المستقبل بنفس الطريقة التي نستخدمه بها الآن ، او سوف يستعمل اساسا كمصدر للوقود السائل وللحصول على المواد الكيميائية ، وعندما نحاول النظر الى المطالب المستقبلية فلا بد وان نفترض - صراحة او ضمنا - ان اى مادة خام تستخدم اليوم قد تستبدل بمنتجات اخرى لتحل محلها .

والواقع ان معدلات النمو التي اقترحها تأخذ في الاعتبار التغيرات الكيفية والتغيرات الكمية التي تطرأ على الطلب .

### الحاجة الى الطعام :

الواقع ان الحاجة الى التقدم الاقتصادي لا تبدو اكثر وضوحا في اى مجال من المجالات اكثر من وضوحها في مجال التغذية ، فالاختلافات في استهلاك الطعام بالنسبة للفرد سواء في الدول الغنية المزدهرة او في المناطق التي ينتشر فيها الفقر ليس كبيرا يلغى السعرات الحرارية Calories فمتوسط السعرات الحرارية بالنسبة للشخص في جنوب وجنوب شرق آسيا هي ٢٢٢٠ وحدة حرارية يوميا ، بينما هي ٣٢٤٠ سعرا حراريا في امريكا الشمالية ، لكن الاختلاف الاكثر اهمية

ودلالة انما يكمن في الانماط الغذائية ، حيث نجد الخبز والارز والبطاطس في الدول الفقيرة في مقابل غذاء هو مزيج من الاطعمة النشوية بالاضافة الى الاغذية الوقائية ( Protective Foods ) كاللحم واللبن والزبد والبيض والفاكهة والنباتات الخضراء ) في الدول الغنية . ومع ذلك فان الاختلافات الكيفية في الانماط الغذائية يمكن ان تتحول الى مقياس كمي حين تترجم تلك الاطعمة المختلفة الى السعرات الحرارية الاساسية ، كان نبين مثلاً قيمة السعرات الحرارية في (العلف) الذي يؤدي الى انتاج كل رطل من اللحم او الزبد او كل « كوارت » من اللبن \* او كل ١٢ بيضة من غير ان نحدث تغييرات جوهرية في قيمة السعرات الحرارية لاستهلاك الغذاء اليومي للفرد ، لان الحاجة الى السعرات الاساسية تزداد بتحسين الغذاء .

ان الغذاء الرخيص في المناطق النامية انما هو نتيجة للتكيف طويل المدى للاستهلاك وندرة الموارد ، ولكن بعد ان يتذوق الناس في هذه المناطق طعاماً افضل فسوف يحرصون على توفيره لانفسهم ولاولادهم ، ولكن من الصعب على المرء ان يحدد معدل السرعة التي يمكن ان تتغير بها عادات الناس الغذائية . وبصورة عامة يمكن القول ان معدل الغذاء اليومي في الولايات المتحدة يشتمل على ثلاثة او اربعة اضعاف السعرات الحرارية الاساسية لمعدل الغذاء اليومي في آسيا وافريقيا . وقد لا تكفي خمسون عاماً من الآن للدول النامية لتصل الى هذا المعدل ، مع التسليم بان ثمة زيادة معتدلة في كمية الغذاء ، وتحسينات محدودة في مكوناته . وقد يستطيع المرء ان يقدر ان مطالب الفرد للغذاء سوف تتضاعف مرة على الاقل في العالم ككل فيما بين عام ١٩٥٠ ونهاية القرن الحالي .

وهذا التقدير تقريبي جداً بالطبع ، ويستطيع خبراء التغذية دون شك تحسينه ، وربما يرون ان متوسط حاجة الفرد من السعرات الحرارية الاساسية يمكن ان يرتفع مع نهاية هذا القرن بنسبة ٧٥٪ او ١٢٥٪ بدلاً من ١٠٠٪ وقد يختلفون فيما بينهم عند هذه النقطة مثلما فعل الديموجرافيون . واما كان الاتجاه المحتمل في العادات الغذائية في العالم فان مطالب العالم المستقلة من الغذاء يجب تقديرها عن طريق الربط بين النمو السكاني المحتمل والتحسينات المتوقعة في التغذية . واذا نحن افترضنا ان سكان العالم سوف يزداد بنسبة من ٤٠٪ الى ٨٠٪ ما بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م ، فان المطالب الكلية للعالم من الغذاء في نهاية هذا القرن سوف تصل بكل تأكيد الى اكثر من ضعفين ، بل وربما الى اكثر من ثلاثة اضعاف ما هي عليه الآن ، وهذا يفترض حدوث نمو ثابت بمعدل يتراوح بين ١.٤٪ الى ٢.٢٪ سنوياً .

هذا النوع من الاستدلال يقودنا الى النتيجة التالية وهي ان النمو السكاني ليس هو العامل الحاسم في المطالب المتزايدة للجنس البشري من الانتاج الزراعي وانما الاكثر اهمية من ذلك هو ارتفاع الاستهلاك بالنسبة للفرد .

وهنا ايضا يكمن المصدر الاساسي للثيك في تقدير كفاية الموارد العالمية . ان الهوة بين التقديرات الدنيا والتقديرات العليا للامم المتحدة تبدو اقل اهمية من عدم قدرتنا على معرفة ما سوف يحتاج اليه الناس في جميع انحاء العالم لوجباتهم الغذائية في الخمسين سنة القادمة .

### الحاجة الى المواد الخام اللازمة للصناعة :

ان مطالب العالم واحتياجاته المستقبلية من الالياف والاشخاب والحديد والصلب والمعادن الاخرى ، والمواد الكيميائية والطاقة انما تعتمد جزئيا على النمو السكاني . ولكن بصفة خاصة على ارتفاع مستوى المعيشة . وعلى ذلك فان دراسة مشكلة كفاية الموارد العالمية يجب ان تتم في ضوء الافتراضات المحددة المتعلقة بنمو الانتاج الصناعي في العالم .

ومما له اهمية بالنسبة لهذه التنبؤات معرفة التغير في بناء الاقتصاد العالمي . فالحضارة الآلية التي بدأت في الجانب الشمالي الغربي من اوراسيا وتطورت على سواحل المحيط الاطلنطي الشمالي من كلا الناحيتين تنتشر الآن في كل مكان من العالم لكي تصبح هي الحضارة الاقتصادية العالمية . وقد بدأت الشعوب المختلفة في الاطراف البعيدة في امريكا الجنوبية وفي آسيا وافريقيا تتعلم استخدام الوسائل الحديثة للانتاج والمواصلات والاتصال ، وتكيف مؤسساتها ونظمها وطرقها في الحياة طبقا للانماط الغربية .

ان الاتجاه نحو التماثل في الاساليب التكنولوجية والنظم انعكس في نهاية عصر الاستعمار اذ بدأ التنظيم الرأسي Vertical Organization للاقتصاد العالمي ( حيث تسيطر جماعة صغيرة من الدول المتقدمة على مناطق شاسعة من قارات اخرى لتمدها بحاجتها من المواد الخام ) في الاختفاء ليظهر محله بالتدريج نظام آخر نشأ نتيجة للارتباك الذي يميز الوضع الحالي للشئون العالمية . وبدون الادعاء بأننا نعرف الكيفية التي سيعمل بها هذا النظام بعد خمسين عاما من الآن فاننا نستطيع ان نفترض ان :

الاتجاه سوف يكون نحو تقليل الفجوة بين من « يملكون » ومن « لا يملكون » . فالمناطق المتخلفة سوف تحاول اللحاق بالدول المتقدمة والمتفوقة في التكنولوجيا واثاجية العمل ومستوى المعيشة ، ومع انها سوف تصل بالكاد الى المستويات الغربية الحالية مع نهاية هذا القرن ، فالأغلب ان التناقض سوف يقل ويتضاءل .

ولو عبرنا عن ذلك احصائيا فان ذلك يعني انه مهما تكن الافتراضات التي تستخدم لوصف النمو الاقتصادي المتوقع للولايات المتحدة فانه يجب افتراض معدلات سنوية أعلى الى حد ما للتقدم الاقتصادي في المناطق الأقل نموا وتطورا ، وبالتالي بالنسبة للعالم ككل . مثال ذلك اننا اذا افترضنا ان الانتاج الصناعي للفرد في الولايات المتحدة سوف يزيد بنسبة ٢٥٪ سنويا في المتوسط ، فانه يجب ان نفترض في ثقة ان معدل الزيادة في بقية انحاء العالم سوف يتراوح بين ٣٪ الى ٣٥٪ وبدون مثل هذا الاختلاف في معدلات النمو السنوي سوف يستحيل تضيق الفجوة بين المستوى الاقتصادي في الولايات المتحدة والدول الأقل ازدهارا . وهناك كثير من المؤشرات النسبية التي توضح ان الدول المتخلفة انما تحاول اللحاق بالدول الصناعية الرائدة . إن الأمم المتحدة على سبيل المثال قد سجلت النسب المئوية التالية للزيادة التي وصل اليها الانتاج الصناعي في المناطق المتخلفة من عام ١٩٤٨ الى منتصف عام ١٩٥٤ .

الانتاج العالمي	٣٦٪
الولايات المتحدة	١٨٪
العالم باستثناء الولايات المتحدة	٥٨٪
أوروبا	٦٢٪
أمريكا اللاتينية (التمدين)	٢٥٪

أما الدول الصناعية فيمكن ترتيبها كما يلي فيما يتعلق بالانتاج الصناعي الذي حققته في خمس سنوات في الفترة بين ١٩٤٨ - ١٩٥٢ .

المكسيك	٣٣٪	السويد	١١٪
أيرلندا	٣٧٪	بلجيكا	١٤٪
الجزائر	٣٨٪	الدانمارك	١٩٪
النرويج	٤٠٪	المملكة المتحدة	٢١٪
شيلي	٤٣٪	الهند	٢٤٪
هولندا	٤٤٪	كندا	٢٧٪
إسبانيا	٤٨٪	فرنسا	٢٧٪
إيطاليا	٦١٪	فنلندا	٢٧٪
اليونان	٩٣٪	الولايات المتحدة	٢٩٪

وطبيعي ان الدولة ذات الانتاج الصناعي المحدود لا تستطيع ان ترفع من قدراتها الانتاجية بنسبة تتراوح ما بين ٤٠٪ الى ٦٠٪ بسهولة اكثر من الدول الصناعية كالولايات المتحدة او المملكة المتحدة وبلجيكا . لكن هذه المسألة بالذات تعتبر هي النقطة الحاسمة في تنبؤاتنا ، وهي ان الدول النامية لديها الفرصة لزيادة انتاجها الصناعي ، ومن ثم فان مطالبها للمواد الخام سوف تزداد بنسبة اسرع من مطالب الولايات المتحدة .

ان افتراض التقدم الاقتصادي المستمر في المناطق النامية يتطلب التغير في توزيع مواردها بين مجموعات مختلفة من الاحتياجات ، فكلما كانت الدولة فقيرة كان الجزء المخصص من الدخل للطعام كبيرا ايضا ، ففي اكثر المناطق فقرا حيث يسود اقتصاد الكفاف Subsistence Economy فان ميزانية الغذاء تصل الى نحو ٨٠٪ من جملة الانفاق الكلي ، ومن المحتمل ان هذه النسبة سوف تصل الى ٧٠٪ في كل من الصين والهند والعراق وايران و ٦٠٪ في كل من المكسيك والبرازيل والاتحاد السوفياتي واليابان ، اكثر من ٥٠٪ في الدول الزراعية في جنوب وجنوب شرق أوروبا . وربما تتراوح بين ٣٠٪ و ٤٠٪ في الدول المؤهلة الصناعية المتقدمة . ان افتراض التقدم الصناعي يوحي بان الانفاق على السلع الصناعية يزداد بسرعة اكثر من الانفاق على الطعام . فاذا كانت مطالب الفرد للطعام (عدد السعرات الحرارية الأساسية) تتضاعف فإن مطالبه للسلع الأخرى قد ترتفع الى اكثر من الضعف .

فإذا حاولنا أن نخضع انماط الاستهلاك في مختلف مستويات الازدهار والرخاء لقانون **Engel** فسوف نجد أن انفاق الفرد للغذاء يتضاعف حين يرتفع دخله بنسبة ثلاث مرات تقريباً ، فلو فرضنا أن الإنسان في المستوى الحالي للتنمية الاقتصادية في العالم كله ينفق نحو ٤٥٪ من دخله أو موارده في الطعام بينما يخصص نحو ٥٥٪ لاحتياجاته الأخرى . فإن مضاعفة موارده المالية ثلاث مرات سوف يؤدي إلى مضاعفة انفاقه على الغذاء ، بينما يرتفع إجمالي ما ينفق على أوجه الانفاق الأخرى نحو أربع مرات ، وهذا معناه أن ازدياد مطالب الفرد واحتياجاته للمواد الخام الصناعية في عام ٢٠٠٠ بمقدار أربع مرات سوف يعني مضاعفة استهلاكه للغذاء مرتين ( بالنسبة للسعرات الحرارية الأساسية ) .

وإذا ربطنا ذلك بالتنبؤات البديلة للنمو السكاني فإن هذه الافتراضات سوف تمكننا من تصور المطالب المحتملة لمواد الصناعة الخام في نهاية القرن الحالي كما يلي : ( ١٩٥٠ = ١٠٠ )

السكان	١٤٠ - ١٨٠
مطالب الفرد للمواد الصناعية	٤٠٠
اجمالي تلك المطالب .	٥٦٠ - ٧٢٠

أن معدلات النمو هذه تفترض تقدماً يبلغ في المتوسط نسبة تتراوح بين ٣٥٪ إلى ٤٪ سنوياً .

وبالمثل فإن العامل الرئيسي يكمن في نمو الاستهلاك بالنسبة للفرد أكثر مما يكمن في الزيادة السكانية ، والواقع أننا إذا افترضنا أن المطالب بالنسبة للفرد من المواد الصناعية في العالم ككل تزيد بنسبة ٢٨٪ سنوياً ، وأنها تتضاعف أربع مرات في خمسين عاماً ، فسوف نكتشف كيف أن مطالب العالم من هذه المواد سوف تتزايد بسرعة لتصل إلى ستة أضعاف نتيجة لبعض الأوضاع المختلفة المتعلقة بالنمو السكاني. ويبدو أن هذا المستوى من المطالب سوف يمكن الوصول إليه في مدى ٥٢ عاماً ( إذا نحن قبلنا التقديرات المنخفضة ، وفي نحو ٤٥ عاماً إذا نحن أخذنا بالتقديرات الأعلى ، وأن نفس المستوى من المطالب سوف يمكن تحقيقه في مدى ستين عاماً ، إذا لم تحدث زيادة سكانية على الإطلاق ، بينما كانت مطالب الفرد من المواد الخام الصناعية تزداد بنسبة ٣٪ سنوياً .

ومن وجهة النظر المتعلقة بالمطالب المستقبلية للمواد الخام ، فإن التقديرات السكانية المشكوك في دقتها تقل أهميتها إذا ما قورنت بالافتراضات الخاصة بسرعة التقدم الاقتصادي .

وتؤيد التجارب والخبرات الحديثة هذا الزعم ، فوفقاً لمؤشرات الأمم المتحدة للإنتاج الصناعي فإن الانفاق تضاعف في ١٥ عاماً من عام ١٩٣٨ إلى ١٩٥٣ ، بينما زاد سكان العالم بنسبة ١٦٪ تقريباً ، وهذا يعني أن المعدل السنوي للزيادة في المتوسط كان ١٪ للسكان و ٣.٧٪ للإنتاج الصناعي للفرد .

وسوف يتبين لنا العلاقة بين هذين الاتجاهين في المستقبلات الأخيرة... ففي الفترة

من عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٣ زاد سكان العالم بنسبة ٦ ٪ بينما ارتفع الانتاج الصناعي العالمي بنسبة ٣٧ ٪ أى أن متوسط الزيادة السنوية كان ٦.٥ ٪ للانتاج ومتوسط الزيادة فى المواد الخام ١.٢ ٪ تقريبا بالنسبة لسكان العالم . وقد بلغ معدل النمو فى المطالب بالنسبة للفرد نحو ٥.٢ ٪ وهو أعلى بكثير من تقديراتنا . مما يتيح الفرصة لما قد يشور من عقبات ، أو يصيبه التقدم الاقتصادى العالمى من نكسات .

وفى ضوء هذه التجربة فاني اعتقد أن تقديري لحاجة العالم للمواد الخام الصناعية قد يزداد الى ست مرات فى الفترة من ١٩٥٠ الى ٢٠٠٠ ، هو تقدير أقرب الى التحفظ سواء أخذنا افتراض النمو الأعلى أو الأدنى للسكان ، وسوف يظل هذا التقدير متحفزا حتى ولو انتبه الجنس البشرى الى صوت الديموجرافيين وكف عن التناسل والتكاثر بمثل هذه السرعة .

### الدراسات المسحية للموارد :

السؤال الذى يثار حول كفاية الموارد العالمية فى علاقتها بالسكان عام ٢٠٠٠ م يتلخص فيما إذا كان فى استطاعة الانسان خلال خمسة عقود ( ٥٠ سنة ) أن يزيد مؤونته من السلع المصنعة الى أكثر من خمس أو ست مرات ، وبقول آخر هل سيتاح للانسان فى خلال النصف الثانى من هذا القرن أن يزيد من انتاجه العالمى من الغذاء بمعدل سنوى يبلغ فى المتوسط ٢.٢ ٪ وان يزيد من انتاج المواد الصناعية والسلع المصنعة بمعدل يتراوح بين ٣.٥ ٪ و ٣.٩ ٪ ؟

لكى نستطيع تقييم الموارد الطبيعية للعالم يمكن الالتجاء الى المسوح التى نشرتها حديثا هيئة الامم المتحدة كالأجزاء الستة الخاصة بأعمال المؤتمر العلمى للامم المتحدة لحفظ واستخدام الموارد ( ١٧ اغسطس - ٦ سبتمبر ١٩٤٩ ) .

Proceedings of the UN Scientific Conference on the Conservation and Utilization of Resources (August 17—September 6, 1949).

وكذلك « محدّدات ونتائج الاتجاهات السكانية » ( ١٩٥٣ )

The Determinants and Consequences of Population Trends (1953)

وثمة كثير من المعلومات القيمة عن الموارد فى الأجزاء الخمسة التى يتألف منها تقرير لجنة بيلي Paley Commission ، وكذلك فى أعمال المؤتمر الأكاديمي الثانى لجامعة نورثوسترن

Proceedings of the Second Academic Conference of Northwestern University

وهو عبارة عن كتيب لطيف يحمل عنوانا يشبه عنوان هذا المقال « سكان العالم وموارد المستقبل »

World Population and Future Resources

### الطاقة الانتاجية للتربة :

يشتمل كتاب « محدّدات ونتائج الاتجاهات السكانية » على مجموعة طريفة من التقديرات المتعلقة بالطاقة الانتاجية للتربة أو ( حمولة الأرض ) ومعظم هذه المعلومات تبدأ بالانماط الحالية للاستهلاك ، وتقيس الطاقة الانتاجية للكوكب الذى نعيش عليه ، وذلك بالإشارة الى عدد السكان الذين يمكن تزويدهم بالغذاء اليومى الذى تتوفر فيه المواصفات الحالية من حيث الكم والكيف .

ولقد ذهب **اي . م . ايست E. M. East** منذ اكثر من ثلاثين عاما الى أن الارض يمكن أن تزود بالطعام ٢ره بليون نسمة علي أقصى تقدير . لقد توصل الى هذا التقدير بافتراض أن هناك ١٣ بليون فدان \* متاحة لانتاج الغذاء العالمى ، وأن الفرد يحتاج الى نحو ٢ره فدان لسد احتياجاته ، وقد اعتبر هذا العدد ( ٢ره بليون نسمة ) هو الحد الأقصى الذى لا يمكن تجاوزه ، وافترض أن الناس سوف يكتفون بالغذاء المحدود والضروريات المادية القليلة التي تمثل المستويات الحالية لدى القرويين في أوروبا ، والواقع أن ايست اسقط من الاعتبار امكانية استخراج كميات كبيرة من الغذاء من مصادر غير زراعية كالمحيط مثلا .

وبعد عشرين سنة قدر **ف . ايرسون ، وف . ا هاربر F. A. Harper** الطاقة الانتاجية للتربة على أساس أن موارد العالم من الغذاء لا يمكن زيادتها زيادة محسوسة خلال جيل واحد ، وأن الجنس البشرى يجب أن يوزع موارد الغذاء المتاحة علي مستويات مختلفة حتى يمكنه البقاء . وقد استخدما المقياس التي كانت سائدة في عام ١٩٤٠ وكمية الطعام التي تكفى سكان العالم حينذاك ( ٢١٧٠ مليون نسمة ) ، واستنتجا أن الارض يمكنها أن تمد بالطعام نحو ٢ره بليون نسمة وفقا لمستوى الغذاء الاسيوى ، ٢ره بليون وفقا للمستوى الاوروبى ونحو ٩٠٠ مليون فقط وفقا لمستويات أمريكا الشمالية . وعلى النقيض من ذلك يأتي **بورمان Boerman** فيقدم لنا تقديرات تتراوح بين ٦ره ، ١٣ره بليون نسمة وزعها على القارات ( بالملايين ) على النحو التالى :

١٣٥١	أمريكا الشمالية والوسطى
٤٠٦٠	أمريكا الجنوبية
٧٧٨	أوروبا
٢٨٥٢	آسيا
٣٨٠٣	أفريقيا
٤٥٠	أستراليا

أما **ا . بنك A. Penck** فإنه يعطينا تقديرات تتراوح بين ٧ بلايين و ١٦ بليون نسمة ، في حين يعتقد **ا . ف ويجمان Wagemann** أنه عن طريق ادخال التحسينات الكافية في المجال الزراعى فان الارض يمكنها أن تقيم اود نحو ٣٠ بليون من السكان بكل سهولة . وهذه التقديرات تقوم على افتراض امكانية تكييف هواء المساكن في المناطق المدارية ، وتشجير السهول الروسية والتحكم في تيار الخليج الدافئ Gulf Stream وري اراضى الصحراء الكبرى . والظاهر أن ويجمان نفسه لا يأخذ تقديراته بصورة جادة وانما يقدمها كنوع من التصور لما يمكن حدوثه في المستقبل البعيد . كذلك قدرت وزارة الزراعة في الولايات المتحدة القدرة المحتملة للزراعة وفرص التقدم الزراعى خلال العشر سنوات من ١٩٤٤ الى ١٩٥٤ مع عدم استبعاد حدوث اى

\* في الاصل acre وهى وحدة قياس مساحية تعادل ٤٨٤٠ ياردة مربعة وهو اقل قليلا من الفدان .



تغيير جذري في التكنولوجيا الزراعية . فقد وجدت الوزارة أن الولايات المتحدة يمكنها توفير الطعام لنحو ٣٨٠ مليون نسمة تحت ظروف الحرب .

ويرى ر . م . سولتر R. M. Salter أن زيادة المساحة المزروعة مع استعمال التربة بطريقة أفضل سوف يعطي ما يزيد على ضعف الانتاج العالمي من الحبوب واللبن ، وأكثر من ثلاثة أضعاف محصول البطاطس والدرنة والفواكه والخضر ، بالإضافة الى انتاج كميات أكبر من المواد الغذائية الأخرى .

ولم يأخذ سولتر في الاعتبار امكانيات التطورات الجديدة في أساليب استخدام التربة، ولكنه اعتمد اعتمادا كبيرا على امكانية التوسع في زراعة التربة المدارية الحمراء في أمريكا الجنوبية وأفريقيا واندونيسيا والأراضي الواقعة في الجزء الشمالي من المنطقة المعتدلة الشمالية ، وقد طبق تجربة الفلبين على الأراضي المدارية غير المستغلة ، كما طبق تجارب الدول الاسكندنافية وفنلندا على الأراضي الهامشية في المنطقة المعتدلة .

أما ل . د . د . سستامب L. D. Stamp فقد قدم لنا تحليلا رائعا للقدرة الانتاجية للتربة ونورد هنا السطور الختامية لكتابه الممتاز :

#### Land for Tomorrow : The Underdeveloped World

« أن المناطق الزراعية في العالم في وقتنا الحالي تستطيع إذا أمكن زراعتها زراعة مكثفة باستخدام أحدث الأساليب المعروفة أن تزود نحو ثلاثة بلايين من السكان بما يحتاجون اليه من الطعام في مستوى غذائي مناسب . فإذا ما أمكن استخدام نفس الأساليب في زراعة الأرض التي لم تزرع بعد حتى الآن أو لم تستغل بعد بطريقة ملائمة، فإن الزيادة السكانية التي يمكن مواجهتها ترتفع الى عشرة بلايين نسمة » . . « وفي نفس الوقت فإن العلم يضيف باستمرار الى المعرفة الإنسانية أشياء جديدة ، ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نتوقع أن يساعد التقدم العلمي على تنشيط مشكلة الغذاء التي يحتاج اليها الجنس البشري وذلك إذا ما استطاع الإنسان أن يتغلب على الحواجز التي يقيمها هو نفسه بين الأمم » .

ولا شك أن غموض المفاهيم المتعلقة « بالأرض » و « الأرض المزروعة » من ناحية ، والاختلافات في تقدير الحدود التي يمكن أن يحققها التقدم العلمي والفنى في مجال الزراعة من ناحية أخرى هي مصدر الاختلاف في التقديرات الخاصة بإمكانية الأرض على تحمل السكان والتي تتراوح بين ٣ بليون نسمة وفقا لما ذهب اليه بيرسون وهاربر و ٣٠ بليون يمكن أن يعيشوا بكل سهولة حسب ما يقول ويجمان .

#### مصدر التقديرات المثيرة للجدل :

لقد أوضح أريك زيمرمان Erich W. Zimmerman المعنى المزدوج لكلمة « الأرض » اذ يقول : « أن الأرض بمعنى السطح هي شيء ثابت، بينما الأرض بمعنى المجموع الكلي للمساهمة الطبيعية ليست شيئا ثابتا وإنما ديناميا الى حد كبير ، أنها لا تثبت عند شيء أبدا وإنما تتغير باستمرار استجابة لتأثير الاتجاهات والأفعال الإنسانية المتغيرة وفوق كل شيء

استجابة للثقافة المتغيرة .. فليس ثمة علاقة بين مجموع سطح الأرض ودراسة المصادر المتاحة تماماً ، كما أن ليس ثمة علاقة بين مجموع المادة والطاقة في الكون ، وذلك أن الذى يهم هو وظيفة Function ومعنى Meaning الأرض ومظاهر الطبيعة الأخرى بالنسبة للإنسان .

وليس هناك من بين المشتغلين بدراسة الموارد العالمية في الوقت الحالي من ينكر التفسير الدينامي الذى قدمه زيمرمان لمفهوم « الأرض » كعامل متحكم في تقييم « حمولة » الأرض ، ولكن الآراء تختلف في مدى ما يمكن أن تحققه « مرونة الأرض » في التنبؤات الاقتصادية الطويلة المدى .

فالدراسة التى قدمتها الأمم المتحدة إلى « الجمعية الأمريكية للمحافظة على التربة » Soil Conservation Society of America عام ١٩٥١ افترضت إمكانية الولايات المتحدة تزويد بليون من الناس بحاجتهم الغذائية إذا ما طبقت أحدث الأساليب التكنولوجية واستخدمت أقصى ما تستطيع من الطرق الوقائية للتربة وتسميدها ، وإذا أمكن عن طريق إقامة سلسلة من السدود زراعة مساحة كبيرة من خليج المكسيك .

ومن الصعب علينا أن نتقل الرأي القائل بأن « الأرض » سوف تنتج عام ٢٠٠٠ م نفس ما تنتجه الآن ، لقد سألت دكتور نوتسون M. Nuttenson مدير المعهد الأمريكى لايكولوجيا المحاصيل American Institute of Crop Ecology عن إمكانية التوسع في الانتاج الزراعى ، وسوف اقتبس هنا بعض مقتطفات اذن لي بنشرها من رسالته لي :

١ - على أساس الممارسات العقلية الحالية والأدوات الزراعية المستخدمة في الدول ذات الكثافة السكانية العالية والتى تستخدم فيها الأساليب العلمية مثل اليابان فإن انتاج الطعام في الولايات المتحدة يمكن زيادته عدة مرات كلما جعلت الضغوط السكانية في هذه الدولة ذلك أمراً ملائماً من الناحية الاقتصادية . وكذلك فإن الممارسات وأنواع النباتات المحسنة في اليابان يمكن أن تزيد انتاج الطعام إلى حد كبير في كثير من البلاد .

٢ - أن محطات التجارب الزراعية لديها كمية ضخمة من المادة العلمية المؤكدة المتعلقة بكيفية زيادة انتاج المحاصيل ، ولكن نتائجها التجريبية لم تستخدم بعد لأسباب اقتصادية ( أعنى بها الانتاج الزائد Over Production في السوق المحلية والافتقار إلى القوة الشرائية في الأسواق الخارجية ، والمنافسة بين مناطق الانتاج في الولايات المتحدة والتى تتفاوت فيما بينها في إمكانية زيادة الانتاج وفقاً للظروف البيئية . فعلى سبيل المثال نجد أنه على الرغم من أن نبراسكا Nebraska يمكنها أن تضاعف انتاجها لكل وحدة من الأرض فإنها لم تفعل ذلك نظراً لأن تكاليف الري الإضافي والمخصبات الإضافية سوف تتجاوز تكاليف انتاج نفس القدر من المحصول في ولاية أيوا Iowa مثلاً حيث الامطار الوفيرة والخصوبة العالية للتربة ، والتي تسمح بعائد مرتفع من المحاصيل ، دون حاجة إلى ري أو مخصبات باهظة التكاليف ) .

٣ - أن الحد الأقصى من المحصولات يمكن الحصول عليه في حالة الضرورة من مساحة محدودة من الأرض عن طريق « الزراعة بدون تربة » أى « الزراعة بالماء » الذى أضيف إليه بعض المواد الغذائية Hydroponics . أن المسألة حتى الآن مسألة اقتصادية بحثت إلى حد كبير .

وان مرور الوقت وحده كفيلا بأن يبين لنا الى اى حد يمكن استخدام هذه الوسائل ، ولكنها بكل تأكيد سوف تسمح بالتوسع في انتاج الغذاء دون الاكتراث أو القلق فيما يتعلق بمساحة التربة المتاحة ، فانتاج الطعام النباتي يتطلب استخدام المحاليل الغذائية والحصى والرمل والمياه كوسائل للنمو، ويعتبر الحصى الوسيط الأكثر انتشارا دون أن يكون لها غرض آخر سوى دعم النبات . ومن ثم فإنه يمكن الحصول كل سنت على محصول وأفر جدا دون أن نخشى من استنزاف التربة ، أو نضوبها أو انهيار بنائها أو التعرية أو الفيضان أو الجفاف ، أو ما الى ذلك من مشاكل أخرى مشابهة كتلك التي نعرفها في الزراعة التقليدية ، ولقد استخدمت هذه الطريقة وما زالت في جيش الولايات المتحدة وقد حققت نتائج ممتازة . وقد تعجز هذه الطريقة عن منافسة الزراعة التقليدية اليوم ، ولكنها بكل تأكيد تفتح افقا جديدة لانتاج الغذاء كلما وأينما كانت ندرة الأرض تحول دون حاجة السكان ومتطلباتهم الاقتصادية .

٤ - ولا شك أن التركيب الضوئي الصناعي Industrial Photosynthesis لانتاج البروتين والدهنيات والكربوهيدرات Carbohydrates عن طريق استخدام كائنات نباتية ذات خلية واحدة Unicellular مثل الطحالب Chlorella يمكن أن تزودنا بمصدر جديد للغذاء من المحتمل أن تصبح له نتائج كبيرة في الصورة العامة لاحتمالية انتاج المواد الغذائية للإنسان والحيوان على السواء . ولا شك أن انتاج الغذاء بواسطة التصنيع البيولوجي ما زال في مرحلة البداية ، وان انتاج الطحالب طبقا لما ذهبت اليه مؤسسة كارنيجي Carnegie Institution في واشنطن يمكن معالجته ببراعة من خلال السيطرة على المواد الغذائية بطريقة تختلف الى حد كبير من حيث طبيعة الانتاج الجديدة لهذه العناصر النباتية الدقيقة للنباتات ذات الخلية الواحدة - من ٥٦ ٪ بروتين الى ٨٠ ٪ دهنيات في حالة الوزن الجاف. ومهما تكن نتائج الدراسة الحالية فمن الواضح أن ثمة عملية تعتمد على استخدام بعض الكائنات الحية لتزويد الإنسان عن طريق بعض العمليات الصناعية ، وليس عن طريق زراعة الحقول بمصدر غذائي يقدم للإنسان كميات هائلة من الطعام من مساحات محدودة من الأرض وسوف يؤدي ذلك فيما يبدو الى تغيير وضع السكان تغييرا تاما .

٥ - هذا الانتاج التركيبي للمواد الجديدة والمتمثل في احلال الالياف واللدائن الجديدة يوصى بأن الأرض المنزرعة بالالياف أو المحاصيل الأخرى يمكن أن تزرع بمحاصيل غذائية اذا استدعت الضرورة الاقتصادية ذلك ، وان انتاج الغذاء بطريقة تركيبية أو شبه تركيبية ليس بعيدا كما يتبادر للذهن ، وقد يؤدي الى تغيير افكارنا التقليدية بطريقة جذرية فيما يتعلق باحتمال انتاج الغذاء في العالم .

٦ - هذه الانجازات الحالية منها أو المستقلة في مجال العلوم الطبيعية قد تفترض حدوث تغييرات ثورية وتحسينات في امكانيات انتاج المحاصيل ، وهي امكانيات يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تقدير السكان وموارد الغذاء في المستقبل . ومنذ عشر سنوات فقط لم يكن لدينا تسجيلات أو تحليلات احصائية عن الحبوب يمكن أن تكشف لنا عن امكانية نتائج عملية التهجين أو عن الثورة التي أحدثتها هذه الظاهرة في المحاصيل وبخاصة بالنسبة للحبوب . وإلى

أى مدى يمكن أن تمتد هذه الثورة الى المحاصيل الرئيسية الاخرى ، بل ان السجلات الاحصائية للانتاج فى الماضى لم تكشف عن المقتضيات المروعة لأمراض النباتات واساليب مقاومة الآفات واستخدام الهرمونات النباتية ، وكذلك التطور الثورى المرتقب كنتيجة لاستخدام الطاقة النووية Nuclear Energy فى مجالات زراعية عديدة ، والتي يمكن أن تجعل من الملائم اقتصاديا استخدام مياه البحر فى الاقاليم المجذبة وشبه المجذبة من العالم ، وتساهم فى اضافة مصدر من مصادر انتاج الغذاء لموارد الانسان الحالية .

٧ - ان استخدام الطاقة الشمسية Solar Energy الرخيصة لغراض الرى أصبح امرا وشيك الحدوث فى المستقبل القريب

٨ - ان اساليب مقاومة الآفات سوف تصبح قريبا اكثر فعالية، كما ان احتمال السيطرة على الامراض فى تربية الحيوان ( كما هو الحال فيما يتعلق بالسيطرة على ذبابة التسييتسى Tsetse التى تصيب الماشية فى افريقيا ) أصبحت عالية ، وكذلك فان العلاج والادوية الوقائية أصبحت متوفرة بالنسبة لبعض امراض الحيوانات والدواجن الشائعة ، كما ان سلالة البراهما Brahma \* تنبئ بتعديل اساليب تربية الدواجن والماشية فى الاقاليم الحارة من العالم .

٩ - ان الزراعة وكذلك بعض المظاهر البيولوجية الاخرى تخضع لتحسينات ضخمة، وان معلوماتنا الاساسية تزداد بالتدريج ، وسوف تكون فى متناول الانسان فى وقت غير بعيد الذى سوف يأخذها فى الاعتبار دون شك ويستفاد منها كاداة مشروعة لدراسة المشكلات السكانية فيما يتعلق بالحاجة الى الغذاء والتنمية الاقتصادية .

ثم هناك المحاولات المبذولة لحراثة البحر بدلا من الاكتفاء بجنى ثمار البحر . ففي اسكتلندا تم تسميد الفيوردات Fiords بنجاح وقد ترتب على ذلك زيادة محصول السمك الى حد كبير ، وقد تم ذلك عن طريق تحصين وتقوية مناطق مغلقة من المياه ، ترتب عليها نمو العوالق المائية Plankton والتي كانت تصطاد بواسطة سمك « المنوه » Minnows \* ثم بعد ذلك استخدمت اسماك اخرى . وقد امتدت التجربة لتشمل مناطق اخرى من المياه المفتوحة غير المحصنة كما كان الحال فى التجارب السابقة . ولقد تعلمنا ان نزيد المحارات « الرخويات البحرية » Oysters بسرعة وذلك بالسيطرة على الكائنات الحية المتناهية فى الصغر .

ان وزارة الزراعة قدمت العديد من الخطط التى يستخدمها الفلاحون الآن فى اغراض مماثلة لاكثر مخزونهم من سمك القاروس Bass الذى يتواجد فى البرك ويغل فى أفضل الظروف نحو ٣٠٠ رطل سنويا فى الفدان الواحد ، وفى أقصى الطرف الجنوبى لخليج سان فرانسيسكو حيث يتم تبخير مياه البحر للحصول على الملح ، وحيث تنمو الطحالب ثم تجمع هذه القشريات للحصول

\* سلالة من الطيور ذات الاصل الاسيوى ادخلت الى الولايات المتحدة فى سبتمبر ١٨٤٦ وقد انتشرت على نطاق واسع فى النصف الثانى من القرن ١٩ .

\* سمك اوروبى صغير الحجم .

على البروتينات منها ، وكان من الممكن أن تتم هذه العملية باستخدام سمك « المنوه » لولا وجود « النورس » الذى يعيش على هذه الأسماك والذى يصعب جمعه مثلما تجمع القشريات .

يجب أن نتذكر دائما أن ضغط المطالب المتزايدة سوف يعجل بنمو واستغلال أنواع جديدة من المحاصيل التى لا تحتاج إلا الى قدر محدود من أشعة الشمس والرطوبة ، والتى يمكن زراعتها فى الاراضى الحدية وبخاصة فى المنطقة الممتدة على طول الحدود الشمالية للمنطقة المعتدلة الشمالية وكذلك فى الاراضى المرتفعة المدارية .

وسوف تزداد موارد الطعام فى الدول النامية زيادة ملحوظة عن طريق التحكم فى التلف الذى تلحقه الحشرات والحيوانات القارضة وأمراض النباتات ، وكذلك عن طريق الاهتمام بتحسين امكانيات التخزين والنقل والتسويق .

كذلك فإن صيانة التربة والمحافظة عليها يمكن أن يقضى على استنزاف الارض ، كما أن استصلاح التربة وخاصة الرى يمكن أن يجدد خصوبة المناطق المتآكلة والمستنفذة ، ويؤثر تأثيرا فعالا فى التوسعات الهامة فى الاراضى القابلة للزراعة ، وخير ما يساعد على ذلك فى المدى الطويل هو حسن استغلال مصادر المياه .

فى المجال المحلى المحدود فإنه يمكن توجيه المياه الجارية نحو الاراضى الزراعية باستخدام الطرق والاساليب البدائية مثل السدود الصغيرة والقنوات ، أما على النطاق الاكثر اتساعا فإن عملية الرى تتطلب كثيرا من التكاليف والانفاق للأعمال الهندسية ، ولو أن مثل هذه النفقات تصبح عديمة القيمة من الناحية الاقتصادية حين تتعرض الزراعة للانتاج الزائد عن الحد Over Production بينما يكون استثمار هذه النفقات اقتصاديا حين يزداد الطلب ازديادا كبيرا . علاوة على ذلك فقد ظهرت امكانيات جديدة نتيجة للربط بين وسائل الرى والتحكم فى الفيضان وتحسين الملاحة فى الانهار وانتاج القوى الكهربائية . وهذا التداخل المتعدد الأغراض فى الدورة الهيدرولوجية Hydrological Cycle فكرة جديدة نسبيا وقد بدأت التجارب فى هذا المجال على نطاق واسع فى مشروع « وادى نيسى » كما أن هذه الطريقة استخدمت بنجاح فى وادى كولومبيا ( مشروع الكولى الكبير ) Grand Coulee Project كذلك فإن ثمة مشاريع أخرى طموحة بدأ تنفيذها فى الهند ومصر ، كما أن بعض الخبراء يعتقدون أن رى الصحراء الكبرى مسألة يمكن تحقيقها وتنفيذها باستخدام الوسائل الفنية الحالية اذا توفر المال اللازم .

ومن وجهة النظر المتعلقة بالقدرة الانتاجية للأرض فى المناطق المزدحمة بالسكان والمناطق الجافة الفسيحة ، فإن كل نقطة من ماء النهر تصب فى البحر تعتبر خسارة فادحة . فباستثناء تيار الماء اللازم لدفع السفن فى الأهوسة عند مصب الانهار فإن كل نقطة من المياه يمكن توجيهها الى الحقول وردها الى الدورة الهيدرولوجية خلال عملية البخر . والواقع أنه يمكن تسخير التيارات الشديدة فى آسيا وأفريقيا لتحويل الصحارى الى حقول خصبة وبساتين خضراء اذا ما توفرت الطاقة الرخيصة والتجهيزات الحديثة .

كذلك فان وجود مصادر جديدة للطاقة الرخيصة سوف يحل مشكلة تنقية مياه البحر وتوفيرها بكميات تكفى لرى الاراضى الممتدة على الساحل الباسفيكى لامريكا الجنوبية والساحل الشمالى لافريقيا وبعض اجزاء من استراليا .

ان القدرة الانتاجية للارض تعتمد الى حد كبير على التقدم فى مجال القوة Power وعلى العلاقة بين تكاليف الطاقة Energy واسعار المحاصيل الزراعية ، واذا افلح تزايد الطلب على الطعام الافضل فى تحرير الزراعة فى المناطق المتقدمة تكنولوجيا من المخاوف المترتبة على الانتاج الزائد ، فانه سوف يمكن تكريس ملايين الكيلوواتات من القوى الكهربائية لمشاريع استصلاح الاراضى الضخمة فى المناطق الاقل تقدما . ولقد أصبح التقدم فى استخدام الطاقة بمثابة العمود الفقرى لتنمية الصناعات الحديثة والمواصلات، فالمصادر الحديثة للطاقة امتدت الى الزراعة فى شكل كهرباء ومحارث آلية ، والاغلب ان الخطوة التالية فى استخدام الطاقة فى الزراعة سوف تكون فى مجال استصلاح التربة واعادة توجيه الدورة الهيدرولوجية .

#### موارد الطعام غير الزراعية :

يشير الاستخدام المتزايد لمصادر الطعام غير الزراعية بزيادة أخرى فى قدرة الارض الانتاجية ، فموارد المحيط التى تغطى نحو ثلثى الكرة الأرضية لم يكدا الانسان يشرع فى استغلالها ولا يزال المحيط يمثل نوعا من التحدى للانسان، ومع ذلك فان اهتمام العلماء بكنوزه الخبأ يزداد بسرعة ، بل ان بعض الخبراء يعتقدون انه سوف يحين الوقت الذى يعتمد الانسان فى عيشه على المياه الى حد كبير ، وليس من المتوقع أن يصبح السمك مصدرا هاما للغذاء فى العالم ، وذلك لان اسماك المحيط تخضع فى واقع الامر لقيود خطيرة ولكن الامل كبير فى الانتفاع بالاحياء الدقيقة الطافية فى المياه ، والخمائر والطحالب البحرية ومنتجات المحيط العضوية الاخرى المهمة .

وعلى أى حال فان المسألة ما زالت فى دور الاستكشاف التمهيدى ، ولكن جميع الخبراء يعترفون بأن المحيط يضم مخزونا لا ينضب من البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات التى يمكن فى نهاية الامر أن تتحول الى غذاء للبشر أو علف للحيوان .

وسوف يضطر النقص فى مصادر الغذاء الاخرى الانسان الى ارتياد هذا المستودع ، وسوف يستخدم انتاج المحيط كعلف للماشية قبل أن يصبح صالحا لتغذية البشر مما سوف يساعد على تخصيص بعض الارض التى تستخدم الان فى انتاج العلف الحيوانى لزراعة المحصولات الغذائية ، كما سيمكن فى الوقت نفسه التوسع فى انتاج الاطعمة الوقائية أى اللحم ومنتجات الالبان بتكاليف زهيدة .

#### المحاصيل الصناعية :

كذلك سوف تزداد قدرة الارض الانتاجية نتيجة للتقدم فى انتاج الالياف الصناعية والمطاط وما اليها ، كما ان التقدم الذى سوف تحققة فروع علم الكيمياء الان سوف يحرر جزءا من الارض التى تشغلها الان المحاصيل الصناعية كالقطن وبذرة الكتان .

ونحن الآن في المرحلة الاولى لهذه العملية ومن الصعب أن نتنبأ بكل مقتضياتها بالنسبة للأقاليم المتخصصة في مثل هذه النباتات . فقد تنشأ فيها اضطرابات اقتصادية حادة وقد يصعب استكمال إعادة تكييف الزراعة المحلية للاتجاهات التكنولوجية الحديثة مع نهاية هذا القرن ، ومع ذلك فيجب أن نأخذ في الاعتبار دائما تأثيرها على قدرة الأرض الانتاجية .

### \* بعض التحفظات :

بينما يعترف خبراء الأمم المتحدة بإمكانية زيادة الطعام من المصادر الزراعية وغير الزراعية زيادة بالغة ، فإنهم يخفون من تنبؤاتهم المتفائلة بآثارهم لنوعين من التحفظات ، أحدهما مرتبط بالصعوبات العملية والاقتصادية والآخر بالنظام السياسي للعالم . أما فيما يتعلق بالمعوقات العملية Practical obstacles المتعلقة بالتوسع في الأراضي الصالحة للزراعة ، واستخدامها بطريقة أفضل ، فإن دراسة الأمم المتحدة بينت أن الصعاب التي تواجه أي برنامج فعال من هذا النوع تصبح أكثر وضوحا عندما نحاول تعيين أي خطوات محددة بالذات لزيادة إنتاج الغذاء في مناطق معينة ، وفي هذه الحالة نجد أن الافتراضات أو العروض لا تجدى ليس فقط بسبب الصعاب الاقتصادية ، بل وأيضا بسبب لا مبالاة الناس وشكوكهم وجهلهم ، يضاف إلى ذلك أن الدراسة تؤكد أن التنمية لا يمكن أن تتحقق إذا ما كانت مجزأة ، وإنما لابد من أن تكون عملية متكاملة تقوم على الاعتماد المتبادل بين الموارد والناس ، ومثل هذه الصعوبات لن تختفى بطريقة آلية نتيجة لتقدم العلم والتكنولوجيا .

إلا أنه يمكن تحدى هذا النمط من التفكير فالإقتصاد العالمى الحديث إنما يقوم في الواقع على نظم منفصلة ومجزأة ، ولم يكن التقدم الاقتصادى في وقت ما عملية متكاملة منطقية ومخططة تخطيطا محكما ، وإنما تحقق في شكل وثبات أو فقرات ، ونتيجة لسلسلة من التجارب المرتجلة تحت تأثير أحلام الناس ، وتخميناتهم وطموحهم ، صحيح أنها عملية فيها الكثير من الأسراف والضياع فلقد اجتاز الجنس البشرى طريقا متعرجا شاقا بحيث يمكن للمرء أن يزعم أنه كان في الامكان تحقيق نفس النتائج أو أفضل منها في وقت أقصر لو أن التاريخ البشرى كان قد سار حسب خطة وضعتها سلفا لجنة من الخبراء ، ولكن لسوء الحظ فإن التشكل الاقتصادى للعالم حدث بطريقة فجائية لم يمكن معها الدعوة لعقد مؤتمر من الخبراء في معهد الاقتصاد الحديث ، ومن المحتمل أن تتخذ التنمية في النصف الثانى من هذا القرن نفس الشكل « الفسيفسائى » المجرأ الذى اتخذته من قبل ، ولكن مع اختصار للجهود والتجارب الضائعة التى لن يستفاد منها في المناطق التي تحاول اللحاق بالأمم المزهرة الحديثة .

إنهم يستطيعون بلا شك الاستفادة من المنجزات العلمية والفنية التى تستخدمها هذه الأمم ، وبالطبع فإن « اللامبالاة الانسانية والجهل » تمنع إمكانية التقدم الاقتصادى السريع في المناطق المتخلفة ، ولكن في أيامنا هذه ليس ثمة مكان للامبالاة وإنما الذى يميز هذه المناطق في المرحلة الحالية هو الحركة الفعالة والمطالب الملحة من أجل التحسين والتقدم ، والرغبة العارمة للمعرفة .

وهذا الحكم الاخير تؤيده نسبة التوزيع المثلوى للاتفاق العام، وخطط التنمية ومشروعات المساعدات الفنية في هذه المناطق ، فالميزانية المخصصة للتعليم العام في بعضها اكبر من مثيلاتها في الدول المتقدمة الحديثة ، والجدول التالي يبين النسبة المئوية لميزانية التعليم من اجمالي الميزانية القومية لعام ١٩٥١ في بعض الدول المتقدمة والنامية .

بنما	١٩٩	الارجنتين	١٠٤
شيلي	١٦١	السويد	١٠
سوريا	١٦	تركيا	٩٨
بيرو	١٥	ايرلندا	٩٢
جواتيمالا	١٤٩	ايران	٨٩
كوستاريكا	١٤٧	نيوزيلندا	٨٧
سيلان	١٤٦	فنزويلا	٧٥
مصر	١١٦	المملكة المتحدة	٧
جزر هايتى	١١	العراق	٦٨
المكسيك	١٠٨	البرتغال	٦٥
هندوراس	١٠٨	النرويج	٦٣
لبنان	١٠٥	النمسا	٥٨

والجدير بالذكر هنا هو أن الدول المتقدمة الحديثة تقع في أسفل القائمة ، ولا شك أن ترتيب هذه الدول قد يتغير عندما نعروض للميزانيات المحلية أو ميزانيات المقاطعات والاقاليم ولكن الحقيقة تظل أن الدول النامية غالبا ما تنفق على مدارسها البدائية من ميزانيتها العامة جزءا اكبر مما تدفعه الدول المتقدمة على نظام تعليمها المتطور الراقي .

ومن ناحية أخرى فإن الاموال المخصصة للتعليم العام تحتل ايضا مرتبة عالية في خطط التنمية الاقتصادية في أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا ، فبناء المدارس يعتبر بمثابة حجر الزاوية لتنمية المجتمع المحلى في الهند مثلا ، كما أن المعلمين والتربويين يأتون في قمة قائمة الموظفين الذين تتطلبهم الدول المضيئة ، سواء من صندوق الخدمات الفنية للامم المتحدة أو هيئة المعونة الخارجية بالولايات المتحدة .

وعلى ذلك فانه يبدو ان الدينامية وليس اللامبالاة والجهل ستكون هي الاساس للتنبؤات الاقتصادية البعيدة المدى .

اما التحفظ الثاني الذى يشيره خبراء الامم المتحدة فلا يمكن دحضه ، فمعظم التقديرات الخاصة بانتاجية الارض تقوم على افتراض أن موارد الغذاء العالمية هي بمثابة مخزن واحد يمكن للجميع ان يسحبوا منه ، لكن الواقع ان هذا المخزن او المستودع مقسم الى حد كبير . ونظرا



لان الكثير من شعوب العالم لا يمكنهم الاستفادة من بعض اجزاء العالم الهامة فان القدرة الانتاجية الفعلية للارض اقل بكثير جدامن قدرتها النظرية.

ان القول بان موارد الغذاء العالمية يمكن ان تتضاعف ثلاث مرات مع نهاية هذا القرن لايعني باى حال انه في الخمسين سنة القادمة سوف تتمكن كل قارة من ان توفر لسكانها الغذاء المناسب كما وكيفا ، بل الاكثر من ذلك ان هذا القول لا يعني ان كل بلد سوف ينتج من الغذاء ما يكفي سكانه ، او سوف يكون لديه الوسائل المناسبة لاشباع احتياجاته من الطعام عن طريق الاستيراد من الخارج .

وحتى اذا اخذنا باكثر التنبؤات تفاؤلا عن القدرة الانتاجية للارض فسوف تكون هناك في الاغلب مناطق شاسعة تعاني من النقص في الطعام . ان تراكم الفائض في مناطق معينة قد يبطيء من التقدم الزراعي في تلك المناطق ويجعل المحصول الفعلي اقل بكثير من القدرة الانتاجية النظرية للتربة ، بينما يؤدي الغذاء في مناطق اخرى الى تعطيل التقدم الاقتصادي ، والى عدم الاستقرار الاجتماعي .

ان القدرة الانتاجية للتربة تفتح المجال لامكانية تحقيق التحسينات الهائلة في تغذية السكان المتزايدة في العالم ، ولكن هذا في ذاته لا يحل مشكلة الجوع في العالم . ان اسباب استمرار الفقر لا تكمن في نسبة حجم هذا الكوكب الى السكان الذين يعيشون عليه اوفى نسبة الزيادة الهائلة في عدد الافواه الجائعة الى حجم الكسرة الارضية ، وانما يكمن في النظم السياسية التي لا تسمح لكل الناس بان يستفيدوا من تكنولوجيا الدول الاكثر تقدما .

### الحاجة للمواد الصناعية الخام :

لقد افترضنا ان حاجة العالم للسلع المصنعة قد تصل في عام ٢٠٠٠م الى اكثر من خمسة او ستة اضعاف ما هي عليه الان . وهذا الفرض الذي يتعلق بالطلب على المواد الخام يأخذ في الاعتبار الزيادة في حجم الانتاج الصناعي بنسبة مماثلة ، وبالطبع فان جميع فروع الانتاج لاتنمو بنفس المعدل ، وبالتالي فان الطلب على المواد الخام المختلفة سوف يرتفع بطريقة غير متوازية ، وعلى ذلك فالمسألة اذن ليست ما اذا كان العرض السنوي لكل مادة من المواد الخام يمكن ان تزداد بنسبة اكثر من خمس مرات ، ولكن ما اذا كان العرض بنسبة لجميع المواد ( المعروفة والتي لم تزل غير معروفة ) سوف تكفي لاشباع ومقابلة النمو المتزايد في مجال الانتاج الصناعي .

### منتجات الغابة :

تعتبر الغابات الصنوبرية Coniferous Forests المصدر الرئيسي للاخشاب والمنتجات المرتبطة بها ، والمقدر ان محصولها السنوي يمكن ان يصل الى اكثر من الضعف عن طريق استغلالها بطريقة افضل ومع الاهتمام بتطوير الطرق . كما ان استغلال الغابات ذات الاوراق العريضة يساعد على زيادة المحصول الكلي الى ثلاثة اضعاف المطلب السنوية الحالية ، او حتى الى اكثر من ذلك بتخفيض الفاقد من الانتاج ، وتعتمد الزيادة الاضافية على التقدم الذي تحققة زراعة الغابات والعناية بها ، وخاصة تنمية وتهجين الاشجار السريعة النمو . ووفقا لراى الخبراء

فان تهجين الاشجار ربما يصبح امرا مألوفاً في نحو عشرين عاماً . كما هو الحال الان بالنسبة لتهجين الحبوب ، كذلك فان المزارع التجارية يمكن ان يتضاعف انتاجها مرتين او ثلاث مرات ما تنتجه الان من الاخشاب عن طريق النمو الطبيعي . وعلى ذلك فان امكانية مضاعفة انتاج الاخشاب خمس او ست مرات بالنسبة لحجم الاستهلاك السنوي الحالي مسألة ميسورة من الناحية الفنية ، ومع ذلك فان كثيراً من الخبراء يعتقدون انه قبل الوصول الى هذا المستوى من الانتاج فان الحاجة الى الاخشاب سوف تنخفض نتيجة الاستعمال الواسع النطاق للمواد الاخرى كالصلب ولدائن البلاستيك وما اليها .

### الوقود المعدني Mineral Fuels

ان الاحتياطي المعروف من الفحم الحجري يمكن ان يفي بمطالب العالم واحتياجاته بالمعدلات الحالية للاستهلاك لنحو الفي عام قادمة ، وحتى في حالة ارتفاع معدل الاستهلاك السنوي الى نحو خمسة اضعاف او ستة اضعاف وفق التقديرات عام ١٩٥٠ فانه يمكن ان يفي بالحاجة لعدة قرون .

اما الاحتياطي المعروف من البترول والغاز الطبيعي فمن المحتمل ان يستنفذ قبل نهاية هذا القرن ، ومع ذلك فان الخبراء يعتقدون ان الاساليب الجديدة للإستكشاف والانتاج تشير الى امكان اكتشاف حقول جديدة للنفط ، ويساعد على ذلك استخدام الاحتياطي المتاح بطريق افضل واستغلال بترول الآبار المهجورة ، وحتى في حالة الاستنزاف الكامل للآبار الحالية ، فان العالم لن يترك بدون وقود سائل كما عبر ذلك روبرت أ. ويلسون Robert Wilson بشركة ستاندرد اويل في انديانا حين قال : « سوف يكون لدينا موارد اخرى كالصخور البترولية والفحم والقطران والفضلات الزراعية بالإضافة الى الموارد الاساسية التي لا تنضب كالماء والهواء وضوء الشمس . ولعل الوسيلة النهائية للحصول على وقود سائل سوف تتوفر حين نبدأ بمحرك شمس Solar Engine لتوليد الطاقة ، ويمكن استخدام القوة في التحليل الكهربائي للماء الى عنصريه الرئيسيين الهيدروجين والاكسجين ، اما الهيدروجين فيستخدم لتحويل ثاني اكسيد الكربون Carbon Dioxide في الهواء الى اول اكسيد الكربون Carbon Monoxide وبإضافة الهيدروجين الى اول اكسيد الكربون يمكن الحصول على الوقود السائل » .

### المعادن :

في الواقع ان الجنس البشري لديه احتياطي لا ينضب من خام الحديد والمنجنيز والبوكسيت والمغنسيوم بالإضافة الى البوتاسا والفوسفات . اما الاحتياطي المعروف من المعادن الاخرى المألوفة كالححاس والرصاص والزنك والقصدير والكروم فهو محدود ، وعلى افتراض أن ثمة مطالب سنوية متزايدة ومطرودة فان الترسيبات التي اكتشفت سوف تنضب قبل نهاية هذا القرن .

ان التهديدات بالاستنزاف الذي يوشك على الحدوث انما هو بمثابة تحدٍ خطير لبراعة الانسان ومهارته ، وان الاستجابة لهذا التحدي تكمن في الاستخدام الافضل للموارد المتاحة والتنمية المكثفة لها خاصة في الاماكن المتطرفة من العالم ، والاستفادة من المخلفات والبقايا ، والبحث عن المستودعات الجديدة واحلال المنتجات الكيميائية المستحدثة محل المواد النادرة .

فمنذ سنوات كان يبدو من المؤكد انه لم يعد ثمة مجال على سطح الارض لاكتشاف ترسيبات معدنية ضخمة كتلك التي عثر عليها في الخمسين سنة الاخيرة اويزيد ، ومع ذلك فقد امكن الكشف عن مستودعات هائلة من البترول وخام الحديد ومعادن اخرى ، مثل الترسيبات الحديدية الجيدة في فنزويلا وكندا وجنوب روديسيا ، وحقول النفط في كندا ، ومناجم الذهب الجديدة في مقارنتها بمناجم منطقة « الراند » الشهيرة في جنوب افريقيا ، والبوتاس واليورانيوم في الولايات المتحدة ودول اخرى كثيرة . ولا يزال البحث عن المعادن مستمرا بطريقة محمومة في كل انحاء العالم ، وقد ترتب على ذلك ان تغيرت خريطة المعادن لكوكبنا واشتملت على اقاليم نائية كان خبراء التعدين يجهلون حتى مجرد اسمائها منذ سنوات قليلة مضت .

اما اليورانيوم فهو عنصر جديد في اسيرة المعادن ولقد كان وجوده منذ البداية امرا مشكوكا فيه في حوالى ستة انواع من المعادن ، اما الان فان ما يزيد على مائة معدن معروفة تحوى في تركيبها على اليورانيوم ، هذا اربعة وعشرين معدنا آخر تشتمل على اليورانيوم بكميات تجارية .

وفي ضوء هذه التطورات الحديثة فان نزوب الموارد المعدنية في الارض في وقت قريب يبدو بعيد الاحتمال الى حد كبير ، ومن المؤكد ان الاحتياطي « المعروف » للمعادن التي تبس اكتشافها قد ينضب ، ولكننا ما زلنا عند مدخل مخزن الكرة الارضية وما نعرفه عن كنوزها هو بغير شك جزء يسير مما لا نعرفه ، فنحن على سبيل المثال نعرف القليل جدا عن الموارد المعدنية التي تحويها مياه البحر او قاع المحيط .

### الطاقة :

قد يفترض المرء ان استهلاك الطاقة سوف يزداد بنسبة تتفق مع حجم الانتاج الصناعي ، ومع ذلك فمن المحتمل جدا ان زيادة الطلب على الطاقة سوف يصاحبها تقدم في وسائل او طرق استغلال مصادرها ، وفي ضوء انخفاض معامل كفاءة الطاقة في الاقتصاد الحديث انخفاضا كبيرا جدا فلن يكون من المبالغ فيه ان نزعّم ان الانسان سوف يعرف كيف يحصل من نصف طن من الفحم او البترول على كمية من الطاقة تعادل على الاقل تلك التي يحصل عليها من طن كامل من احدهما .

وهذا الافتراض يوحي بان العالم في عام ٢٠٠٠م سوف يستهلك من المعادن ما يعادل ضعفين الى ثلاثة اضعاف ما يستهلكه الان .

ولا شك ان توزيع الطاقة المستخدمة بين المصادر المختلفة سوف يعتمد على التقدم في استخدام المصادر الجديدة - اى الاشعاع الشمسي Solar radiation والذرة Atom والسباق بينهما . فمعد عامين او ثلاثة كان يبدو ان الطاقة الشمسية Solar energy تتقدم غيرها في هذا المجال وكان خبراء الفيزياء النووية Nuclear physics يتوخون الحرص والحذر في تقديراتهم لدى القدرة على استخدام الطاقة الذرية اقتصاديا ، ولكنهم ما لبثوا ان اضبحوا اكثر تفاؤلا نتيجة لظهور المفاعل الذرى المتعدد الأغراض Multiple Purpose Reactor والذي يمكن ظهوره بمثابة نقطة تحول في تفكيرهم ، كما ان غزو الذرة ودخولها الى مختلف نواحي النشاط

الاقتصادى فى العالم ، على اعتبار أنها أرخص وأغنى مصدر للطاقة ، مسألة سوف تتحقق فى وقت اقرب مما كنا نظن .

وحتى فى الوقت الحالى فاننا نستطيع ان نرى صورة اقتصاديات الطاقة فى نهاية هذا القرن سوف تكون مختلفة تماما عن الشكل السائد الان ، ومن المحتمل ان يظل القرن التاسع عشر متحفيا بلقبه « قرن الفحم » . اما القرن العشرون فسوف يكون من الصعب ان نسميه « قرن البترول » لان من المحتمل ان يكون الوقود المستخلص من القشرة الارضية فى شكل سائل حدث قصر الاجل فى تاريخ الاقتصاد العالمى ، وسوف يمكن الحصول على كميات متزايدة من الوقود السائل من الفحم او حتى من العوايق المائية ( البلاكتون ) ، واذا افلحت حضارتنا الآلية فى البقاء والاستمرار فمن المحتمل ان يتمكن الانسان من ان ينتقل من مرحلة استخدام المقادير الضئيلة من الطاقة التى يلتقطها من هنا وهناك من سطح الارض الى مرحلة السيطرة الكاملة المحسوبة على الطاقة الموجودة فى بيئته ، اى فى الاشعاع الشمسى - وفى الرياح المتصلة به - وفى الدرة .

#### طريق التقدم :

لقد عبرنا عن الزيادة المتوقعة فى الطلب على الغذاء والمواد الخام فى حدود متوسط المعدلات السنوية للزيادة والتي تتراوح بين ١.٤٪ الى ٢.٢٪ للغذاء ، ومن ٣.٥٪ الى ٤٪ بالنسبة للمواد الخام .

على اى حال فمن المحتمل ان التقدم الاقتصادى فى العالم سوف يتبع طريقا لا يشبه - الا فى النادر - وعن طريق المصادفة البحتة - خطأ بيانيا مئويا ذا ميل تدرجى .

ولا شك فى ان الاتجاه السائد فى المطالب من اجل المواد الخام الصناعية ينعكس فى مؤشرات حجم الانتاج الصناعى .

فحجم الانتاج الصناعى الاوروبى زاد بنسبة اربعة اضعاف تقريبا ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٥٣ وقد كان متوسط معدل النمو خلال هذه الفترة كلها هو ٢.٥٪ ، ولكن معدل الزيادة السنوية لم يصل الى هذا المتوسط اذ توقف هذا التقدم الصناعى ثلاث مرات نتيجة لقيام الحربين العالميتين والكساد الاقتصادى الذى وقع بينهما ، بينما حدث التوسع فى اربع موجات هي : من بداية القرن وحتى عام ١٩١٤ ، ومن عام ١٩١٨ الى ١٩٢٩ ، ومن عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٣٨ ، ثم من عام ١٩٤٤ الى وقتنا الحالى .

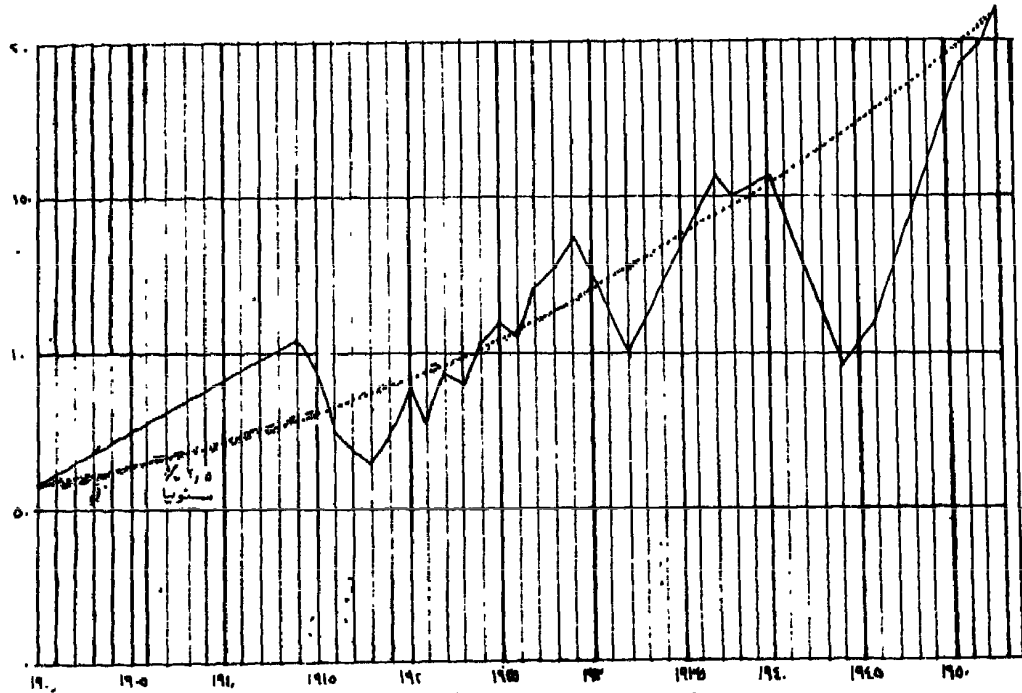
انظر شكل ( ١ ) ، وقد بلغ متوسط الزيادة السنوية فى فترات النمو ٤.٤٪

قبل الحرب العالمية الاولى و ٦.٦٪ فى العشرينات من هذا القرن و ٧.٢٪ قبل الحرب العالمية الثانية و ١.٠٪ من عام ١٩٤٦ الى عام ١٩٥٣ . وتقدر الفترة التى ازدهر فيها الانتاج الصناعى خلال هذه السنوات الثلاثة والخمسين بثمانية وثلاثين سنة بلغ معدل التقدم السنوى والنمو اثناءها ٦.٥٪ فى المتوسط ( انظر شكل ٢ ) ولولا تلك المواقف التى تعرض لها ذلك النمو لزداد

الانتاج اكثر من عشرة اضعاف ما وصلت اليه هذه السنوات الثمانية والثلاثين . ومع ذلك فانه يمكن القول ان النمو السريع خلال فترات التوسع يرجع جزئيا الى ان كل زيادة ملحوظة كانت تبدأ من نقطة منخفضة جدا .

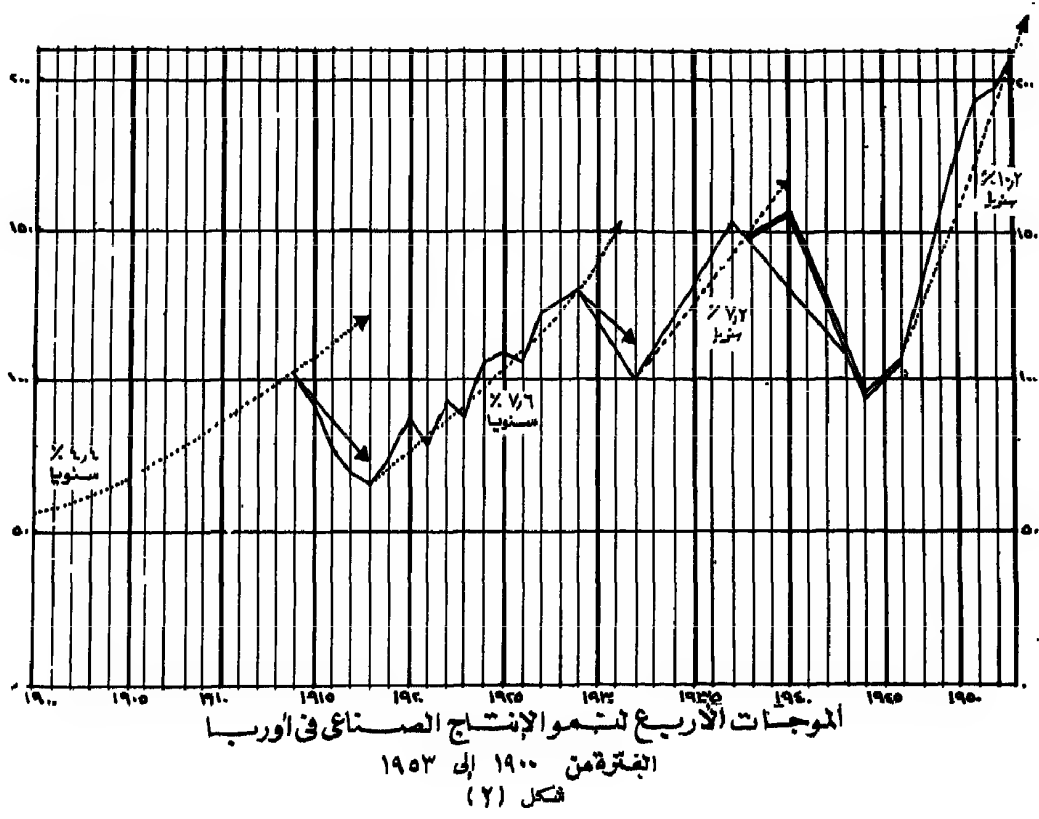
ولقد سار التقدم الصناعي في الولايات المتحدة في طريق مماثل ، ففي الفترة من ١٠٠٠ الى ١٩٥٣ تضاعف انتاج السلع الصناعية اكثر من ثمانى مرات ( انظر شكل ٣ ) وكان معدل النمو السنوى ٤,٤٪ في المتوسط .

ولكن التقدم الفعلى لم يكن مطردا تماما كما كان الحال في اوربوا وانما تعرض لنكسات خلال وبعد الحرب العالمية الاولى مباشرة ، بالإضافة الى فترة الكساد في الثلاثينات ، كذلك تعرض تقدمه ونموه المزدهر خلال الحرب العالمية الثانية الى نكسة اخرى في عامى ١٩٤٥ - ١٩٤٦ اعقبها ارتفاع مفاجئ آخر .

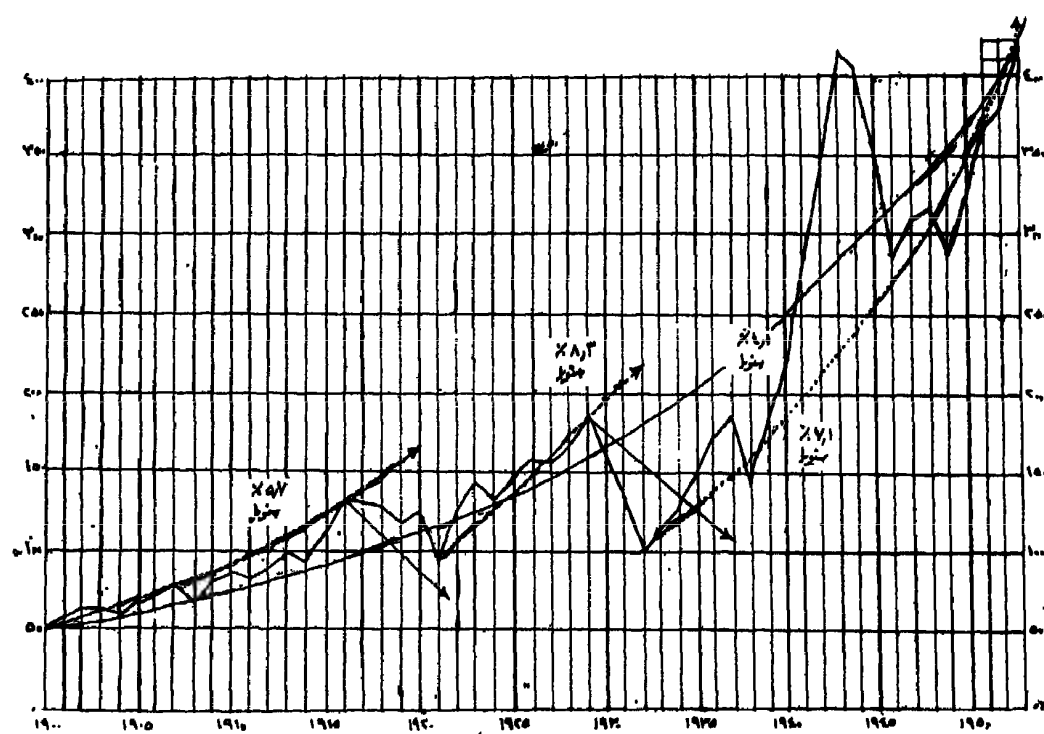


معدلات الإنتاج الصناعي في أوربوا في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٣

شكل (١١)



الموارد العالية وعلاقتها بالسكان



معدلات الإنتاج الصناعي في الولايات المتحدة

في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٣

شكل (٣)

وباستثناء بعض التقلبات الطفيفة فإن الانتاج الصناعى فى الولايات المتحدة ارتفع من ١٩٠٠ الى ١٩١٦ - ١٩١٨ بمعدل سنوى بلغ فى المتوسط ٥٧٪ ، وخلال العشرينات ٨٣٪ ، أما الفترة من ١٩٣٢ الى ١٩٤٣ فقد ارتفع بنسبة ٨٤٪ وفى الفترة من ١٩٤٦ الى ١٩٥٣ ارتفع بمعدل ٥٧٪ . وقد شهدت الصناعة الامريكية خلال السنوات الثلاث والخمسين الاولى من هذا القرن ٤٣ سنة من التوسع والنمو وعشر سنوات من الانكماش والتقلص ، وقد بلغ معدل النمو فى سنوات الاتساع والتقدم نحو ٧٪ سنوياً وإذا استبعدنا التقلبات بسبب الحرب العالمية الثانية واعتبرنا الفترة ( ٣٢ ، ١٩٣٣ ) فترة واحدة كما هو موضح فى شكل ( ٣ ) فإن معدل النمو فى هذه الفترة يبلغ ٧٪ تماماً وهو نفس معدل النمو لجميع سنوات التوسع الثلاثة والاربعين .

وهكذا كانت انماط النمو الصناعى ، والحاجة الى المواد الخام الصناعية على جانبى شمال المحيط الاطلسى بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٥٣ . وأنه من الصعب ان نجد مثالا واحداً فى أى من المنطقتين كان النمو الصناعى فى زمن السلم يتوقف او يتراجع نتيجة لنقص المواد الخام ، فلم يكن يحدث ذلك الا فى وقت الحرب حين كان الاقتصاد العالمى يتحطم تماماً وكان نقص المواد الاستراتيجية Strategic Materials يتحكم فى نمو الانتاج الصناعى وتوسعه فى بعض الدول .

من المحتمل ان التقدم الاقتصادى فى النصف الثانى من هذا القرن سوف يتم بطريقة اكثر مرونة، ولكن ليس ثمة ما يشير الى ان نمطه العام سوف يختلف عما كان عليه .

ان افتراضنا لنمو حاجة العالم من المواد الخام يفترض بالتالى نمو الانتاج بمعدل يقل فى متوسطه عن معدل نمو الانتاج فى الولايات المتحدة، ولكنه يفوق بقليل معدل نمو الانتاج فى اوربا خلال النصف الاخير المضطرب من هذا القرن . ان ندرة الموارد الطبيعية لن تكون عقبة يستحيل تدليلها بالنسبة لمثل هذا النمط من التنمية الاقتصادية .

### خاتمة :

فى ضوء تجربة الماضى وتنبؤات المستقبل يمكن فيما يبدو ان نستخلص النتائج التالية :

١ - اننا لا نستطيع ان نعرف ما سيكون عليه حجم سكان العالم بعد نصف قرن من الآن ، او حجم احتياجاتهم من الطعام والانتاج الصناعى، أو الوسائل التى سوف يستطيعون بها اشباع تلك الحاجات .

٢ - ان كل ما نستطيع ان نتنبأ به هو ان مطالب العالم من الغذاء والمواد الخام الاخرى سوف تفوق بكثير النمو السكانى ، فاذا اخذنا العالم ككل فسوف نجدانه باستثناء اقاليم معينة، فان التناقض لن يكون بين النمو السريع للسكان وندرة الموارد، ولكنه بين زيادة الطلب وزيادة مطردة من ناحية والتوسع غير الثابت وغير المطرد للانتاج من ناحية اخرى ، فالوسائل الفنية التى فى متناول الجنس البشرى لها قدرة وفعالية عالية ، كما ان منظور النمو فى المستقبل يتجاوز حدود كوكبنا . وعلى حد قول م . ك . بينت M. K. Bennett فان الحروب والقومية الاقتصادية التى تهدف الى تحقيق الاكتفاء الذاتى ، وليست التكنولوجيا وتضخم السكان او الموارد الطبيعية المحدودة هى العقبات التى يحتمل ان تقف فى وجه التقدم الاقتصادى . ويقول آخر اعم فان التناقض يقوم بين عبقرية الانسان فى الامور الفنية وعجزه عن تنظيم حياته السياسية بطريقة تمكنه من ان يستمتع بشمار انجازاته التكنولوجية . ان السياق ليس بين النمو السكانى والموارد الطبيعية ، ولكنه بين التكنولوجيا والسياسة بالمعنى الارسطوطالى لهذا الاصطلاح .



## طبيعة الإنسان

### زكريا فني

#### طبيعة الإنسان الزوجية :

ان انتماء الإنسان الى المملكة الحيوانية يجعله مرتبطا ، من ناحية سلالاته التطورية ، ارتباطا مباشرا بالكائنات الحية الأخرى ، وغير مباشر بالمادة اللا حية . ولكن حياة الإنسان كما نعرفها اليوم بعيدة عن أصولها المنبثقة من عالمي الأحياء وغير الأحياء ، الى درجة أنها تثير مشكلات لا توجد في بقية الخليقة . فعلى حين ان الإنسان حيوان ، فمن الواضح انه حيوان غير عادي تنفرد حياته بميزات لا نظير لها . وعلينا في هذا المقال ان نضع نصب أعيننا دائما هذين الجانبين المتناقضين من طبيعة الإنسان ، أولهما :

#### صفاته الحيوانية ، وإنسانية حياته .

ان تعرفنا على الإنسان عندما نصادفه ، سواء في الوثائق القديمة او الأماكن النائية ، ليس مشكلة . ومع ذلك فان كل معرفتنا الحالية لا تمكننا من ان نحدد على وجه الدقة تلك الخصائص التي ادت بالإنسان الى أن يكون مخلوقا فريدا لا نظير له . فكل ما لديه من صفات وراثية او تطورية توجد لها نظائر ، ولو بصورة مبسطة ، في الصور الأدنى من الأحياء . صحيح أن قدرة الإنسان على المشي منتصبا ، وتحرر طرفيه الأماميين من أجل استخدام اليدين ، وتقاطع مجالي بصره ،

التي تتميز بها الطبيعة البشرية ، والتي اتاحت للانسان ان يكون له تاريخ .

ان حياة الانسان هي نتاج القوى الاجتماعية والثقافية التي صنعت التاريخ . فضلا عن ذلك فان تاريخ كل شخص يضم ماضيه التطوري وتجاربه البيولوجية الخاصة . كما ان العوامل البيئية التي تؤثر في الصفات البيولوجية للأفراد الذين يعيشون في ظلها تؤثر تأثيرا عميقا في تاريخ كل جماعة اجتماعية . فالانسان ، من ناحية ، يبدو مجموعة شديدة التعقيد من المواد العضوية التي تتشابه في تركيبها وخواصها الاساسية مع المواد الموجودة في جميع الكائنات الحية الاخرى ، بل في المادة غير الحية . ولهذا السبب ، يمكن دراسة جسم الانسان من حيث هو آلة تخضع تركيباتها وآلياتها لقوانين الفيزياء والكيمياء . ولكن الانسان ، من ناحية اخرى ، يتمثل على صورة كائن عضوي معقد ، يتجاوب مع بيئته على نحو فريد لا يمكن تفسيره بسهولة بواسطة الظواهر الملاحظة في المادة اللاحية ، او في بقية الانواع المنتمية الى عالم الاحياء . ذلك لان ما يتحكم في استجابات الانسان ليس هو التأثيرات المباشرة للمثيرات او المنبهات الخارجية على بنيانه الجسدي ، بقدر ما هو التفسير الرمزي الخاص الذي يفسر به كل شخص هذه المثيرات او المنبهات . صحيح ان النماذج والرموز التي يعمل عن طريقها العقل البشري مستمدة من العالم الخارجي ، ولكنها تكتسب في النهاية حياة ذاتية مستقلة الى حد كبير عن اصلها الفعلي .

وهكذا فان طبيعة الانسان تشتمل على جانبين مختلفين الى حد كبير ، ولكن كلا منهما مكمل للآخر . فمعظم خصائص آلة الجسم مشاع بين جميع الافراد المنتمين الى نوع

وقدرته على الابصار بالعينين معا ، وكبر قشرة مخه ، وطول فترة طفولته ، كل هذه صفات بيولوجية هامة تميز الانسان . ولكن هذه الصفات ليست تجديدات بيولوجية خاصة بالنوع البشري وحده ، بل هي مجرد صور مبالغ فيها لاتجاهات تتمثل في كل القردة .

ومن جهة اخرى ، فان صنع الادوات ، والتنظيم الاجتماعي ، والاتصال بالافراد الاخرين المنتمين الى الجماعة ، واكتساب السلوك المكتسب بالتعلم ونقله الى الاخرين - كل هذه مهارات لم يكن من الممكن بدونها ان يظل النوع الانساني باقيا ، ومع ذلك فهي توجد ايضا ، بقدر معين ، في انواع مختلفة من الحيوانات الأدنى . بل ان صفات عقلية معقدة مثل القدرة على تكوين تصورات ، والفيرة ، تظهر في صورة بدائية بين الحيوانات العليا . وصحيح ان الانسان لا يمكن ان يصل الى التطور الكامل الا عن طريق الارتباط باناس آخرين ، ولكن الحاجة الى الاتصال الفعال والانضمام الى الجماعة توجد ايضا في صورة غريزية بين الحيوانات العليا ، وهي ، في هذه الحيوانات ، تكاد تكون اولية بنفس القدر الذي تكون عليه الدوافع البيولوجية الاخرى .

ومجمل القول ان ما يتميز به الانسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية ، بقدر ما صنعه من هذه الصفات . فهو يختلف اساسا عن جميع انواع الحيوانات الاخرى بفضل منجزاته التراكمية عبر الوف الاجيال . ومن هذه الزاوية نجد ان الفيلسوف الاسباني اورتيجا اى جاسيه Ortega y Gasset كان على حق الى حد بعيد حين قال : « ليس للانسان طبيعة .. بل تاريخ فقط » ، ولكن هذا القول لا يعدو ، لسوء الحظ ، ان يكون ترديدا لنفس المشكلة بالفاظ اخرى ، اذ اننا سنظل بعد ذلك نود معرفة تلك الخصائص

واحد اثناء العصور الجيولوجية عن طريق سلسلة طويلة ومعقدة من عمليات تبادل التأثير (التغذية المرتدة) Feedback . وبالمثل فان بل كائن بشري يكتسب في الوقت الحاضر جزءا كبيرا من شخصيته عن طريق استجاباته للبيئة الكلية ، وخاصة اثناء السنوات الاولى التي تتشكل فيها حياته . ومن هنا ، فان طبيعة الانسان لا يمكن وصفها وصفا كاملا من خلال صفات سكونية ثابتة ، بل يمكن فهمها على احسن وجه بوصفها مظهرا لردود افعال على مؤثرات تعرض لها الانسان اثناء ماضيه التطوري ، وخلال تجاربه السابقة .

وعندما تستخدم كلمة التطور بالنسبة الى الانماط الحية فانها يمكن ان تشير الى ظواهر شديدة الاختلاف ، مثل : النمو الجسمي والعقلي لكل شخص على حدة ، والتحول الدارويني للأنواع البيولوجية ، والتغيرات المطردة للبناءات الاجتماعية والاقتصادية . في جميع هذه الحالات يدل التطور على دور العوامل البيئية في تشكيل النظام البيولوجي او الاجتماعي على المدى البعيد ، نتيجة للتعليم المكتسب من التجربة عادة . على ان عملية التغير هذه لا تحدث الا عن طريق مجموعة مختلفة من الاليات التي لا يجمع بينها الا انقليل من السمات المشتركة .

وحتى لو بحثنا المشكلة من وجهة نظر بيولوجية صرفة ، فان الاختلافات التي تظهر في الكائنات العضوية الحية تندرج تحت فئتين متميزتين : الطفرات الوراثية ، التي تؤثر في جوهر المادة الوراثية الموجودة في الكروموسومات ، والتغيرات الظاهرية ، التي لا تغير التركيب الوراثي بل تنشأ من استجابات الكائن العضوي كله للعوامل البيئية . وبمقتضى الصياغة التقليدية للنظرية الداروينية الجديدة ، فان الطفرات الوراثية وانتخاب أو انتقاء البيئة

« الانسان العاقل » Homo Sapiens وتكاد تطابق خصائص القردة العليا ، اى انه يمكن دراستها بنجاح بواسطة المناهج التقليدية الخاصة بالعلوم الطبيعية . ولكن كل شخص يتميز ، في نفس الوقت ، بخصائص مستمدة من تجاربه ونشاطاته الخاصة ، وهي سمات ينفرد بها عن جميع الاشخاص الآخرين . هذه الخصائص لا تخضع بسهولة للتحليل العلمي ، لان العلم لا يتعامل على نحو فعال مع الحوادث الفريدة . صحيح انه يمكن صياغة قوانين علمية عامة خاصة بنوع الانسان العاقل ، ولكن هذه القوانين لا تكون كافية على الاطلاق لتفسير تفرد كل فرد من افراد البشر ، او لتفسير منجزاته المنقطعة النظير .

وكما سنؤكد مرارا وتكرارا ، فان من المستحيل تماما تحديد او وصف الصفات البيولوجية التي تميز الانسان العاقل عن الحيوانات الاخرى ، وتميز كل شخص عن جميع الاشخاص الآخرين . ذلك لان الاختلافات الفردية والجماعية دقيقة للغاية ، وتتضمن انماطا معقدة لا تركيبات او وظائف موحدة . فضلا عن ذلك ، فان ايراد قائمة بهذه الاختلافات لا يمكن ان يعطي صورة كاملة للحقيقة . ذلك لان الجنس البشري يختفي باطراد في عملية التحليل ولا يمكن فهمه الا ككل . وهذا ينطبق على الفرد مثلما ينطبق على الجنس البشري سواء بسواء .

ولقد حقق العلماء تقدما مؤكدا نحو تحديد العوامل البيئية التي ادت في الماضي الى تمييز الجنس البشري ، على نحو مطرد ، عن عالم الحيوان ، والتي تسهم اليوم في تفرد كل كائن بشري على حدة . ولتوضيح قوة هذه العوامل، سنبحث في الصفحات التالية كيف تشكلت طبيعة الانسان بفعل البيئة الطبيعية والاجتماعية . ان الادلة الانثروبولوجية تجمال من المرجح ان اسلاف نوع « الانسان العاقل » وكذلك طرائقهم في الحياة ، قد تطورا في آن

نقطة التي ينبغي ان نؤكد هنا هي ان جميع الظواهر التطورية تتضمن عمليات تأثير متبادل (تغذية مرتدة) Feedback بين الكائن العضوى ، وبيئته ، واساليبه فى الحياة .  
**ولعله من المفيد ان نوضح هذا المفهوم بمثلين مأخوذين من عالم الاحياء غير البشرية .**

١ - ان شكل بعض الزهور ملائم تماما للحشرات التي تتغذى عليها والتي تكون ، تبعاً لذلك ، بمثابة ملقحات لها . هذه الدرجة العالية من التلاؤم بين الزهرة والحشرة الملقحة اقتضت بالتأكيد فترات طويلة من التطور استجاب خلالها النبات للمثير الذى اثارته اعضاء التغذية الخاصة بالحشرة . فزهرة البرسيم مثلاً ، « يبدو » انها طورت صفاتها التشريحية عن طريق « استجابتها » للنحلة اللسانة ، وبالمثل فان زهرة الكرم يبدو انها تطورت نتيجة استجابتها للطائر الطنان . على ان دراسة حفريات النبات والحيوان تشير الى ان التلاؤمات المتبادلة بين الزهور والحشرات او الطيور تنبع من اصول أبعد واشد تعقيداً من ذلك . فالرأى الحديث هو ان الزهور ، وزوارها من الحشرات او الطيور ، قد تطورت فى آن واحد من صور بدائية . وفى المراحل الأولى من تطورها ، كانت قد اصبحت مترابطة بصلات غير قوية قبل ان تصل الى حالتها الراهنة من التطور بوقت طويل . وهكذا فان الحشرات والطيور ربما تكون قد قامت ، اثناء عملية تطوير انماطها السلوكية ، وعاداتها الغذائية واهضاء التغذية الخاصة بها ، بتحديد صفات الزهور التي تتغذى عليها وتلقحها .  
اى ان التلاؤمات ربما تكون قد تطورت عن طريق سلسلة من عمليات التأثير المتبادل (التغذية المرتدة) بين النباتات والحشرات او الطيور الملقحة ، على نحو اشبه بالارجوحة المتوازنة عند منتصفها .

لها تفسر التغيرات المطردة التي تتعرض لها الانواع البيولوجية ، كما تفسر ظهور انواع جديدة ، اما التغيرات الظاهرية فانها لا تؤثر الا فى الكائن العضوى الفرد . على انه اخذ يتضح ان التفاعل بين الكائن العضوى والبيئة اشد تعقيداً بكثير مما تدل عليه هذه الصياغة . وقد اشار الى ذلك عالم الوراثة وادينجتون C. H. Waddington بقوله : « ان انماط السلوك تتحد بالظروف الخارجية من اجل تحديد طبيعة البيئة المؤثرة » .

ومن الحقائق الثابتة ان البيئة لا يمكن ان تقوم بدور العامل المنتخب (الانتقائي) ، وبالتالي لا تتحكم فى التغيرات التطورية ، الا اذا اختار الحيوان ان يبقى فيها ويؤدى وظائفه لفترة تكفي لتكاثره . وبصفة عامة ، فان الحيوان يختار بيئة ما لانه يمكنه ان يتجاوب معها عن طريق تكيفات ظاهرية ناجحة . هذا العرض المبالغ فى تبسيطه لمشكلة على جانب كبير من التعقيد يكفي للاشارة الى ان النظام التطورى يضم مفهومين : فهو لا يشتمل فقط على الطفرات والاضغوط الانتقائية التي تتضمنها الداروينية الجديدة ، بل يشتمل ايضا على العمليات التي تقوم عن طريقها الحيوانات ، وخاصة الانسان ، باختيار وتغيير بيئة بعينها من جميع الامكانات البيئية المتاحة لها .

**هذا الرأى الحديث الخاص بالتطور البيولوجي يبدو من بعض الجوانب انه قائم على فرض «لامارك» الذى لم يعد مقبولا ، والقاتل بان اى شكل مستمر من اشكال النشاط يحدث فى النهاية تغييراً جسيماً او عقلياً مقابلاً ، يمكن ان ينتقل من الوالد الى ذريته . ومما لا شك فيه ان هذا التفسير غير صحيح ، وان التطور البيولوجي يحدث دائماً بواسطة عوامل وراثية وانتخابية . ولكن**

اجتماعي مستقر . وفي النهاية اصبحت  
أنماط السلوكية المميزة لقردة الشمبانزى  
والفوريلا ، والعوامل المحددة لنظامها  
الاجتماعي ، جزءا لا يتجزأ من التكوين الوراثي  
الخاص بكل نوع من هذين النوعين .

لقد كان لامارك يعتقد ان سلوك الكائن  
العضوى يحدد الى حد كبير الحالة البيئية  
التي يتطور فيها والتي تتكيف معها ذريته .  
ومن هنا ، فان النظرية القائلة بأن العادات  
والاذواق الغذائية كان لها اثر فعال في تحديد  
النظام الاجتماعي لقردة الشمبانزى والفوريلا ،  
هذه النظرية تذكرنا بافتراضات لامارك . وكما  
اوضح وادينجتون فان هذا التفسير شبه  
« اللاماركي » لوراثيات الجماعة ليس الا  
امتدادا سبيرنطيقيا للمذهب الدارويني الجديد  
القائل بان التغيرات التطورية تحدث بواسطة  
الطفرات والانتخاب . هذا المفهوم السبيرنطيقى  
يبدو متمشيا مع كثير من الحقائق الخاصة  
بتطور الانسان . وكما سنرى الان ، فان من  
المرجح ان البيئات التي عاش فيها اسلاف  
الانسان اثناء العصر الحجري القديم حددت  
اوجه النشاط التي مارسها هؤلاء الاسلاف ،  
وهذا بدوره ، حدد في النهاية الوراثة  
التي تميز الجنس البشري في الوقت الحاضر .

• • •

#### ماضي الانسان التطوري :

ان أى ملاحظ ، مهما بلغت سطحيته ،  
يمكنه ان يدرك أن الانسان يمت بصلة الى  
الحيوانات الاخرى ، وخاصة القردة العليا ،  
ولكن العلماء يختلفون في تحديدهم الدقيق  
لطبيعة هذه العلاقة . فمعظم البيولوجيين  
يؤثر فيهم ، بطبيعة الحال ، الاستمرار  
والتسلسل الواضح في عالم الاحياء باسره ،  
ويركزون اهتمامهم على جوانب الانسان التي

ب - ويقدم السلوك الاجتماعي لقردة  
الشمبانزى والفوريلا دليلا آخر على تأثير  
الآليات السبيرنطيقية في التطور . ففي البيئة  
الطبيعية ، ينشأ الغابات المستقرة ، التي تعيش  
فيها قردة الشمبانزى ، لا تنتظم هذه القردة  
في أسر ، او مجموعات من الزوجات لقرد  
واحد ، او غيرها من انماط الانظمة الاجتماعية  
المستقرة . بل تتحرك فرادى عبر مساحات  
شاسعة ، في جماعات كثيرة العدد ولكن دون  
ان يقودها قادة ، او تربطها بعضها ببعض  
صلات دائمة . وعلى النقيض من ذلك ، فان  
الفوريلا تعيش في جماعات صغيرة دائمة يبقى  
افراد كل جماعة منها دائما على اتصال بعضها  
ببعض ، ويقودها عادة ذكر كبير فضي الظهر .  
ويعتقد الانثروبولوجي « فيرنون رينولدز »  
Vernon Reynolds الذي قام بملاحظة  
قردة الشمبانزى والفوريلا في الغابات  
الاfrيقية ، بان اختلافات النظام الاجتماعي  
بين هذين النوعين يمكن ارجاعها الى عاداتها  
الغذائية . وعلى حد تعبيره فان قردة  
الشمبانزى تكون « اسعد ما تكون عندما تلتهم  
الفواكه لمدة ساعات في كل مرة وهي على  
ارتفاع عال فوق قمم الأشجار » . ونظرا الى  
انها تعيش اساسا على الفواكه الكبيرة ، فانها  
لا بد ان تتفرق فوق مساحات كبيرة حتى تجد  
ما يكفي لتأكله ، ومن هنا كان نظامها الاجتماعي  
المشتت غير المتماسك . اما قردة الفوريلا فهي ،  
على النقيض من قردة الشمبانزى ، آكلة  
للحشب لا للفاكهة ، اي ان مصادرها الرئيسية  
للغذاء هي السيقان اللينة ، والاوراق والجلود  
واللحاء ، اما الفواكه فانها بالنسبة اليها  
ليست اكثر من اغذية اضافية . ونظرا الى  
انها محاطة دائما بغذاء وفير في بيئتها المدارية  
الخصبة ، فانها يمكن ان تغدق اينما ذهبت  
دون ان تتحرك بعيدا ، ويمكن ان تحتفظ بنظام

الأمريكي « ألفرد كروبر Alfred Kroeber » يعلم تلاميذه أنه حدثت طفرة فاصلة ، أثرت على الأرجح في جزء محدود من قشرة المخ ووهبت أحد أفراد الإنسان القرد القدرة على إيجاد تعميمات من حقائق منفصلة وابتداع رموز ، ومن ثم جعلته أكثر فعالية في التعلم من التجربة وفي توصيل معرفته إلى أفراد جماعته . وبمقتضى هذا القرض فإن الثقافة بدأت بنشاطات إنسان قرد أنعم عليه بمواهب جديدة . وما أن بدأت هذه الثقافة حتى استمرت ، نظريا ، في النمو باطراد كقوة مستقلة عن التطور العضوى .

وهناك عدة أدلة تشير إلى أن نظرية النقطة الفاصلة غير صحيحة أو ناقصة إلى حد كبير على الأقل . فقد أسفر البحث عن بقايا الإنسان الحفرية عن دليل من أقوى الأدلة الداحضة لهذه النظرية . ذلك لأن اكتشاف عدد من الأشكال الحفرية التي تؤلف سلسلة متصلة يجعل من المستحيل وضع حد فاصل بين الإنسان والإنسان على أساس تشريحي . ولما كانت أجسام البشر قد تطورت تدريجيا من شكل لا إنساني شبيه بالقرد إلى شكل الإنسان الحديث ، فإن من الأرجح أن عقل الإنسان قد تطور بالتدرج أيضا ، لا عن طريق طفرة مفاجئة . فضلا عن ذلك ، فإن نظرية النقطة الفاصلة الخاصة بظهور الثقافة كانت تقوم على افتراض يبدو معقولا للوهلة الأولى ولكنه يناقض للحقائق المعروفة . فالواقع أن الافتراض القائل بأن الجوانب الاجتماعية لحياة الإنسان بدأت « بالإنسان العاقل » ، وهو النوع الذى ننتمي إليه ، يناقض كل الأدلة الحديثة التي تشير إلى أن هذه الجوانب كانت موجودة في صورة بدائية في الأسلاف الذين مهدوا لظهور الإنسان .

تكشف أنه نتاج اتجاه تطورى متصل . وهم يعتقدون أن الإنسان والقردة العليا قد تطورا من سلف مشترك في الماضي البعيد ، ولذلك فإنهم يبدون اهتماما بأوجه الشبه في التركيب التشريحي ، والخصائص الفسيولوجية ، وأنماط السلوك الناتجة عن هذا النسب المشترك . وعلى النقيض من ذلك ، فإن علماء الاجتماع وعلماء الأنساب يركزون اهتمامهم على الجوانب الاجتماعية الثقافية من حياة الإنسان ، وهي الجوانب التي فصلت الإنسان عن بقية المخلوقات بل عن القردة العليا ذاتها . فمميزات الإنسان الهامة ، في نظر هؤلاء العلماء هي تلك الصفات والنشاطات التي تجعله مختلفا عن الحيوانات ، لا من حيث الدرجة فقط ، بل من حيث النوع أساسا .

وعندما يقول البيولوجيون أن التطور قد تجاوز ذاته في عملية إنتاج الإنسان ، فإنهم يعترفون بصعوبة المفاهيم التي يستخدمونها في هذا الصدد . ذلك لأن أية محاولة لاثبات الطريقة التي يمكن أن تكون الصفات المميزة للإنسان ، كاستخدام الرموز واللغة أو امتلاك شعور وأخلاق ، قد نشأت بها من تحول تطورى لصفات بيولوجية صرفة ، تقابل دائما بالرفض القاطع . وهكذا اضطر الانثروبولوجيون لكي يفسروا الانقطاع الواضح بين الإنسان والحيوانات ، أن يضموا ، في العشرينات من هذا القرن « نظرية النقطة الفاصلة » . وبمقتضى هذه النظرية - التي أصبحت الآن لا تحظى بتأييد - فإن حادثة مفاجئة في النشوء النوعي للرئيسيات (١) هي التي أعطت البشر الأوائل القدرات اللازمة لتكوين ثقافة . وقد كان الانثروبولوجي

( ١ ) الرئيسيات Primates هي أعلى رتبة من وثبات الثدييات ، وتضم الليمورات lemurs والإنسانيس monkeys والقردة العليا apes والإنسان .

العصر الميوسيني (الأوسط) . ولسوء الحظ، فقد اعقبت ذلك العصر فترة طويلة خالية تماما من الحفريات التي يمكن تحديد زمانها بدقة . ونظرا الى انه لا يوجد حتى الان تعريف بيولوجي محدد للانسان ، فان من المستحيل على أساس المعايير البيولوجية وحدها ، تحديد تاريخ لظهوره ، حتى لو كان هذا التحديد تقريبا . والواقع ان اللجا الوحيد المتاح امامنا هو التعرف على الصفات الشبيهة بصفات الانسان في بقايا ما قبل التاريخ .

لقد كان يعيش في شرق افريقيا الوسطى وجنوب افريقيا ، منذ نحو مليوني عام اثناء العصر البليستوسيني (الأجد) ، نوع من الرئيسيات العليا ، انقرض الان ، يطلق عليه اسم «القرود الجنوبي» *Australopithecus* هذا الحيوان الرئيسي كان يمتلك عددا من السمات توحى بالطابع البشري . ويرى علماء الانثروبولوجيا ان «القرود الجنوبي» كان شبيها بالانسان الى درجة تكفي لتصنيفه بوصفه فرعا قديما من فصيلة البشر *Hominidae* لا بوصفه عضوا في فصيلة القرود *Pongidae* . ويبدو انه كانت توجد في نفس الوقت عدة انواع من انواع القرود الجنوبي ، كانت تختلف من ناحية الحجم وبعض السمات القليلة الاهمية ، ولكنها كانت تشترك كلها في عدد من الصفات المميزة . فتركيب عظامها الحوضية يدل على انه كان يمكنها جميعا ان تمشي منتصبة القامة . كما ان انيابها يظهر بها ذلك الاختزال المميز لانياب الانسان ، الامر الذي يشير الى ان هذه الانياب لم تكن تستخدم في التقطيع والتمزيق على نفس النطاق الواسع الذي كانت تستخدم به في الصور التطورية للقرود الاقدم عهدا . وربما كان التغير في تركيب الانسان مصحوبا بتغير في العادات المعيشية ، وخاصة استخدام

وقد كان الانثروبولوجيون يعتقدون ، حتى وقت قريب ، ان الانسان البدائي جسميا وثقافيا هو الذي اخترع الاسلحة والادوات الاولى ، وارسى قواعد الاشكال الاولى البسيطة للتنظيم الاسرى والاجتماعي . هذا الانسان السابق للانسان الحديث كان يفترض انه يشبهنا اساسا من الناحيتين التشريحية والعقلية . ولكن الادلة الانثروبولوجية الحديثة تشير بقوة الى ان كثيرا من الصفات التي كان ينظر اليها على انها مميزة للانسان انما ترجع الى تاريخ سابق لتاريخ «الانسان العاقل» ، بعدة مئات الألوف من السنين . ويبدو ان السلوك البشري ظهر تدريجيا من طرق حياة الاسلاف الذين مهدوا لظهور الانسان . والواقع ان هذه المخلوقات المبكرة تختلف عنا ليس فقط في العقل ، والسلوك ، والنظام الاجتماعي ، بل ايضا في التركيب ، وهذا الاختلاف كبير الى درجة اننا ما كنا لنجرؤ على ادعاء انهم بشر مثلنا لو انهم كانوا موجودين اليوم . وقد كان مخ اسلاف الانسان هذا بصفة خاصة اصفر كثيرا من مخنا .

وينبغي ان نعترف بان اي قول يتعلق بظهور الانسان انما هو قول تخميني على احسن الاحوال . ذلك لان البقايا الحفرية الخاصة بطلائع الانسان العاقل نادرة وغير كاملة الى درجة لا بد معها ، اذا كنا نتوقع ربط هذه البقايا في سلسلة نسب متصلة ، من احلال الخيال في كثير من الاحيان محل المعرفة الفعلية . على ان هناك حقيقة واحدة مؤكدة على الاقل . تلك هي ان الانسان لم ينشأ من احد القرود العليا الموجودة اليوم ، بل هو ، على احسن الفروض ، احد ابناء عمومتهما الابدعين . وعلى قدر ما يمكن التقدير ، فان خط التطور الذي نشأ منه الانسان انشق من خط القرود الاول منذ وقت بعيد يرجع الى

وهناك هوة سحيقة بين البقايا الحفرية التي وجدت في موقع « أولدوفاي » بشرق أفريقيا (الانواع المختلفة من « القرد الجنوبي » و « الانسان البار » ) ، وبين حفريات الانواع المختلفة التي يطلق عليها اجمالا اسم « الانسان المنتصب » ، والتي ينظر اليها بصفة عامة على انها اسلاف مباشرة للانسان ، وان لم يكن ذلك رأيا يتفق عليه الجميع . ويبدو الاختلاف بينها واضحا بصورة خاصة فيما يتعلق بالمشي . فسعة تجويف منق القردة الجنوبية كانت لا تزال في الحدود الخاصة بالقردة العادية ، ويبدو ، فضلا عن ذلك ، ان المناطق الجدارية والجدارية الصدفية لامخاها كانت ضعيفة النمو . ولهذا الاكتشاف اهمية خاصة اذا عرفنا ان هذه المناطق هي التي تضطلع بعملية ابتداء الرموز . والواقع ان القدرة على وضع الرموز هي اكثر الصفات تميزا للانسان ، لانها قامت بالدور الاكبر في تطوير ثقافته .

وقد كانت عدة سلالات من « الانسان المنتصب » تعيش اثناء العصر البليستوسيني الاوسط ، منذ مليون عام تقريبا . وقد اطلق على بقاياها الحفرية ، التي وجدت في اجزاء مختلفة من آسيا وريما في اوروبا ايضا ، اسماء مختلفة مثل : « الانسان القرد » ( *Pithecanthropus* ) و « انسان الصين » ( *Sinanthropus* ) و « انسان الاطلسي » ( *Atlantropus* ) . وكانت امخاها اكبر ، واسنانها اصغر باستمرار من امخاخ واسنان « القرد الجنوبي » . بل الاهم من ذلك ان اقدم دليل على استخدام النار والسيطرة عليها ، وهو على الأرجح اول عمل تكنولوجي رائع انجزه الانسان ، وجد مصاحبا لبقايا « الانسان المنتصب » في الصين ( انسان بكين )

الادوات . فقد وجدت في احدى طبقات « أولدوفاي Olduvai » الشهيرة في شرق أفريقيا بالقرب من بقايا حفرية للقرد الجنوبي أدوات ركيكة الصنع يقدر عمرها بمليون وثلاثة ارباع المليون من السنين . على ان احتواء هذه الطبقة ايضا على بقايا شكل آخر معاصر للقرد الجنوبي ، انما يلقي الى حد ما ظللا من الغموض على مغزى هذا الكشف . ولما كان هذا الشكل الآخر اشبه الى حد ما من الناحية الجسدية بالانسان الحديث ، فانه يعرف باسم « الانسان البار » *Homo habilis* ، والواقع ان عددا كبيرا من الانثروبولوجيين يشكون في ان القرد الجنوبي كان حقا سلفا مباشرا للانسان ، وينظرون اليه على انه خط جانبي للتطور اختفي في نهاية الامر . وربما كان « الانسان البار » قد تطور تدريجيا الى « الانسان المنتصب *Homo erectus* » ثم الى « الانسان العاقل » . ولكن هذا ، ايضا ، موضع شك .

والواقع ان عبارات : « القرد الجنوبي » او « الانسان البار » او « الانسان المنتصب » مضللة الى حد ما ، لانها تدل ضمنا على انواع محددة انحدر منها « الانسان العاقل » في خط مباشر . على ان الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي انه كان يوجد اثناء العصر البليستوسيني عدد كبير من الرئيسيات العليا ، كل منها شبيه بالانسان الى درجة تكفي لان يكون سلفا ممكنا « للانسان العاقل » فهذه الرئيسيات جميعا كان لديها ، على ما يبدو ، بعض الصفات المميزة للانسان : كالوقفة المنتصبة ، والمشي على قدمين ، وامكانية استخدام اليدين في معالجة الاشياء . والنقطة التي ينبغي تأكيدها هنا هي ان انواع الانسان القرد كانت لديها ، على الأرجح ، القدرة على صنع واستخدام أدوات حجرية بدائية منذ وقت بعيد يرجع الى مليوني عام .



ومن ذلك الوقت فصاعدا يمكن التحدث عن الثقافات البشرية الحقيقية . ولقد وجدت في اجزاء مختلفة من اماكن العالم التي جرت عليها عملية التطور التي بلغت اوجها بظهور « الانسان العاقل » انواع مختلفة من الادوات وكثير من المقابر، والتحف والمصنوعات الفنية.

وعلى حين انه لا يزال امامنا ان نتعلم الكثير فيما يتعلق بالمرحلة النهائية لعملية التطور التي بلغت اقصى مداها بظهور الانسان العاقل، فقد اصبح في وسعنا ، خلال العقود الزمنية القليلة الماضية ، ان نصدر حكما عاما على جانب كبير من الاهمية . ذلك الحكم العام هو ان فصيلة البشر اخذت تتخلص من حيوانيتها، وتتخذ الطابع الانساني ابتداء من القرد الجنوبي على وجه الاحتمال ، ومن الانسان المنتصب على وجه اليقين تقريبا . ومن هنا فان هذا التحول بدا قبل وقت طويل من وصول الانسان العاقل الى المظهر المورفولوجي المميز للانسان الحالي ، وخاصة فيما يتعلق بحجم المخ . ومما لا شك فيه ان الانسان سل يتطور جسديا اثناء نفس الفترة التي كان يتطور فيها اساليب الحياة ، التي يمكن ان تؤدي الى ظهور ثقافات انسانية . وعلى قدر ما يمكن التقدير ، فان تطوره الجسدي كان قد تم بحلول الوقت الذي كانت فيه جماعات الانسان العاقل ، التي عاشت في اواخر العصر الحجري القديم قد وطدت الثقافة الكرومانيونية في اوروبا منذ نحو ٣٥.٠٠٠ عام .

وتقول الاساطير ان الانسان الكرومانيوني كان في صورة « سوبرمان » ، اطول واجمل بنيانا ، واكرم محتدا من أي انسان يعيش في الوقت الحاضر . والواقع ان من الصحيح ان عددا كبيرا من الهياكل العظمية التي اخرجت من المقابر ، والتي تخص الانسان الكرومانيوني

وعلى الرغم من انه لا يوجد دليل حفرى يوضح الانتقال بين « الانسان المنتصب » و « الانسان العاقل » ، فان معظم دارسي الانسان القديم يعتقدون ان سلسلة النسب كانت مباشرة ، حتى دون معرفة الخطوات التي أدت من الانسان المنتصب الى الانسان الحقيقي .

وقد أمكن التعرف ، لأول مرة ، على الانسان العاقل في العصر الحجري القديم في صورة السلالات « النياندرثالية » Neanderthal المختلفة . فمند مائة الف عام ، كان بشر نياندرثال موزعين على جزء كبير من اوروبا الغربية ، وانتشروا قطعاً حتى فلسطين وتركستان . وكانوا ، في المتوسط ، اصغر الى حد ما من الانسان الحديث ، كما كانوا يختلفون عنه في عدد قليل آخر من الصفات غير الهامة . فقد كانت جباههم منخفضة ، وعظامهم الجبهية متراجعة ، وحواجبهم كثيفة وبارزة . وعلى الرغم من شكل جماجمهم ، فقد كانت سعة هذه الجماجم كبيرة جدا بالنسبة الى حجم اجسامهم ، اذ كانت تتراوح بين ١٣٠٠ و ١٦٠٠ سم مكعب . ولا يعرف الا القليل عن طريقة حياتهم ، اللهم الا انهم كانوا يدفنون موتاهم ، وهذا دليل على صورة ما من صور الاهتمام بالامور القسوى ، الذي هو بلا شك اصدق صفة بشرية واكثرها غموضا على الاطلاق .

والواقع ان سلالة الانسان العاقل المعروفة باسم « الكرومانيونية » Cro-Magnon وهي معاملة بيولوجيا للانسان الحديث ، عاشت في نفس الوقت الذي عاشت فيه السلالات النياندرثالية . ولاسباب غير معروفة تماما ، قامت هذه السلالة اما بالتخلص من تلك السلالات ، واما باحتوائها عن طريق التزاوج المختلط . وهكذا فان الانسان ، بصفاته التشريحية وملكاته العقلية الحالية ، اصبح وطيذ الاركان منذ نحو مائة الف عام ،

المنطقة الجدارية والجدارية الصدفية للمخ ، وهي تغيرات حدثت في وقت واحد مع استخدام الاسلحة وغيرها من الادوات على نطاق اوسع . ومن المرجح الى حد كبير انه حدثت في نفس الوقت زيادة في تعقيد طرق الحياة ، والنظام الاجتماعي ووسائل الاتصال ، ولكن ليس من الممكن اثبات ذلك على نحو قاطع . ومجمل القول ان في وسعنا افتراض ان تطور اليد ، وزيادة حجم المخ وتعقيده ، وتنوع استخدام الادوات ، وظهور اللغة وانتشار الثقافة البدائية ، كلها حدثت في نفس الوقت واثرت بعضها في بعض .

ولما كان عدد كبير من التغيرات في طبيعة الانسان وطرق حياته قد حدثت في وقت واحد ، وكان مرتبطا بعلاقات متبادلة ، فان من الجدير بالاهتمام ان نعمن الفكر في العمليات الآلية التي ادت الى هذه العلاقات المتبادلة .

ان عملية الولادة ، ربما تكون قد قامت بدور على اكبر جانب من الاهمية في التفاعل المعقد بين التطور الجسدي والثقافي . فقد ادى وضع الانسان القائم الذي اكتسبه بحكم العادة الى زيادة صعوبة عملية الولادة عن طريق تغيير تركيب الحوض . وفضلا عن ذلك فان اللغة والثقافة اوجدتا ضغطا انتقائيا ساعد على زيادة تعقيد المخ وزيادة حجم الراس تبعا لذلك ، مما جعل الولادة اصعب . واغلب الظن انه نتج عن ذلك اتجاه نحو طرد الجنين قبل اكتمال نموه الى حد ما ، وهذا بدوره ادى الى فترة اطول من الطفولة التي لا حول لها ولا قوة . والواقع ان الولادة في مرحلة مبكرة من النمو ليست وفقا على الانسان . فالكيسيات Marsupials تولد اقل نضجا من جميع الثدييات التي تحمل صغارا احياء . كذلك فان فترة الحمل في الانسان اطول منها في الرئيسيات الاخرى . ومع ذلك فان الولادة المبكرة نسبيا كانت ذات اهمية خاصة فيما يتعلق بالتطور

تشير الى ان طول هذا الانسان في الحالة الحية كان اكثر من ستة اقدام ، ولكن هذه القامة الفارهة لم تكن القامدة . وربما لم يكن الرجال الطوال اكثر شيوعا بينهم وبيننا . والامر المؤكد هو ان الثقافة الكرومانيونية كانت على درجة عالية من التطور . فقد كان الناس في ذلك العهد يدفنون موتاهم ، في وضع جائم احيانا ، ويزينونهم بالاخضبة والحلي المختلفة . وتضم بعض مدافنهم اشياء مستوردة من اماكن بعيدة ، مما يدل على انه كانت توجد تجارة وطيدة حتى في ذلك العهد القديم .

وقد اعلن تقرير روسي في عام ١٩٦٥ عن اكتشاف هيكل عظمي بالقرب من موسكو عمره ٣٥٠٠٠ عام ، وكان هذا الهيكل مرتديا سروالا وقميصا من الفرو ، ومزينا بخرز وسوار من عاج الماموث ( فيل قديم بائد ) ، وكانت اليدين مستقرتين معا عند الخصر ، كما كانت المقبرة مكتظة بانواع مختلفة من الادوات . فمما لا شك فيه ، اذن ، ان الانسان الكرومانيوني كان منشغلا بالمستقبل ، وأنه اكتسب احدى الصفات المميزة للانسان الحديث والضرورية لنمو الحضارة . والواقع ان كثيرا من الصور الملونة والرسومات والنقوش ، والتماثيل المنحوتة الموجودة في اجزاء كثيرة من اوروبا الجنوبية والمعروفة عامة باسم فن الكهوف تنسب عادة الى الانسان الكرومانيوني . واذا كانت هذه النسبة صحيحة ، فان هذه الاعمال الفنية تثبت ان قدرات هذا الانسان الفنية بلغت مستوى رفيعا ، كما تشير بقوة الى انه شارك في طقوس دينية معقدة ، وهذا دليل آخر على قلقه على المستقبل وانشغاله به .

وتبين الحفريات انه حدثت اثناء المراحل الاخيرة للتطور الذي اوجد الانسان العاقل ، تغيرات على جانب كبير من السرعة في حجم

التي كانت تمارسها الجماعة في التخطيط للصيد وممارسته صفات جديدة خاصة بالقيادة ، ومهارات جديدة خاصة بالاتصال . وهكذا اوجدت هذه الاحتياجات الاجتماعية ضغطا انتقائيا لتطوير قدرات عقلية جديدة . كذلك قامت ، ربما بعد ذلك بوقت قصير ، صور بدائية من الفن والدين ، وحدث تراكم منظم للتجربة والمعرفة ، وهو طليمة العلم ، وكان لهذا كله دوره في تطوير العمليات العصبية وتكاملها . وبالتدريج ، انتخبت انفع الصفات وادمجت في الجبلية الوراثة . وبازدياد حجم المخ ظهرت انماط جديدة من ردود الفعل تشكلت بحيث تلائم طرق الحياة ، ومن الناحية المقابلة تطورت طرق الحياة بدورها عندما اصبح المخ ووظائفه اكثر تلاؤما معها وعندما ازداد تعقيده . وفي مرحلة متأخرة من تطور الانسان ، بدأت الآليات الاجتماعية تلحق بالآليات الوراثة في تحويل حياة الانسان وتغييرها . وكما سنرى فيما بعد ، فان هذا النمط اللاماركي للتطور ربما كان اهم الآن من التطور الوراثي الدارويني في تطوير المجتمعات البشرية .

ومن هنا ، فان الوظائف « العليا » للمخ البشرى ربما تكون قد نشأت من تحولات تركيبية ووظائفية مطردة اسفرت عن نظام سمح بتكيف الانسان الفسيولوجي والسلوكي مع ثقافته . وهذا التكيف لا يمكن ، بالضرورة ، ان يكون كاملا ، لان الثقافة تتغير باستمرار . على ان الامر الذى يكاد يكون مؤكدا هو ان العناصر المختلفة لثقافة الانسان ضرورية الآن ليس فقط لبقائه ، بل ايضا لظهور قدراته الكامنة . والواقع ان البشرية ظهرت في عملية خلق الثقافة ذاتها ، واصبحت معتمدة على العالم الجديد الذى اوجده هذه العملية ، ومنذ ذلك الوقت ، اصبح عالم الثقافة يؤلف البيئة الطبيعية لحياة الانسان .

الاجتماعي للجنس البشرى ، لانها ادت الى تعريض الطفل للتأثير الاجتماعي الذى تمارسه عليه امه ومشيرته اثناء الفترة التى يكون فيها ، على وجه التحديد ، قابلا للتشكل الى اقصى حد . وفي هذه الظروف الملائمة ، تتاح للاطفال فرصة مثلى لمعرفة انماط السلوك المكتسبة بالتعلم ، ويكون بوسعهم استيعاب التراث الثقافي غير الموروث الخاص بمجتمعهم ، ثم نقله فيما بعد . كذلك فان الحاجة الى فترة اطول لرعاية الاطفال ربما تكون قد ادت الى ارتباط اطول بين الاب والام ، وبذلك تكون قد اسهمت بطريقة غير مباشرة في نمو البناء الاسرى والاجتماعي وتطوره .

كذلك يمكننا ان نورد مثلا آخر لسمة ثقافية كانت لها نتائج تشريحية ، هي استخدام الأدوات . فمن المعقول ان نتصور ان اول مخلوق من اسلاف الانسان التقط حجرا واستخدمه كسلاح او اداة ربما يكون قد بدأ عهدا جديدا في التطور ، اذ ربما تكون قد نشأت من هذه البداية الاولى القدرة المتزايدة على استخدام الأسلحة والأدوات وصنعها في نهاية الامر ، مما اكسب الانسان ميزة انتقائية . وعلى هذا الاساس يجوز ان يكون المخ واللغة قد تطورا كرد فعل لاختراع واستخدام الأسلحة والأدوات ، اى ان هذه الانواع الاخيرة من النشاط ربما كانت قد تحكمت في تشكيل المخ واللغة معا . كذلك ادى الضغط الانتقائي الى تهيئة الطريقة المناسبة لتوجيه عملية ادماج المهارات الجسدية والعقلية في الجبلية الوراثة .

كذلك ربما تكون عمليات رد فعل ( تغذية مرتدة ) تطورية مشابهة قد ادت الى تطور البناء الاسرى واساليب ممارسة الصيد الجماعي قبل حدوث تغيرات جسدية وتنظيم انماط رد الفعل . فعندما بدأ الانسان القديم في اضافة صيد الحيوانات الكبيرة الى صيد الحيوانات الصغيرة ، اقتضت زيادة حجم وتعقيد الانشطة

يمكن أن تشغل صورتان مختلفتان من صور الحياة نفس المكان في السلسلة . ولما كان البشر يمكن تقسيمهم الى عدة سلالات على اساس صفات خارجية واضحة ، فانه يبدو من الضروري أن نخصص لهذه السلالات اماكن مختلفة في السلسلة ، ومن ثم نضعها في مراتب تتدرج من الأدنى الى الأعلى ، كما حدث بالنسبة الى الحيوانات . هذا التصنيف للسلالات البشرية سلم به مقدما معظم بيولوجي القرن الثامن عشر ، بما فيهم « ليناوس Linnaeus » المصنف العظيم ، وما زال عدد كبير من الناس يسلمون به على نطاق الحوادث المفجعة المرتبطة بمشكلة التفرقة العنصرية في جميع أرجاء العالم . ولكن المفهوم الأنثروبولوجي للسلالات العنصرية ، وهو مفهوم قائم على تميزات وراثية وبيوكيميائية ، يكون أساساً مشروعاً للبحث الأنثروبولوجي .

• • •

### العوامل البيولوجية والنفسية الاجتماعية المؤثرة في تطور الإنسان :

كلما ازداد الحيوان تطوراً ، قلت أمكانيته التنبؤ بأنماط سلوكه واستجاباته لمثيرات البيئة . ومن السهل نسبياً تفسير الصعوبة المتزايدة في قابلية التنبؤ في أنواع تصل حتى مرتبة الثدييات الدنيا ، لأن ظهور آليات عصبية جديدة تصحبه عادة حرية أكبر . ولكن من الصعب أن نهتدي في تشرح المخ الى سبب نسر الحرية الكبيرة التي تتجلى في الثدييات العليا ، وبخاصة في الإنسان . ومن هنا فان بحث الآليات التي حقق عن طريقها اسلاف الإنسان في التطور مزيداً من الاستقلال عن القوى الخارجية باطراد قد يكون اتجاهاً نافعا في بحث التعريف البيولوجي لنوع « الإنسان العاقل » .

لقد كان نوع « الإنسان العاقل » ، منذ خمسين ألف سنة ، منتشرًا في معظم أرجاء المناطق دون المدارية للقارئين الاورويية والاسيوية ، بل لقد توغل شمالاً في الاجزاء المعتدلة من اوروبا وشرقي آسيا . وقد أدت التكيفات التشريحية والفسيولوجية والثقافية بصفة خاصة ، الى تمكين الإنسان ، لأول مرة ، من الوجود في مناطق ذات شتاء قارس . . والارجح أن سلالات الإنسان الحديث كما نعرفها اليوم بينياتها والوانها وسخناتها المميزة ، انما تمثل تكيفات متأخرة وثنائية لنوع « الإنسان العاقل » عندما استعمر العالم في نهاية العصر الجليدي .

ومن المؤكد ان منح الإنسان الحديث وعملياته الذهنية الأساسية تشكلاً في وقت مبكر اثناء العصر الجليدي ، بحيث استمدت المؤثرات التي شكلتها من التفاعل بين المراحل الأخيرة لتطوره البيولوجي ، والمراحل الأولى لتطوره الثقافي . هذه المؤثرات تكون اذن الأساس العام الذي ظهر منه التركيب الوراثي الاساسي للجنس البشري وتقاليدته الثقافية . اما التكيفات الثانوية التي اوجدت السلالات البشرية المختلفة فانها لم تحدث الا بعد انمام عمليات التشكيل الأساسية الخاصة بالتطور التشريحي ، والعصبي والثقافي .

واذا كان هذا الفرض صحيحاً ، فانه يفسر ذلك التجانس البيولوجي والنفساني العجيب السائد بين البشر بالرغم من الفحوات البيئية والاجتماعية التي فصلت سلالات الإنسان منذ العصور الحجرية القديمة . كما انه يفسر السبب في أن الطفل المنتمي الى جماعة متخلفة ثقافياً لا يلبث ، اذا ما احتضنته في بداية حياته جماعة اكثر تقدماً من الناحية الثقافية ، ان يتطبع بالصفات السلوكية المميزة للمجتمع الذي احتضنه .

ولعلنا نتذكر ان من المبادئ التي كانت تقوم عليها فكرة سلسلة الوجود الكبرى انه لا

اصبحوا قواد جماعات الصيد . هؤلاء الرجال حققوا سيادتهم على الجماعة بفضل قدرتهم على اتخاذ مواقف عدوانية حاسمة ، وقد ترتب على ذلك انه اصبح في امكانهم الاتصال بالنساء بسهولة اكبر ، وهذا نمط ملاحظ بين الرئيسيات التي تعيش في ظروف طبيعية وكذلك بين بعض الجماعات البشرية البدائية .

ومن المهم ان نلاحظ في هذا الصدد انه على حين ان الافراد الذين يقودون مجموعات الرئيسيات التي تعيش في بيئاتها الطبيعية يتميزون عادة بانواع معينة من الصفات « العقلية » ، فانه ليس من الضروري ان يكونوا اضخم الافراد او اقواهم من الناحية الجسدية . ونظرا الى ان ما ينطبق اليوم على الرئيسيات كان ينطبق على الارجح على الانسان القديم ، فانه يمكن الافتراض بان الصفات العقلية المرتبطة بالزعامة اكتسبت اهمية متزايدة بمرور الوقت ومنحت اصحابها ميزة انتقائية في عملية المنافسة التناسلية . وربما تكون ممارسة الزواج بعدد من الزوجات قد ادت الى تسهيل عملية الادماج الوراثي لهذه الصفات في القبيلة ، وربما يكون هذا قد ادى بدوره الى زيادة سرعة تطور المخ بدرجة اكبر .

وتواصل النظرية تقديم حججها ، فتقول : ان زيادة القدرات العقلية في الجماعة ادت في النهاية الى زيادة تعقيد البناء الاجتماعي ، والى نتيجة ثانوية هي حلول الزواج بزوجة واحدة ، تدريجيا محل الزواج بعدد من الزوجات . وقد ادى حدوث هذا التغير الاجتماعي بطبيعة الحال ، الى خفض معدل التطور الوراثي . كما ان المؤسسات الاجتماعية نفسها اصبحت تقوم بدور في آليات النشاط القبلي اهم من الدور الذي تقوم به صفات كل زعيم على حدة . ونتيجة لذلك ، اصبحت زعامة اصحاب الواهب العقلية اقل وضوحا وقل ، تبعا لذلك ، تأثيرهم في التكاثر الانتقائي .

ولو امكن الاعتماد على التفسير الحالي للاكتشافات الانثروبولوجية ( وهو امر ما زال غير مضمون على الاطلاق ) ، فان الانسان يكون قد اتم تطوره التشريحي منذ نحو خمسين ألف سنة ، اي ان جسم الانسان ومخه ظل اساسا ، من ناحية التركيب والحجم ، على ما كانا عليه منذ ذلك الحين . وعلى النقيض من ذلك ، فان ظروف حياة الانسان قد تغيرت تغيرا عميقا خلال تلك الفترة ، وتواصل تغيرها بمعدل متزايد السرعة . ومن هنا فانه لا بد ، لتفسير التاريخ البيولوجي للجنس البشري ، من التوفيق بين ظاهرتين متباينتين تبدوان متناقضتين لاول وهلة . فمن ناحية ، نجد ان التطور العضوي لنوع « الانسان العاقل » وهو تطور يتم عن طريق عمليات وراثية ، قد وصل الى حالة توقف تقريبا . ومن ناحية اخرى نجد ان التطور الاجتماعي مستمر ، على نحو يكاد يكون مستقلا عن التغيرات التي تحدث في الجبهة الوراثية .

**والواقع ان استقرار التكوين الوراثي لنوع « الانسان العاقل » ظاهرة لها من الاهمية ما جعل الانثروبولوجيين يلجأون الى عدد هائل من التخمينات لتفسيرها . ولكنهم يتفقون جميعا على ان الآليات الاجتماعية قد حلت الآن ، نتيجة تطور المخ ، محل الآليات الوراثية بوصفها اهم مظاهر حياة الانسان . كما انهم يعترفون جميعا بمدى ضالة الفرصة المتاحة حاليا لمزيد من التطور العضوي .**

وترجع نظرية من اوسع النظريات انتشارا توقف التغيرات العضوية الى وقت متأخر في العصر الحجري القديم ، وهو الوقت الذي اصبحت فيه الانسان صيادا . وتقوم هذه النظرية على افتراض معقول ، هو ان الرجال الذين كانوا يتصفون باكبر قدر من اليقظة والتنبيه

على الانسان نفسه . وذلك لان التغيرات في ظروف الحياة يمكن ان تؤدي بسرعة ، بل انها تؤدي بالفعل ، الى حدوث تغيرات تشريحية وفسولوجية ، بل يمكن ان تغير التركيب الوراثي لجماعة ما في مدى اجيال قليلة. ويشهد على ذلك الاختفاء المطرد لجينة الخلايا المنجلية (٢) بين الزنوج الذين يعيشون في امريكا الشمالية ، وانتشار جينة البورفيريا (٣) Porphyrria بين البيض في جنوب افريقيا .

**والنقطة التي نضعها تحت البحث هنا هي ان العوامل الاجتماعية الثقافية اهم الآن بكثير من العوامل الوراثية في التأثير على المجتمعات البشرية .** ولقد كانت هذه العوامل الثقافية في ذهن « هيربرت سبنسر » عندما استخدم عبارة « **التطور فوق العضوى** » Superorganic evolution للإشارة الى التغيرات المطردة في الحكومات او البنوك وفي جميع المؤسسات الاجتماعية بصفة اعم .

وقد أجرى سير جوليان هكسلي احد احفاد « توماس ه . هكسلي » دامية الداروينية في القرن التاسع عشر ، مقارنات عديدة بين دور كل من العوامل البيولوجية والعوامل النفسية الاجتماعية في حياة الانسان . وفيما يلي فقرات تتعلق بهذا الموضوع مقتبسة من محاضرة القاها سير جوليان عام ١٩٦٠ في هيئة الاذاعة البريطانية ، تناقش ظهور الحياة والعقل بوصفهما مظهرين خاصين لعملية تطور كونية اعم :

**« أننا نعتقد الآن عن ثقة ان عالم الواقع**

ويزعم بعض الانثروبولوجيين ان عملية تعدد الزوجات ، وانتخاب الامخاخ الاكبر حجما اخذت تفر من وقت مبكر يرجع الى المرحلة النياندرتالية . ويقولون ان الرجال ذوى الامخاخ الكبيرة لم يعودوا ، منذ ذلك الوقت ، يتفوقون تناسليا على اقربانهم ذوى الامخاخ الاصغر . ولكن هناك انثروبولوجيين آخرين يخالفون هذا الرأي ، ويشيرون الى استمرار انتشار تعدد الزوجات وارتفاع خصوبة الزعماء في بعض الجماعات البشرية المعاصرة . وقد ذكر تقرير نشر منذ وقت قريب ان زعيما واحدا لقبيلة هندية تعيش في احرش البرازيل كان ابا لربع الاطفال المائة في الجيل التالي . والواقع ان اختلاف الرأي بين المتخصصين في هذا الموضوع وغيره من الموضوعات المتعلقة به يوضح مدى التخبط الذى لا يزال يلزمنا. في بحثنا عن تلك العوامل الانتخابية التي عملت في الماضي على اىصال حجم منح الانسان الحديث. وذكائه الى مستواهما الحالي .

وعلى الرغم من ان التخمينات الخاصة بمنشأ الانسان ومنشأ طرق حياته لا يمكن دعمها بأدلة قاطعة فانه ليس امام الانثروبولوجيين من خيار الا التخمين في محاولة تفسير كيفية حلول الآليات الاجتماعية تدريجيا محل الآليات البيولوجية بوصفها العامل الرئيسى للتغير في حياة الانسان. ولعلنا نلاحظ ان اهتمامنا هنا منصب على حياة الانسان لا

( ٢ ) تتميز خلايا الدم الحمراء في بعض جماعات الزنوج بصفات خاصة تجعلها تبدو في صورة مناجل او أهلة عند معالجتها بطرق خاصة ورؤيتها تحت المجهر . ولذلك تعرف باسم « الخلايا المنجلية » Sick cells ويؤدي وجود هذه الخلايا الى اصابة حامليها بنوع من الانيميا يطلق عليه اسم انيميا الخلايا المنجلية ، ولكنها تقيم الاصابة بالملاريا .

( ٣ ) مرض وراثي يتجلى في الظروف العادية في صورة امراض عصبية خفيفة وانسكابات دموية بسيطة تحدث بقا ارجوائية تحت الجلد . ولكن المصاب بهذا المرض يمكن ان يتعرض لردود فعل عنيفة قد تقضي الى الموت وذلك اذا تعاطى بعض العقاقير الحديثة : كالسلفا والباربيتورات .

وصولا الى الله ، وهي فكرة صاغها الأب اليسوعي « تيار شاردين » Teilhard de Chardin منذ عشرين عاما ، وشرحها في كتابه « ظاهرة الانسان » The Phenomenon of the Man فلا عربة اذن ان تكون المقدمة التي كتبها سير جوليان هكسلي لكتاب « تيار » مقدمة مفعمة بالحرارة والحماس . وقد اكد في هذه المقدمة قدرة الانسان الاجتماعي على التخلص ، في حدود ، من قبضة قوى الانتخاب الطبيعي ، ومن ثم اكتساب القدرة على التحكم في تطوره الخاص . وقد عبر هكسلي عن آراء مشابهة أثناء الاحتفالات التي اقيمت في عام ١٩٥٩ احياء للذكرى المئوية لنشر كتاب داروين « اصل الانواع » :-

« ان اكتساب الانسان آلية ثانية ، اسمى واعلى من آلية الكروموسومات والجينات ، من اجل ضمان الاستمرار والتغير التطوري معا ، وهي آلة تقوم على قدرته على التفكير التصوري والتكلم بلغة رمزية ، مكنته من اجتياز الحاجز الذي وضعته القيود البيولوجية ، ودخول ميادين الوجود النفسي الاجتماعي ، وهي ميادين بكر لم تطرق من قبل . . والواقع ان التطور في المرحلة النفسية الاجتماعية ثقافة في المحل الاول : اعني انه يتجلى غالبا في صورة تغيرات في الثقافات الانسانية ، لا في الاجسام البشرية او المركبات الوراثية البشرية المعقدة . ( لا يخفى بالطبع انني استخدم الثقافة بمعناها الانثروبولوجي والاجتماعي الواسع لتشمل الفن واللغة ، والدين والنظام الاجتماعي ، وكذلك الثقافة المادية ) » .

وعلى حين ان معظم البيولوجيين يوافقون على الاتجاه العام لآراء سير جوليان هكسلي ، فان بعضهم يتساءل عن الحكمة في استخدام نفس الكلمة ، وهي التطور ، للدلالة على نوعي التغيرات : تلك التي تحدثها العمليات الوراثية ، وتلك التي تحدثها العمليات الاجتماعية . ذلك لان المادة المتكاثرة ذاتيا

برمته عملية تطور هائلة واحدة . هذه العملية تحدث جدة وتنوعا متزايدين ، وانماطا من التكون العضوي ارقى باستمرار ، وفي اماكن قليلة اوجدت الحياة ، وفي عدد قليل من اماكن الحياة هذه ، اوجدت العقل والوعي .

« هذه العملية التي تحدث على نطاق الكون بأسره تنقسم الى ثلاث مراحل او اقسام ، كل منها له طريقته الخاصة في العمل ، ومعدله الخاص في التغير ونوعه الخاص من النتائج . وفي معظم ارجاء الكون ، تكون هذه العملية في المرحلة اللاحية او اللاعضوية . اما في الارض ( وفي بعض كواكب الشمس الأخرى بلا شك ) فانها في المرحلة العضوية او البيولوجية . هذه المرحلة تعمل عن طريق الانتخاب الطبيعي وادت الى ايجاد مجموعة شديدة التنوع من الحيوانات والنباتات ، بعضها بلغ درجة مذهلة من التنظيم العضوي ( مثل اجسامنا او مستعمرة النمل ) كما ادت الى ظهور العقل .

« واخيرا دخل الانسان ( وربما عدد قليل من الكائنات العضوية الأخرى في اماكن أخرى ) المرحلة الانسانية ، او ما يمكن ان نسميه بالمرحلة النفسية الاجتماعية ، وهي مرحلة تقوم على تراكم المعرفة وتنظيم التجربة . هذه المرحلة تعمل اساسا عن طريق اختيار واع للافكار والاهداف وتحدث تغييرا سريعا للغاية . ويكون التطور في هذه المرحلة ثقافيا اساسا ، لا وراثيا ، اي انه لا يعود يتركز فقط على البقاء ، بل يوجه بصورة متزايدة نحو تحقيق الذات ورفع مستوى الانجاز » .

والواقع ان عبارة « ان عالم الواقع برمته عملية تطور هائلة واحدة » كما جاءت على لسان هكسلي ، تتفق الى حد كبير مع فكرة الخلق التطوري المتدرج من المادة الى الانسان

الاجتماع يميلون الى الاعتقاد بأن الانسان قد افلت من قبضة القوى البيولوجية . . ولكن الحقيقة ، كما سوف نرى فيما بعد ، هي ان القوى البيولوجية لا تزال تؤثر بعمق في معظم جوانب حياة الانسان الفردية والاجتماعية . فضلا عن ذلك ، فان بعض الاختلافات بين الاشخاص الموهوبين والاشخاص العاديين تقوم ، قطعا ، على أساس وراثي . وينبغي ان نذكر ان افكار وافعال عدد قليل من الاشخاص غير العاديين هي التي حققت اعظم التقدم في تاريخ البشرية ، اعني ان طاقاتهم الهائلة هي التي وجهت جمهرة الناس . والواقع ان التاريخ هو ، جزئيا على الاقل ، حصيلة قوى حركتها الجبلية الوراثة المتميزة الخاصة بعدد قليل من المجددين المتدمجين .

ان الاختلافات النظرية بين القوى البيولوجية والقوى النفسية الاجتماعية المحدثة للتغيرات في حياة الانسان تؤدي الى نتائج عملية كبيرة . فالتغيرات التي تحدثها الآليات الوراثة تكشف عادة ببطء ، ولكنها تكون دائمة ، وتكاد تبدو في كثير من الاحيان غير قابلة للارتداد . وعلى النقيض من ذلك ، فان التغيرات التي تحدثها الآليات النفسية الاجتماعية تطابق نمط التطور اللاماركي : اعني ان المعرفة والمهارات التي يكتسبها جيل ما تنقل مباشرة الى الجيل التالي ، ولكنها لا تدوم الا طالما ظلت الظروف ملائمة لنقلها المباشر ، اى ان ما يكتسب عن طريقها في جيل يمكن ان يفقد تماما في الجيل التالي . والواقع ان التاريخ والتجربة اليومية يوضحان ، على نحو مرير ، ان الدوافع البدائية التي كانت تحرك انسان العصر الحجري القديم يمكن ، في كثير من ظروف الشدة ، ان تخترق بسهولة قشرة الحضارة ، ويرجع ذلك ، على وجه التحديد ، الى ان الحياة المتحضرة نشأت اساسا من تغيرات نفسية اجتماعية ، لا من تطور عضوي .

( التطور البيولوجي ) والعقل المتكاثر ذاتيا ( التطور الثقافي ) يتطوران من طريق عمليات تبلغ من الاختلاف حدا يبدو معه ان كلا منهما يستحق تسمية خاصة به . وعندما يستخدم البيولوجيون كلمة التطور دون تمييزها بصفة اخرى فانها لا تشير ، بمقتضى الاستخدام العلمي الحالي ، الا الى عملية وراثية داروينية تنطوي على تغيرات مطردة للجبلية الوراثة التي تتضمنها الجينات . وعلى النقيض من ذلك ، فان التطور الثقافي يدل على كل الحقائق والادهام ، والقواعد والطقوس ، والمعرفة والفهم الذي يحكم الحياة الاجتماعية . ويتم تراكم جميع جوانب تجربة الانسان الشاملة هذه وكذلك تعديلها ونقلها ، بتوسط آليات اجتماعية تزداد استقلالاً باطراد عن جبلته الوراثة .

ولكن على الرغم من كل ما يمكن ان يقوله المتزعمون بحرفية اللفظ ، فإني عبارتي **التطور النفسي الاجتماعي « والتطور الثقافي »** اصبحنا الآن جزءا من اللغة العلمية وان كانتنا تشير ان الى آليات متميزة عن الآليات الفاعلة في التطور العضوي . ومما يزيد المشكلة تعقيدا ، ان هناك قدرا من الاعتماد المتبادل بين التطور البيولوجي والتطور النفسي الاجتماعي ، اذ ان هاتين الآليتين المنفصلتين المحدثتين للتغير ترتبطان بواسطة عمليات تأثير متبادل ( تغذية مرتدة ) . فعندما تقوم المجتمعات البشرية بتغيير بيئتها وطرق حياتها عن طريق آليات ثقافية ، فانها تخلق في نفس الوقت ظروفًا جديدة تهيب ميزة انتخابية لبعض الصفات البيولوجية المميزة للبشر . ذلك لانه على الرغم من ان التطور النفسي الاجتماعي يحدث الى حد كبير من خلال آليات لا ماركسية غير وراثية ، فانه يكاد يسفر جتما عن شيء من التطور الدارويني الوراثة .

والواقع ان تأثير القوى الثقافية في اوجه نشاط الانسان من الوضوح بحيث جعل علماء



المراحل الأولى بعد الولادة يمكن ان تؤثر في كل صفة تقريبا ، ابتداء من الاحتياجات الغذائية والمظهر المورفولوجي حتى القدرة على التعلم والاتجاهات العاطفية . فضلا عن ذلك فان نتائج المؤثرات المبكرة تصبح متأصلة في التركيب البيولوجي الى درجة انها تستمر في كثير من الاحيان ، وربما دائما ، طوال فترة الحياة كلها .

وقد كان للدراسات التشريحية المقارنة التي اجريت على اعضاء مختلفة في اوقات مختلفة بعد الحمل وبعد الولادة فضل كبير في تفسير التأثيرات العميقة، الدائمة والغريبة في كثير من الاحيان ، التي تمارسها العوامل البيئية في الكائن العضوى المتطور . فائناء الشهرين الاولين من الحياة الجنينية ، تتعرض البيضة المخصبة لأكثر تغيراتها حسما ، اذ تتمايز خلاياها في انسجة متخصصة كالعضل او الاعصاب ( التنسج Histogenesis ) ويتميز الكل المتجانس اصلا في مناطق متخصصة كالرأس او الذراعين ( التمنطق regionalization ) وفي نفس الوقت تتشكل كل منطقة في شكل محدد ( التشكل Morphogenesis ) وعلى الرغم من ان عملية التشكل تستمر حتى البلوغ فان التغيرات الرئيسية تتم خلال الشهور الثلاثة الاولى من الحياة داخل الرحم . وفي ذلك الوقت ، يكون الجنين قد اتخذ مظهرا طفوليا يمكن التعرف عليه .

هذا العرض المبسط للتمايز اثناء التطور الجنيني يساعد في معرفة السبب الذي من اجله يؤدي نقص التغذية ، والتعرض للمواد السامة ، وغيرها من الصعوبات الاخرى التي تتعرض لها الام اثناء المراحل الاولى من الحمل ، الى عيوب ولادية وصور اخرى من صور الخروج عن الحالة السوية ، لا تظهر الا في وقت لاحق من الحياة . والواقع ان التشوهات المبكرة التي تصيب الجنين نادرا

### الماضي التجريبي والاجتماعي :

جميع البشر لهم ، اساسا ، نفس التركيب التشريحي ، ويؤدون وظائفهم من خلال نفس الانشطة الكيميائية ، وتتجلى فيهم نفس المظاهر الفسيولوجية ، وتدفعهم نفس الدوافع البيولوجية . ومع ذلك فانه لا يوجد كائنان بشريان متشابهان . ومن هنا فان معرفة الصفات التي يشترك فيها البشر جميعا لا تكفي لتفسير الطريقة التي تظهر بها لكل شخص خصائصه المميزة ، وتؤدي الى سلوكه على النحو الذي يسلكه .

وفيما عدا الحالة الاستثنائية الخاصة بالتوائم المتماثلين التي يتم فيها انجاب اكثر من طفل واحد ، فان الافراد يختلفون في تركيبهم الوراثي . ولا يقل عن ذلك في الاهمية ان الصفات المميزة لكل كائن بشري على حدة تتشكل باستمرار ، وتتغير بواسطة العوامل البيئية . هذه العوامل تختلف دائما باختلاف الزمن ، وتختلف من مكان الى آخر ، ولا تكون ابدا واحدة ، بالنسبة الى اى شخصين مختلفين . بل ان التوائم المتماثلين انفسهم لا يجمع بينهم شبه كبير عند البلوغ اذا ما نشئوا كل منهم في بيئة مختلفة .

وقد دعمت دراسات حديثة الفكرة التي توصل اليها القدماء ، والقاتلة بأن عددا كبيرا من صفات الشخص البالغ ينتج بفعل « مؤثرات مبكرة » اى بفعل العوامل البيئية التي تؤثر في الشخص وهو لم يزل بعد في حالة تطور ونمو ، بل ان هذه المؤثرات التي تشكل الانسان يمكن ان تحدث داخل الرحم ذاته . فعلى الرغم من ان «توائم ديون Dionne » الخمسة كانوا متماثلين بصفة عامة ، وكانوا يعاملون نفس المعاملة بعد الولادة فانه كان يمكن تمييزهم كأفراد منذ البداية الاولى لحياتهم ، ويرجع ذلك على الأرجح الى ان اوضاعهم اثناء حياتهم داخل الرحم اثرت في نموهم على نحو متميز . والواقع ان العوامل التي تؤثر قبل الولادة وفي

ما يمكن اصلاحها اثناء المراحل التالية من النمو .

ولما كانت الانسجة المختلفة ومناطق الجسم المختلفة تنمو بمعدلات مختلفة طوال مرحلة التشكيل ، سواء قبل الولادة او بعدها ، فان هذا يفسر التغيرات التي تحدث في شكل الجسم مع اطراد النمو ، كما انه يكشف عن سبب اختلاف تجاوب الاعضاء المختلفة مع المؤثرات البيئية باختلاف عمرها . ومن الطبيعي ان يكون لتطور المخ اهمية خاصة في هذا الصدد ، وذلك لما له من علاقة مباشرة بمشكلات التعلم والسلوك .

فالمخ يكون ، في وقت مبكر من الحياة الجنينية ، اقرب الى حجمه البالغ ، على اساس الوزن الاجمالي ، من اى عضو آخر من أعضاء الجسم ، ربما باستثناء العين . فعند الولادة يكون المخ قد وصل الى حوالي ٢٥٪ من وزنه عند البلوغ ، وفي سن ستة شهور الى ٥٠٪ تقريبا ، وفي الخامسة الى ٩٠٪ وفي العاشرة الى ٩٥٪ وعلى هذا الاساس فان المخ ينمو في وقت اقصر واسرع من أعضاء الجسم الاخرى . وفضلا عن ذلك فان اجزاء المخ المختلفة لا تتطور في آن واحد ولا تنمو بنفس المعدل . ومن الامور التي لها قدر بالغ من الاهمية ، ان قشرة المخ لا تكون قد نمت ، بحلول وقت الولادة ، الا بمقدار ضئيل جدا .

وعلى الرغم من أن انسجة القشرة المخية ووظائفها تنمو وتتطور باطراد ، فان مناطق كثيرة منها تظل غير مكتملة النمو الى حد كبير في سن الثانية ، بل ان بعضها يبقى غير مكتمل النمو حتى المراهقة . واثناء فترة النمو كلها ، يزداد عدد تفرعات الخلايا المخية كما يزداد احتمال تأثير هذه الخلايا بعضها في بعض عن طريق اتصالها ، وهذه ظاهرة تعرف باسم «التواصل Connectivity» . وعندما نصرف ان جزءا كبيرا من التعلم وتطور

الشخصية يحدث ، على وجه التحديد ، في الوقت الذي تتوطد فيه هذه الاتصالات ، فاننا نستطيع ان ندرك ما للتواصل من اهمية خاصة .

واثناء نمو المخ من صورته الجنينية الاولى الى صورته وقدرته في سن الثانية ، يكون تطور وظيفته مرتبطا ارتباطا وثيقا بمدى اكتمال تركيبه ، واغلب الظن أن هذا الارتباط يستمر طوال الحياة . وقد كشفت تجارب اجريت على الفئران عن انها لا تستطيع اكتساب بعض انماط السلوك الا عندما يبلغ تواصل خلايا قشرتها المخية مستوى معيناً ، بصرف النظر عن العمر الزمني لهذه الفئران . وهناك اسباب وجيهة تدعو الى الاعتقاد بان القدرات العقلية الاعلى تظهر ، في الانسان ايضا ، عندما يتم اكتمال نمو بعض الانسجة او التجمعات الخلوية في جميع ارجاء القشرة . ويرى بعض علماء الاعصاب ان التنبية يمكن ان يؤثر في نضج المخ او زيادة تعقيد العضوى ، وان استخدام خلية ما يمكن فعلا ان يزيد قدرتها على التواصل . وهناك ملاحظة تدعم هذا الراى وهي ان الاسابيع القليلة الاولى من حياة الكائن البشرى يقضى معظمها في تنظيم الادراكات الحسية ، وخاصة احاسيس اللمس والبصر .

فاذا كانت آليات ادراك المنبهات والاستجابة لها تتولد جزئيا على الاقل ، من منبهات قديمة ، وهو امر محتمل ، فان هذا الاحتمال يثير مشكلات محيرة فيما يتعلق بالتفاعلات الطبيعية الكيميائية المحددة التي تنطوى عليها هذه الآليات . وقد افترضت عدة تفاعلات من هذا النوع لتفسير تغيرات المخ التي تؤدي الى التعلم والذاكرة ، ولكن هذه الافتراضات ، على احسن الاحتمالات ، تخمينية الى حد كبير ، وليس في متناول يدنا حتى الآن اسلوب فني يتيح معرفة مزاياها النسبية . ومع ذلك

ما الى تكوين صفات كثيرة مشتركة بين كل افراد الجماعة . ولهذا السبب فان «امرسون» كان على حق الى حد بعيد حين قال : « ان الناس يشبهون معاصريهم اكثر حتى من والديهم » . كذلك تؤثر المؤثرات البيئية في كل شخص بطريقة خاصة حتى عندما تبدو طرق الحياة متجانسة في بيئة تخضع لمعايير موحدة . ذلك لان ما ينفرد به الشخص من تكوين وراثي منقطع النظير يعمل على ايجاد اختلافات في استجابته للمؤثرات البيئية ، ومن ثم على تفرد من حيث النمو العقلي والجسدي . والواقع ان كل شخص منا يعيش ، ان جاز هذا التعبير ، في عالمه الخاص الذي ينفرد به .

ويمكن القول ، بصفة عامة ، ان المؤثرات البيئية تشكل الشخصية عن طريق آليتين مختلفتين . فهي تتحكم ، من ناحية ، في بعض انماط الاستجابة التي تؤثر في جميع مظاهر السلوك . وبالفعل نجد لدى الفسيولوجيين ، وعلماء النفس ، وعلماء الامراض العقلية ، والكتاب ، اوصافا شديدة التنوع ، صاغها كل منهم على طريقته الخاصة ، لاستجابات مكتسبة ، تندرج من سيلان لعاب الكلاب عند سماعها صوت الجرس الى التأثيرات الباثولوجية ( المرضية ) الخاصة بالعقد الفرويدية ، او تذكر اشياء اثارها في الماضي غمس قطعة من الكعك في فنجان شاي .

**اما النوع الثاني من الآليات ، ففيه تسهم المؤثرات البيئية في تشكيل الشخصية عن طريق اعاقه اكتساب خبرات جديدة .** فالمفروض ان استمرار نمو الشخص ذهنيا يقتضي ان يظل متقبلا لمنبهات جديدة ، وحوادث جديدة ، ومواقف جديدة ، غير ان القدرة على ادراك العالم الخارجي باحساس متجدد تقل ، في الواقع ، بصفة عامة ، مع تحكم التجارب والخبرات المتكررة في العقل والحواس .

فان من المعروف ان هناك تغيرات طبيعية كيميائية محددة ترتبط بالتعلم ، والتذكر وغيرها من العمليات العقلية ، وقد اقترب الوقت الذي سوف تصبح فيه آليات التفكير جزءا من البيولوجيا الآلية ، مثلها في ذلك مثل آليات التنفس او الانقباض العضلي ، وعندما تصل المعرفة الى هذه المرحلة فقد يترتب عليها خطر بالغ هو ان يترتب عليها ظهور تكنولوجيا طبية بيوكيميائية تسهل التحكم في الفكر من اجل اغراض سياسية وغيرها .

ويمكن ان يستفيد رجال التربية فائدة كبرى لو انهم عرفوا ما اذا كان نقص الحوافز المنبهة يؤخر او يعوق التنظيم العصبي ، وكذلك لو عرفوا كيف تتأثر تجمعات الخلايا العصبية بفعل المؤثرات المختلفة التي يتعرض لها الانسان في فترات مختلفة من حياته والحالة المثلى بالطبع هي ان تتحكم معرفة خصائص النمو المميزة للجهاز العصبي في طريقة التعليم والاقوات التي يتم فيها تعلم الاشياء المختلفة . ولكن معرفة المخ لا تزال لسوء الحظ ، بعيدة كل البعد عن أن تقدم الينا توجيهها على نحو فعال في وضع البرامج التعليمية .

وهناك من ناحية اخرى أدلة قاطعة تثبت ان النمو العصبي يؤثر فيه الحالة الغذائية ، وعمليات العدوى ، وغيرها من العوامل البيئية المؤثرة في الصحة والمرض . ومن هنا فان بعضا من اكبر مشكلات تطور الانسان يدور حول الظروف الفسيولوجية الخاصة بالتنشئة وكذلك حول البيئة الاجتماعية ، بما فيها كل المؤثرات المبكرة والتجارب التعليمية ذلك لان التأثيرات التي تمارسها هذه الظروف والبيئة في تطور المخ في فترات الحياة المختلفة هي التي تحدد أهميتها بالنسبة الى نمو الانسان وسلوكه .

ومن الطبيعي ان تنزع المؤثرات البيئية السائدة في منطقة جغرافية او جماعة اجتماعية

حياته . والواقع ان من أضخم مشكلات البيولوجيا هو معرفة ما اذا كانت تأثيرات المؤثرات المبكرة غير قابلة للانعكاس حقا ، كما يبدو ظاهرا في التجربة العادية ، او انه يمكن محوها جزئيا ، كما توحى بذلك بضعة تجارب .

فقد كشفت دراسات فسيولوجية كهربية عن ان نشاط العمليات العصبية في المخ مستمر ، اي ان تأثير المنبهات ليس اثاره انسجة عصبية خاملة بقدر ما هو اعطاء شكل للنشاط المستمر بالفعل . ومن المعروف ايضا ان العزلة الطويلة الامد وغيرها من صور الحرمان الحسي تؤدي ، في كثير من الاحيان ، الى انهيار الشخصية على نحو مؤقت يمتد تأثيره بدرجات متفاوتة . هذان الاكتشافان معا يشيران الى انه قد يمكن الاهتمام الى طرق للحيلولة دون « تجمد الشخصية » او لتأخير هذا « التجمد » بحيث لا يعيش جسم الانسان فترة اطول من مرونة ملكاته العقلية . ومن المحزن ان الدليل العملي الوحيد على ان العقل يمكن تشكيله من جديد ، يأتينا من حالات غسيل المخ او حمل الناس على الاعتراف بالذنب السياسي ، وكذلك من بعض صور التحول في العقيدة الدينية - وهذه الصورة الاخيرة أدعى الى الامل بطبيعة الحال .

ان فقدان البراءة اثناء الطفولة امر حتمي ، وهو بالفعل شرط ضروري للنمو العقلي والعاطفي . ومن هنا فان المهم في الواقع هو نوع التجربة التي تفقد عن طريقها البراءة ، فهذا هو الذي يحدد ، بدرجة كبيرة ، خصائص الشخصية البالغة . وهذه الخصائص تنظم ، بدورها ، مدى النمو التالي واتجاهه .

وتزدنا العمليات البيولوجية والسيكولوجية التي يحركها التعامل بين البشر بامثلة اخرى للتأثير البائس العميق الذي يمارسه الماضي على

وهكذا ، فان البشر يدركون العالم ، ويستجيبون له ، لا من خلال المجال الكامل لامكاناتهم الوراثية ، بل فقط من خلال مناطق هذا المجال التي لم تعقها عمليات محبطة والتي ظلت عاملة بفضل المؤثرات البيئية ، وخاصة المبكرة . وتشير كلمة « امكانات » هنا الى النطاق الكامل لجبله الشخص الوراثية ، سواء كانت الصفات التي تتحكم فيها هذه الجبله جسدية أم عقلية . فتجارب الحياة هي التي تقوم بتحديد اي اجزاء هذه الجبله يتجلى في صورة صفات فعالة .

وفي مراحل الحياة التي يكتمل فيها النمو ، تؤدي الاتجاهات التقليدية التي جرى عليها العرف ، في كثير من الاحيان ، الى اعاقه القدرة على تقبل التجارب والخبرات الجديدة ، وهذه نتيجة حتمية للمؤثرات المبكرة . فالطفل بطبيعته ، محب للعب والتجربة . وهو متشوق لاختيار وتجربة ما حوله ، ولا يموقه عرف او تقاليد او صراعات داخلية متضاربة . اما الشخص البالغ ، فانه على النقيض من ذلك ، يركز جهوده على اهداف واعية محدودة ، مضيقا بذلك مجال قابليته لتلقي المؤثرات البيئية . فهو يتغافل ، بطريقة انتقائية ، عن المؤثرات التي يفترض انها ليست ذات فائدة عملية ، وينمّي ، عن قصد ، ادراكا يصل الى اهدافه مباشرة . وعلى الرغم من ان هذا المسلك جائز في توجيه دفء السير في طريق محدد فعلا ، فانه لا يصلح لاستكشاف طرق جديدة ، اذ انه ينزع دائما الى تضيق مجال الحياة .

والواقع ان اتجاه شخصية الانسان الى « التجمد » بتقدم العمر يوحى بشيء من التصلب الوظيفي للقدرة الكامنة على ادخال تغيرات مستمرة على الانطباعات المخترنة في المخ ، وكان هناك قيودا شديدة مفروضة على ما يمكن طبعه في ذهن الشخص خلال فترة

من ذلك ، فقد ظل الانسان اعظم كائن غير متخصص في عالم الاحياء . فمواهبه الطبيعية اقل ، في كثير من النواحي ، من مواهب الانواع الحيوانية الاخرى التي تعيش في الوقت الحاضر . نصره لا يصل الى منطقة الضوء فوق البنفسجي كما يصل بصر النحل ، وسمعه على النقيض من سمع الكلاب والقطط وبعض الحشرات ، لا يمتد الى المجالات الصوتية العليا ، وحاسة الشم عنده ادنى بشكل واضح من حاسة الشم عند الكلاب وغيرها من الثدييات . وباختصار فان كثيرا من انواع الحيوان تفوق الانسان في صفات مثل السرعة ، والقوة البدنية ، ورهافة الاعضاء الحسية ، ودقة الاستجابات ، ومقاومة الضغوط . ولكنه ربما كان يسبقها جميعا في قابليته للتكيف ، وذلك على وجه التحديد ، لانه يبدى قدرا ضئيلا من التخصص البيولوجي . وتشير كل الاحتمالات الى ان قابلية التكيف هذه هي التي يرجع اليها الفضل في تمكن الانسان من الاشتغال بعدد لا حصر له من الاعمال المختلفة ، والاستيطان في عدد كبير من مناطق العالم المختلفة .

وقد كان كبر حجم المخ الانساني ، وخاصة نمو قشرته المخية ، هو العامل الاساسي الذي مكّنه من استغلال امكانياته البيولوجية المتنوعة . والواقع ان مقارنة انواع الحيوانات وضمنها اللافقاريات ، تشير الى ان الاداء السلوكي لهذه الحيوانات له صلة وثيقة بالحجم المطلق لامخاخها . وعلى حين ان زيادة حجم المخ كانت سمة بارزة في تطور البشر ، فان العلاقة بين حجم المخ الفعلي ، وبين مستوى الاداء العقلي ليست واضحة بآية حال في الانسان الحديث . صحيح ان بعضا من اصغر احوام الامخاخ ( اقل من ١٣٠٠ سم<sup>٣</sup> ) قد سجلت لسكان استراليا الاصلين وغيرهم من الشعوب

الانسان الحديث . فنظرا الى ان الانسان تطور كحيوان اجتماعي ، فانه لا يمكن ان ينمو جسديا وعقليا على نحو سليم ، بل لا يمكن ان يبقى سويا لفترة طويلة ، ما لم يرتبط ارتباطا وثيقا بغيره من البشر . وعلى العكس من ذلك ، فان ازدحام الاتصالات الاجتماعية والافراط فيها قد يؤديان الى اثارة بعض أنشطة الانسان الهورمونية ، على نحو مبالغ فيه ، الامر الذي يترتب عليه نتائج غير مستحبة . وبالرغم من ان طبيعة وشدة المثيرات الاجتماعية التي يمكن ان يتعرض لها الشخص دون خطر عليه لها حدود معلومة ، فان هذه الحدود تختلف تبعا لتاريخ هذا الشخص وتاريخ جماعته . والواقع ان استجابات الانسان لبيئته الاجتماعية لا تحكمها ، من الناحيتين الكيفية والكمية ، جبلته الوراثية وتجاربه المبكرة فقط ، بل تحكمها ايضا التقاليد والقيم التي جرى عليها العرف بين الجماعات التي نشأ وعمل فيها . ومن هنا ، فان ماضي الانسان الاجتماعي يتحكم ، حتما ، في طبيعته . فالانسان يسلم عادة بتقاليد جماعته على اساس انها تنطوي على الحقيقة والحق ، بل انه حتى عندما يثور على هذه التقاليد ، فان التقاليد الجديدة التي يحاول ابتداعها تظم دائما كثيرا من الاساليب القديمة وتجعله يظل معتمدا على ماضيه الاجتماعي .



### تفرد الانسان :

لقد اكتسبت الانواع الحيوانية المختلفة ، اثناء تطورها ، درجة عالية من التخصص التشريحي ، والفسيولوجي ، والسلوكي ، واصبحت نتيجة لذلك مرتبطة ببيئات معينة وملتزمة بطرق حياة خاصة . وعلى النقيض

ولقد رأينا من قبل ان الحيوانات تكشف عن وجود عدة مستويات من السلوك التكيفي الاولي : كالتلاؤم البسيط ، والتعلم عن طريق التجربة والخطأ ، والتعلم الواعي المسمى بالتعلم عن طريق الاستبصار ، والذي لا يقوم ، فيما يبدو ، على أساس التجربة والخطأ . كل هذه الصور المختلفة من التعلم تحدث طبيعيا في الانسان . ولكن الانسان يستطيع ، فضلا عن ذلك ان يستعين بعمليات تعليمية اخرى ، اما غير موجودة في الحيوانات واما ضئيلة النمو فيها الى درجة لا يمكن معها التعرف عليها . فهو يستطيع تحويل المعلومات الواقعية الى افكار وكلمات مجردة ، ثم يقوم بعد ذلك بتدبر هذه الافكار والكلمات ، عقليا ، لاستحداث انماط جديدة من السلوك . كما انه يستطيع وضع رموز مجردة واستخدامها عقليا في حالة وجود الموضوعات والادراكات الحسية الاصلية . وقد ساعدته هذه القدرة على التصور في اكتساب نوع المعرفة والسلوك التكيفي الذي احتاج اليه للسيطرة على بيئته .

وقد أدت قدرة الانسان على مد افكاره الى المستقبل البعيد ، وهي صفة من أهم صفاته ، الى اعطائه القوة الدافعة اللازمة للبحث عن مزيد من المعرفة وبذل جهود جديدة لايجاد انماط للتعليم تؤدي الى تحقيق هدف بعيد . والواقع ان العقل البشري لا يكاد يقنع ابدا بالاحوال القائمة ، ويتطلع دائما الى انجاز اعمال اعظم ، او الوصول الى فهم وادراك اكبر . هذه القدرة على السعي والاجتهاد ، على الرغم من كونها قدرة غير واضحة المعالم ، تكون الحد الفاصل بين الانسان والحيوان .

ان بعض العوامل الاجتماعية التي تتحكم في القدرة التعليمية ، وهي عوامل معترف بها بين الرئيسيات العليا ، تبلغ ذروة تطورها في

البداية ، ولكن مدى تفاوت السعة الجمجمية واسع للغاية ، وليست له الا علاقة بسيطة بالقدرة العقلية ، ان كان له بها علاقة على الاطلاق . والارجح ان الاهم من حجم المخ الاجمالي في تفوق الانسان العقلي على الحيوانات هو الزيادة التي حدثت في مناطق مخه العليا التي تطورت منذ عهد قريب . ذلك لان هذه المناطق ترتبط ، على نحو وثيق ، بتطور الثقافة .

ان المخ ، في جميع الحيوانات العليا ، هو العضو الرئيسي للوعي . وله قدرة مذهلة على احداث تكامل بين عدد هائل من عناصر التجربة المنفصلة ، والمختلفة في كثير من الاحيان ، في انماط منظمة ، وهي انماط وتجارب يفطن الكائن العضوي الى كل نوع منها على حدة وعلى نحو متميز . والواقع ان عملية ايجاد تكامل تدريجي مطرد بين مراكز « النشاط العقلي » من اروع سمات التطور ، وهي عملية يبدو انها وصلت الى ذروتها في الانسان . صحيح ان بعض مناطق قشرة مخ الانسان تخصص ، الى حد ما ، في تمثيل المعلومات الحسية المستمدة من أعضاء خاصة ، ومع ذلك ، وبالرغم من أن مسالك المعلومات ومناطق التمثيل المختلفة مستقلة نسبيا ، فان كل شخص يسلم بان له عقلا واحدا لا عدة عقول ، وان هذا العقل هو ، في النهاية ، مقر جميع انواع التجربة والخبرة .

وايا ما كانت الآليات النهائية التي تتضمنها عمليات المخ ، فان اهم اختلاف عقلي بين الانسان والحيوانات هو ان قدرة الانسان على تكوين تصورات ، تصل الى مدى أبعد كثيرا . وربما كانت براعة الانسان القديمة في التصوير ذات اهمية في هذا الصدد ، فقد أدى التصوير الى الكتابة ، وهي انجاز مكنه من نقل وتخيل انطباعات عالمه الداخلي .

بأسره ، أثناء مجرى التطور ، عن طريق عملية توافق رائعة بين تراكيب الكائن العضوى وانماط سلوكه الانعكاسية وبين تفاصيل بيئته . بل ان الكائنات العضوية الدنيا لا بد ايضا ان تتعلم شيئا عن بيئتها وطرق حياتها - فالحشرة يجب ان تتعلم شيئا عن ورقتها ، والطائر عن تفريده - ولكن سلوك الحيوان ، على وجه العموم ، فطرى وتلقائى الى حد كبير . على أن هذا الكمال يكتسب على حساب تضيق مجال الامكانيات التكيفية ، وفضلا عن ذلك فان الحيوانات تتعرض لخطر شديد ، هو عدم التكيف ، اذا ما تغيرت البيئة .

كذلك احتفظ الانسان بعدد من التلقائيات السلوكية كبقايا موروثه تتردد الى ماضيه البعيد ، ولكنه يعتمد اساسا على السلوك المكتسب بالتعلم . وعلى حين ان مجال الامكانيات الناتجة عن هذا السلوك اوسع في الانسان منه في أى حيوان آخر ، فان نوعية الرعاية التي يتلقاها أثناء المراحل المبكرة من حياته تؤثر تأثيرا عميقا في تحقيق هذه الامكانيات . فاذا كانت رعاية الطفل هزيلة وضئيلة ، فانه قد لا يحقق ، عندما يصل الى مرحلة البلوغ الا صورة مشوهة لامكانياته ، سواء من حيث البنيان الجسدى او النمو العقلى .

وقد ظل الاعتقاد سائدا ، منذ زمن بعيد ، بأن اللغة تؤلف اهم صفة تميز ، على نحو مطلق ، بين الانسان والحيوان ، كما ان التجارب ايدت هذا الرأى الشائع المعقول . فقد ثبت ان من المستحيل تعليم التكلم حتى لقردة الشمبانزى ذاتها ، على الرغم مما بلل في ذلك من جهود مضية . على أنه ليس من

الانسان . ومن بين العوامل التي تزيد من دور التعلم فيما يحققه الانسان من منجزات اجتماعية ، الاتجاه البيولوجي الى حمل صغير واحد فقط ، او عدد قليل جدا من الصفار وطول فترة النمو التي يكون فيها الانسان معتمدا على غيره . فترة نمو ما بعد الولادة تزداد من سنتين في الليمورات (٤) ، الى سبع سنوات في النسانيس ، الى احدى عشرة سنة في القردة الكبيرة ، الى عشرين سنة تقريبا في الانسان الحديث . هذا الاتجاه يكون مصحوبا باعتماد اكبر على انماط السلوك المكتسبة بالتعلم ، وهي انماط مخالفة للانماط التلقائية . واذا كان من عيوب انماط السلوك المكتسبة بالتعلم انها تتطلب عادة فترة طويلة من التدريب والتلمذة ، فانها تتصف بميزة هي انها اكثر مرونة واكثر قابلية للتكيف .

واغلب الظن ان عملية التنشئة تبلغ اقصى درجة من التعقيد في نوع « الانسان العاقل » . ويرجع ذلك الى ان الجزء الاكبر من نمو مخ الانسان يتم بعد الولادة . فعلى حين ان النسبة بين وزني مخ البالغ ومخ الوليد في الرئيسيات غير البشرية تبلغ حوالي ١٥ : ١ ، فانها تبلغ في الانسان حوالي ٤ : ١ . بل أن الاعجب من ذلك هو أن نمو وتكاثر التفرعات والتشابكات العصبية يحدث باعداد لا حصر لها بعد الولادة ، عندما يكون الطفل معرضا لتقلبات البيئة . ومن هنا لا نكون قد جانبنا الصواب اذا افترضنا ان تركيب المخ البشرى تحدده الى درجة كبيرة تجارب الحياة التي يتعرض لها الانسان بعد الولادة .

وقد تحقق التكيف ، في عالم الحيوان

( ٤ ) الليمور او الصعور او فرد مبعشر lemur ينتمي الى رتبة الرئيسيات ، ويتميز بخلم كخلم الثعلب وعينين ضخمتين . ويتغذى على العشرات والفواكه والطيور الصغيرة والبيض والسحالي .

الماضي - من كبر منطقة من هذه المناطق كما ينعكس في شكل الجمجمة الداخلي . ومن هنا ، فان دراسة البقايا الحفرية لا تبشر بأمل كبير في اكتشافات مرحلة التطور التي اصبح فيها الكلام ، بصورة قاطعة ، جزءا من جيلة الانسان .

وعلى أية حال ، فان القدرة على الكلام اضيفت على الانسان ميزات لا شك فيها ، وعلى الرغم من ان المجتمعات يمكن ان توجد بلا كلام ، فان الكلام يجعل جميع الوظائف الاجتماعية اكثر فعالية وتنوعا بشكل كبير . ويعتقد كثير من الاثروبولوجيين ان عملية الانتخاب التي ادت الى الكلام فرضها في الواقع على اسلاف الانسان اعتمادهم المتزايد على الأنشطة التعاونية ، وبصفة خاصة حاجتهم الى نقل المعلومات لصنع واستخدام الادوات الى الافراد الآخرين في جماعاتهم . فقد اعتمد التقدم في صنع الادوات واستخدامها على تطور اللغة اللازمة للاتصال ، واصبحت اللغة ، بدورها ، الاداة الحاسمة في تطور الحضارة .

وتزداد أهمية نظام الرموز المستخدم في لغة الانسان كلما بعد الموقف الذي يواجهه الانسان عن التجربة الحسية او الحركية المباشرة . فبعض انواع التفكير المتعلق بالنظام الاجتماعي ، كالاخلاق او المنطق ، مثلا ، لا يكاد من الممكن ممارسته دون لغة رمزية . وقد قيل ان الانسان لا يستطيع ان يفكر ، في معظم انواع المشكلات ، الا فيما يستطيع قوله ، وان مقولات لفته تزوده بمقولات ادراكه الحسي ، وذاكرته ، ومجازه ، وخياله . وعلى حين ان هذا القول مبالغ فيه على الأرجح ، فان مما لا شك فيه ان القدرة على الكلام كانت احد العوامل الحاسمة في تشكيل سلوك الانسان الاجتماعي والثقافي . فضلا عن ذلك ، فان استخدام

السهل تحديد مدلول كلمة اللغة على وجه الدقة . فالنحل يمكن ان يوصل بدقة متناهية الى غيره من النحل موقع مصادر الغذاء البعيدة . والرئيسيات يمكنها تحذير زملائها من الاخطار ، ويمكنها ، على ما يبدو ، حث هؤلاء الزملاء على انتهاج سبل معينة للعمل . وقد يكون الاختلاف الاساسي هو ان طريقة الاتصال بين الحيوانات لا تتضمن تعاملات مع الماضي السحيق او المستقبل البعيد ، اي انها لا تمتد الى الافكار المجردة . فهي لا تشير ، على قدر ما يمكننا ان نحكم ، الا الى الحاضر في الزمان والمكان ، والمموس .

ويتوقف امتلاك اللغة على القدرة على القيام بمجموعة مختلفة من الافعال الرمزية ( وهي الاصوات ، والاشارات ، والكتابة ) . هذه القدرة تطورت في الانسان مع الريادة الهائلة التي حدثت في قدرته التصورية نتيجة لازدياد مخه حجما وتعقيدا . ولكن هذا التفسير لا يتجاوز كثيرا ، لسوء الحظ ، قولنا ان الانسان لديه قشرة مخيه اكثر تطورا من قشرة الحيوانات الاخرى ، ولديه ايضا القدرة على الكلام . وتكفي هنا الاشارة الى ان لغة الانسان قد لا تكون فريدة في أية سمة خاصة . وربما كان تفردا يقوم على ترابط وتكامل عدة سمات توجد على حدة في انواع مختلفة من الحيوانات .

ويتطلب الكلام ، من الناحية الوظيفية ، نشاط عدة مناطق من المخ لاجداث توافق بين المعلومات الواردة والمعلومات المخزنة ، وتحقيق تحكم حركي في الأنشطة العضلية اللازمة للكلام . ونظرا الى ان اكثر من منطقة من مناطق المخ تشترك في عملية الكلام ، فان القدرة على الكلام لا يمكن الاستدلال عليها - على النقيض من الاعتقاد الذي كان سائدا في



اساسية لرفعة شأن الانسان : درجة اعلى من قابلية التغير ، وضع منتصب ، يدان يمكن العمل بهما ، قشرة مخية معقدة ، طول فترة عدم اكتمال النمو وقابلية التعلم ، مهارة في استخدام واختراع الادوات ، كلام رمزي ووسائل اتصال اخرى ، وقدرة على التفكير التصوري والابداع الفني .

وهناك سمات للحياة الاجتماعية تكاد تبدو وقفا على الانسان وحده ، وتمثل حدا فاصلا بين الانسان والرئيسيات العليا ، هذه السمات هي : مقاسمة الطعام مع افراد الأسرة ، والبناء الاسرى المستمر على درجة عالية من التنظيم ، وقواعد السلوك المتعلقة بالمحارم ومزاوجة الغرباء . وعلى الرغم من ان كثيرا من الناس تنقصهم ، بدرجة كبيرة ، واحدة او اخرى من هذه السمات ، بل ان الجنس البشرى يمكنه ان يذهب الى ابعد من هذا ويدعي ان من صفاته الخصوصية قبول القيم الاخلاقية التي تتجاوز نطاق الاحتياجات ، ووعي يسمو على الدهن المحض ، وضمير يقهر المخاوف ، واهتمام بالماضي السحيق ، وقلق على المستقبل البعيد .

وربما كان مفهوم الاخلاق اصعب في تحليله وتعريفه من القدرة على استخدام اللغة الرمزية . ولكن من المؤكد انه يتضمن علاقات مشاركة مع الآخرين ، وهي اتجاهات معقدة حاول مارتن بوبر Martin Buber وصفها في الكلمات التالية :

« ان اعرق نمو للنفس لا يتحقق ، كما يطيب للناس ان يفترضوا اليوم ، في علاقة الانسان بنفسه ، بل في العلاقات بين الواحد والآخر ، اى بين الناس ، اى ، في المقام الاول ، في تبادل الاعتراف بالوجود - اعني في الاعتراف بوجود نفس اخرى ، وفي معرفة ان المرء يوجد

الانسان لنظام رموز مقنن اتاح له المشاركة في قيم تعتمد على الذاكرة ، والفكر ، والشعور ، وهي قيم كان يمكن لولا هذا النظام ان تظل خصوصية ، ان الثقافة الانسانية لا يكاد يمكن تصورها ، في الواقع ، دون لغة .

لقد كان الانثروبولوجيون يميلون ، منذ جيل مضى ، الى تعريف الانسان بأنه حيوان رئيسي يمشي منتصبا وله طرفان اماميان ويدان طليقتان . وتدل كلمات بنجامين فرانكلين السديدة : « ان الانسان حيوان صانع للادوات » على ان علماء ذلك الوقت كانوا يعرفون ايضا ان صفات الانسان تتضمن ما هو اكثر من خصائصه الجسدية . على ان من المعترف به في الوقت الحاضر ان صنع الادوات ليس صفة مميزة ، لان عدة انواع من الحيوان تمتلكها . كذلك لا يمكن تعريف الانسان بقولنا انه يختلف عن الحيوانات لانه يعرف كيف يصمم ويستخدم الادوات لفرض معروف لديه مقدما . والواقع ان اى مقياس واحد للقدرة نحاول بواسطته تمييز الانسان عن الحيوانات - سواء اكان القدرة على الاتصال ، او التعلم من التجربة ، او التعاون ، او حتى التصور وربما التجريد - يثبت بالدليل وجود قدرة مماثلة له في الحيوانات الاخرى .

ومع ذلك ، فمن الواضح ان الانسان يختلف عن الحيوانات الاخرى . ومن سوء الحظ ان القول الوحيد الذى يمكن تقريره موضوعيا في الوقت الحاضر ( ولنلاحظ ان هذا لا يثبت صحة هذا الراى حتما ) هو ان جزءا كبيرا من طابع الانسان الفريد مستمد من مجموعة من الصفات موجودة كلها في انواع الحيوانات الاخرى ، ولكن في حالة غير متطورة فقط في كثير من الاحيان . واليك قائمة بصفات مميزة موجودة الى حد ما في الحيوانات العليا ولكنها

### في ذاته الخاصة بواسطة الآخر - مع تبادل القبول ، والإيجاب ، والتأييد » .

ان حدوث المراحل الأخيرة من التطور البيولوجي للانسان في آن واحد ، مع المراحل الأولى لثقافته يكاد يجعل من المؤكد ان الصفات البيولوجية والثقافية لا يمكن بحثهما على حدة . فليس هناك شيء يمكن تسميته بطبيعة الانسان البيولوجية الصرفة ، ولو ان هذه الطبيعة كانت موجودة لما أمكن الانتفاع بها من الوجهة العملية . فالادوات ، والصيد والزراعة ، والبناء الاسرى والاجتماعي ، بل الدين ، والفن ، والعلم ، كلها قامت بدور في التشكيل الوراثي للانسان على النحو الذي نعرفه اليوم . ونظرا الى أن الانسان يتطور مع ثقافته ، فانه يحتاج الى ثقافة انسانية من اجل بقائه وتأكيد ذاته بنفس القدر الذي يحتاج به الى الطعام والماء . ومن هنا ، ينبغي الا ينظر الى انماط الثقافة على انها مظاهر خارجية لطبيعة الانسان . وكما قال « كلايد كلكهون » Clyde Kluckhohn فان انماط الثقافة تؤلف خططا وتصميمات ترسم معالم حياة الانسان .

**صحيح ان الانسان حيوان ، ولكنه حيوان لديه فترة هائلة على دمج جميع احساساته وادراكاته في نماذج ذات مغزى . وهو حيوان متأمل ومفسر ، ومتشوق الى معرفة ما هو اكثر مما تقع عليه العين في المعطيات المجردة الخاصة بالتجربة . وعن طريق الجمع بين ردود افعاله العقلية وبين الوقائع الفل لتجربته الحسية ، يمكنه التعامل مع بيئته المادية والاجتماعية . وجوهر نشاطه العقلي هو تكوين الرموز واستخدامها كبدايل للحقائق التي تتركها حواسه . وهو يستخدم ذكاءه من اجل ادماج تجارب حياته في ثقافته وبذلك ينقل هذه التجارب من جيل الى جيل عن طريق**

عمليات اجتماعية اسرع واكثر فعالية من العمليات الوراثية . وهو يستطيع ايجاد انواع جديدة من انظمة الخبرة والتجربة التي تكون احجار بناء التطور النفسي الاجتماعي ، كالمفاهيم العلمية والانظمة القانونية والقواعد الاخلاقية والاعمال الفنية .

وبفضل فكرة الذات ، والتأمل الواعي ، وادراك ان البشر فانون ، اكتسب الانسان شعورا بالتاريخ ، وقلقا على المستقبل . هذا القلق دفع الانسان الى تنمية احساس بالقيم يطبقه على انشطته . ويتجلى نظام قيمه في صياغته لاهداف واعية على امل امكن ترجمتها الى افعال . وربما كان اعظم مظاهر تفرد الانسان هو اعتقاده بأنه يمكنه التخطيط للمستقبل ، بل « ينبغي » عليه فعلا ان يكدح من اجل مستقبل يتجاوز نطاق فترة حياته الخاصة .

• • •

### الانسان يصنع نفسه :

لم يطرأ على الانسان ، من الناحية البيولوجية ، سوى تغير طفيف منذ اواخر العصور الحجرية القديمة . فالادوات التي صنعها اثناء هذه العصور لا تزال تناسب ايدينا ، والدوافع القديمة التي شكلت ، لأول مرة ، انشطته القبلية لا تزال تمارس عملها فينا ، والرسومات والمنحوتات الخاصة بفن الكهف وكذلك الاعمال الفنية التي ترمز الى معتقدات ما قبل التاريخ لا تزال تثير عراطفنا . ولكن ، على حين ان نوع « الانسان العاقل » ظل في نفس الصورة اساسا من الناحية الوراثية ، فان مظاهر حياته وبناء مجتمعاته تتغير بلا حدود ، بل ان مفهوم التقدم ذاته يتضمن ان احداث حياة الانسان الاجتماعية



اذ تعبر عن مواقفها ورغباتها من خلال اصوات واوضاع ومشاهد رمزية . وتبني ذكور طيور العرائش الاسترالية مخادع مزخرفة باتقان ، وهي اعشاش غرام لا تستخدم في وضع البيض بل تصمم خصيصا من اجل اغواء الاناث والزواج بهن ، ولذلك فان اقل الذكور وسامة يبنون اكثر المخادع اتقانا وازهاها لونا ، وهذا يمكن ان يكون بمثابة صورة من صور التظاهر الغرض منها رفع شأن ريشهم غير الجميل . وقد اوضح كروبوتكين Kropotkin في كتابه « العون المتبادل ، عامل من عوامل التطور » ، ان الضرورات البيولوجية تؤدي في كثير من الاحيان الى حدوث اتجاهات اجتماعية بين الحيوانات ، وهي اتجاهات تشبه السلوك البشري الغري . وهكذا فان الانسان حيثما نظر فانه يجد ، في مكان ما في عالم الاحياء نماذج تجريبية تحاكي اى مظهر من مظاهر حياة الانسان تقريبا .

ولكن بالرغم من ان النماذج أدوات نافعة وضرورية في التحليل العلمي لمشكلات معينة ، فانها لا يمكن ان تقدم معرفة كاملة بالانسان . ذلك لان النماذج ، التي لا تمثل الطبيعة تمثيلا حقيقيا على الاطلاق ، لا تضىء سوى جانب محدود من جوانب هذه الطبيعة . هذه المحدودية ليست خاصة بدراسة الانسان او غيره من الكائنات العضوية الحية ، بل تنطبق ايضا على عالم اللا احياء . وقد عبر الفيزيائي

لا تتكرر ابدا بنفس الصورة . وعلى حين ان دوام طبيعة الانسان يكمن في التركيب الكيميائي لجبلته الوراثية التي تتحكم في المواد البيولوجية التي يتكون منها جسمه ومخه ، فان التغير في حياة الانسان يأتي من الاستجابات الخلاقة التي يبديها هو ومجتمعاته ازاء تحديات البيئة الكلية . فلكي يعيش الانسان لا بد له من الاستجابة ، ومن ثم تنشيط العمليات المؤدية الى التكيف والتطور الخلاق .

ان الدوافع المميزة للانسان ، كالحاجة الى اللعب ، هي صفات شائعة في الحياة الحيوانية ، كما ان الانماط المختلفة لنشاطه وتنظيمه الاجتماعي - بما فيها الصور المرضية المشوهة لهذه الانماط - تميز المجتمعات الحيوانية الطبيعية والاصطناعية على حد سواء . ويستطيع دارسو السلوك الجنسي للانسان ان يجدوا نماذج لهذا السلوك في الزواج المنفرد عند الجيبون (٥) ، وكذلك في مشاعر الابوة المتسامحة عند الفوريلا ، وفي الخبث الذي تبديه مجموعة الاناث المنتمية الى ذكر واحد عند البابون (٦) ، وفي الهدنة المسلحة بين ذكور الشمبانزى واثانه ، وكذلك في تعدد الزوجات الودى بين نسانيس العالم الجديد (٧) والفوضى الجنسية السائدة بين النسانيس الرئيسة (٨) .

وتلجأ الحيوانات عادة الى كثير من المظاهر السلوكية التي تمثل النمط الشائع في الانسان

( ٥ ) الجيبون gibbon هو اصفر القردة الشبيهة بالانسان التي تضم ايضا الفوريلا والشمبانزى والاورانج

اوتان .

( ٦ ) قرد كبير يعيش على الاشجار ، وينتمي الى قردة العالم القديم ، اذ يعيش في افريقيا وجنوبي آسيا .

( ٧ ) اى نسانيس الامريكيتين .

( ٨ ) نسانس صغير يشيع في الهند ، وجد في دمه عامل ثبت وجوده في دماء ٨٥ ٪ من البشر ، ولذلك اطلق على هذا

العامل اسم العامل الريس rhesus factor وهوام في عمليات نقل الدم .

«يوجين ب. ويجنر» Euhene p. Wigner  
عن هذه الفكرة بمبارات ذات دلالة عميقة ،  
وذلك بمناسبة قبوله جائزة نوبل للفيزياء في  
عام ١٩٦٣. اذ قال :

« . . ان الفيزياء لا تسعى الى تفسير  
الطبيعة . بل ان النجاح الكبير الذي حققته  
الفيزياء انما يرجع في الواقع الى حصر اهدافها  
في نطاق محدود : فهي لا تسعى الا الى تفسير  
أوجه الانتظام في سلوك الاشياء . هذا التخلي  
عن الهدف الأشمل ، وتحديد النطاق الذي  
يمكن السعي من اجل ايجاد تفسير له ، يبدو  
لنا ضرورة واضحة . .

وتعرف أوجه الانتظام السائدة في الظواهر  
التي تحاول العلوم الفيزيائية كشفها باسم  
قوانين الطبيعة . وهذا الاسم مناسب في  
الواقع الى حد كبير . فكما ان القوانين  
الوضعية تنظم الافعال والسلوك في ظروف  
معينة ولكنها لا تحاول تنظيم كل انواع الافعال  
والسلوك ، فان قوانين الفيزياء ايضا لا تحدد  
سلوك موضوعات اهتمامها الا في ظروف معينة  
محددة المعالم على نحو دقيق ، ولكنها تترك ،  
فيما عدا ذلك ، مجالا فسيحا للحرية . .

وعلى الرغم من ان الحرية على النحو الذي  
لنستخدمه هذا الفيزيائي عندما اشار الى  
الجسيمات الأولية معنى يختلف اختلافا كبيرا  
عن معناها عندما تستخدم في شأن الانسان ،  
فان التشبيه ، وان كان شكليا فقط ، يساعد في  
إيضاح السبب الذي لا يمكن من اجله ان تقدم  
المعلومات البيولوجية الواردة في الصفحات  
السابقة صورة كاملة للانسان الحي ، الذي  
يحاول عالم الانسانيات فهمه ويسعى الفنان  
الى التعبير عنه . صحيح ان البيولوجيا  
الكيميائية يمكن ان تصف المواد التي يتكون

منها الانسان ، ولكنها لا تفسر كيف يصبح كل  
شخص على ما هو عليه عن طريق سلسلة  
متصلة من الحوادث والقرارات الشخصية .  
وسوف نقدم فيما يلي بضع ملاحظات تتعلق  
بالفنون التشكيلية القصد منها توضيح الطريقة  
التي تكشف بها قدرة الانسان على الاختيار  
والبت عن وجود حدود لا تتعدها المعرفة  
البيولوجية في قدرتها على ايفساح طبيعة  
الانسان . فالصور الملونة ، والتماثيل ،  
والنقوش ، وغيرها من الاعمال الفنية التي عثر  
عليها في كهوف العصر الحجري القديم لا تدع  
مجالا للشك في ان ملكة التعبير الفني قديمة  
جدا . ولم يظهر على هذه الملكة ، لا في رهافة  
الحس ولا في براعة التصوير تحسن ملحوظ  
على مر السنين العشرين الف الماضية . ومن  
هنا فان المنطق يقنعنا بأن القدرة على الاحساس  
والتصوير تمثل جوانب فسيولوجية عميقة في  
طبيعة الانسان .

واغلب الظن ان الملكة الجمالية ، على النحو  
الذي توجد به في الانسان ، تنبع من صفات  
بيولوجية شبيهة بالصفات التي تجعل  
الحيوانات تقوم بحركات او تبني اعشاشا  
تنطوي على ايقاع وتوافق اصيل . والواقع ان  
كل أنشطة الحيوان والانسان لا بد ان يؤثر  
فيها توالي الدورات الفطرية الذي يحكم  
العمليات الفسيولوجية ، وكذلك النظام السائد  
في انماط الكون . فبعض الالوان تتنافر  
بالنسبة الى بصرنا ، وبعض العناصر الموجودة  
في تصميم معين تبدو لنا غير متناسبة ، وذلك  
عندما تتعارض التجربة المكتسبة منها مع  
مجموعة ما من العلاقات الكامنة في اعضائنا ،  
او مع الايقاعات التي ندركها ، شعوريا او لا  
شعوريا ، في العالم الخارجي ، وعلى النقيض  
من ذلك فاننا نستاء من الطريقة التي يبدو لنا

الانسان ، وهو المخلوق الوحيد الذى يستطيع الاختيار ، والاستبعاد ، والجمع والبث في الامور عن وعي ، ومن ثم يستطيع التحرك نحو هدف مختار يتجاوز نطاق ما هو حاضرا مباشرة في الزمان والمكان .

ومع ازدياد المعرفة الخاصة بطبيعة الانسان البيولوجية دقة واحكاما ، تتفتح فرص للتدبر الواعي في مستقبل الانسان . والواقع ان الانسان يصبح ما يفعله ، وذلك بطريقة تدمج الى الدهشة ، ولكنها في الوقت نفسه حقيقية تماما . فعن طريق عمليات التفدية المرتدة المعقدة التي تحكم جميع مظاهر الحياة ، تقوم طبيعة الانسان البيولوجية بايجاد ثقافته ، وتغير بدورها ، بواسطة هذه الثقافة . ان الانسان قد اصبح على ما هو عليه اليوم لانه ظل يقوم باعمال ثقافية وعقلية طوال الالوف القليلة الماضية من السنين . وسوف يتوقف نوع المخلوق الذى سيصبحه على نوع الانشطة التي يختار الاهتمام بها في حياته . وهو الان يسير مسرعا في طريق اكتساب المعرفة التقنية التي سوف تمكنه من التحكم في عملياته الفسيولوجية والعقلية . بل انه قد يعرف في النهاية كيف يتحكم في تركيبه الوراثي .

**ان قوة الفعل التي ولدها التقدم العلمي الحديث ضخمة الى درجة ان المناقشات التقليدية التي تدور حول المثل العليا للحياة الصالحة اصبحت تنطوي الآن على معنى عملي لم يكن له اى وجود من قبل . وتتوقف الطرق التي يواجه بها البشر اخطار العالم الحديث ، ويستغلون فرصه ، على ما لديهم من معرفة علمية وتكنولوجية ، ولكنها لا تقتصر على ذلك ، بل تتوقف ايضا على المعتقدات التي يؤمنون بها ، والاهداف التي يختارونها . والواقع ان**

بها منظر ، او ملمس او صوت بعض الاشياء وذلك ما لم تكن اعضاؤنا وحواسنا مكونة بحيث تتوافق مع النسب والايقاعات الخاصة بهذه الاشياء . وليس من المهم هنا ان يكون للرضا الذى نحصل عليه عندما تتفاعل حواسنا او اعضاؤنا مع بعض الانماط والمثيرات اساس وراثي صرف ، او ان يكون نتاجا لمؤثرات تكيفية تعرض لها المرء في باكورة حياته ، ولكن المهم هو ان الشعور بالجمال يمكن ان ينبع ويردهر بفضل ملكات فطرية بيولوجية الاصل ، وهي ملكات لا يبدو انه طرا عليها تغير هام منذ العصور الحجرية القديمة .

ولا يعني هذا كله ان القدرة على الادراك والتمثيل تكفي بذاتها لان يخلق الانسان اعمالا فنية ، ذلك لان الخلق الفني يتضمن عوامل خارجة عن نطاق العلوم البيولوجية . فعلى حين ان البشر يستجيبون لبيئتهم من خلال صفاتهم البيولوجية ، فان استجاباتهم هذه لا تكون سلبية ، كما لو كانوا وسائل آلية تقع بين شقي رحي المنبه والاستجابة . بل ان استجابة الفنان ليست آلية او مدفوعة بالرغبة في مواجهة البيئة مواجهة عملية ، وانما هي تؤلف ، على الاصح ، سلوكا تعبيريا ، اعني ان الفنان يستخدم بيئته من اجل تحقيق ذاته وحيانا للتفوق على نفسه .

وهكذا فان عملية الابداع الفني تقدم لنا توضيحا مناسباً لدور الاختيار البشرى في تحديد مسارات العمل الفردية . فالانسان ، الذى تستثيره حاجاته ودوافعه وحوافزه الفطرية ، يستطيع ان يختار من بين الامكانيات المتعددة المتاحة للتعامل مع الطبيعة الخارجية . والواقع ان جميع مظاهر حياة الانسان تهيء فرصا مشابهة للتدخل الفعال من جانب

وذلك ما لم نقرر أهدافا جديدة بمقام الإنسان،  
ونتخذ موقفا في الوقت الحاسم . وهذا مصداق  
لقول « بول تيليتش Paul Tillich » لا  
يصبح الإنسان إنسانا حقا الا في لحظة اتخاذ  
قرار حاسم . هذا النوع من الحرية هو المعيار  
النهائي للإنسانية ، وهو ارفع المعايير شأنا .

مستقبل البشرية يتوقف على قدرة الإنسان  
على اتخاذ قرارات مبنية على معايير اخلاقية  
وجمالية .

اننا - نحن البشر - سوف ننساق بلا  
هدف نحو حالة لا يمكننا فيها الاحتفاظ بتلك  
القيم التي تجعلنا فريدين بين المخلوقات الحية،

★ ★ ★

## رينيه ويج فيلسوف الجمال

### د. ثروت عكاشة

الفلسفة ، فهو يكتب لرواد الثقافة ، ولهذا نجد كتبه وآثاره شاقة عسيرة تتطلب جهدا ذهنيا كبيرا ، غير أنها في الوقت نفسه توسع أفق الانسان الذي يجد في فن التصوير والتطلع الى اللوحات الفنية راحته وأيسه . على أن « رينيه ويج » وهو يقدم أعماله في هذا الإطار لا يتعالى عن الناس ، ولكنه يستهدف مخاطبة الجماهير عن طريق هؤلاء الرواد .

وتقوم فلسفة « رينيه ويج » على أن وظيفة الفن الرئيسية هي خلق الوسيط بين الكون

أن « رينيه ويج » فيلسوف انسان ، آمن بأن الانسان يقوم - خلال فن التصوير - بحوار قيم مع العالم المرئي أو المنظور ، وأنه بتحليل هذا الحوار يمكن الوصول الى فلسفة للفن ، وانتهى بهذا الى أنه لا يمكن الفصل بين الفن وبين الجنس البشرى ، بل انه ليرجح أن الانسان قد وصل الى ذروة الفن وقت أن لم يكن مدركا لماهية محددة للفن .

ولا تنحصر أعمال « رينيه ويج » في ميدان الفن الفسيفسائي . فحسب ، بل هي تتمدد الى

والإنسان ، فالفن يهيء مكان اللقاء بين الواقع المادى للمعوس والواقع الروحي المحسوس ، سواء عن طريق الفن الزخرفى المحض الذى يحاكي الطبيعة ، أو عن طريق الفن الإبداعى الخلاق الذى يسعى الى تفسير الطبيعة .

و «رينيه ويج» صاحب نظرة تكاملية ، ينظر الى الموضوع من خلال ارتباطاته المختلفة بغيره من الموضوعات ، وهو فى الوقت نفسه صاحب عقلية تحليلية ، تعنى بدراسة عناصر الموضوع وجزئياته الدقيقة . واذا كان خطر التخصص البالغ فيه يهدد عصرنا ، لذا فان «رينيه ويج» دون انكار منه لاهمية البحوث الفرعية الضرورية يطمع فى أن تكون لصاحب العقلية التحليلية نظرة شاملة الى « الكل » .

واذا كانت لرنييه ويج القدرة على أن يحرك النشوة فى فكر قرائه فانه يعرف كيف يثير انتباههم ، ويسبج بهم خارج حدود موضوعه الاصلى عبر الافكار الفلسفية والعلمية ، وتاريخ الأدب التى تغنى معارفهم وتزيدهم قدرة على فهم الفكرة الجمالية التى يناقشها .

واذا كان الفنان يرسم اللوحة وهى أولى الخطوات فى هذا الميدان ، والناقد ينتقدتها ان مدحا وان ذما ، فان مؤرخ الفن يأتى فى نزاهة تامة وحياد مطلق كي يضيف الأهمية التاريخية على العمل الفنى ، كما يحلل تأثير الأساندة القدامى والمحدثين فى تكوين هذا العمل الفنى وتشكيله . ومهما كانت العقبات التى تصادف

مؤرخ الفن فى محاولاته فهو لابد وان يلتقى « بالروح » . وهنا يجب أن تتوافر فى هذا المؤرخ ، كى يؤدي مهمته على أتم وجه ، صفات عالم النفس الذى تمكن من فهم الفن عن طريق خبرته بالتجانس بين الفن وعلوم النفس والجنس ووظائف الأعضاء والاحلام والحب والتصوف ، وجولات واسعة حول الزمان والمكان ، كى يحدد الدوافع النفسية التى أدت بالفنان الى أن يرسم مارسمه أو ينحت مانهته ، وبهذا يساعد المتأمل المفتون على أن يكتشف ، بينما هو يتطلع الى العمل الفنى ، الحالة الوجدانية التى كان يعاينها الفنان وهو ينحت لنا عمله الفنى ، وبهذا أيضا تسرى فى الموسيقى والشعر والرقص هذه الوثبة الخلاقة التى يدعونا اليها برجسون والتى ترقى بنا الى القمم ، وتحيطنا بالتأمل الأليف الذى يفتح للفكر والقلب أبواب «المعبد» ، «معبد الجمال» .

وهذا هو مافعله مؤرخ الفن الفيلسوف «رينيه ويج» \*

أما رينيه ويج الإنسان فيكفى ان يؤكد انه الى جانب علمه الغزير المتدفق ، وقدراته الابداعية المبتكرة ، واحساسه المرفه بكل همسة جمال ، وادراكه العميق للروح التى تملى على الفنان مايقدم ، انه الى جانب هذا انسان سخي فى صفات الانسان فيه ، فالذين يعرفونه عن قرب يعرفون انه لم يتغير منذ بدأ يصعد سلم المجد الى أن بلغ ذروته ، وانما اخذ فى تواضعه وبساطته ونزاهته يزداد قربا

\* اهم مؤلفات رينيه ويج

Dialogue avec le visible	(Flammarion)
L'art et L'âme	(Flammarion)
L'art et L'Homme	(Larousse)
Delacroix	(Thomas and Hundson)
Musée du Louvre	(Nouvelles éditions Françaises)
Formes et Forces	(Flammarion)



وحده بل شخصك كله . فانت تتمتع بموهبة تسحر بها الناس حولك ، وحديثك عطاء سمارى يتقبله الانسان كالايمان دون مناقشة . يصفق لك الناس قبل أن تتحرك شفتاك بحديث . أما خصومك - ان كان لك خصوم - فيطلقون على مآدموه نحن سحرا ، براعة ، ذلك أن سحرك يخفى على العقول السوقية . لقد منحك الله هذه الصفات السحرية ، فانت تضيء النفوس وتفرس الحقائق التى تبث المواهب وتؤجج الحياة كلها ، ومع ذلك فان تحليقتك وسط السحب لم يجعلك تباعد عن الأرض » .



سيبقى الدور الجوهري الذى يلعبه الفن على ما كان عليه دائما ، أحد وسائل الانسان للتعبير عن نفسه ، وهذا هو الموضوع الذى ينبرى له رينيه ويج وهو يعرض نظريته في الفن كتعبير عن الروح وكنشاط خلاق يفصح الفنان من خلاله عما يختلج بصدرة . فمضى يحلل وسائل الفنان في نقل مشاعره عن طريق « الخط » الى عناصر قدرته على الإيحاء لليد ، وينتقل الى تحليل « الكتلة والفراغ » وكيف كشفا عن فكر الانسان عن الطبيعة المحيطة به ، ثم يتطرق الى « الضوء » الذى يكشف ويؤكد ويحجب ويضلل ، ومنه الى « اللون » وقوة تعبيره وقدرته على تحريك نفوسنا والترابطات والتداعيات المتعلقة به وقدرته على استحضار الذكريات ، حتى ينتهى الى « موضوعات التصوير » . وبعد هذا يجول رينيه ويج بين الثروات الجمالية المتنوعة ، متجنباً التعميم ، ولذا قدم حالات بعينها قبيح لنا الى أى مدى يكون الفن تعبيرا دقيقا عميقا عن حضارة ما منبثقا من الفكر المتطور الذى يسودها محتويا مثلها ، والى

الى قلوب عارفيه . وان سحر حديثه ليس هو وحده مصدر نجاحه ، وانما لأنه في نفس الوقت يقدم دائما اجابات لتلك التساؤلات العميقة التى يثيرها عصرنا الحالى . ففى هذا العصر - عصر الانسان الموجه والآلة الموجهة والصاروخ الموجه - في هذا العصر الذى يواجه فيه الانسان بالتحدي تصبح ضرورة التمييز بين « الكم » وهى سمة الطابع الآلى ، وبين « الكيف » وهى سمة الطابع الانسانى ؛ حتميه اكثر من أى وقت مضى . واذا كان پرودون قد قال في القرن الثامن عشر « الفن هو الحرية نفسها » فان رينيه ويج قد اضاف الى الفكر ثراء جديدا في القرن العشرين بقوله « الفن والأخلاق معا هما آخر معقل تحتوى فيه القيم البشرية فلا يقهرها قط قانون الحتمية » . ولهذا السبب انتهى الى أن الفن هو المن المقننات ، لأنه ينقل ارادتنا في سبيل الحياة بل ينقل الحياة نفسها ، ذلك لأنه يستخدم تلك الطاقة الجبارة التى تجعل الحياة في ذاتها جديرة بأن نحياها . فالفن اليوم لا يبدو وسط ضخامة التاريخ واحة عامرة بالسكنية والظلال ، ومسلاة لطيفة ، وشريطا جميلا تزين به الحياة ، بل اضحى نشاطا رئيسيا للفكر ، ولم يعد هدفه محاكاة الطبيعة على نهج ديوكسيسيس الاغريقى الذى امتلأ سعادة ونشوة وهو يرقب الطير تنقر في عناد عناقيد العنب التى رسمها في لوحته .

ولست أجد خير ما اختتم به تقديمي لهذه الشخصية المتدفقة بالعلم والذكاء والمواهب ، وشغافية الروح من بعض ماخاطبه به الأستاذ بول ليون يوم أن تقلد سيف أكاديمية الخالدين في باريس : « لقد انطلقت كلماتك المجنحة مبشرا يحوب العالم ، لاعتراضك حدود ، وتستقبلك عواصم العالم القديم والجديد بنفس الترحاب . ليس حديثك هو الرائع

الذى اتبعه ، كما يستعان به على معرفة اللصوص الآخرين ببصمات أصابعهم . وإذا كانت الحال كذلك بالنسبة للصوص الخزائن فمن باب أولى أن يكون الفنان متميزاً عن غيره بميزات تخصه أيا كان مذهبه في التصوير .

قد يلجأ الفنان الى تسجيل ما يراه من أشكال ومشاهد طبيعية ، وعليه حينئذ أن يكبح جماع عواطفه وانفعالاته ، وأن يلتزم بتقديم شبه كبير بين صورته وبين ما تصويره حتى تتلاشى شخصيته في صورته ، تتلاشى شخصية الممثل في دور البطل الذى يؤديه ، ويبعد بذلك عن المؤلف المبدع في خلق شخصياته وصنفها بسماته الذاتية .

ولكنه حين يلجأ الى الإيحاء يتخلى عن المظاهر الحقيقية للأشياء الى حيث يبرز نبضات الحياة العنيفة المستخفية وراءها ، وهو لا يسجل حينئذ الطبيعة بل يضيف عليها روحه . وكانت خطوط ومبرأنت ، أشهر المصورين الايحيائيين ، تجرى على اللوحة وكأنها تلاحق انطبعا معينا قبل أن يغيب ، ففى لوحته التى تصور الشيطان وهو يعرض على المسيح ملكوت العالم ( لوحة ١ ) تتحول الخطوط الوجيزة الصارمة الى اشارات موحية بمعان غير مرئية .

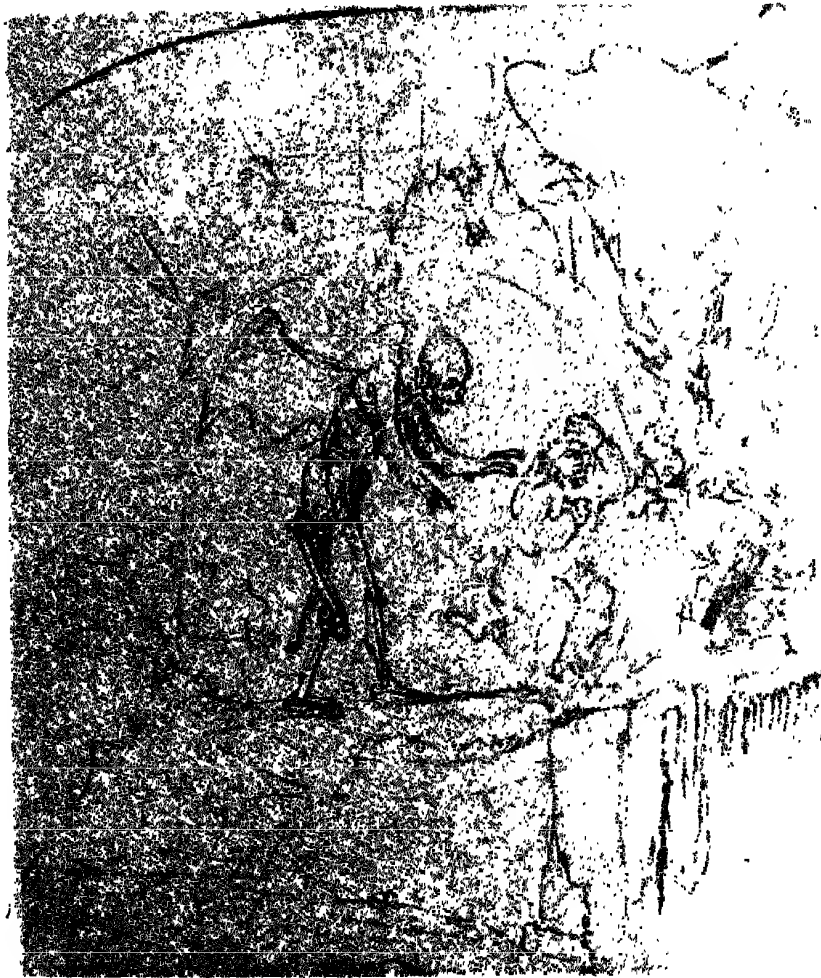
على أن مدى سرعة يد الفنان حين تجمع بين تسجيل نبضاته الانفعالية والعضلية المتمثلة في حركة اليد تخلق ايقاعا يحمل الانطباع الى حس المشاهد ، ويبدو من وراء النموذج المصور وكأنه صرخة يطلقها الفنان محملاً بالعديد من الإيحاءات التى لم يكن يقصدها حين بدأ يرسم لوحته . وقد يلجأ الفنان الى التكوين الهندسي مستغلاً ذكاه وقدرته على التجريد في تحويل الأشكال الطبيعية الى مجموعة من الرموز

أى مدى يعكس التحولات التى تصيب مجتمعا ما وطريقة معيشته .

• • •

## ١ - الرسم واليد

حينما يقف المرء أمام عمل فنى يصور مشهدا من المشاهد يحس في أعماقه بمعان كأنما يهمس بها اليه الفنان الخالق ، ذلك أن العمل الفنى ليس عرضا لأحد مشاهد الطبيعة فحسب ، بل هو كذلك وسيلة تعبير ينقل بها الفنان الى المشاهد خلجات فكره ونبضات حسه . فهو يعبر أحيانا في إحدى اللوحات عن تصوف روحى تعجز عنه الكلمات ، ويسترسل أحيانا في الوصف اما بأسلوب روائى جذاب أو خال من الاثارة ، وما أكثر ما تنبض مشاعره الغامضة في لوحاته فتوحى بالحركة وتفيض بالابهام . ويملك الفنان أسلوبا يتخطى به الأسلوب الشعري والنثرى معا متحدنا الى النفس بصور ورموز لم تعتدها العين ، يستقيها من افوار النفس ليعبر عن حالة شاردة بين اليقظة والحلم . فالتصور صورة مستترة للمصور الذى رسمها على حد قول بيكاسو . وإذا كان التصوير وسيلة الفنان الاولى فى إيصال فكره الى الآخرين وتقديم صورة مجملية للمستقبل الغائم فى أعماقه ، فانها الوسيلة التى تبرز فيها آثار تكوينه العصبى والعضى لأن الرسم فى حقيقته هو اثر حركة اليد على اللوحة ، وهى حركة يتميز بها كل انسان عن الآخر . ويستشهد رينيه ويج فى كتابه « الفن والروح » على هذا بلصوص الخزائن الذين يفتحونها عن طريق شغلة الأكسجين ، فمع أن وسيلتهم واحدة إلا أن للفحص الجنائى قد أثبت أن كل لص يتميز بخط خاص به فى طريقة تسليط الجملة على أقفال الخزانة بما ساعد الشرطية فى أكثر الأحيان على معرفة اللص استعماله بالخط



لوحة ١ رمبرانت : الشيطان يعرض ملكوت العالم على المسيح

ان كل خط في الرسم مشحون بالايعاء اكثر مما هو مشحون بالتمثيل ١٦٥٦م

زخرت بحساسية أدهف ، ثم انتشر هذا النهج في أغلب أنحاء أوروبا خلال عصر النهضة ، مرتبطا بالحركة الفنية والادبية التي ازدهرت في بلاط الملوك والنبلاء ، والتي انحسر معها التصوير الكلاسيكي الواقعى داخل مجتمعات التجار الصغار البرجوازيين الهولنديين والفلمنكيين من أمثال **رمبرانت** .

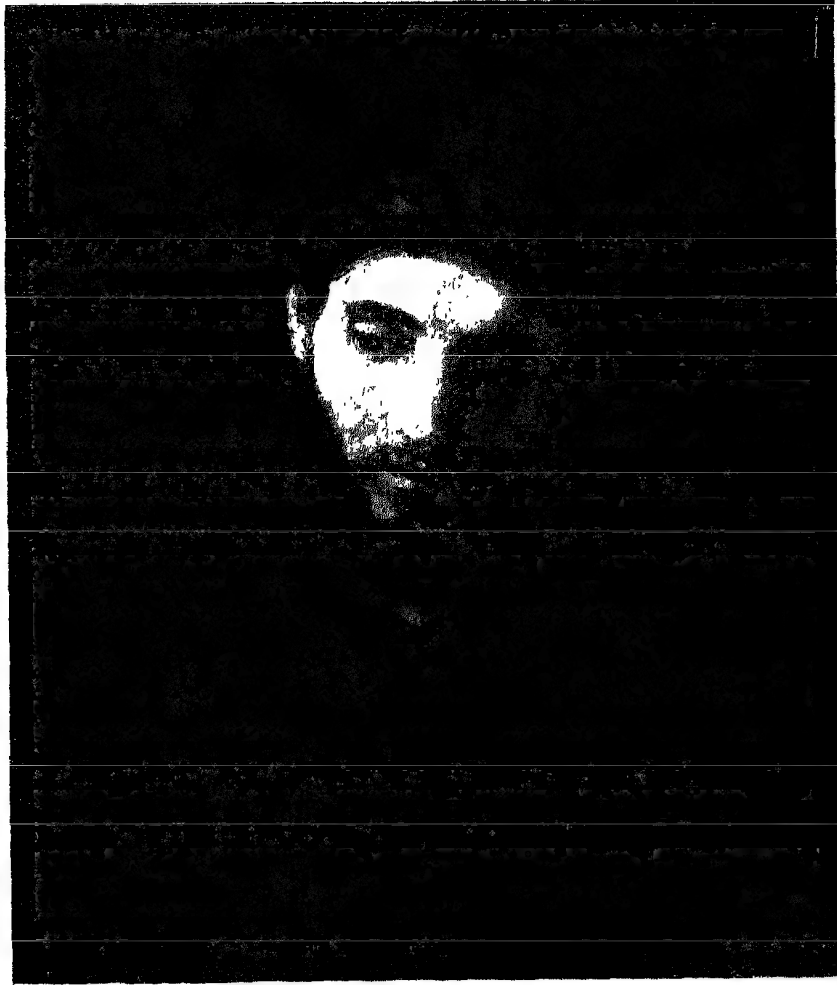
وظلت واقعية الفن الفلمنكى واقعية جادة بعيدة عن الزخرف، بينما اتسمت واقعية الفن الجرمانى بالمبالاة التى انطوت على بعض تشويهاات والحركات العنيفة التى تترجم عديدا من المشاعر المختلطة . وقد ارتبطت هذه الواقعية بالحضارة الالمانية التى بدأت متخلفة عن حضارة جاراتها والتى اعتمدت على استخدام المعادن أكثر مما اعتمدت على الزرامة الموحية بالسكينة والتناسب والهندسة ، فلم يعرف الانسان الجرمانى هدوء النفس ولا نشاط الدهن اللذين يسودان المجتمعات الزراعية المستقرة ، وانما كان يحس بالخطر تهدده ، والقلق يعيش في نفسه ، وظروف الطبيعة القاسية تترصده ، وقد استولت عليه بعد انهيار حضارة العصور الوسطى الدولية ، فكرة الشيطان والموت اللذين يهددان أمنه وحياته حتى نحس الخوف والوحشية في اعماله الفنية . واننا لنستشعر في لوحة صلب المسيح **لجرونيغالد** صرخة العذاب والتوجع المنطلقة في أفق يخنقه الضباب المعتم ، على حين لا نحس في اللوحات اللاتينية لصلب المسيح غير الدعة والهدوء واشراق السماء ، وان كانت الحربان العالميتان وقلق العصر قد اصابا الروح الفرنسية بالانقباض حتى رسم الفنان **برنار بوفيه** صورة حديثه لصلب المسيح يذكرنا ما فيها من عذاب جسدى بصورة الفنان الالمانى **جرونيغالد** السابقة . ( لوحة ٤ ) .

الدهنية المتجسدة عن طريق المنحنيات والتعرجات والانكسارات المنتمية الى الدائرة أو شبه الدائرة أو الشكل البيضاوى والتي سماها هوجرت ( في القرن الثامن عشر ) بخط الجمال الاساسى . وليس التكوين الهندسى في الرسم الا محاولة للنفاذ الى جوهر الأشياء الفاضة المتغيرة في الطبيعة ، واخضاع الطبيعة لدهن بدلا من الانفعال بها على غرار ما يحدث مع الفنان التسجيلى أو الايحائى . ولكن كيف يحدث اللقاء بين الفنان والعالم ، بين ذاته وموضوعاته ؟ .

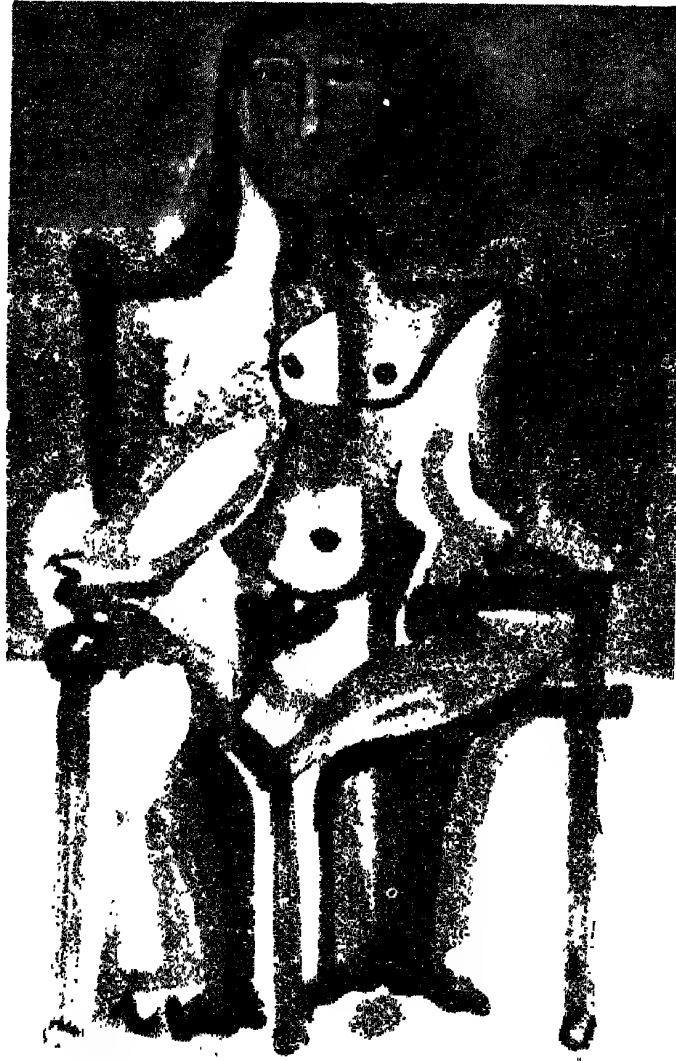
هناك فنان يقبل على موضوعاته في حب واضح مثل رمبرانت في تصويره لوجه المسيح (لوحة ٢) فلم يعد التعبير هنا مبنيا على الحكايات المتواترة عن المسيح ، بل ينبثق كالنور ويشع كحرارة الحب ولهبة . فالمسيح بالنسبة للفنان هو مشكلة النفس ، هو مشكلة حياته « الجوانية » الدائية . ومثل **دى لا كروا** في لوحاته الزاخرة بالألوان الحارة العاطفية ، وقد خلف لنا الفن الرومانسى لوحات تفيض بمحبة تسمو أحيانا الى مستوى التصوف .

وهناك فنان يتناول موضوعاته في اثر تدفعه الى التشبث بأحد التفاصيل مثل **آنجر** الذى يحرص على تسجيل ما يراه في دقة بالغة . وهناك فنان يقبل على موضوعاته بروح عدوانية مثل **بيكاسو** الذى يخضع المربيات لمطالبه الدائية ، يحطم بناءها الخارجى ثم يعيد صياغتها وفق الهاماته وأهوائه الخاصة ( لوحة ٣ ) .

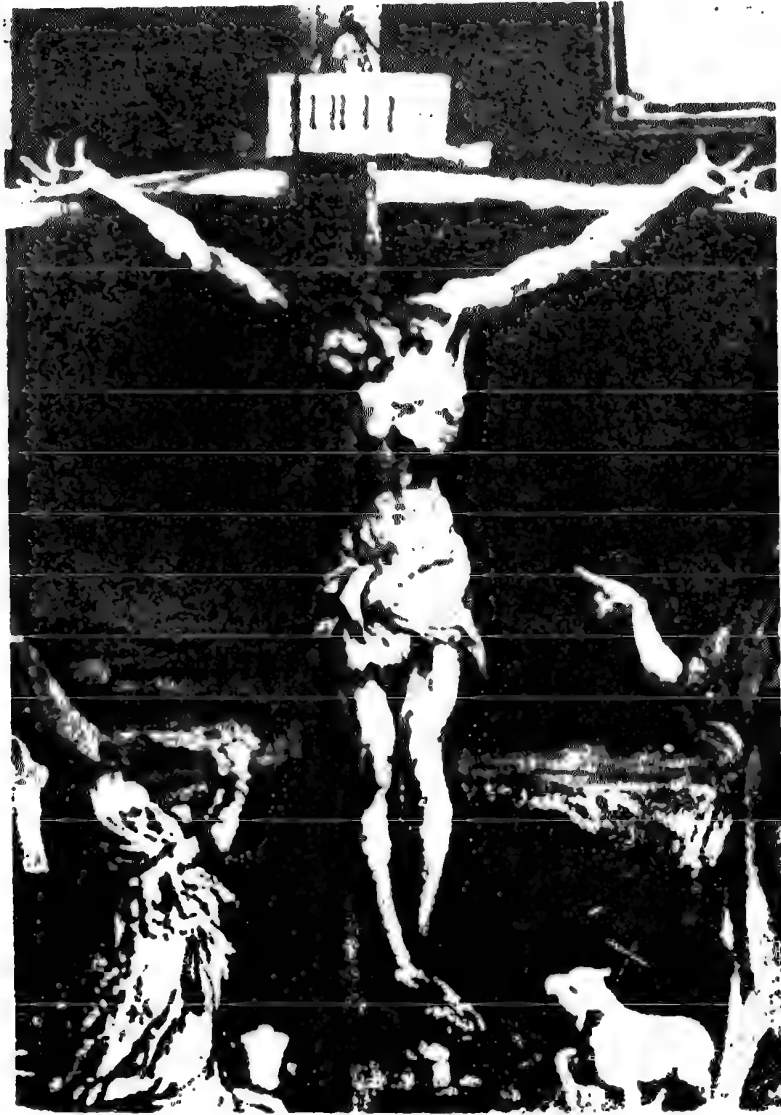
ومنذ القرن الثانى عشر ظهرت في فرنسا ، التى كانت تسودها حينئذ الرقة المتألقة في عالم الدين والادب ، فكرة رسم خطوط منحنية متداخلة على غرار زخارف التوريفات ، وان



لوحة ٢ رمبرانت : وجه المسيح يعكس حياته الجوانية الذاتية



لوحة ٣ بيكاسو : امرأة



لوحة ٤ ، ب ، ج ، د تكشف التفسيرات المختلفة لوضوح واحد من مدى تباين المكونات النفسية للمصورين  
١ - صليب المسيح من مخطوطة فرنسية من أواخر القرن ١٤ ( بيساريس )

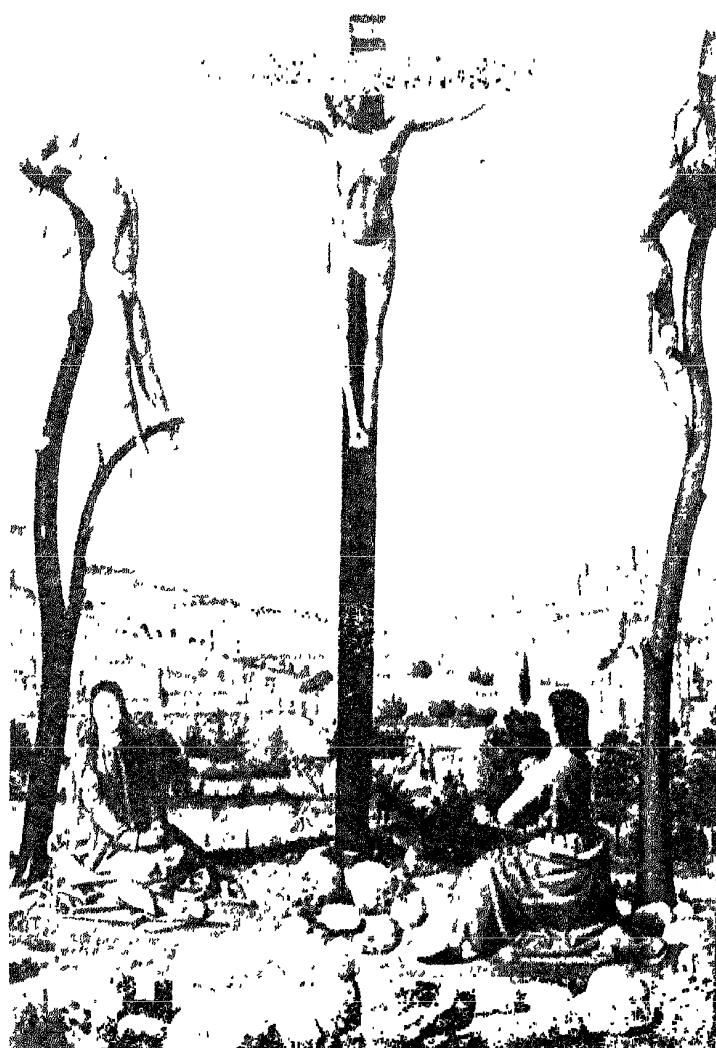


٤ ب - جرونيقالد : صلب المسيح ( بكولمار )





٤ ج - انطونيلاو داسينا : صلب المسيح ( باستردام )



٤ د - برنارديني : صلب المسيح ١٩٤٦ م

فائدة تحديد الاطار الخارجى للحيوان تسهيل  
اصابة الصيادين له .

ومع ميلاد العصر الحجرى الحديث ولدت  
الهندسة ، اذ انتقل مركز الثقل فى علاقات  
الانسان من علاقته بحيوانات الصيد الى علاقته  
بزملائه من البشر ، واخذ الانسان ينظر الى  
العالم نظرة هندسية مع ظهور الحضارة  
الزراعية فى مصر وما بين النهرين حوالى عام  
٣٥٠٠ ق.م ، فقد اجتذبت الرقعة المنزوعة  
اهتمام الانسان فجعل يقسمها تقسيما منتظما  
يسر زراعتها وتوزيعها الى ملكيات صغيرة . واثروا  
هذا الشكل فى حى الفنانين فأخذوا يخضعون  
لوحاتهم لنظام هندسى تتجمع فيه الاشكال  
فى مجالات محددة . وقد لعبت الجدران  
الحجرية دورا هاما فى تحديد الاشكال التى  
تنقش عليها ، فظهر قانون « المواجهة » الذى  
يقضى باخضاع الشكل للمادة التى تنقش  
عليها على مستوى واحد دون عمق أو تجسيد ،  
ثم ظهرت فكرة التماثل وفرض نموذج موحد  
محدود هو تمييز الاجزاء أو الاشكال المختلفة  
حتى لا يختلط احدها بالآخر .

واخذت الحياة تظهر فى لوحات الحضارات  
الزراعية فى ايقاع وتكرار استقاهما فنانو مصر  
القدماء من تتابع مواسم الزراعة وفصول السنة  
وايقاع النمو الملحوظ فى النبات . ونستطيع  
ان نلمح عناية الفنان المصرى القديم فى تسجيل  
حركة النمو فى فنونه المختلفة ، فنجدته يعنى  
بإبراز نمو الريش فى أجنحة الطيور التى  
يصورها ، واظهار طيات الملابس التى يرسمها ،  
ويشيد المعابد من مكعبات يتضمن كبيرها  
صغيرها ، بينما خلا الفن العراقى المعاصر للفن  
المصرى من هذا الاحساس بالنمو مكتفيا بتكرار  
الوحدات المتماثلة على النحو الذى نراه فى  
الاختام الاسطوائية .

غير ان التصوير اذا كان يعبر عن العصر الذى  
ينتمى اليه ، فانه يعبر كذلك عن كيفية مواجهة  
الفرد للعالم الذى يحيط به ولمصيره على  
الارض ، كما يعبر عن رد فعل الضغوط  
الاجتماعية المختلفة فى نفس الفرد ، ونستطيع  
ان نتبين ذلك فى اللوحات التى رسمها الفنان  
فان جوخ ما بين عام ١٨٨٤ و عام ١٨٩٠ ، فقد  
رسم فى لوحته الاولى « حديقة بيت القس فى  
الشتاء » السماء الفسيحة المشرقة التى تتميز  
بالاشياء واضحة تحتها ، وتكشف فى الافق عن  
ابرار كنيسة تعبر عن تصوف الفنان وانشغال  
فكره بقضية اللاهائية ، حتى اذا انتقلنا الى  
اللوحة الثانية وجدنا خطوطها المفتتة تكشف  
عن عجلة فى تسجيل خواطر تكاد تغلت من بين  
يديه ، وعن شبح الجنون يكاد يقترب منه ، ثم  
نحس الجنون وقد سيطر عليه فى لوحته التى  
تصور حقل القمح وقد بدا القمح أشبه ما يكون  
بأمواج بحر متلاطمة او بلهب نار متقدة . ثم  
يصبح الجنون هو طابع خطوطه التى استحالت  
بدائية غليظة تشيع الخوف الممزق من النار  
( لوحة ه ) وهكذا نستطيع ان نتكشف اخلاق  
الفنان من خطوطه كما نتبين اخلاق الكاتب من  
طريقة كتابة حروفه وكلماته .

• • •

### ـ الشكل والذكاء :

ولكن كيف يستخدم الفنان ذكائه لتحويل  
المنظر المرئى الى رموز رسومه ؟

لا شك ان نظرة الانسان البدائى الى ظواهر  
العالم المحيطة به والفريية عليه لم تختلف كثيرا  
عن نظرة الطفل الوليد ، وكان على الفنان البدائى  
العصر الحجرى القديم ان يحاول جهده  
تميز الاشياء احدها عن الآخر ، فكان يحدد  
الاطار الخارجى للاشياء بخطوط بسيطة ، ثم  
يحاول الربط بين الاشياء التى يصورها ، وكانت



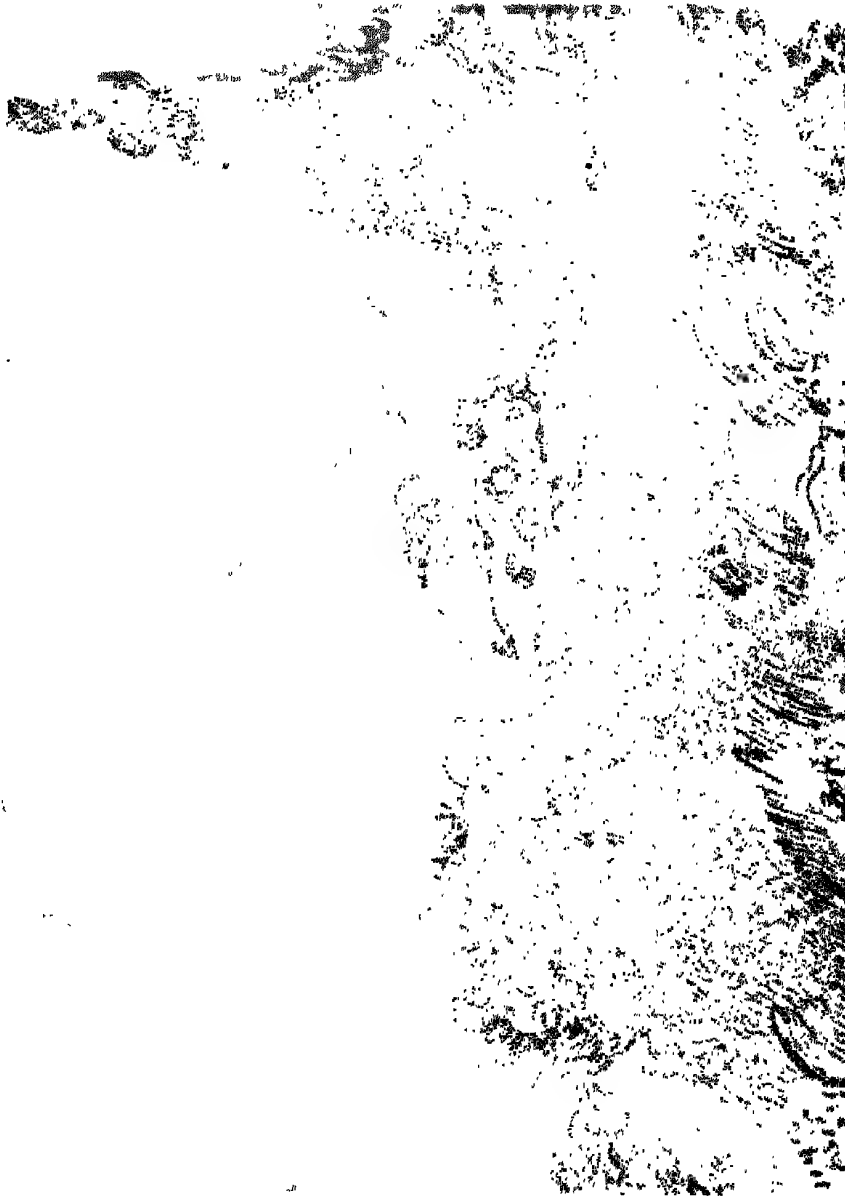
لوحة هـ فان جورج : منظر لأكروا من مونت مارجور ( باستردام ) . تقطيف بلاهشيرات



لوحة ه ب فان جونج : حديقة القس في الشتاء (بامستردام) . تشيرات دقيقة صارمة منكسرة



لوحة هـ ج فان جونغ : منزل وسط البحر (رامستر دام)، ينفجر الحظ المستمر في منحنيات ملتهبة وكتها قلقة مشوشة .



لوحة ه د فان جونج : حقل القمح مع أشجار (بامستردام) ، تطور الخط الى منحنيات مكسرة خفيفة مسورة .

ثورة على قوانين العمارة التقليدية ، وقد شيده **ايغيل** بقضبان حديدية لم يستخدمها أحد في العمارة من قبل . ومن ناحية أخرى أوحى بانشائه هذا بفكرة الارتفاع الراسي الذي أتاحه استخدام الحديد . وتعد العمارة الطليعية الحديثة خروجاً على صفة الأفقية التي تتميز بها العمارة الكلاسيكية .

وقد خرج فن النحت بدوره على قواعد التشكيل التقليدية بمحاولة التعبير عن الحركة المجردة ، واستخدام الأشكال الهندسية البحتة استخداماً متطرفاً بعيداً عن جميع قواعد الهندسة المألوفة بحيث تبرز لنا في النهاية نماذج لصور ذهنية غير موجودة في العالم المرئي .



### ٣ - الضوء والحياة :

يدرك الإنسان معنى النور لحظة انبثاق النهار من الليل ، وقد عرف الوعي البشري منذ ظهور الحياة الفرق بين الأبيض والأسود ، بين الحياة والموت ، بين الخير والشر . وقد لعب التباين بين الضوء والظلمة دوراً أساسياً في الفنون البدائية ، فقد كانت وظيفة الضوء هي أن يميز بين الكتل المرئية التي تحددها خطوط سوداء ، ثم تطورت وظيفة الضوء مع مرور الأيام وأصبح عليه أن يميز بين أجزاء الشيء الواحد بتدرجه عليها تدرجاً يحرك فينا الإحساس بالتنوعات والمنحنيات الموجودة في جسد معقد كالجسم البشري ، ثم اكتسب بعد ذلك وظيفة ثالثة هي إبراز الفروق بين القيم اللونية المختلفة ، وهو ما أتاح للفنان أن يميز بين درجات اللون . وقد استخدم **ليوناردو دافنشي** الضوء استخداماً ثورياً حين ابتكر طريقته المعروفة باسم « الظل المدخن » سفوماتو » التي تجعل الشكل المصور يتراءى للمشاهد وكأنه مغلف بالقمام ( لوحة ٦ ) .

وقد بقيت القواعد الهندسية التي اهتمت إليها الحضارات الزراعية ثابتة في المجالات الفنية حتى اليوم ، وما تزال الحضارة الغربية تستخدمها دون أن تضيف إليها خلال الزمن الطويل غير تقريبها من الشكل البصري الواقعي إلى حد محاكاته ، وإذا كان التصوير قد فام في الأصل على تمثيل الأشكال في بعدين اثنين ، بينما قام النحت على تمثيلها في ثلاثة أبعاد ، فقد استطاع التصوير بواسطة خداع العين أن يعطى الإيحاء بتمثيل الأبعاد الثلاثة غير أن قواعد المنظور قد فرضت سلطة الهندسة ومبادئها الصارمة .

غير أن الفنان الزرأى قد حصر همه في تجسيد الشكل المتحرك في إحدى لحظات حركته ، ولم يستطع التعبير عن الشكل خلال حركته إلا بعد اكتشاف المعادن واستخدامها ، وقد عاصر ذلك ظهور روح المغامرة والشغف بالإبحار والكشف عن مجالات جديدة واسعة ، عبر المحيطات والصحراوات ورأينا أثر ذلك في فنون قبائل سهول آسيا الوسطى ، وفي سفن الفايكنج التي تعتمد في تكوينها على المنحنيات الانسيابية التي تتيح لها الحركة والانطلاق في يسر وسط العواصف .

وإذا كان اكتشاف المعدن قد ترك آثاره في الفنون القديمة ، فقد لعب كذلك اكتشاف البخار في القرن الثامن عشر واكتشاف الكهرباء في القرن التاسع عشر وما تلا ذلك من اكتشاف طاقات متعددة حتى الطاقة الذرية دوراً في تغيير نفسية البشر وفنونهم . وقد سجل الفن الحديث ترجمة رائعة لحركة الطاقات الجديدة التي اكتشفها الإنسان وسخرها لخدمته . وكان فن العمارة هو أول الفنون التي خضعت للاكتشافات الجديدة لاستخدام الطاقة . ويمثل برج **ايغل** المقام عام ١٨٨٤





لوحة ٦ ليوناردو دافنشي . صورة شخصية لامرأة ( باشعة اكس ) منحف اللوفر يصفى  
التجسيم على التصوير الانهام بالنمكل البارز . وجاء أسلوب الجلاء والصمه الذي اسكره  
ليوناردو حلا بارعا للمشكلة فبدلا من تأكيد الشكل يديه في الوسط المحيط به ، وأدت  
الدقيقة المحسوبة بين النور والظلمة الى حيوية لم يعهدها لناس من قبل .

وظهرت في أواخر عصر النهضة محاولات للتحرر من الاشكال المألوفة التي خضعت للقواعد الجمالية التي وضعها فنانون عصر النهضة بعد تجاربهم الطويلة منذ عهد جوتو حتى عهد وفائيل ، فبحث ميكلا نجلو تماثيل بشرية تتلوى في عسر وكأنها تصارع للخلاص من قوانين الاتزان الكلاسيكي والجمال الهادئ . وكانت محاولة ميكلا نجلو شبيهة بازمة المؤمنين المذبذبة أبان عهد الاصلاح الديني .

ولم يكن تطرف ليوناردو دافينشي في فرض الضوء على اشكاله الا محاولة واضحة للهروب من سلطان الشكل . وتعد هذه المحاولة ثورة في تاريخ الفنون التشكيلية ، فقد كان أول من أتاح للضوء أن يحل محل تحديد الشكل المصور ، فلم تتوار خطوطه خلف الضوء ، بل لقد كان نفسه هو الذي يوحى بالشكل المستخفي وراءه كذلك يمثل الاهتمام بالتنوعات المختلفة التي يمكن إبرازها بتغيير درجة الضوء المحاولة الهامة في العصر الحديث لتسجيل الحياة بكل ما تنطوي عليه من تغير وغموض واكتشافات متتالية .

واذا كان ليوناردو هو أول من فهم امكانيات الاسهام الخلاق للجلاء والعتمة في الفن فان جورجيوني قد خطا في اثره خطوة جديدة حين استغل « العتمة » التي يختلط فيها كل شيء ولونها وجعلها تتسق مع ثراء روحه الداخلي ، حتى لم يعد من الممكن تمييز عناصر اللوحة الا بواسطة الحس .

وقد أدى اكتشاف قيمة الضوء في فنون التصوير الى ادراك اختلاف ضوء النهار من ساعة لآخرى وتنوعه الى حد يصعب معه احصاؤه . ويمكن أن نقول ان تاريخ فن التصوير منذ عصر فان آيك حتى عصر الانطباعيين في القرن

التاسع عشر هو تاريخ أساتذة الاضاءة في التصوير . وقد فرض الضوء مشكلة الظل والضوء في كل شكل منذ عهد فان آيك . واذا كنا نجد الضوء يحدد الأجساد في بعض اللوحات فاننا نجده يخدم غرضا آخر يضيف على الأشياء طابعا مختلفا عن الطابع العادي ، اذ يبرز الامكانيات الخيالية العجيبة الكامنة في الأشياء حين تتصارع فيها الظلمة مع الضوء . وقد استطاع بلليني إبراز وحدة المسيح في أقصى لحظات عمره حين صورته على جبل الزيتون الذي تكتنفه ظلمة الليل ، بينما تحبوا أشعة الفجر الوليد من خلف الوديان ( لوحة ٧ ) .

وكانت الأشياء تصور في البداية في وسط يغمره ضوء خالص لا يبرز لها معه ظل ، ثم أخذت الظلال تظهر مع ظهور فكرة استغلال الضوء وتأثيراته في فن التصوير الاوروبي ، ويفلب على الظن أن كونسراد فيتس كان من أوائل الفنانين الذين أدركوا أهمية الظل في تجسيد الاشكال ، كما شغل الصراع بين الظل والضوء كارافاجيو ، وقد أبرز أحد تلاميذه الضوء في لوحته « الكونسير » وكأنه ينتزع الشكل من الظلمات انتزاعا دراميا عنيفا ( لوحة ٨ ) .

ثم أخذت الاشكال تنفتت منذ أوائل عصر النهضة ، وصورت أسقف الكنائس والقصور على شكل سماء مضيئة لا نهائية ، حتى ازدهرت المدرسة الانطباعية في القرن التاسع عشر وساد الضوء الى حد زالت فيه معالم الأشياء وعناصرها ، ولم تعد الصورة تتشكل الا من تكوينات ضوئية مختلفة . غير ان هذا التطرف في سيادة الضوء على الشكل قد أدى الى رد فعل صارخ يتمثل في التكميلية التي تبدى اهتماما كاملا بالاشكال ، وتحيلها الى صور ذهنية هندسية .



لوحة ٧ جيوفاني بليني : عذاب المسيح في الحديقة . ناشونال جاليري بلندن



لوحة ٨ مانيا بريتي : الكونسير١٦٣ - ١٦٤.

اجلى كارافاجيو ونلاميذه الصراع بين الشكل والضوء ، فلم يعد الضوء يستخدم  
لتجسيم الشكل واسباغ الدقة عليه بل لكي يتخطى الشكل بعنف مما قد يحدث تأثيرا  
مذهلا احيانا

المصورين منذ عصر النهضة بأحدى مراحل الضوء بالنهار خلال تغييراته المتعددة : فضاء **بوتشيللي** مثلا ضوء فجرى ، و **دوروينز** ضوء ما بعد الظهيرة و **جورجوني** هو ضوء الغروب . وهكذا كان كل مصور كبير يرتبط بضاء ساعة معينة من بداية النهار الى الليل . وبعد تصوير **دلاكروا** في سقف بهو ابولو بقصر اللوفر مثلا بارزا للصراع بين الليل والنهار ، فقد اشار في تصوير ابولو وهو يقهر الافعوان بيثون الى النور وهو يتغلب على الظلام تغلب لله الروح على الشيطان أمير الظلمات .

• • •

#### ٤ - اللون وروح الانسان

كان اكتشاف فن التصوير لامكانيات الضوء ايدانا بالتعرف الى امكانيات الألوان التي ليست الا للضاء المحيط بنا . ولم يكن الفنان يستخدم الألوان في البداية الا على انها عنصر زخرفة للشكل ، فكان يستخدم الألوان مجرد التفرقة بين الاشكال المختلفة ، وظلت هذه النظرة قائمة طوال الفترة التي كان الشكل فيها سائدا في الصورة . وقد استخدم الفنان الفرنسي **جوجان** هذه النظرة حين اراد التحرر من ولع الانطباعيين بأمكانيات الضوء الكثيرة ، فاخذ يصور لوحته في مجموعات من المساحات اللونية المتداخلة .

غير ان اللون لم يقف عند حد تجميله للشكل في المساحات اللونية المتداخلة ، بل اخذ يرتبط بالضاء ارتباطا يذوب معه فيه ويتحد به حتى يصبحان معا وحدة لا تتجزأ ، يأخذ اللون من الضوء اشراقه ويصبغه بألوانه . ونستطيع ان نتبين الفرق الواضح بين الفسيفساء الرومانية التي تتألف من مكعبات ملونة تشكل صورة محددة السمات ، وبين

واذا كان الفنان قد نجح في ابراز الاشكال في الصورة بفضل انتصار العقل البشرى والمنطق وتنظيم المرئي ، فقد كان استخدامه للضاء انتصارا لنفس الفنان التي استطاعت ان تبث أسرارها وانفعالها بقوى العالم المحيط وطاقاته خلال العمل الفني . وهكذا أصبح الضوء هو روح الاشكال المصورة وهمسة النفس البشرية في العمل الفني ، واستطعنا ان نحس به رغم انه شيء غير مادي وغير قابل للوزن ، فهو يرمز الى ما ليس مرئيا في العالم . وقديما كان افلاطون يرى ان الخير قمة الواقع وانه يعكس النور في عالم الحس ، كما يعكس الحقيقة والدكاء في عالم الفكر . وقد اعطى اكثر الفلاسفة شاعرية مغزى للضاء يسموه فوق عالم المادة ، بل ان منهم من جعله سمة المطلق الالهي الذي يهبط في نفوسنا على شكل الحقيقة والخير والجمال .

وقد عد افلوطين ( ٢٠٥ - ٢٧٠ م ) تلميذ افلاطون الضوء مصدر جمال الأشياء، وانتقلت نظرتة الى الضوء باعتباره سمة الروح الى العصور الوسطى ، فقد كان له اكبر الأثر على الفكر المسيحي منذ القرن الثالث الميلادي رغم انتمائه الى العصر القديم . وأضفى المصورون المسيحيون الأوائل على الضوء صفات الهية وجعلوه رمزا للموضوعات المقدسة ، وحملوا اللون الذهبي الغالب على الفسيفساء البيزنطية هذه المهمة التي اسندوها كذلك الى الزجاج الملون بنوافذ الكنائس لقدرته على تحليل الضوء ، كما عده بعض علماء اللاهوت رمزا للعداء حين نزل عليها الروح القدس لتحمل بالمسيح .

واخذ الضوء فيما بعد العصور الوسطى يعبر عن نفس الفنان اكثر مما يعبر عن النور الالهي . ونستطيع ان نقرن فن كل من كبار

آثارها إبراز فكرة جديدة في التصوير هي فكرة الكيف بدلا من الكم ، فقد أخذ الضوء يفرض نفسه على العيون ويشدها ويحرك احساس الانسان بالاختلافات الضوئية واللونية حتى يشعر بشدة الألوان المختلفة ، وهو ما لم يكن يعيه من قبل .

ولقد أمكن تحليل درجة الضوء زيادة أو نقصانا، أما حين أصبح الضوء ملونا فقد تفرقت طريقة القياس لأن كل لون يختلف عن الآخر ويؤثر تأثيرا متميزا على جهاز الانسان العصبي . وهكذا فإن الألوان لا تختلف كالضوء في درجتها وإنما في طبيعتها ، ثم أن لكل لون اسما ، غير أن اسم أحد الألوان لا يكتسب قيمته الحقيقية إلا اذا كان ذكره كافيا لكي يستعيد الذهن ذكرى تجربة عاشها في الواقع وشهد خلالها هذا اللون على وجه التحديد وعرف وصفه المميز ، وهي تجربة ذاتية لا يمكن نقلها لانسان آخر ، في حين أنه يمكن تصور أى شكل بهد تحديد معاله الهندسية ، بل يمكن تحديده بدقة بالاستعانة بالحساب ، أما اللون فيتطلب جهدا من الحس لادراكه ، فهو يحس ولا يفهم .

واذا كانت المساحة والمادة تعودان الى عالم الكم وتخضعان لمقاييسه ، فإن الحياة الجسدية الممتدة عبر الزمن ترتبط بتجربة « الشدة » ودرجاتها ، وهي تجربة ذات طبيعة « كمية » رغم خضوعها للتقدير الحسي ، على حين تنفذ الحياة الانفعالية الى عالم أكثر تنوعا وانفساحا وهو عالم « الكيف » أى الطبيعة الذاتية المحددة لكل انفعال ، والتي لا يمكن تداخلها في انفعال آخر . ان تجربة الاحساس « بالكيف » هي تجربة « جوانية » ذاتية لا يمكن أن يحس بها الا من عايش التجربة بنفسه ، والعمل الفني هو محاولة « برانية » موضوعية لإبراز هذه التجربة الذاتية الجوانية التي لولا العمل

الفسيفساء البيزنطية التي يتداخل فيها اللون الذهبي مع الألوان الأخرى فيكسبها رونقا جديدا . وقد حدث ذلك أيضا في الزجاج الملون لنوافذ الكنائس القوطية حيث تمتزج الأضواء والألوان فتسبغ على الشكل المصور دلالات جديدة ، مضيئة بعدا جديدا للإبعاد السابقة وهو بُعد الشدة ، ذلك أن الأضواء المختلفة تحدث في سقوطها على اللون تنوعا في شدته ، وهو ما أدى الى تكاثر الألوان وتزايدها . ولم تكن ألوان الصور الجدارية المصرية القديمة لتزيد في بدايتها عن سبعة ألوان ، بلغت عشرة ألوان في عهد ازدهار الدولة الوسطى ، منها لوان أخضران ولوان أزرقان وثلاثة ألوان حمراء . وقد لعب اكتشاف الزيت كوسيلة للتصوير دورا عظيما في تطوير هذا الفن في العصر الحديث ، وذلك أن الزيت لا يقف عند حد تلوينه ، بل أن سمك الطبقة التي يضيفها الفنان الى لوحته يمكن أن تمثل أعماقا وشفافيات اضافية ، وهو ما أتاح للفنانين تصوير الألوان الدقيقة التي تتضمنها الأشياء أو تسبغ في الأجواء المحيطة بها . وقد قال كروندشو أحد علماء الفن في اوائل القرن السابع : « تتألق الألوان وتتغير مع تنوع الأضواء التي تتسلط عليها كضوء الشمس أو ضوء اللمبة وما إليها . بل ان الظلال نفسها تصطبغ بالألوان المضاءة في الأشياء المصورة » .

ومعنى هذا أن الألوان في العالم المرئي ليست ثابتة ولكنها عرضة للتغير والتألق ، وأن بعضها ينعكس على بعض بطرق لا حصر لها . وقد جعلت الحركة الانطباعية من اللون تجسيدا للطاقة الضوئية ، وحققت أكبر انتصار بتحريره من كل قيد سوى التعبير عن الاهتزازات اللونية ، وضحت من أجله بالشكل الذي كان اللون في البداية مبدا خاضعا له . وقد ترتب على ذلك ثورة في الفن كان أهم

الصامته التي يعبر بها عما في نفسه . واستغل فنانون فجر النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر مثل بوتيتشيللي وفرا أنجليكو الألوان المشتقة من الأزرق والوردي للتعبير عن موضوعات تدور حول فصل الربيع ، ونراها تشيع حيوية وشبابا بزهورها وورودها، وعشق تنسيانو الألوان النحاسية والذهبية والحمر والزرقاء الشديدة الزرقة ، كما اختار ومبرانت اللون الذهبي والأحمر اللهي والظلال العسلى والألوان القاتمة . على أن هؤلاء جميعا لم يعبروا باللون عن الشكل وإنما حملوه أصواتهم الجوانية التي تنتقل الى أعماق المشاهد انتقال الموجات الصوتية .

ثم ان الكشف عن هذه الطاقات الكامنة في الألوان لم يتم الا بخطى وئيدة وطويلة ، وقد اخذ سلطان اللون على النفس البشرية ينمو مع نمو وعى الانسان بطبيعته واحتياجاته . وكانت دلالة اللون في العصور الوسطى مرتبطة بالضوء اقل مما هي مرتبطة بالشكل . وقد اعطى فنانون العصور الوسطى الألوان دلالات خاصة قبل معرفة طبيعتها التعبيرية التلقائية وجعلوها بمثابة رموز . غير أن الألوان ما لبثت ان تحررت من هذه الرمزية واصبحت ذات قوة تعبيرية ودلالة شعورية جديدة ، ثم اكتسب التصوير الزيتي حرية جديدة في القرن التاسع عشر فاستطاع كما قال الفنان الفرنسي الكبير دلاكروا « ان يعبر عما يؤثر في النفس بواسطة الأشياء التي لا تؤثر الا في الحواس » ، ولا شك أن اللون هو أهم ما يؤثر في الحواس .

وقد وجد فنانون ما بعد عصر النهضة في الطيف اللوني وفي الامكانيات اللانهاية للتأليف بين عناصره وسيلة للتعبير عن ادق الفوارق بين الأمزجة النفسية ، وكانما يعسك الفنان بيده وتر موسيقيا يتحكم فيه على هواه . غير انه

الفني لبقيت كامنة في الأعماق ، ولا يستمد اى شكل فنى جماله من نسب عددية او هندسية، بل من احساس الفنان « الكيفي » وانفعاله الفريد به ، وكذلك بما يضعه فيه حسه « الكيفي » الذى لا يمكن أن يتضمنه الشكل بذاته وبتحديده المجرد .

وقد اختلف الفنانون في طريقة استخدام الألوان بين خاضع لتقاليد شكلية ومستهدف لتألف الألوان ، وان ظلوا مرتبطين بمفهوم مساحة الصورة غير مهتمين بقضية الشدة ، يجمعون مختلف العناصر في تكوينات متألفة مع اتخاذ التباين أساس العلاقات بين المساحات المألونة في الصورة ، على نحو ما فعل جوجان وماتيس الذى نحس ان بين فنه وبين الفنون الزخرفية كالفن الاسلامي علاقة وثيقة ، لأن الزخرف بطبيعته هو تجميل للمساحة وأداة في خدمتها .

على أن هناك مجموعة من الفنانين الذين يستغلون الألوان استغلالا مختلفا عن ذلك لانهم يعدونها بمثابة اصدااء لنفمات كامنة في النفس . وهكذا يدرك العقل الأشياء الواضحة بينما تحس النفس بالأشياء غير الواضحة ، وهم لا يضعون الألوان متجاورة على غرار الفسيفساء الملونة ، وإنما يحاولون إبراز الامكانيات اللانهاية لمزج الألوان بعضها ببعض وشحنها بدبذبات تتألف مع دبذبات النفس مشكلة ما يسمونه بالجو الفني ، وهكذا يصبح اللون لفة وجدانية تتحدث الى نفوس المشاهدين . واذا كانت لكل لون دلالة خاصة تتفق مع حالة نفسية معينة عند المشاهد فان دلالات الألوان المختلفة حين تتألف في مجموعات متعاقبة تكتسب ابعادا فسيحة تنفذ بها الى اغوار النفس البشرية . وقد مال كل فنان عظيم الى مجموعة من الألوان اتخذ منها لفته

ذاتها وان كان منطق الأحلام هو الذى يربط بينها وأخرى خرافية مخيفة تعذب النفس بوحوشها وشياطينها . على أن هناك اختلافا تاما بين صور الفن وصور الأحلام رغم انبثاقهما من مصدر واحد ، ذلك أن العالم سلبى يستسلم لتيار رؤاه الدهنية المتدفقة بلا هدف أو رباط ، فى حين أن الفنان ايجابى يؤلف بين صوره ويخضعها لقواعده وصياغته الذاتية المبتكرة .

ثم ان وظيفة الفنان هى ان يستلهم أعماقه ويخرج ما فيها ويصوغه صياغة فنية تجعله جديرا باهتمام الآخرين قادرا على إثارة مشاعر أكبر عدد ممكن من المشاهدين . وقد يكون هذا هو أساس طبيعة العمل الفنى المركبة : يفوض الفنان فى بادئ الأمر فى أعماق أغوار نفسه متخطيا حواجز الفكر المنطقى المستنير ليصل إلى الوحي الكامن فى اللاشعور الذى لا يلبث ان يطفو على السطح ، ثم يستخدم قواه الدهنية الواعية لتشكيل العناصر الجمالية . وقد تلعب الذاكرة دورا هاما فى تكييف ما نظمه الدهن السواعى ، فتمد الخلق الفنى حينئذ بعنصر جديد هو الخيال بمعناه المحدود بتشكيل الصور الدهنية . فالخيال منبع الأحلام والابداع الفنى معا ، وهو يعين على اختيار الموضوع ننى ويحقق التوازن بين العالمين الداخلى والخارجي . على أن هناك نوعين من الخيال سلبى وإيجابى ، وليست للخيال السلبى قدرة فنية خلاقة ، ذلك لأن دوره فى الخلق الفنى لا يتعدى دوره فى الأحلام فهو يبرز خفايا النفس ، تلك الصور التى أثرت أكبر تأثير فى الذاكرة ، وكأنه ينتقى ما يريده الفنان من الصور التى تسترجعها الذاكرة من الماضى . وكان فنانون العصور الوسطى يوحّدون بين الأنماط الفنية مما يعوق انطلاقة الخيال المبدع التى لعبت فى العصر الحديث دورا يفوق الدور الذى تلعبه

كان من الضروري الكشف عن تفسير سليم لقدرة الألوان على التعبير عن حالات النفس ثم الخروج من ذلك بنظرية فنية متكاملة . وهذا هو ما فعله دلاكروا الفنان والفكر معا . وقد أصبح دلاكروا بفضل منهجه الفنى رائدا للحركة الانطباعية والرمزية ورائد فن جوجان أيضا ، وكان يعد اللون رسالة خاصة فى الكشف عن التجربة المعاشة فى أعمال الفنان ثم فى تحويلها إلى شيء مدرك محسوس . ذلك أن الفن ليس سمة لما هو معروف مرئى بل سمة للخفى المجهول . أنه لغة تختلف عن اللغة العادية التى تخاطب أفكارنا وآراءنا لأنه يحمل تجارب الحياة إلى حسنا قبل أن يتدخل العقل فى تنظيمها أو صياغتها . ويستطيع العمل الفنى أن يثير فينا مشاعر لا تستطيع الكلمة المجردة أن تعبر عنها إلا تعبيرا مبهما . ثم ان الفن التصويرى لا يؤثر بواسطة الشكل كما يؤثر فن العمارة أو فن النحت ، وانما يؤثر تأثيرا أبعد مدى لأنه يجمع بين البيئة والجو والضوء والألوان المختلفة فى تكوين جديد يمكن مقارنته بالتكوين الموسيقى . بل لقد تحدث دلاكروا عن « موسيقى اللون المصورة » وقّله فى ذلك الكثيرون من المصورين من بعده . ثم ان الفضل يعود إليه فى اعتباره الفن تعبيرا عن خفايا نفس الفنان دون وعى منه بذلك ، وقد فتح الفنانون من بعده أعينهم على هذه الحقيقة فأخذوا ينصتون إلى الأصوات الخفية الصارخة فى أعماقهم ليعبروا عنها برموز ملونة من العالم المرئى .

• • •

#### ٥ - الصورة والأحلام •

اتخذ كثير من فناني غرب أوروبا منذ عصر النهضة من الأحلام موضوعات صورهم ، فتجدهم قد شكلوا تكوينات ذهنية معقولة فى



كل حدث لارادة كائن حتى قد يخفى عليه، وكان يعتقد أن كائنا شبيها بالانسان يكمن داخل النار ، وان ثمة ارادة تختفى وراء ظواهر الطبيعة المختلفة . وذلك هو النهج الذى يتبعه الخيال مع الأحلام فهو يكشف عن خفايا النفس ويجسدها في شيء من العالم المرئي . وكذلك يفعل الشاعر والفنان حين يواجهان ما يعجزان عن التعبير عنه فيلجآن الى الرموز لانها البديل الوحيد للمجهول والمعلوم معا .

في اعماق الفنان غريزة خاصة هي غريزة ابتكار الرموز التي يستطيع عن طريقها وبواسطة عملية اختيار ارادية خلق عالم مكون من عناصر الكون نفسها غير أنها تتألف وتفهم حسب الدلالات التي يسبغها الفنان على الأشياء . وقد تحدثت لعناصر الكون الرئيسية الأربعة ( الماء والنار والهواء والأرض ) دلالات رمزية في عالم الفن : فالهواء شفاف مضى رقيق لا تكاد تدركه الحواس وان أحس المرء به ، والماء ملء بالألفاظ غامض متحرك ، وفي النار رونق وضوء وحركة عنيفة ، والأرض ثقيلة جادة .

وقد تميز بعض الفنانين بغلبة أحد هذه الرموز على صوره حتى سموها باسم هذا الرمز أو ذاك ، فأطلق على « كورو » اسم فنان الهواء ، وسمى قورن بفنان الماء ، وقيل عن فان جوخ انه فنان النار ، اما كوربيه فهو فنان الأرض .

وقد برز فنانان في معركة التحرير التي أدت إلى ازدهار الفن في العصر الحديث هما انيسور وشاغال :

وقد ورث جيمس انيسور الفنان البلجيكي الذى عاش في أواخر القرن التاسع عشر ذلك الولع بتصوير القبح والفزع في عالم مجنون لا يخضع

المؤثرات البيئية في تكييف الخيال الفنى . وعلى عكس الخيال السلبي الذى يعمل بطريقة شبه لا ارادية ، يعمل الخيال الإيجابي عملا واعيا يستخدم فيه الذكاء والارادة ويلتزم عناصر الجمال . وليست اللغة الحيوانية لأحلامنا واللغة الانسانية لفننا الا رغبانا التي يتشكل منها نسيج حياتنا وتعبر عن نفسها في الصور والرؤى الذهنية .

غير ان هناك فارقا بين انعكاسات رغبانا وبين الصور المعبرة عنها شبيها بالفارق بين عمل العبقرى المبدع وبين نقل تلميذه الأمين عنه . فاذا كانت لصورة العبقرى الأصيلة دلالة فان الصورة المنقولة لا تتضمن الا ظلا من دلالة الأولى . وفي فن العبقرى خيال ايجابي يتيح له التعبير بلغة صامتة متميزة نابغة من رغبته التي تعكس حالته النفسية الخاصة ، كما يحلم رائد الصحراء الظامىء المحروم بينابيع الماء المثلج . ونحن نحس هذه اللغة الصامتة الخاصة في أعمال كبار الفنانين من امثال روبنس وريوار الذين يعبران عن تدللهما بجسد المرأة ( لوحة ٩ ) بل لقد أعلن وينسوار صراحة : « اننى اصايج المرأة بفرشاتي » .

وقد اكتشف التحليل النفسي في الأحلام لغة خاصة بالخيال في لغة الرموز . والرمز بطبيعته خادع عصي الفهم ، فقد يتخذ بوقفين متباينين : قد يكون مباشرا يكشف عن الشيء الغامض بطبيعته، وقد يعمل على اخفاء المشاعر التي تحاول الظهور فنكبتها أو نتجاهلها . هذه الامكانية المزدوجة جعلت من الرمز لغة قادرة على التعبير عن مشاعرنا وعن اخفائها كذلك . ولم يكن الانسان البدائي قادرا على التعبير عن مشاعره الخفية الا برموز مأخوذة من العالم المرئي . وقد نسق فيما بعد بين هذه الرموز المرئية، وشكل منها أسطورة خافية أسند فيها



لوحة ٩ روبنز : حفل باخوس بنسجم اربا دنى عروس الاله باخوس

ويناقش الحياة : فوجوهه اقنعة وجماليات ، وخطوطه تتفتت ويدب فيها الغناء ، وأشخاصه تتحول الى حشرات مخيفة ومضحكة معا ، ولوحاته كلها نهب للموت والضحك . على ان فنه هذا ليس وليد الصدفة والاعتباط ، بل وليد خيال تتحكم فيه ارادة صارمة ، ترى الاشياء جميلة والانسان قبيحا . وتتضمن كل لوحة من لوحاته تطبيقا فلسفيا يتناول البشر والعالم الذى يعيش فيه اشخاصه ، والذى يقدمه فى صورة مدمرة تتمزق معها الاواصر بين الناس ، وكأنه لا يرى الجمال الا حين يختفى الانسان ( لوحة ١٠ ) .

اما شاجال الذى يرجع اليه اغلب الفضل فى تحرير الصورة الفنية فتزخر لوحاته بمشاهد صباه فى الاحياء اليهودية فى روسيا ، وبكل ما كان فيها من عاطفة وحنين الى الماضى الذى مضى ولن يعود ، وقد سجلها فى اوضاع لا تخضع لقانون الجاذبية ولا لقواعد المنظور مما جعلها تبدو وكأنها معلقة فى الهواء لا تتحرك الحركات المألوفة ، ولا تتخذ الاوضاع المتعارف عليها ، فهى تحمل دون شك اثرا كبيرا من عالم الاحلام حيث يسبح الانسان فى الفضاء، وحيث تميل الدور على جوانبها دون ان تسقط ، فالزمن فى رايه - نهر بلا ضفاف - وقد كتب فى ترجمته الذاتية كلمة تعد مفتاح فنه فقال : « يبدو لى ان الفن حالة نفسية قبل ان يكون شئيا آخر » . ( لوحة ١١ ) .

• • •

#### ٤ - الفن والفكر :

يتلخص التباين بين الشرق والغرب فى ميادين الفكر والفن فى نظرة كل منهما الى جوهر الفكر البشرى المتباور ، فى التمييز بين العالم الداخلى والعالم الخارجى ، فيهتم الغرب بتحديد هذين العالمين تحديدا ثابتا دائما ، فهو يفصل بينهما

أما الشرق فلا يضع مثل هذه الفواصل المميزة بين الانسان والعالم ، ولا يسلم بوجود مسافة بين الانسان وبين ما يتأمله فى محاولته للمعرفة ، بل يقيّم معرفة الانسان بالعالم على فكرة الاتحاد والاتصاف والحب ، حتى قال الفيلسوف الهندى « كبير » فى القرن الخامس



لوحة ١٠. أسود : بيرو والهياكل العظمية . يفتي الواقع عند أسود وراء اقنعة جوفاء أزهبها الجمال



لوحة ١١ مارك شاجال : الكونسير . مع مسرى الزمن ترحم ذكريات الماضي والحاضر نفس الفنان وترقص على انغام موسيقى الفن

عشر : « لقد جعل الخالق من العالم الداخلى والعالم الخارجى وحدة لا تتجزأ » . وليس هذا هو موقف « كبير » وحده بل أنه موقف الفلاسفة ورجال الدين جميعا فى الهند ، فهم لا يؤمنون بوجود الحياة فى أعماق النفس وفى الطبيعة الخارجية خلف ستار المظاهر المادية الخادع . وقد نادى بوذا فى القرن السادس قبل الميلاد بالفاء الفوارق بين الخارجى والداخلى لأن الشكل يفقد معناه بالنسبة لذلك الذى اختفى وجمد ولم يعد من الممكن الإمساك به ، كما أنه لا يؤمن بوجود « الأنا » بل بوجود « الأتمان » أى الذات غير المحددة ، ويعد الحياة سرايا ولا يؤمن إلا بحقيقة وحيدة هى « السمسرا » أى محيط الحياة المتموج .

ويتجاهل الفن الشرقى الأشكال المحددة والتعبير عن الذات ، ولا يسمى الفنان الشرقى وراء الابتكار والأصالة ، وإنما يمضى طيما على نهج القواعد المتوارثة لأنه يعد نفسه وسيلة اتصال بين الإنسان والحياة الكونية غير العاقلة . وهكذا يحدد هدفه فى إيضاح لين الحياة وإيقاعها اللانهائى . ومع أن فلسفة الهند الفنية هى فلسفة الشرق عامة ، إلا أن هناك فروقا تتميز بها الفنون الشرقية الأخرى ، وتزداد هذه الفروق حدة فى الصين واليابان ، حيث نجد فنهما يقترب فى مفهومه من الفن الغربى لاهتمامه المتزايد بالحياة اليومية .

ومضى الغرب فى طريق مختلف عن طريق الشرق ، فلم يشغل نفسه بالأفكار الفيبية المتصلة بالحياة الكونية ، وجعلت الحضارة الاغريقية من الإنسان أساسا للحقيقة ومقياسا لها ، بل لقد قال بروتا جوراس « الإنسان مقياس كل شيء » .

كان احساس الإنسان بالواقع عند الاغريق

ادراكا دقيقا له ، وكان فكره وقواعد منطقته صورة لقوانين الطبيعة والبناء الكونى ، وشكل جسده وتناسبه نموذجا مصغرا للعالم المحيط به ، بل لقد اتخذ الفن الاغريقى من الجسد الانسانى موضوعه الرئيسى ومعياره لقياس أى بناء . كذلك اصبحت المظاهر التى حاول الشرق اختراقها للنفاذ الى سر الوجود هى أساس الواقع عند الاغريق ما دامت خاضعة لقوانين العقل البشرى الذى عدوه منبع الحقيقة كلها . وقام الفكر الاغريقى على قاعدة كبرى هى « الموضوعية والتجريد » ، فكان الانسان الاغريقى يأخذ الواقع أساسا للفكرة ، وينظر الى الانسان لكى يصل الى تصور الاله ، ويتأمل الطبيعة لىخلق الجمال الفنى النموذجى ، وهكذا تختلط فى الفكر الاغريقى المثالية والواقعية ، الحواس والعقل . ويستخلص الفنان الجمال من الطبيعة - على أنه المادة الرئيسية فى تجربته الفنية - ثم يبرزه بجهد الفكرى . وقد لعب الفكر دورا هاما فى عالم الجمال عند الاغريق حتى أنهم حاولوا رد نظرياتهم الجمالية الى أفكار رياضية بحثة على غرار ما فعل فيثاجوراس حين قال ان العدد هو جوهر الأشياء . ذلك أن الاغريق ركزوا اهتماماتهم فيما يمكن تحديده ، وخاصة ما يمكن تحديده بالأعداد ، بينما لم تستطع روما بعد انتصارها على اليونان غير إبراز النزعة لطبيعية والمدرسية على حساب المثالية المجردة التى تجلت فى الحضارة اليونانية وخاصة فى عمارتها القائمة على العلاقات والنسب بين الخطوط المستقيمة ، وهكذا ادخلت روما المنحنيات فى عمارتها والألوان فى فنها التصويرى .

على أن العبقرية اليونانية التى ضربت روما قاعدتها القومية قد انتشرت على شواطئ البحر المتوسط وأخذت تمتزج بالتأثيرات

القديمة المتمثل في الميل إلى الأشكال الهندسية، وإلى التناسب والانسجام الشكلي الذي يعكس الحقيقة الإلهية والذي جعل القديس أوغسطين يفضل العمارة والموسيقى على الفنون التشكيلية التي يبعد تجردها من النسب، الإنسان عن التأمل في المادة لذاتها . وتتجلى ثنائية موقف العصور الوسطى من الحقبة المادية في الطرازين المتألفين لهذه العصور وهما طراز الرومانسك والطراز القوطي . فلقد اتخذ طراز الرومانسك من الفكر ومن مفاهيمه التي يفرضها على الحياة الواقعية نقطة بدايته ، بينما قام الطراز القوطي على الخضوع لإحياءات الحياة الواقعية ثم تكييف انطباعاته بذكائه وحساسيته حتى يخرجها في إطار ساحر جذاب . وكان الانتقال من الرومانسك إلى القوطي مواكبا لتحول العصور الوسطى من نظريات القديس أوغسطين المتأثر بفلسفة أفلاطون إلى نظريات توما الأكويني المتأثر بفلسفة أرسطو ، وكان بين الفيلسوفين تباين في فهم حقائق الوجود والكون . كان أفلاطون يعد العالم المادي هو اللاوجود ، ويرى أنه ليس إلا انعكاسا لنماذج صافية مجردة سماها « المثل » ، وهي التي قسرها أفلاطون في القرن الثالث بأن لا شكل لها ولا لون وأن الوجود الحقيقي كامن فيها لا في انعكاساتها على الأرض . وذلك هو السر في غلبة الطابع التجريدي في الفن المسيحي في قرونه الأولى وخاصة الفن البيزنطي .

على أن العالم المرئي إذا كان بالنسبة لفلاسفة العصور الوسطى رمزا لله فقد كان في الوقت نفسه عائقا لأنه كان يشد الإنسان إلى البحث عن منبع الحقيقة من خلاله ، وهكذا كانت المادة مجرد وسيلة لإدراك ما وراء المادة . وحينما اكتملت الترجمات اللاتينية خلال القرن الثاني عشر من الدراسات العربية لابن سينا وابن رشد لأفكار أرسطو التي كانت تدرس بجامعة

الوافدة من الشرق وتأثيرات البرابرة، واكسبت الفن اليوناني المهزوم وسيلة جديدة للتعبير في ظل الإمبراطورية الرومانية ، هي وسيلة الرمز الذي أصبح أقوى أثرا من الكلمة والفكرة . كذلك تعانقت التأثيرات الدينية فظهرت نزعات صوفية شرقية ، ودخلت عقيدة إيزيس وأوزيريس معابد روما ، وبالمثل عقيدة « مترا » الفارسية . وكان زحف « المسيحية » من الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط بداية ثورة في التصوير ، إذ اتجه الفنان من العالم البشري المرئي إلى العالم الإلهي اللامادي ، وظهر فن مسيحي يستخدم الرمز والإحياء ويتجنب التسجيل والمحاكاة ، كما تشكل فكر مسيحي أخذ عن أفلاطون نظريته عن التباين بين العالم الخارجي وبين العالم المثالي المطلق حيث يكمن الجمال الخالص العصى على الوصف . وظهرت أفلاطونية حديثة في الإسكندرية على يد « أفلوطين » في القرن الثالث ، استطاعت أن تخطو بالعالم من الفكر القديم إلى فكر العصور الوسطى . وفي ظل هذه الأفلاطونية الحديثة نما الفن المسيحي متجاهلا أهمية مظاهر الأشياء وتكوينها المنطقي ، متخذا من الصورة وسيلة لنفاذ النفس إلى العالم الإلهي ، وهذا هو ما يفسر أسلوب الفن البيزنطي الخاص الذي تجاهل الواقعية إلى التجريد ، والعقلانية إلى الإحياء، وقواعد محاكاة لطبيعة المنطقية كقواعد المنظور، إلى ما يشير النفس من ألوان وأضواء .

وظل الفن طوال العصور الوسطى متأثرا بهذا اللقاء بين العناصر المتنافرة من الحضارات المختلفة التي قامت في حوض البحر المتوسط ، والتي لم تفقد الحضارة اليونانية اللاتينية تأثيرها فيها رغم قيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وحافظ الفن على جوهره الروحاني رغم استعانتها بشراء المادة ورومتها في التعبير عن جوهره ، كما حافظ على تراث العصور

طليطلة بالاندلس انتقلت الى جامعة باريس عام ١٢١٥ بعد ان كانت هذه الجامعة تحرم دراسة الميتافيزيقا وطبيعتها ، واخذت افكار أرسطو تسود وتنتزع مكان الصدارة من افكار أفلاطون .

ولعب فلاسفة الفرنسيين الدور الهام في تمهيد الطريق لسيادة فلسفة أرسطو التي تعود الانسان الى عالم الحقائق المجسدة وتعطى اهتمامها للعالم المادى حتى فسر القديس فرنسيس الأسيزى الحب الالهى بأنه الانطلاق الى الله عبر العالم المادى ، كما أحب الخليقة بوصفها اثر الخالق . وكذلك اتجه الفنانون الايطاليون من تشيمابوى الى جوتو الى الواقعية بدلا من التجريدية البيزنطية . كما رأى القديس بونا فونتورا المحبة الالهية فى المخلوقات سواء كانت كائنات حية أو جمادا ، وهو ما يعد خطوة نحو علم الطبيعة وفق مذهب أرسطو الذى يعد المخلوقات اشياء حقيقة ذات قيمة ذاتية ١٥.

وفرض ألبر الاكبر وتلميذه توما الاكوينى النظرية الارسطية شيئا فشيئا ، وكان عماد تدريسهما للفلسفة المنهج الاستقرائى المعتمد على الخبرة المحسوسة بدلا من المنهج الاستنباطى المأخوذ عن حقائق مسلم بها ، ومن ثم كان الاهتمام بالطبيعة اكثر من الاهتمام بالافكار . ويمكننا ان نحدد انعكاس الفلسفة الارسطية فى الفن فى تغير موقف الفنان من الحقيقة ، وانتقاله من معالجة الطبيعة معالجة ذهنية تجريدية هندسية الى اتخاذ الطبيعة كما هى موضوعا لفنه فزخرف بها كنائسه كما نحت تماثيل واقعية ، وأخضع العمارة لقوانين المادة وخاصة قانون الجاذبية الذى يعود اليه الفضل فى ابتكار أشكال وطرز جديدة رائعة . كذلك حاول الفنان القوطى فى

لوحاته الدينية خلال القرن الخامس عشر اثارة المشاعر عن طريق الايهام بالواقعية بدلا من تحريك الفكر بالرموز والمصطلحات ، وقد كان الاهتمام بالايهام بداية الاصاله الغربية فى الفن وهى التى ظهرت حين استطاع فنان آيك تطوير التصوير بالوان الزيت الى حد محاكاة الطبيعة . وقد بقيت هذه الواقعية قاعدة الفن الغربى العامة حتى أواخر القرن التاسع عشر حين ظهر التصوير الفوتوغرافى الذى أدى الى رد فعل ضد الواقعية فى الفنون التصويرية غير الآلية .

على أنه قد ظهرت مع بداية عصر النهضة نظريات جمالية أخرى كردود فعل لواقعية العصور الوسطى : فظهر فى ايطاليا صراع بين الواقعية وبين العودة الى الفلسفة اليونانية القائمة على وجوب تحكم الفكر والمنطق فيما هو محسوس ، كما ظهرت كذلك النزعة الموضوعية العلمية المتمثلة فى ليوناردو دافنشى والتي أدت الى نمو روح العلم والى الكشف العلمية ، والتي برزت فى الفن الى جانب ظهوره فى الفلسفة ، وتمثلت فى الاهتمام بما توحى به الحواس بوصفها المصدر الوحيد للمعرفة فى شتى الميادين الفنية .

وبقيت الحياة الفكرية فى أوروبا اسيرة التناقض بين الفلسفة الافلاطونية القائلة بأن الحقيقة كامنة فى العقل والروح وبين الفلسفة الارسطية القائلة بأنها كامنة فى الحواس . وقد اتجه الفن الحديث اتجاها افلاطونيا لردّه الحقيقة الى مجرد رمز ومضمون روحى معين على نحو ما نراه فى فن جوجان . ونجد عصورا افلاطونية يسود فيها التطلع الى القواعد العامة وانكار وجود الاستثناءات ، وترتبط بنظم اجتماعية استبدادية تطوى الفرد داخل الجماعة صاحبة السيادة ، كما تميل الى الصيغ الذهنية القديمة حيث يخضع العقل لمبادئ ثابتة



المجامع التي عرفت فيما بعد باسم مجالس ترنت ثم بولونيا ، كما أنشأت ما عرف باسم الحركة المضادة للاصلاح الديني . وكان الآباء اليسوعيون هم رأس الرمح في حركة المقاومة الكاثوليكية ، وقد نظموا حركة معاداة البروتستانتية حتى في المحيط الفني ، وجابهوا واقعية الفن البروتستانتى وفرديته بالقوة الجماعية للفن ، وحددوا حرية الفنان بقوانين لا تقبل المناقشة ، وسخروا الفن لاثارة عواطف الجماهير وتحريك اعجابهم بالزخرفة الباهرة التي يحس الانسان أمامها بالضالة والتي تنبض بالحياة وتائق الاحساس . وقد قال مولينوس اليسوعى « ان الكنيسة هي صورة السماء على الأرض فكيف لا نزينها بأثمن ما نملك من وسائل ؟ » . وازدهر على اثر ذلك فن الباروك بالتواءاته الغريبة وزخارفه المبالغ فيها ، وألوانه المليئة بالحرارة والتوهج وإشكاله الصارخة العنيفة ، وقد أضاف الكاردينال باليوتى عام ١٥٩٤ : « ان الكنيسة تود أن تلهب أرواح أبنائها » ، ولم يكن ذلك بتحريك الاحاسيس وحدها بل والانفعالات أيضا ، فقدمت المشاهد الحانية والمهيبة والمؤثرة بصورة الحماسة المشتعلة وألم الشهيد المذب . وهكذا يذهب المثل الاعلى لعصر النهضة مدفوعا بواسطة السيل الجارف الذى يتدفق بالعلم الذى أحس به المصور كاراتشى ، وبعظمة الباروك وحسبته ، وهو الذى علا بتمائيل برينى فى القرن السابع عشر ، والهب فن التصوير فى فينسيا على ايدي تيبولو ومنافسين من وسط أوروبا ، وكذلك بالساذجة الواقعية التى طورها كارافاجيو حتى جعلها تؤثر تأثير الصدمة العنيفة كرد فعل للمبالغات الخيالية . وتعد لوحة روبنس أعظم لوحة تصور هذه الاهتزازة التى أهملت رقة التعبير الفردى من أجل ابراز الحركة الصاخبة ( لوحة ٩ ) .

**مقررة .** ونجد عصورا ارسطوية تزدھر فيها الميول الشخصية والتعبيرات عن التراث . فعلى حين كان فن الرومانسك في العصور الوسطى افلاطونيا اوغسطينيا ، كان عصر النهضة فى ايطاليا ارسطويا يلتمس الوحي من المصادر المباشرة فى الكون ، ويقوم على الملاحظة ومعرفة الحقيقة بطريقة ايجابية يعمل فيها الفكر من أجل اكتشاف قوانين الطبيعة كقواعد التطور التى ترمى الى فهم تكوين الأشكال وتنظيمها من وراء مظهرها الجرد ، والتى ساعدت على خلق مفهوم فنى جديد هو المفهوم الجمالى الناتج عن التنسيق الفنى .

وقد برزت فى عصر النهضة أهمية الانسان وأهمية فكره وتجاربه الحسية بعد أن كان الله هو مصدر كل شيء فى العصور الوسطى . فقامت فنون شمالى أوروبا على تجارب الانسان الحسية كما قامت فنون ايطاليا على عظمة فكره . وأعلن الفيلسوف فيتشينو أن السماء فى متناول البشرية مهما علت ، وأن الانسان يفرض مشيئته حيث كان . انه يحاول أن يكون موضع الشناء والحمد وأن يخلد مثل الإله .

وكان هذا الاهتمام بالانسان وهو ليد نزعة ارسطو أساس نمو الفكر البروتستانتى القائم على الاعتماد على الضمير الذاتى فى العبادة . وقد وجد التعبير الذاتى متنفسا فى الفن كما وجده فى الدين وخاصة فى البلاد البروتستانتية الشمالية ، ودعمه مبرانت وفيرمير فى هولندا . ولا شك أن الاتجاه البروتستانتى الى التعبير الذاتى كان يحمل فى داخله بذرة الحركة الرومانتيكية التى ظهرت فى العصر الحديث . على أن الكنيسة قد أحست خطر البروتستانتية فقامت لتواجه التحدى بمجامعها المقدسة التى عقدها فيما بين عام ١٥٤٥ وعام ١٥٦٣ وهى

ومع اطلالة القرن التاسع عشر أخذ تأثير الفلسفة الألمانية يستحوذ على الفكر الأوروبي بأسره . وقد لعبت فرنسا في ذلك دورا هاما اذ حملت مبادئ الرومانتيكية الألمانية ومهدت الطريق لانتشارها مع اهتمامها بالخواص الفردية والانفعالات الداخلية وديناميكية الحياة بدلا من التعميمات المجردة التى نادت بها الفلسفة الألمانية في بادىء الامر . وقد امتدت فلسفة « النور » « آوفكلارونج » الفرنسية الى المانيا كذلك، كما أعانت الاتجاهات الجديدة فى العلوم والفلسفة على البحث والاكتشاف وهما جوهر الرومانتيكية ، وتطورت مبادئ علم حساب التفاضل والتكامل الذى يهتم بالتتابع وبما هو لا نهائى من حيث الصغر أو الكبر ، كما أخذت فكرة اللاوعى والذرات الروحية تلعب دورها فى تكييف الوعى العام والدوق الفنى فى أوروبا .

وكان دلاكروا من أهم مفكرى الفنانين فى القرن التاسع عشر . وقد كتب بحثا طويلا عام ١٨٥٧ أثبت فيه تغير معايير الجمال تبعا لتغير الحضارة ، كما كشف عن النسبية فى الطبيعة الفردية لكل فنان ، ورأى أن الفنان بطبيعته انسان فريد متميز حتى يمكن أن نقول أن فرديته وشخصيته المتميزة هما سر عبقريته حين يقدم لنا وجها جديدا أو فريداً للأشياء التى يصورها .

على أن الفن الفرنسى الذى هجر تقاليده الى الرومانتيكية لم يلبث أن عاد سيرته الأولى فى ملاحظة ظواهر الحياة ملاحظة دقيقة لا تعوقها المبادئ الجمالية والمثالية المختلفة حتى جاء جوستاف كوربيه وقال : « أن التصوير محاكاة للأشياء المرئية وأن أساس الواقعية انكارها ... » ومن يومها ولدت النزعة الطبيعية فى الفن .

وإذا كان الصراع الدينى قد أدى الى تبلور مواقف معادية فى ايطاليا كما رأينا فقد ابتعث الحماسة الدينية فى كل من أسبانيا وفرنسا . وقد تأثرت اسبانيا وهى قلعة الكاثوليكية التى لم تنجح البروتستانتية فى اقتحامها بالتيار الصوفى الذى حمله الحلاج من العراق فى القرن العاشر والذى أتى به المسلمون من أمثال أبى مدين فى اشبيلية وابن عربى فى مرسية . وظهر قديسون يمثلون هذا التيار الصوفى كالقديسة تيريز ويوحنا الصليبي كما مثله بين الفنانين المصوران زورباران ، والجريكو .

وبرز فى فرنسا تياران متميزان فى أوائل القرن السابع عشر يتجه أحدهما نحو الإيمان القريب من البروتستانتية ويمثله المصور فيليب دى شامبين ، ويميل الآخر الى العذوبة والهدوء على نحو ما نراه فى لوحات المصور لوسوير .

وظهر فى فرنسا الفنان بوسسان معاصر ديكاوت فابعد النزعة التشكيلية التى ترمى الى امتاع النفس بتنسيق الخطوط والألوان ، ولجأ الى التعبير الذى يربط بين نفس الفنان والمشاهد لفنه ، وهو الذى يرجع اليه الفضل فى ظهور الفن الكلاسيكى .

ثم كان القرن الثامن عشر هو القرن الذى تجاهل المبادئ الذهنية وفضل الاعتماد على الحواس ، لأنه كان يهدف الى الامتاع واثارة الخيال ، وتطورت الناحية الحسية الى شهوانية نحو ما نرى فى أعمال فاتو وبوشيه وفراجونار . وقد اتجه الفن خلال هذا القرن نحو الخطوط الحركية والانحناءات والتموجات والهروب من التماثل الهندسى ، وظهرت حركة الباروك المفرطة المعقدة والركوكو القائمة على تقليد أشكال الاصناف والمحارات فى فنى العمارة وصناعة الأثاث .

الجامدة لتختار بين ثقة الجماعة التي يتهدها خطر العمى وبين قلق الفرد الذي يصبح في سر عامل نفى وتحلل . ولن يكون الحل في اختيار أحد الاتجاهين المتعارضين اللذين يحمل كل منهما وعودا ومخاطر بل في محاولة لم تبذل بعد للتوفيق بينهما .

عدئ فاسارى ليوناردو دافنشى ورافائيل وميكلائجلو اعظم فناني عصر النهضة ، فقد تمثلت في رافائيل جميع التيارات التي سادت عصره ، وحمل فن ميلانجلو الارهاصة باتجاهات المستقبل ، في حين كان ليوناردو قمة للروح العلمية التي كانت قد اخذت تنمو قبل ظهوره ، كما كان أول عبقرى حقق الكثير من التجارب العلمية التي خامرت العقول منذ اكثر من قرنين ، وكانت نظريته الفكرية تتويجا للجهود التي بذلت في اواخر العصور الوسطى فيما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر . ومع هذا لم يجد فن ليوناردو ترحيبا كبيرا من معاصريه الذين لم ينظروا اليه الا على انه مهندس ، والذين قامت فلسفتهم على المذهب الانساني الذي كان في حقيقته تجديدا للمثل الافلاطونية واحياء لفلسفة افلاطون بينما انتمى ليوناردو الى المدارس الفكرية الارسطية التي ازدهرت في اواخر العصور الوسطى ، عاكفا على البحث التجريبي الخاص بالطبيعة كما هي في الواقع ( لوحة ١٢ ) .

ونستطيع ان ننبين الصراع بين ليوناردو ومعاصريه في كتاباته العديدة حين كتب يقول :

« سيتهمنى اعدائي بالقصور عن التعبير لان ثقافتى ليست ادبية ، مهملين ان اعمالى نتيجة خبرتى لا نتيجة قراءتى ، والخبرة استاذ كل كاتب ، وقد اتخذتها استاذاً لى . . . واذا كنت لا اشير الى كتاب آخرين كما يفعل غيرى فان هذا يكسب كتاباتى قوة خاصة ، اذ اننى اعتبر الخبرة استاذ أساتذتهم » .

كما جاءت صحيحة اندريه جيد في كتابه « اللاأخلاقى » : « ان مايميز بينى وبين الآخرين هو ما أستطيع أن أقوله وحدى دون أن يقوله غيرى أو يسبقنى اليه » فكانت هذه الصحيحة شعارا للفن الحديث في القرن العشرين الذى يقوم على الأصالة والجدة ومعاداة الأفكار التى سبق معرفتها . غير ان الواقع المادى والقوانين العقلية قد وقفت في وجه هذا الاتجاه الجديد ، وأصبح امام الفن طريقان : فأما ان يكون أداة للامتع وأما أن يكون تعبيرا عن الذات ، وهما الطريقان اللذان تقاسما المدارس الحديثة . وقد حمل فن الامتع التقلبات المختلفة التى ظهرت في فن جوجان والتكيبية ، ثم فن سيزان بتكويناته القوية الى الحركة التجريدية . بينما أفسح فن التعبير عن الذات المجال للكشف عن أعماق حياة الفنان الروحية ، وقد مثله فان جوخ والحركة الوحشية الفرنسية وفن ادوار مونش والحركة التعبيرية الالمانية والسريالية التى تستلهم العقل الباطن الذى حسر سيجموند فرويد عنه الستار في أوائل هذا القرن .

وفي النصف الثانى من القرن العشرين يجد الفنان نفسه مضطرا للاختيار بين اتجاهين احدهما اتجاه الشعبية في الفن ، وهو في حقيقته امتداد للواقعية البرجوازية منذ قرن كامل ، لان ماديته ليست الا انعكاسا دوجماتيكيها لها . والاتجاه الثانى هو الفن المحدد تماما غير انه يستعيز عن نضجه بابتكارات استفزازية . وتقف أوروبا الهزيمة بين الاتجاهين مثقلة بماضيها وبمستقبلها حين تتلاءم مع الاوضاع الجديدة ، موزعة بين اهتمامها بالمحافظة على تراثها وبين رغبتها في الانطلاق نحو المفامرة الخلاقة ، ويعكس الفن الوليد الفاض هذا الانقسام في البشرية . ويبدو ان الثقافة لم تتحرر بعد من تقاليد



لوحة ١٢ ليوناردو دالفنشي  
١٢ سرطان البحر



١٢ ب الزنبقة



١٢ ج ليوناردو تنامل اكثر الاسرار مراوغة : طبيعة السوائل وحركة المياه

وصف نفسه في كتابه « الموسوعة الاطلمية » بأنه تلميذ التجربة ، كما هاجم فيه آراء افلاطون في علم الهندسة والرياضيات والعلوم . بينما عد ارسطو امام الفلاسفة لاهتمامه الكبير بالعالم المادى ، وكثيرا ما اقتبس من آرائه في الاخلاق والطبيعة ، واغترف من كتبه عن الأرض والسما والأرصاد الجوية ، كما اعترف بفضل ابن سينا في تقديم ارسطو الى العصور الوسطى في القرن الحادى عشر الميلادى .

واذا كان ارسطو قد قال : « أن الافكار العامة وليدة التجارب وحدها » ، وعلق على ذلك توماس الاكوينى بقوله : « أن الافكار العامة ليست الا تجريدا للأشياء المحسوسة ، وأن على النفس أن تشتق كل معارفها من العالم الحسى وخاصة العالم الحسى العقول ، وهو ما يؤكد استحالة معرفة الاله معرفة مباشرة وفقا لهذه النظرية » ، فانا نجد ان ليوناردو قد كتب في احدى مذكراته ما يثبت قبوله هذا الراى حين قال : « أن الامور الدهنية التى لا تنبع من الحس أمور باطلة ويستحيل ان تتولد عنها اية حقيقة » .

وقد دفع الاهتمام بالفن ليوناردو الى الاهتمام بالمحسوسات وخاصة بما يدركه بحاسة البصر وبينما كان الافلاطونيون في عصره يؤمنون بأن الاشعة تنبثق من العين وتقع على الاشياء ، هذا هو حذو ارسطو وقال بأن العكس هو الصحيح ، وابدى اعجابه بالتقاء الاشكال والالوان واجزاء العالم كله في العين التى تشبه في رايه الهرم الذى تستقبل قمته اشعة كل شيء ، وكان يرى أن الجو مشحون بالاهرامات المكونة من المستطيلات التى تتجمع في العين من كل تلك الاشياء المضيئة .

• • •

كذلك هاجم أعداء العلم والسفسطائيين الذين يعنى بهم النظريين قائلا :

« انكم تخطئون انتم والسفسطائيون ، وتجرون آخرين معكم الى الخطأ حين تحتقرون العلوم وخاصة الرياضه التى تشمل الحقيقة .

وبقى الصراع قائما بين العلم والادب بعد ليوناردو حتى اليوم مميزا للحضارة الاوروبية ، فلم يحدث مثل هذا الانشقاق في حضارة غيرها ، وبقيت اوربا تعيش في ظل تقليد مزدوج : تقليد الآداب وليده النهضة او ما نسميه بالانسانيات ، وتقليد العلوم التى تتضمن مفاهيم الدقة والموضوعية والنظام الذى يخضع لضابط خارجى عن الذهن . والمهم في هذا كله هو ملاحظة ان ليوناردو رائد التجارب العلمية كان وليد العصور الوسطى المتأخرة وليس وليد عصر النهضة .

وتؤكد مذكرات ليوناردو انه كان يهتم بقراءة مؤلفات القدامى الذين كتبوا في العلوم والتاريخ الطبيعى . واثرت تلك القراءات في فنه خاصة في صورته التى رسمها بالقلم الرصاص ، والتى حاول فيها تقديم صورة دقيقة للواقع في رسمه للبشر والحيوانات والنباتات . أما قراءاته الايطالية فكانت موزعة بين كتب الاخلاق والجبر والرياضة والجراحة والطب والزراعة والموسيقى والرحلات والسحر وما يدور حول رمزية الأحجار . ولم يكن يعطى أهمية لافلاطون وقد علق على بحث كتبه « فتشينو » عن علم اللاهوت الافلاطونى فقال في سخرية : « اننى اترك للرهبان الذين يعرفون أسرار الكون والوحى والالهام مهمة الفصل فيما قاله عن تعريف النفس » .

كان ليوناردو معارضا للوحى أو الهوس الذى يعد عنصرا مهما في الفكر الافلاطونى، وقد

**هـ - الفن والمجتمع :**

تعد الأعمال الفنية سجلاً صادقاً لعادات المجتمع وتحولاته التي تترك أثرها الجلى في أساليب الفكر والتدوق ، ثم أن فهمنا للواقع الاجتماعي يحدد تفسيرنا لمظاهر هذا الواقع .

وقد حدث لمجتمعات العصور الوسطى التي كانت تسودها الأرستقراطية بنظام فروسيتها أن استسلمت لسيادة طبقة جديدة هي طبقة البرجوازية التي أخذت تطالب بواقعية جديدة تتلاءم مع أذواقها وأهوائها وأساليب حياتها ، وغدا الفن الفلمنكى أوضح تعبیر عن هذه الحضارة الجديدة بعد تبلورها في بلاد الفلاندر .

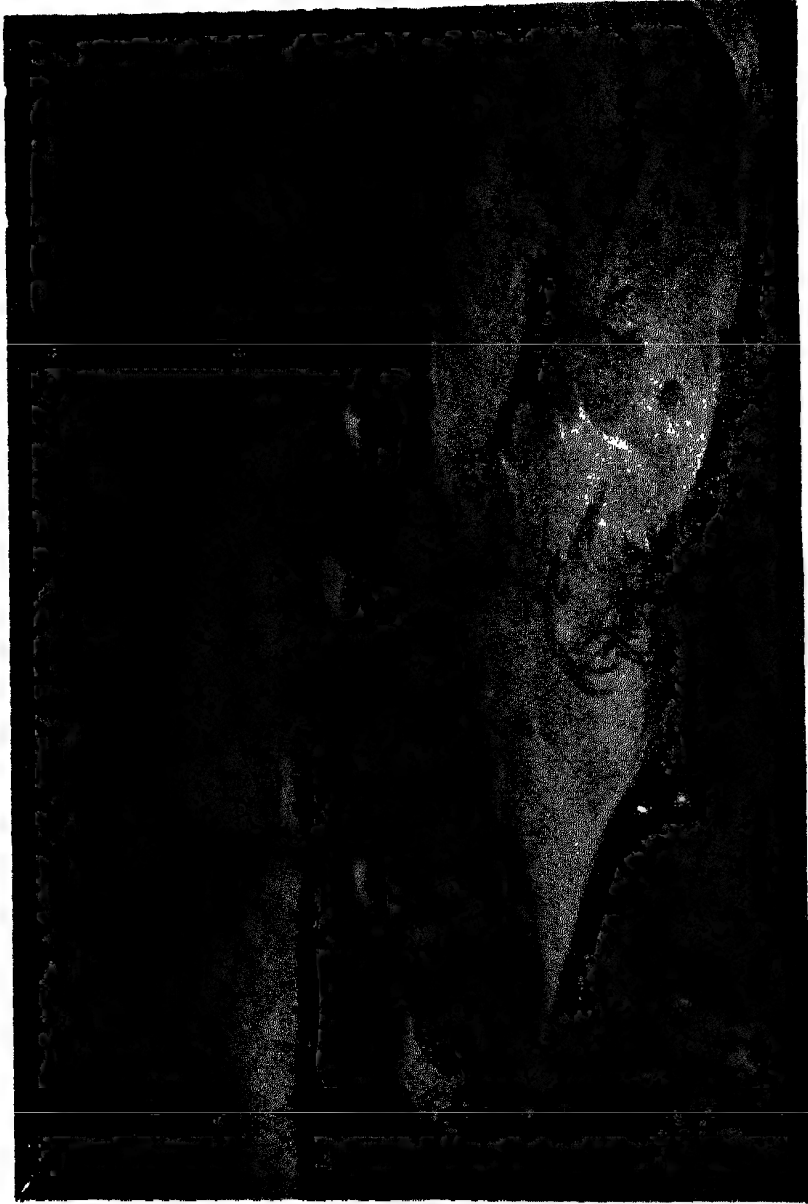
والواقع ان كل حضارة ظهرت منذ فجر التاريخ تميزت بحقيقة خاصة ، وكانت الحقيقة في الحضارة الهندية القديمة هي الوهم وزيف العالم ، وكانت الحقيقة عند البدائيين هي وجود قوى سحرية تحرك العالم ، وكانت الحقيقة في الفن الكلاسيكى الذى ازدهر على شواطئ البحر المتوسط هي القناع الذى يخفى وراءه حقيقة لا تراها العين ولكنها أصفى من القناع الذى يسترها ، وهى الحقيقة التى سماها أفلاطون « المثل » والتى أطلق عليها فيثاجوراس « العدد » باعتبارها مبدأ لا يفسر ولكنه يسجل على شكل أرقام ، وهو ما يفسر بحث الفن القديم عما وراء المظهر الخارجى ، عن النموذج الخالد والنسب الكاملة . ورات العصور الوسطى الحقيقة في روح العالم التى تختفى وراء العالم المرئى وهى الله ، وليست واقعية الفن القوطى الا مجموعة رموز ومفاتيح لماهية الله . وقد شهد فن القرن الخامس عشر اتجاهها جديداً في الواقعية انتقل معه الواقع من عالم الأفكار المجردة الى عالم الحواس أو على حد قول ديكرات : « يستطيع المرء أن يجد

فلسفة علمية تؤهلنا لنكون سادة الطبيعة والمسيطرين عليها بدلاً من تلك الفلسفة النظرية الخالصة القائمة على الحدس والتى تدرس في المدارس » . ثم جاءت المدرسة الفلمنكية بالمذهب الوضعى البرجوازي بعد هزيمة الاقطاع المبكرة في بلادها فخدمت روح التصوف والتأمل النظرى التي كانت تميز العصور الوسطى ، وظهرت الواقعية متضامنة مع البرجوازية في هولندا في منتصف القرن الخامس عشر ثم شملت أوروبا كلها خلال القرن التاسع عشر وانتصرت الأفكار المادية ، وارتبط الفن بالعلوم والفلسفة وهو الارتباط الذى بقى حتى عصرنا الحديث والذى نجده واضحاً في ظهور الانطباعية في الفن ، القائمة على تفتيت المادة واحالتها الى جزئيات في نفس الوقت الذى وصل فيه علم الطبيعة الى تحليل المادة الى ذرات ، كما نشأ الفن التجريدى الذى لا يعترف بمظاهر الأشياء ويعتمد على تكوينات الفنان الذهنية ، مع ظهور نظرية علمية تدعى أن بناء الكون رياضى خالص وأن الأرقام هى الحقيقة الوحيدة .

على ان أية حركة فنية لم تكن تنقطع تماماً عما قبلها رغم اختلافها عنها في جوهرها . ولا شك ان الفن الفلمنكى رغم واقعيته واختلافه عن الفن القائم على الايمان بالحياة الروحية والقيم الدينية كان ينطوى على شعور روحى نلمسه واضحاً في أعمال بعض الفنانين الهولنديين من القرن السابع عشر من أمثال رمبرانت وفيرمير ورويزدائل .

ان ميزة الفن الفلمنكى هى انه ادخل في تطور الفنون عنصراً جديداً هو تحريك احساس المشاهد بالعالم المادى عن طريق حواسه ، فالفنان الفلمنكى يجملنا نشعر حتى بالضوء والجو وكأنها أشياء محسوسة ذات كيان يمكن رؤيته ( لوحة ١٣ ) .





لوحة ١٢ برويجل : العاصفة . حجب الولوج بالحركة والحياة في اللاندسز التنظيم الصارم للإشغال ، ذلك التنظيم الأثري لدى الإيطاليين . فقد التقط الفنان كل ما هو مصور في تيارات كاسحة من الطاقة .

الوسطى التى لم يكن يتميز فيها وجهه عن آخر ، وقد حرك جونسالفيس الحزن أمام الموت فى نفوس أبناء عصره حتى انبعث فى كل أعمال الفن البرتغالى من بعده ، وأصبح هذا الحزن الذى يبرز وحدة الانسان أمام قدره ، السمة المميزة للثقافة البرتغالية كلها . ونلمح فى صورة للمسيح « هاهو ذا الرجل » من أعمال مدرسة جونسالفيس عن حسرة الانسان وحيرته أمام فناء العالم ( لوحة ١٤ ) .

وبقى التيار الكلاسيكى فى القرن السابع عشر محصورا فى فرنسا - الملك وحاشيته لتوافق السلطة المركزية مع ما فى الكلاسيكية من احترام للنسب وللنظام . ولم يندثر تيار الباروك الذى ازدهر فى القرن السادس عشر كرد فعل لحركة الإصلاح البروتستانتية والقائم على التطرف والمغالاة فى تجسيد الانفعالات الحارة ، وإنما بقى فى الريف الفرنسى بعيدا عن سطوة الحكم المركزى والأرستقراطية التى هجرت الريف لتقيم فى فرساي حول قصر الملك القوى لويس الرابع عشر ، وكانت تولوز أهم مراكز الباروك الفرنسى بفضل الفنان انطوان ريفالز رائد مدرسة الباروك الفرنسية فى القرن الثامن عشر ومؤسس أكاديمية تولوز التى تخرج منها أنجر وقد جمع هذا الفنان بين عنف الباروك ووحدة التباين التقليدية عند الكارافيجين ، بين نقاء الخطوط وتنافر الدوق ، بين التناسق والفرابة ، بين هدوء التشكيل وصخب العواطف البشرية .

#### ٦ - الفن والقومية :

اتجهت أغلب المدارس الفنية الإيطالية التى كانت ترمى الى تحديد مفهوم الجمال تحديدا دقيقا ، واخضاعه لنظم وقواعد نحو فلورنسا وروما وبولونيا ، وهى المدن التى ترعرت فيها النزعة الكلاسيكية فى القرن السابع عشر ثم

انتقلت الواقعية من الاقاليم الفلمنكية الى البرتغال خلال زيارة الفنان المبدع جان فسان آيك الذى هز قدومه الفنانين البرتغاليين ، ومع حركة التبادل الفنى الواسعة التى كانت قائمة بين الفلمنكيين والبرتغال . غير ان البرتغال قد خطت خطوة أبعد نحو اكتشاف الروح الحديثة ومنحت الفن الفربى حس الفرد وقلقه . والواقع ان واقعية القرن الخامس عشر لم تكن الا خطوة نحو الفردية التى كان تطورها من أهداف الغرب .

ويمكننا القول بأن الفضل فى ظهور الفردية فى الفن البرتغالى إنما يرجع الى الفنان **لونو جونسالفيس** الذى تميز برسم وجوه بشرية ينطوى كل منها على سر نفس تعبر عن التجاعيد والعيون المحدقة فى الآفاق البعيدة ، وكانت البيئة البرتغالية باعثة هذا الاهتمام بالتعبير عن النفس ، فقد كان الشعب البرتغالى المظل على محيط لامتناهى يشمر فى أعماق نفسه بالوحدة التى يحسها الملاح المحصور بين الماء والسماء ، وما أشبه الحياة المرتبطة بالبحر الفسيح بحياة البدو فى الصحراء فى تحريكها للانطواء والتأمل فى مسائل الحياة والخلود . وقد نجح الفن البرتغالى فى التعبير عن الفردية تعبيرا يميز كل انسان عن الآخر . بل كان اهتمام الفنان البرتغالى بفردية موضوعه سببا فى محاولته اضافة البروز والكثافة على لوحاته الى حد يوهم المشاهد معها بأنها واقعية . وقد نجح فى التغلب على سطحية الصورة باكسابها عمقا عن طريق التشكيل والتجسيم اللذين كانا يبدوان فى النحت أكثر مما يشاهدان فى التصوير ، وقد انتشرت هذه الصور الشبيهة بالتماثيل فى أوروبا كلها ، على ان أهم ما أنجزه جونسالفيس هو كشفه عن أسرار الانسان ، فقد صور العيون وكأنها منافذ تطل على أحلام الافراد الداخلية ، وهى ميزة تميزه عن فن العصور



لوحة ١٤ نونو جونزاليس

١٤ الفرسان . كل منهم مشغول بنفسه ومصيره وتتجه عيناه نحو اللانهاية



١٤ ب ها هو ذا الرجل في القرن ١٥



وقد لعب جورجيونى دورا هاما في إبراز الحياة الكامنة في الأشياء على حساب شكلها المجرد باستغلال الضوء وتنوعاته خلال ساعات النهار ، كما أضاف بلينيى عنصر الاثارة للصورة بولعه بما رآه في الشرق خلال زيارته للسلطان التركى محمد الثاني عام ١٤٧٩ من أمور مثيرة للدهشة والاعجاب وخاصة النسيج . ويمكن وصف التصوير في البندقية بأنه فن مثير تحول الى فن حساس ، ذلك أن كل احساس يتحول عادة الى انفعال ، وكل انفعال يساعد على ايجاد حالة روحية معينة ، ويمكننا القول بعبارة فنية أن الرسم يتحول الى اللون ، والشكل يتحول الى الجو المحيط به ، والدهنى الخالص يتحول الى العاطفى الخالص ، وبينما كان الفنان الايطالى عامة ينظر الى فنه على أنه فرع من فروع العمارة بما يتضمنه من قواعد ونسب ، كان فنان البندقية ينظر اليه على أنه موسيقى يهدف الى اثارة حالات نفسية معينة .

ويرجع الفضل في التحول من التشكيل الى الموسيقى الى ثلاثة من أحسن فنانى البندقية وهم تنسيانو وفيرونيزى وتنتوريو ، وكانوا لا يؤمنون بمحاكاة الواقع بل بخلق عالم جديد قائم بذاته داخل اطار الصورة يتمتع العين بأصواته وألوانه ، ويشير الامعجاب بصرف النظر عن حقيقة الموضوع الذى يصوره . وهكذا كان هدف فن البندقية الرئيسى هو اثارة الحالات النفسية المختلفة عن طريق الصورة ، وهى الحالات النفسية التى حاولت الرومانتيكية أن تثيرها فيما بعد من حزن صيباني تحركه شدة الشهوة الى شعور عميق بسرعة تقلبات الزمن .

فاذا انتقلنا الى فرنسا وجدنا التصوير الفرنسى يهدف الى اجادة تصوير الشخصيات وتصوير الطبيعة . وقد وجد الدوق الفرنسى فيهما وسيلة للتعبير عما يكمن في النفس ، وان

الكلاسيكية المحدثه في القرن التاسع عشر ، بينما اتجهت المدارس التى تبغى التخلص من قبضة النظام الجمالية التقليدية نحو البندقية مهد الحركات الثورية الايطالية التى يلهم جوها الشعاعى التجديد والابتكار . وقد تركت البندقية اثرا واضحا على المصورين الفرنسيين الرومانتيكيين مثل دلاگرو الذى تلقى الهامه الاول من لوحات تنسيانو وفيرونيزى الموجودة بمتحف اللوفر ، بل لقد كانت البندقية أحد المراكز الرئيسة لحركات التجديد الفنية التى انتشرت في أوروبا الغربية بأسرها . وقد تميزت عن جميع مدن ايطاليا ، فعلى حين كانت الموانئ الايطالية مفتوحة للتأثيرات الخارجية حتى تأثرت نابولى بالتصوير الأسباني ، وتأثرت جنوا بفن روبنز وفان آيك ، وعلى حين كانت روما تصمد للتيارات البيزنطية والجرمانية من أجل تدعيم شخصيتها ، كانت البندقية مركزا هاما يربط بين الشرق والغرب ويصل المانيا بايطاليا . لقد تأثرت بعظمة الفنسون البيزنطية وبواقعية فنون الشمال الحسية ، كما أثرت بدورها في الحركة الفنية الأوروبية .

على أن فن البندقية كان فنا حسيا يرد كل شيء للإدراك البصرى للمادة ، على غرار ما كان يحاوله الفنانون الفلمنكيون في الشمال ، ولعل تشابه البيئة في كل من هذين المراكز هو الذى خلق هذا التقارب بين الفن الفلمنكى وفن البندقية . وكانت الطبقة السائدة هنا وهناك هى طبقة التجار وأصحاب السفن ، ولم يجمع السلطة في أى من البلدين حاكم واحد ، وكان فنان البندقية يصور المادة لذاتها ولما تثيره من لذة حسية في نفس المشاهد والفنان ، على عكس فنان بيزنطه الذى كان مولعا بالمادة لما تسبغه من دلالة على الموضوعات العامة أو الدينية التى ليست لها صفة الفردية .

تركز اهتمام الفن الفرنسي خلال تاريخه الطويل على الصورة الانسانية دون اهتمام بتمثيل الطبيعة في خلفية الصورة ، على غرار الشعوب الشمالية التي هشتت هي الاخرى الصورة الانسانية .

وقد اختلفت صور الاشخاص في الفن الفرنسي باختلاف العصور ، وان توزعت المدارس الفرنسية بين الوقار والابتسام تغلب احداها هذا وتغلب الاخرى ذلك ، وان تواكبا معا في كل وجه بشري حتى يمكن القول بان الوجه الفرنسي يعبر عن وقار مبتسم . وقد غلب على الصورة الانسانية في العصور الوسطى تعبير عن حماسة شبه دينية ، بينما اتسمت في عصر النهضة بطابع الترفيه الممزج بالشهوة ، ثم اخذت تعبر في القرن السابع عشر عن التوتر النفسي الشديد ، وعبرت في القرن الثامن عشر عن لذة الحياة ومتعتها ، حتى اذا جاء عصر الثورة وبداية عصر الامبراطورية اخذت الصورة تعبر عن التطلعات القومية التي تبرز في ملامح الحزم والعزم والتفكير العميق المتمثلة في وجوه الرجال والتي تبدو في ملامح الكياسة والرقية والشاعرية التي تكسو وجوه النساء . لقد حفلت صور هذه الفترة بالتعبير عن طبيعة النفس الفرنسية ومر فطرته وولعه بالتفكير في اسباب وجوده وفي اهداف حياته وفي اساليب الوصول الى هذه الاهداف ، ومن احساسه بالمسؤولية عن توجيه حياته ، وعما يميزه من كبرياء متمزجة بالمنطق وميل الى اخضاع سلوكه لقواعد عامة .

والواقع ان كل شعب يمثل نموذجا بشريا خاصا ، فالاسباني شديد التصوف لا يقبل المساومة ولا انصاف الحلول ، والالمانى محارب خاضع للسلطة ، والانجليزى تاجر وفلاح ، اما الفرنسي فانه من قديم الزمان فلاح وجندى

في نفس الوقت ، يخضع لنظام تقبله عن اقتناع واختيار حر . غير انه قد اضيف الى هذا النموذج التقليدى نموذج فرنسي جديد يمثل ساكن المدن من الطبقات المتوسطة . على ان الفرنسي شديد الاهتمام بالمرأة وجمالها حتى اننا نرى الدوق الرفيع بارزا في صور المرأة الفرنسية كما نحس انها رمز للحلم وللوحى الفنى .

وقد لعب وضع فرنسا الجغرافى بين هولندا وايطاليا دورا في تأرجحها بين تقاليد الشمال والجنوب ، وان غلب على فنانيها استلهاهم الشمال في تصوير الوجوه البشرية والتأثر بالواقعية الفلمنكية والهولندية . وقد استوحى عاشقو العرى ومصورو الانسان باعتباره جزءا من الطبيعة فنون ايطاليا وتقاليدها .

وظهر التباين واضحا في مدارس فرنسا الشمالية والجنوبية ، وارتبط ازدهار تصوير الوجه في اوائل القرن السابع عشر بظهور طائفة من الفلاسفة الريفيين المولعين بالانطواء والبحث فيما وراء الطبيعة ، كما ارتبط تدهوره بارتقاء لويس الرابع عشر عرش فرنسا وهو المؤمن بالديكتاتورية والسلطة المركزية دون الاهتمام بمشاكل النفس ، حتى كثرت بسمات الرضا على أوجه لا يتميز احدها على الآخر بميزة شخصية او فردية .

والواقع ان تصوير الاشخاص في فرنسا يعكس حياة الشعب النفسية ، فلم يكن يعرض من الانسان غير مظهره الخارجى في العصور الوسطى وكأنه جسد بلا روح ، ثم اخذ يظهر اهتماما بالحركة والقلق . ولعل سر هذا الاهتمام مرده الى نظرة هنرى برجسون الفيلسوف الفرنسى الى ان تاريخ الافكار الفنية او العلمية هو تاريخ الانتصار على العناصر المتحركة في الطبيعة . وقد حاولت العصور

## ٧ - الفن والفرد :

تألفت النزعة الانسانية في عصر النهضة فأخرجت الانسان من عالم الغيبيات والدينيات الى عالم الطبيعة الذى يعيش به ، وتحول الحوار الداخلى بينه وبين الاله الخفى الى حوار بينه وبين الطبيعة ، وأخذ الفنان يسجل مظاهر العالم مصورا الانسان على أنه جزء من هذه الطبيعة ، وازداد الشعور بعالمية الانسان وعظمته معا . قال روبنس أشهر فناني هذه النزعة الانسانية : « اننى اعد العالم بأسره وطناً لي » ولم يجر باحثاً وراء الطبيعة ، ولم يمن بمشاكل الانسان النفسية وانما اهتم بالمعنى العميق الكامن فى الطبيعة . كان روبنس شديد الميل الى انجاز أعمال كبيرة تصور جوانب الحياة المختلفة بدلا من الأعمال الصغيرة التى تشبع الفضول أو التأمل الداخلى ، فقد دفعه شعوره الغامر بحياة العالم كله الى تجاهل التحديد الدقيق ، فجمع بين كائنات العالم المختلفة وأصواته العديدة فى مجال واحد ( لوحة ١٦ ) ولهذا لم يخضع تكويناته الفنية للقوانين التقليدية عن التماثل وثبات الاشكال ، وانما كانت تظهر فى اشكال غير مالوفة تكثر فيها الانحناءات والالتواءات وكأنها تدفعها تيارات فى حركة مستمرة .

على ان روبنس قد اعطى اهتمامه الأكبر لجسد الانسان فصوره مليئا بالحياة والحرارة ، ولم يكن يحدد خطوطه الخارجية حتى يعبر بذلك عما يشيعه من حركة وحياة . ومع مرور الأيام أخذ روبنس يمنح اهتمامه للجانب الروحى للانسان ومضى يصور الجسد البشرى ليضيف الى تعبيره عن بهجة الحياة رهبة من الموت ، وعناءه فى سعيه من أجل لقمة العيش ، وحين أوشكت حياة روبنس على الانتهاء أخذت نظرتة تمتد الى الغاز الكون والى العالم الأخرى .

الوسطى فى بدايتها اخضاع كل شيء لحقيقة ثابتة هى الايمان الدينى المتمثل فى كنيسة ذات نظام دقيق وفي شريعة لا تقبل الجدل ، غير أن نهضة القرن السادس عشر قد تفجرت من نزعتين تهدفان الى تخليص الفرد من هذا الجو الثابت ، فأحلت النزعة البروتستانتية حرية الارادة محل الايمان الأعمى ، وخلّصت النزعة الانسانية الفن من النظر اليه على أنه قربان للآله وجعلته وسيلة لارضاء أسى ما فى النفس البشرية .

واهتم القرن الثامن عشر بتصوير الانسان فى بيئته العادية وعلى طبيعته دون اسباغ هالة خاصة عليه ، ودون إثارة المشاعر نحوه ، وقد تحررت صورة الانسان من كل ما يحدّد حركته، بينما حاول القرن التاسع عشر التعبير عن مكونات النفس عبر نظرات العيون خاصة . وكانت عصور التغير والقلق الاجتماعى دائما هى العصور الذهبية لصورة الوجه البشرى ، كما حدث فى عصر الاسرة الثامنة عشرة فى الدولة المصرية القديمة حين تدهورت ديانة آمون التقليدية ، وحلت محلها عقيدة اخناتن ، وكما حدث فى أواخر عهد الدولة الرومانية حين تعددت العقائد وتنافست ، وكما حدث فى فرنسا فى القرن السادس عشر عند انطفاء ايمان العصور الوسطى ، ثم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع ظهور الحركات الثورية المتنوعة .

وكان اهتمام القرن التاسع عشر بكشف مكونات النفس ايدانا بخروج فن التصوير عن قواعده التقليدية ، فقد أخذ الفنان يضحى بالتشكيل التقليدى للوجه البشرى من أجل الكشف عن الانفعالات الداخلية والقلق النفسى ( لوحة ١٥ ) .

● ● ●



لوحة ١٥

١٥ أداويد : رجل ذو فجة ، احتلت الشخصية المكانة الاولى  
في القرن التاسع عشر





١٥ ب كاريو : صورة شخصية للفنان . احرق لهاب  
الرومانسية الملامح العضوية فكشف عن قلق الانسان الداخلي



١٥ ج كاريير : الفونس دوريه . غدا الاسي الشخصي في نهاية  
القرن التاسع عشر لونا من الانهالك يتجلى في التقنية



١٥ دموثيه : صورة شخصية للفنان . مع المدرسة الانطباعية  
تتلاشى الشخصية والحياة الباطنة ، مهتمة بالامانة البصرية



لوحة ١٦ روبنز : عيد جميع القديسين الى احساس روبنز  
بعاليه الانسان يعود الفضل في تخطيه حدود الشكل الحميمة  
والابناء بالانصهار السام بين الناس والاشياء والضوء والفراغ  
مما اسفر عن عالم متواء نابض مضطرب كالحيط

وقد لعبت مدارس بولونيا وروما دوراً في تشكيل ثقافته الفنية ، كما امتدته مدارس البندقية بالحساسية الكامنة في فنه ، وقد يكون له في تصوير المشاهد الخلوية أسلوب يحمل الذوق الروماني . وتتجلى عبقرية بوسان في تنسيقه بين حسه وتفكيره لا يجعل أحدهما يغلب الآخر ويخفيه ، ولهذا يجب أن نفهم كلاسيكية بوسان على أنها تنسيق واع لكل ما يكمن في النفس من غرائز واحاسيس وافكار معا .

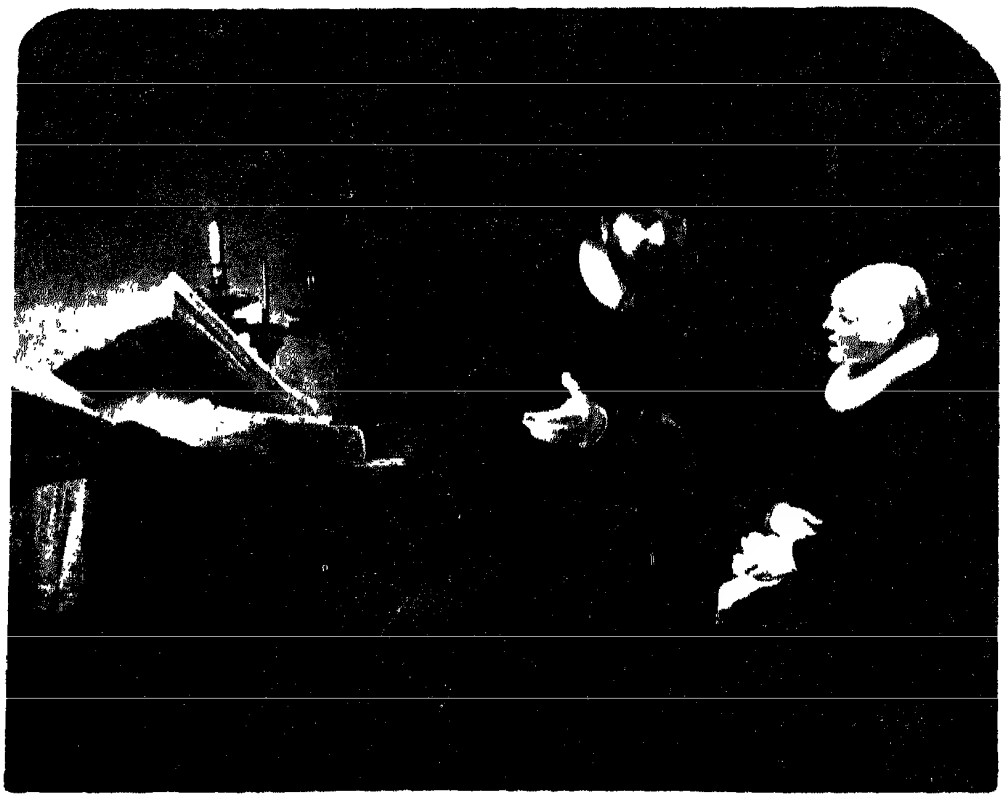
أما رموزات فقد لعب ظهور البروتستانتية دوراً في تشكيل عبقريته . ولما كانت البروتستانتية عبادة فردية على عكس العبادة الكاثوليكية الجماعية ، تعمل على إبراز الجوانب الذاتية للفرد وتعطي أهمية كبرى لمسئوليته الشخصية أمام الله ، فقد وجه رموزات اهتمامه للجوانب الفردية وأخرج العديد من الصور الشخصية التي حاول فيها التعبير عن الحالات النفسية لشخصياته . بل أنه وجه اهتماماً كبيراً بصورته هو ، وكأنما كان يبحث عن ذاته خلال تسجيله للتعبيرات المختلفة التي تتتابع على وجهه . وقد برع في تصوير وجهه الى حد التعبير بمجرد نظرة خاطفة أو لفظة بسيطة عن انفعالات روحه المختلفة ، وكذلك حرص في تصويره للآخرين على اختيار حركة مميزة تكشف سر شخصياتهم ( لوحة ١٧ ) .

على أنه اهتم خاصة بأسرار النفس في لحظات العزلة والوحدة التي يتأمل الإنسان فيها سر الوجود وعلاقة الإنسان بالله ، وهو ما تشهد به صوره المجلة التي يلخص فيها الشكل الخارجي بخطوط سريعة ، مركزاً اهتمامه في نظرة التأمل المنبعثة من العيون ( لوحة ١٨ ) ، بل أن أغلب لوحاته تجسد احساس الإنسان بالعزلة في هذه الحياة ومواقفه المختلفة حيال

ولعل الفنان الفرنسي الكبير بوسان لم يكن رائد الكلاسيكية الجامدة فحسب حسبما روت كتب تاريخ الفنون وإنما كان الى جانب ذلك عبقرياً فريداً كما أوحى بذلك تعليقات دلاگروا . كان بوسان فلاحاً فرنسياً يهيم كغيره بكل ما هو محسوس فعكف على تصويره في لوحاته متجنباً المعاني المجردة التي تعد عماد النزعة الكلاسيكية . وهكذا لم تكن عبقريته ذهنية تعليمية ، وإنما كان عبقرياً في احساسه بالحياة في عمومها وفي حبه الريفي للطبيعة والذي جعله يبرزها في لوحاته على أنها موضوعه الرئيسي لا على أنها خلفية لموضوعاته ، كما كان بوسان مولعاً بجسد المرأة لذاته ولما يحركه من إعجاب وشهوة لا بوصفه قناعاً لمعنى تجريدي .

ويمكن تحديد عبقرية بوسان في ولعه بالحياة وبالعقل معا . وقد كان تطور العلاقة بين هذين العاملين هو الذي يحكم تطوره الفني ، وإذا كانت حماسه للحياة قد غلبت على عمله الفني في سنوات نضجه الأولى فيبدو أنه أخذ يخضع لفكره في منتصف عمره . على أنه قد اهتم في إحدى فترات حياته بتلوين الوجه البشري بطريقة تجعله أقرب الى النحت منه الى التصوير .

ونستطيع أن نلخص حساسية بوسان في اتجاهين مهمين : هما ولعه بألوان النبات والترقيعية الطبيعية ، ثم توفيقه بين روح الإنسان وروح الطبيعة ، محاولاً تطبيق قواعد الحياة النفسية الإنسانية على عالم الطبيعة بحيث يبرزه في انساق جميل ونظام معقول . وقد أدى تفكير بوسان هذا الى إهماله الشخصيات التي يصورها ضمن لوحاته وتركيز اهتمامه - على غرار فاتو - بالتشكيل العام للوحة والتوفيق بين عناصر اللوحة الإنسانية وغير الإنسانية .



لوحة ١٧ رمبرانت : الواعظ أنسلو وزوجته



لوحة ١٨ دمبرانت : امرأة قرب النافذة

هذه العزلة . وقد ذهب ومبرانت في كشفه عن العزلة الانسانية الى الكشف عن المحبة التي تربط بين الناس بعضهم بعضا ، وبينهم وبين الله لان المحبة وسيلة التغلب على العزلة ، معبرا عن هذه المحبة في لوحاته التي صور فيها المسيح .

وقد برز فنان آخر في تصوير العزلة هو « فاثو » الذي اعتزل العاصمة الفرنسية خلال حكم لويس الرابع عشر . وقد أفرغ مرضه المبكر بالسل مريجا من الحزن والأناقة في أغلب لوحاته حتى تميز فنه بهما . وكان فنه في بداية حياته فنا قصصيا يتصف بواقعية وعمق احساس بحياة الريف الذي يعيش فيه والمثقل بآثار الحروب ، ثم سيطر احساسه بقصر الحياة وآلامها على فنه فأخذ يشيع في لوحاته حزنا مستعلبا خلال جو من اللهو الذي يهيمن عليه الظلام . وقد برز احساسه بالحزن والفناء الذين يهددان كل ما يفعله الانسان حتى في تصويره للمواقف المرحية أو الحفلات المتأنقة في بلاط لويس الرابع عشر ، حتى يوحى جوها العام بالحزن الذي لا يظهر في الوجوه الشخصية ( لوحة ١٩ ) .

كانت نهاية العصور الوسطى نهاية لروح التضامن الجماعي وازدهارا للروح الفردية التي غيرت من شكل الفن الذي كان في العصور الوسطى نوعا من الحرف التي تخضع لنظام مرتبط بدوق العصر الجماعي وحولته الى عمل فنان مبدع متميز . وقد وضع الفنان الفرنسي **دلاكروا** والشاعر الفرنسي **بودلير** فلسفة لهذا الاتجاه الجديد حين جعل من وظيفة المصور مواجهة العالم المرئي واستغلال عناصر الطبيعة للتعبير عن ذاتيته الفردية ، وقد اتخذ بودلير من الطبيعة قاموسا له ، فهي معجم المراثيات ومخزن الصور التي يختار منها الفنان ما

ينسقه في تشكيل جديد خلاق يعبر به عما يختلج في نفسه من أهواء وميول . ولم يعد الواقع هدفا يبغى الفنان الوصول اليه بل نقطة بداية ينطلق منها ، كما أصبح العمل الفني على حد تعبير دلاكروا جسرا موصلا بين النفوس ، أو بين نفس الفنان ونفوس مشاهدي فنه ، ونجد في ( اللوحة ٢٠ ) ، تنسيقا جديدا لعناصر من الواقع تعبر عن انفعال نفسي هو شعور الانسان العظيم بالوحدة ، وهو معنى لا يمكن ادراكه من رؤية عناصر الواقع منفردة .

وهكذا لم يعد الفن نتاج القدرة على محاكاة الواقع بل القدرة على الايحاء بانفعالات ومشاعر نفسية شبيهة بقدرة الموسيقى على التأثير في السامع . بل ان دلاكروا نفسه قد اقترح مرة عزف سيمفونية خلال عرض صوره حتى يزداد تأثيرها نفاذا الى نفس المشاهد ، كما أعلن بودلير في احدي قصائده عن وجود تجاوب بين العطور والألوان والأصوات .

وقد شغلت الألوان مكانا ملحوظا في فن دلاكروا لشدة تأثيرها على النفس بينما وجهت المدارس الفنية الكلاسيكية السابقة عليه اهتمامها بالخطوط والأشكال باعتبارهما ترجمة ذهنية للواقع المرئي ، فأسبغ دلاكروا بألوانه صبغة شاعرية خلاقة على اعماله الفنية . وكان يقول : « من أبدع فنا أبدع شعرا » والمخالف الفيلسوف لا ينتزج في القرن الثامن عشر الى انطواء كل فن حقيقي على غرض شاعري حين قال : « تكمن في العمل الفني قدرة على انتاج شيء يشبه اعمال الاله في صورة مصفرة » .

على ان الفنانين الرومانتيكيين المحيطين ببودلير ودلاكروا قد انغمسوا في تعاطي المخدرات الجديدة التي اكتشفت في اوائل القرن التاسع عشر والتي تفوق الخمر في





لوحة ١٩ فانو : واجب لكل مرحلة من مراحل العمر



لوحة ٢٠. ديلاكراو : تاسو في بيت الجانين . سخرية المجانين بالشاعر واستوحاد الصقري

« نحن ضحايا دوامة يفقد فيها الأحياء ذاتيتهم دون أن تختفى مادتهم . أننا نحس أننا نسبح في فراغ ، يفلت الواقع المادي من أيدينا ، ويتفتت كل شيء دون أن نوقف تحطه أو أن نمسك بطرف منه . ان الكائن يتهاوى أو يتفتت ونحن معه نخفى » .

ويتساءل رينيه ويج في النهاية بعد هذه النظرة الى الحياة المعاصرة ان كنا نعيش في عصر افلاس تام ، أم في عهد ميلاد جديد ، فيقول :

« حاول الانسان منذ فجر التاريخ اعطاء العالم معنى خاصا ، فجعل للطبيعة وجهها بشريا مفايرا لوجوه البشر ، وملا عالم الفيب بالهة واشباح شبيهة به فلم يحس بالوحدة وسط عالم الآلهة المتعددة . فاذا ظهر عصر الاله الواحد صورة الانسان على هواه خلال العصور المتتابة : فجعله في العصور الوسطى مجموع الألفاظ التي تهدد كيان البشر ، ونسب اليه ارادة لايمك ان الانسان حيائها الا الخضوع ، وصوره في القرن السابع عشر قريبا من البشر حين جعله تجسيدا للعقل الالهى الأعظم الذى لا تختلف قواعده كثيرا عن قواعد عقولنا ، ثم ذوب في القرن الثامن عشر فكرة الاله في فكرة الكائن الأعظم والخالق الذى أنشا العالم دون ان يهتم كثيرا بما يجرى فيه . وخلال الثورة الفرنسية تحول الاله الى مجرد قضية منطقية من قضايا المنطق ، ثم اخذ العالم مكان الله وانكر وجوده وجعل الكمال في مستقبل البشرية لا في ماضيها . وانتشرت فكرة التقدم التى اعطت الأهمية الكبرى لعقل الانسان وقدرته . غير انه كلما حقق العلم انتصارا جديدا تزايد قلق الانسان على مصيره في العصر الحديث ، واحس بالظلمة تحيط به وشعر بتفاهته وقصور علمه ، وازداد حيرة وتخبطا بين الايمان

تأثيرها ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى « تعدد ذواتهم » فقد كانت الفردية هى هدف الرومانسيين الاول . وبقدر ماكانت الكلاسيكية تحاول ان تتطلع الى مركز اتران النفس في الانسان وهو عقله الوامى ، كانت الرومانتيكية تهدف الى التهرب من هذا المركز ودفع الانسان خارج دائرة نفسه بحثا عن المجهول والغريب والخارق للعادة ، ولهذا امتلات صور الرومانتيكيين بالضخامة والحركة والرعب لان هذه العناصر تخرج الانسان من مركز اترانه الطبيعي . على ان المخدرات لايمكن ان تكون خالقة للقدرة على عمل شيء بل هى خالقة لوهم على اداء هذا الشيء ، وكذلك ظن الرومانتيكيون ان المخدرات تمنحهم القدرة على اختراق غلاف الغموض الذى يحيط بالحياة فقد كانوا يتطلعون الى الدوبان في العالم .

• • •

#### ٨ - الفن واللامعقول

يحس انسان القرن العشرين انه قد اقصى من مركز العالم كما طرد جده آدم من الفردوس . غير ان مركز العالم هنا لا يعنى مركزه الجغرافى الذى انكر وجوده جاليليو وانما مركزه المعنوى ، فقد كان الانسان يظن ان اشعامة فكره هى التى تضيء الظلمات ، فاذا بالارض تستحيل تحت قدميه الى بحر مظلم عميق ، واذا هو يحس احساس الفريق الذى تتلاعب به الامواج : حياته شبيهة بقطعة من الخشب يتشبث بها وسط الموج . وقد انعكس هذا الشعور بالفوضى وعدم الاطمئنان على الفن الذى جاهد ليتجاوز حدود العقل وحدود المؤلف بحثا عن رموز جديدة في عالم مجهول تجعل لحياته معنى . وقد قال العالم فيهلنز :

بالله أو الكفر به وكأنما عاد من حيث بدأ ، وذلك أن النظريات العلمية الكثيرة عن نشأة الكون وتشكيل المادة قد أظهرت قصور العقل البشرى عن إدراك العالم أدراكا كاملا ومطلقا ، فما زال في استطاعة الإنسان أن يكتشف ويقدر ولكنه لا يملك أن يعلل أو يفسر .

وقد بدأت فنون القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تسخر من محاكاة الواقع ، وكانت الحركة التكعيبية أول محاولة جريئة صور فنانوها الواقع وكأنه يلوح من خلال مرآة معطمة ، كما ترك فنانو الحركة السريالية أيديهم تهيم على لوحاتهم دون ضابط أو منطق ( لوحة ٢١ ) ساخرين من الواقع بتكوين اللوحة من عناصر واقعية لاتجتمع عادة في الواقع ومن ثم تأخذ شكل الأحلام وتخرج الى دائرة اللامعقول كأن يضعوا وسط الصحراء معزفا تنبثق منه شجيرة ويتدفق منه ماء يشكل تحته غديرا ( لوحة ٢٢ ) ، ثم تأتى الحركة التعبيرية التجريدية مستهدفة الخروج عن منطق مألوف وتشكيل واقع جديد على اللوحة لا ينتمى الى واقع معروف .

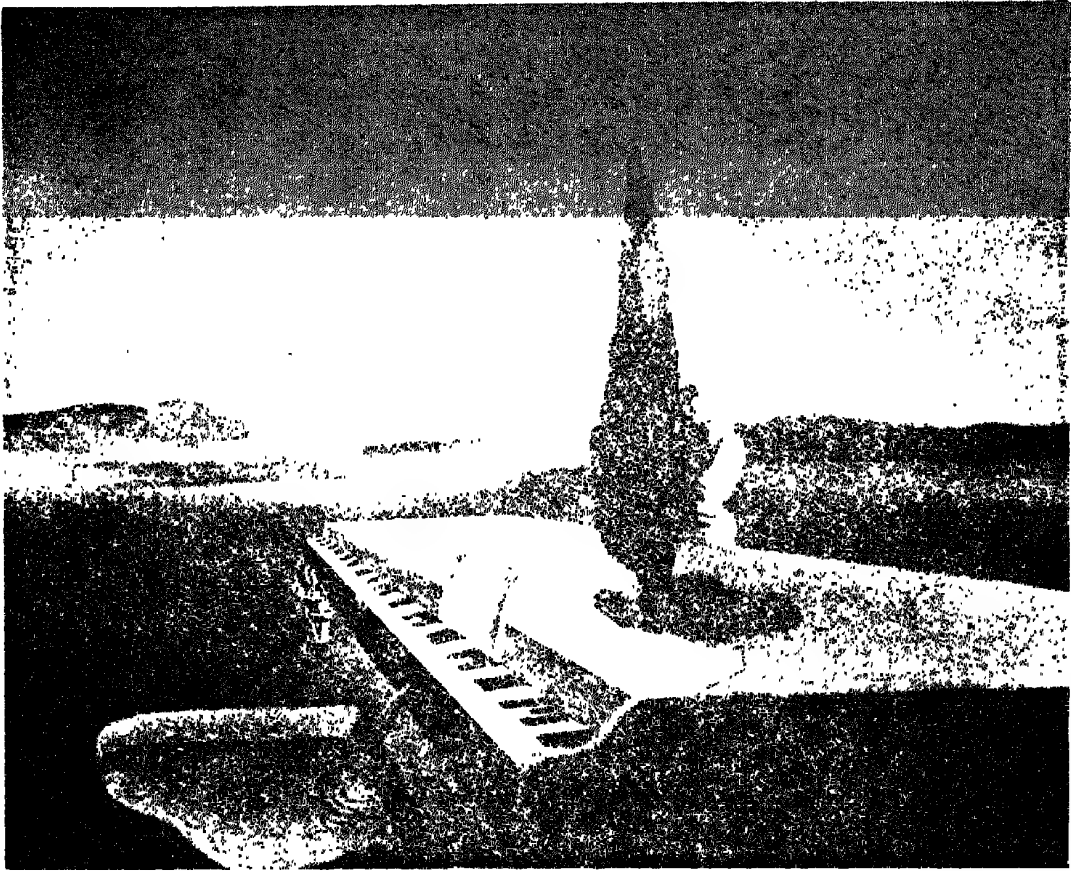
ويمكن تلخيص ثورة القرن العشرين في عجزها عن تقديم تحليل منطقي واع لأعمال البشر . وقد لوحظ اليوم أن اللامعقول الذى صور في بادئ أمره شبه ثورة نفسية تجاه تحليل الحضارات والنظم الفكرية المعروفة قد أصبح منتجعا يحس الإنسان الى جانبه بالراحة والمتعة ، ولا نزاع في أنها متعة مريضة تحمل خطرا داهما على عقل البشر ، غير أنه مما يبعث على بعض الاطمئنان أن بؤادر عدم الاستسلام للامعقول قد أخذت تنمو في بعض الاتجاهات التجريدية الجديدة في الفن المعاصر .

لقد أخذ الفن الحديث يمسك الأزمة النفسية العميقة التى يمر بها الغرب في هذا

القرن ، وتكشف الاتجاهات الفنية الحديثة عن رغبة كبيرة في الهروب الى آفاق غريبة أو بدائية ظهرت في الولع بالفن الزنجرى القديم مع بداية القرن العشرين . وليس الاتجاه الى الفنون البدائية الا ظاهرة من ظواهر عودة العقل الواعى الى العقل الباطن برموزه وإحلامه الغريزية . فأخذ الوجه الإنسانى النبيل يختفى شيئا فشيئا من الفن المعاصر لتحل محله صورة الحيوان المتوحش الذى يرمز في الخيال البشرى الى الحضارة القديمة . ومن الطبيعى أن يهرب العقل الإنسانى الى التفكير فيها كلما حاصرته ازمتات الحياة المعاصرة . وهذا هو ما يفسر لنا الى حد بعيد انتشار الأفلام المخيفة التى تجمع بين اكتشافات العلم الحديثة وظهور الوحوش التاريخية القديمة .

على أن الحيوان الوحشى يلعب دورا آخر في الخيال البشرى لانه يرمز كذلك للشيطان الذى يسيطر على كثير من شئون الحياة ، وهكذا يخشى العقل الباطن الحيوان ويتلمسه في آن واحد . وقد عاش الإنسان في أواخر العصور الوسطى تجربة مماثلة لتجربتنا الحالية حين أحس القلق أمام عصر جديد يجهل ملامحه فأخذت مخاوفه تتركز في الشيطان الذى يبدو في صورة حيوان خرافى ( لوحة ٢٣ ) .

وحقيقة الامر ان الإنسان دائم البحث عن تفسير لوجوده في هذا العالم منذ ألقى به فيه ، وقد وجد ما يهدىء من روعه ويكسبه بعض الاتزان خلال بعض العصور ، فقديما أمدته الحضارة الاغريقية بقوانين تنظم العالم على غرار القواعد التى تنظم الفكر الإنسانى ، فاخفف القلق من حياة الإنسان وأحس بنفسه سيدا للكون وأصبح الموضوع الرئيسى في الأعمال الفنية التى لم تهتم بحيوان سوى



لوحة ٢٢ سلقادور دالى : مصدر الاصوات السريالية تضرب بالعقلانية عرض الحائط . فبينما تحتفظ أجزاء الواقع بمظهرها المألوف للعين يجرى ترتيبها عابثا اذ يتوسل العقل باللاشعور



لوحة ٢٢ في حالات الشك وعدم الاستقرار يستحضر الخيال الحيوان الشرير وبمثل به

الشيطان ذو الالف وجه يعبر كل منها عن تهديدات سوداء

٢٢ أوردس جراف : الشيطان

يتبع راهبا



٢٢ ب ليونور فينزي : فيلاجريا

ان النفس البشرية تتطوى على نور آخر غير ضوء النهار يراه الانسان خلاله كلما اغمض عينيه وتأمل ذاته . وقد عرف **الجريكو** هذا النور وحاول تصويره في لوحاته مجردا من ملابساته المادية مشعا من اعماق النفس مضيئا ماحولها ، والمج **دلاتور** أيضا الى هذا النور الجديد في صورة فتاة مغمضة العينين حاملة مشعلا مضيئا ( لوحة ٢٦ ) ، وأشار اليه **مهرانت** كذلك في صورته الشهيرة للملك **شاؤول** وهو يصفى الى عزف **داوود** على قيثارته ( لوحة ٢٧ ) .

والحق ان الانسان يحيا بين ضوئين ، ضوء النهار الذى يرى فيه حقائق الحواس والدكاء ، وضوء الليل المنبعث من أعماقة والذى يرى فيه حقائق النفس وهما ضوء الواقع وضوء التصوف .

واذا كان الانسان يجد في المجال المضيء كل شى مرثيا ومعقولا بمجرد فتح عينيه وأرهاف حواسه فهو يدرك بذكائه ما تنقله الحواس بمعنى انه يفهمه ، ووسط هذا العالم المليء بالمرئيات يحلم انسان الغرب بسيادته هذا العالم بذكائه وأعماله ومعارفه العلمية ، فان هذا الحلم ضرب من الاوهام لأن هذا الضوء لا يوضح سوى ظاهر الأشياء دون أن يصل الى كشف باطنها وجوهرها وقلبها .



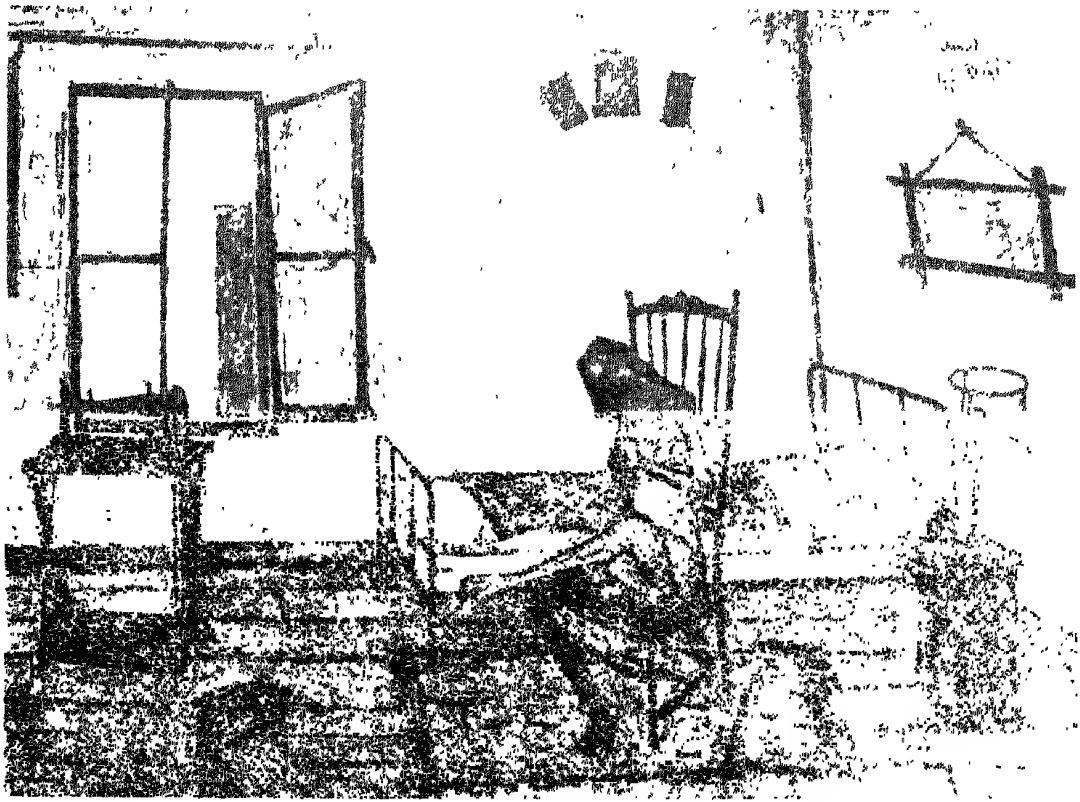
لقد جاء عيسى برسالة المحبة التى تخفف من قصور هذا الضوء لأن المحبة تدفع المرء الى محاولة التوغل في أعماق الأشياء والفنان فيما حوله وهو ما يصل به الى عالم الروح والى أضواء التأمل في الليل ، وهكذا يدع الانسان عالم الوضوح والنور الى عالم ليل النفوس عابرا الليالى الثلاث التى تكلم عنها القديس

بالجواد خادم الانسان ، حتى اذا أشتعت الغزوات البرية القلق في العصور الوسطى ظهرت صور الحيوانات المخيفة في الأعمال الفنية وبرز التنين والأفعوان معبرين عن قلق الانسان وخوفه . واذا كان الايمان بالله هو المعبر الوحيد للانسان الى الطمأنينة ، فقد تزايدت في عصرنا هذا مخاوف الانسان وأخذ يرمز لها في أعماله الفنية بحيوانات رهيبة من حشرات قاتله غير مألوفة ، بل لقد فقد الانسان نفسه وجهه المألوف وأرتدى قناع حيوان مخيف ، كما صورت الآلهة المجردة من الحس والتفكير هى الأخرى في صورة ذلك الحيوان نفسه .

لقد تزايدت مخاوف الانسان مع الفتوحات العظيمة في الحضارة الحديثة لتزايد ادراكه لجهله ، وامتلاء العالم من حوله بالألغاز ، ولم يعد يرى نفسه سيدا للكون بعد تحريره لقوى مجهولة أصبحت تهدده بالدمار فامتلات نفسه بأسا وسيطر على عالمه حزن عميق ( لوحة ٢٤ ) .

وقد اشتد ولع العصر الحاضر بالتعبير عن ازيمته النفسية بأوهام رمزية تشف عن خوارق مخيفة بعد تزايد ميل الانسان الى الاتجاه نحو اللاشعور ، فقد أصبحت الخوارق التى تتألف من أشياء مألوفة رمزا لقلق الانسان المعاصر كما كان الشيطان في القرن الخامس عشر رمزا لهذا القلق وقد ظهر أثر ذلك في الفنون بتقديم أشياء غير محددة الشكل تتضمن عناصر موحية ، فالوآت الذى يهدد الانسان يعنى في حقيقته القضاء على كل الاشكال . غير أن القلب في النهاية لابد ان تكون لعناصر الحياة الكامنة في الأشياء التى يستوحياها الفنان وهو يشكل خوارقه الغريبة ( لوحة ٢٥ ) .

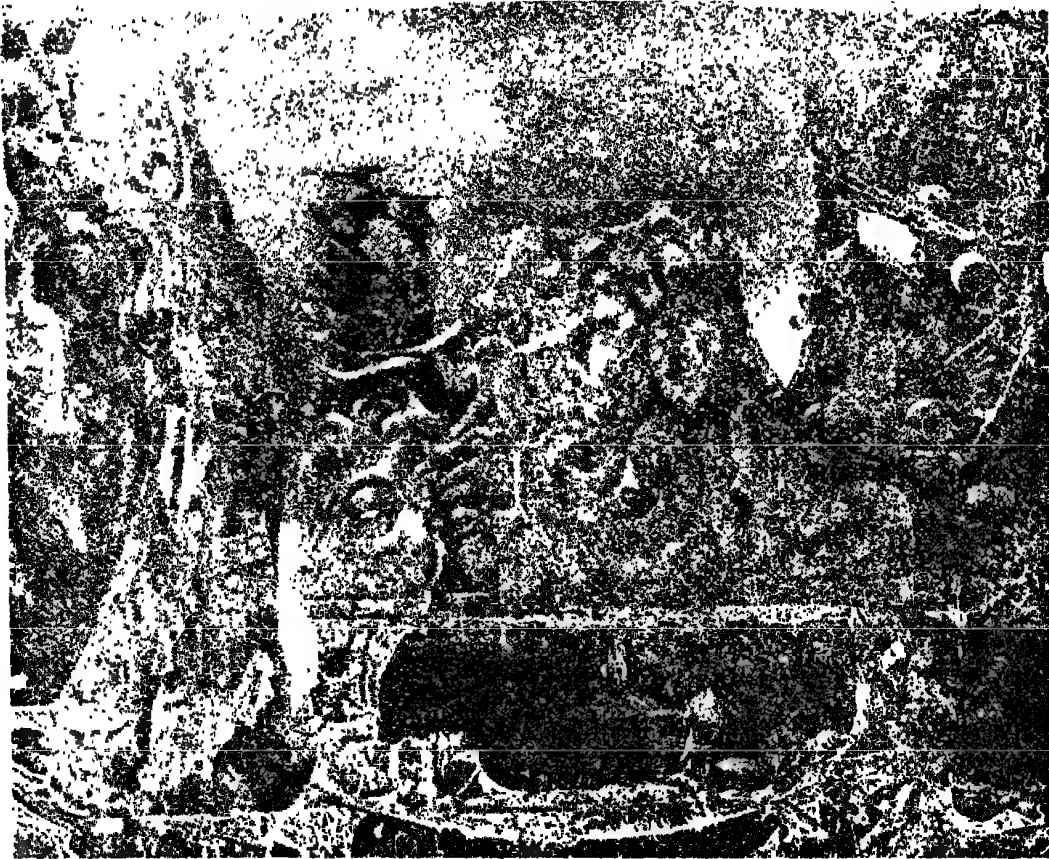




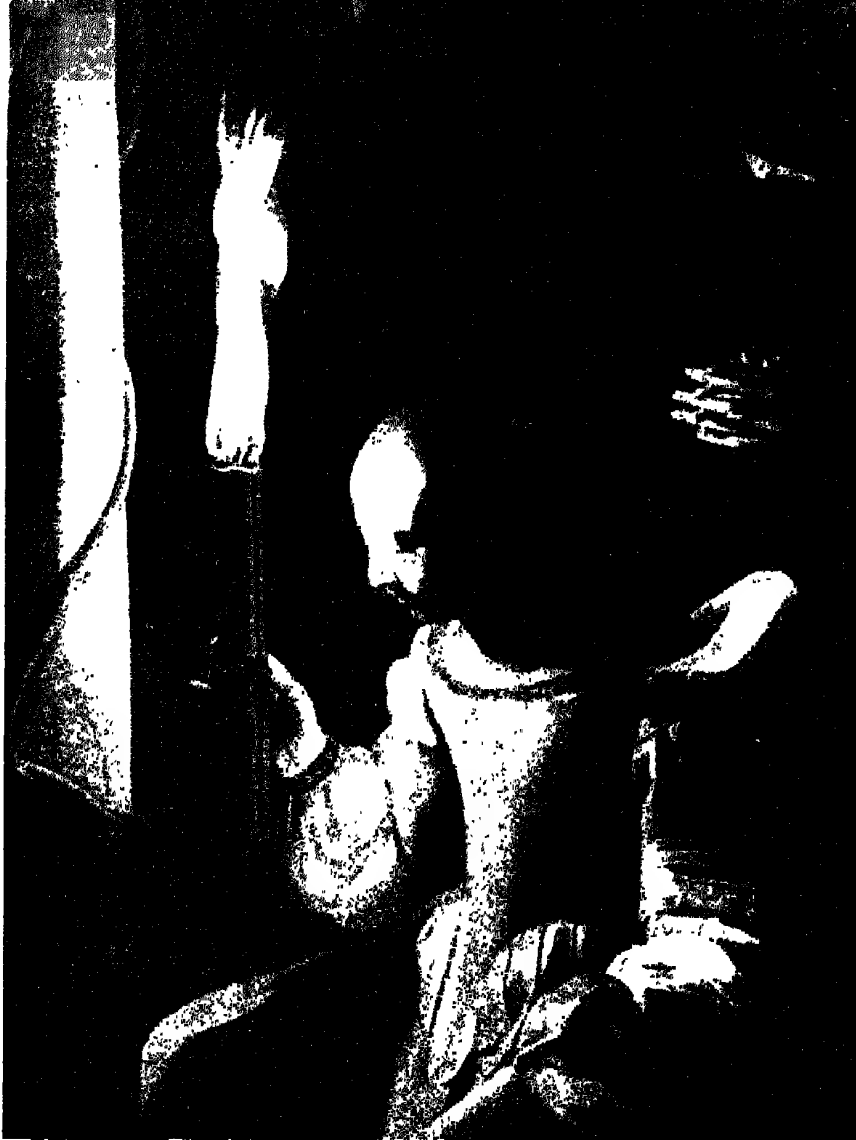
أوحة ٢٤  
٢٤ أ برنار بوفيه : الحجرة



٢٤ ب جودج نوكر : نفق المترو . الآلة تسحق الانسان وتبدو المرأة فزعة يحاول أن نحمى جنينها من الوجوه الجامدة  
اللامبالية ، ويملا التماثل البارد الموحد المحيط بها نفسها بالتشعيرية والخوف والرهبة



لوحة ٢٥ ماكس ارنست : عين الصمت . فعدت ممالك الحيوان والنبات والجماد غير متميزة في عالم فيه كل شيء ماضى اما الى الفناء او الولادة ... خطوة واحدة فحسب ويفقد كل ما تبقى سرايا



لوحة ٢٦ جورج ديلا توري : القديس سيلاستيان ( تفصيل ) اذا  
كان الضوء المنبثق من الظلال قد حطم الاشكال في فن كارافاجيو  
واتباعه فان الضوء يؤكد الاشكال في فن ديلا توري بتبسيط  
التجسيم . فالضوء هنا يعبر عن الوحدة الروحية الكامنة  
وراء العيون المسبلة



لوحة ٢٧ رمبرانت : داوود وشاؤول . تبدو موسيقى داوود فجأة الصمت المبهم الذي لف شاؤول فارتفع حجاب الليل  
وبدأت عيناه تخترقان ستر الظلام

يوحنا الصليبي على أنها المراحل نحو الاتحاد بالله وهى : ليل الحواس الذى تفلق فيه النوافذ على العالم الخارجى ، ثم ليل الذكاء الذى يترك فيه المرء عالم الملاحظة والادراك ، وأخيرا ليل النفس الذى يحس الانسان فيه بقلق وهو يفوص فى الكهف النفس الشبيه بقبور الموتى ، والذى يولد فى نهايته نور جديد غير نور الزمان والمكان هو نور اللانهاية والحقائق المطلقة .

وقد كتب الحلاج الصوفى الذى صلب لجرأة افكاره فى بغداد ملتقى الثقافة الشرقية والاغريقية قبل عام ١٠٠٠ يقول : « ان الفجر الذى اهِيم به يشرق فى قلب الليل المتوهج ولن يفرب أبدا » . وكانت افكار الحلاج هذه هى النبع الذى تدفق حتى بلغ فى القرن الحادى عشر غرب أوروبا وأسبانيا تحت لواء الاسلام ، ولعله هو الذى نشر الخصوبة فى الارض التى ازدهر فيها تصوف القديس يوحنا الصليبي والقديسة تريز ، فقد تألق أبو مدين

وابن عربى فى مدينة اشبيلية ، كما تألق بعد ذلك ابن عطاء الله فى الاسكندرية واخيرا ابن عباء فى مدينة فاس وهو الذى لخص فلسفة هؤلاء جميعا فى القرن الرابع عشر حين قال : « يملك الليل ميزات لا توجد فى النهار » . وقد لمع فى تصوير الضوء النفسى الغريب الذى يتألق فى الليل كارافاجيو الذى يعد من أهم مصورى عصر مقاومة الاصلاح الدينى ، وكذلك جورج دلاتور ، وكانا لا يعدان الليل رمزا للشرب وسيلة للتأمل والوجد ، ولعلهما كانا يصوران فى لوحاتهما ما سماه القديس يوحنا الصليبي « الليلة المظلمة لنار العشق التى لا يشرق فيها نور غير لهيب القلب المتقد » .

• • •

تفيش مملكة الانسان على ضوء النهار، بينما لا تبدأ المملكة الالهية الا مع ظلمات الليل حيث يسطع نور تصوفى لم يسجله سوى القليل من العباقرة مثل الفنان العظيم رمبرانت .

★ ★ ★

سيرة فرجينيا وولف<sup>(١)</sup>

## عرض وتحليل الكنوطه المحوطة

## مقدمة :

السيرة ان يتوخى الحرص في معالجة الشخصية المبدعة . فحياة الفنان شجرة قد تموت اذا اقتلعناها لتأمل جذورها . وفي الكتابة عن حياة الفنان ، الى أى حد نذهب ؟ هل نركز اهتمامنا على تكوينه الجسدى - وزنه وسنه وامراضه (٢) أم على فصيلة دمه ؟

يقول كارلايل : « لا توجد في العالم ملحمة شعرية الا وكانت في جوهرها سيرة ، حياة انسان . » ولهذا تختلف كتابة السير عن التاريخ اختلافا كبيرا ، كما يجب الفصل بينهما تماما ، في الغايات والوسائل . على كاتب

Bell, Quentin : Virginia Woolf Vol. 1 Virginia Stephen 1882 to 1912, (١)  
London, 1973, the Hogarth Press.

Bell, Quentin : Virginia Woolf Vol. 2 Mrs. Woolf 1912 to 1941, London, 1973, The Hogarth Press.

Dr. Bett, W. R. : The Infirmities of Genius, London, 1952, Medical (٢)  
Viewpoints Series.

يعرض هذا الكتاب رأى الطبيب في الإنتاج الأدبى لخمسة عشر ادبياً منهم كارلايل وشيلي ووالث ویتھام وادجار الان جو وبودلير وبلزاک ویايرون ویبن ما للمرض والعلل الجسدية من آثار في تكوين الفكر وفي خلق العبقرية .

ذلك التفاعل بين البيئة والمجتمع من جانب ،  
وحياة الفنان وقدراته الخلاقة من جانب آخر .

نجد مؤلفنا مشغولا طول الوقت بقصاصات  
من الورق والمذكرات واليوميات والتسجيلات ،  
نجده يرقب خطواتها وتحركاتها وسكناتها  
كالمخبر أو كرجل البوليس ، تضعيع وقته  
ووقت القارئ في تفاصيل لا مغزى لها -  
كشراء فستان أو حضور حفل أو الانتقال من  
منزل الى آخر أو استقبال زوار . وهذه  
اللحظات المتفرقة في حياة الفرد لا تظهر أهميتها  
الا بعد فترة طويلة ، فهي ذرات تشبه الواحدة  
منها الالكترون . ومراقبة ورصد الكثر من  
واحد من المستحيل علميا ولكن العالم ( كاتب  
السيرة ) يستطيع أن يراقب سلوك «مجموعة»  
منها ليستطيع التنبؤ بمسارها . فدرات  
الحياة اليومية متشابهة يصعب ، كما في علم  
الفيزياء ، أن نفرق بين واحدة وأخرى . فلا  
فرق بين تناول الافطار أو الغداء أو العشاء  
في أى يوم من أيام الاسبوع ، أو الخروج  
للتسوق أو للرياضة أو ركوب قطار أو طائرة .  
ولكن عندما تبدأ هذه الذرات ( وتهتم فيرجنيا  
وولف بها اهتماما بالغا في قصصها ) في التراكم  
وفي التشكل في قوالب ، تتخذ لنفسها أنماطا  
مميزة وتتلاحم لتأخذ مسارها معنا ، بعد أن  
كانت مجرد لحظات متفرقة . ومن هنا تبرز  
سمات الشخصية الفنية وتتحدد ملامحها  
الرئيسية . ثم تدور هذه الدرات او اللحظات  
في مدارات معينة حول بؤرة أو نواة هي جوهر  
الذات الفنية ، التي سرعان ما ندرك أن هذه  
الدرات المدارية ما هي الا اشعاعات تخرج من  
النواة ذاتها - جوهر الفنان - بعد أن كانت  
في بادئ الامر تأتي من الخارج لتلتصق

من أى زاوية ننظر اليه ؟ شجرة العائلة ، أمه  
وأبيه ، الاماكن التي زارها ، المنازل التي عاش  
فيها ، تكوينه الذهني ، الحضارة التي امتصها ،  
الكتب التي قراها ، يوم أن حملته أمه (٢)  
وكيف وفي أية لحظة ؟ لكل هذه الاسباب  
مجتمعة وغيرها ، تظل حياة الفنان المبدع سرا  
غامضا مهما حاولنا سبر أغوارها . ويقول  
يونسج ، وكأنه يحذرنا من التعمدي في هذا  
التنقيب في حياة الفنان : « ان كل انسان مبدع  
هو في الحقيقة شخصان أو مجموعة من  
الاضداد ، ففي جانب من شخصيته نراه  
انسانا أو فردا له حياته الخاصة ، وفي جانب  
آخر نراه مجهولا ، مجرد عملية خلق وإبداع .»

لم يحاول المؤلف أن يسبر غور نفسية  
فيرجينيا وولف ، ولم يستطع ان يعالج حياتها  
من زوايا معينة تعكس لنا طريقة المزج بين  
« احداث الحياة المادية » وبين « عملية تكوين  
العمل الادبي » . ويمكننا أن نقول بأن العمل  
الادبي وتر في مثلث منفرج الزاوية أحد اضلاعه  
يمثل حياة الأديب المادية والآخر حياته الفنية .  
والعمل الأدبي محصلة القوتين ، ولكون المثلث  
منفرج الزاوية لا يمكن ، علميا ، لأحد الاضلاع  
أن يصبح صفرا . فتجارب الحياة تصقل  
الفنان وتؤثر في أعماله بشكل ملحوظ حتى  
ولو حبس نفسه في برج عاجي يعزله عن العالم  
من حوله . وإذا نجح كاتب السيرة في إبراز  
هذه المعادلة الصعبة أعطى حوادث التاريخ  
بعدا نفسيا ينفذ الى أعماق العمل الادبي  
ويفجره أمام القارئ . فالفنان انسان حر  
ومقيد في آن واحد ، وعلى كاتب السيرة أن  
يقيم في كل مرحلة من مراحل حياة الأديب

( ٢ ) ذهب لورنس ستيرن الى هذا المدى في قصته « تريسترام شاندى » ويعتبر المجلد الاول في فنون القصة  
الحديثة ( ١٧١٣ - ١٧٦٨ ) .

فرحها بقلب من الزبد تتسلمه من صديقة لها أثناء الحرب ، أو بقطعة من السمك تقوم بقليلها في الزيت وكأن التجربة تجربة فنية كما يقول لنا صديقها فورستر .

مايهما في هذه الترجمة هو تسجيل المؤلف لحالاتها النفسية المتعاقبة ومنها نرى أنها كانت متصوفة تعشق الحياة بألوانها المختلفة . وتأخذ عليه أنه لم يتعلم من فيرجينيا وولف طريقة رسم الشخص من عدة زوايا في آن واحد ، وانصاع بل واستسلم للسرد الخطي الزمني ، فخرج التمثال في بعد يخلو من التجسيد . كان يجب عليه الا يرقب تحركات جسدها بل تنوع فكرها بصورة أعمق . كنا نود مثلاً ان نراه يناقش اثر فلسفة جورج مور الجمالية في فكرها وفي مجموعة بلومزبري ، فهي فهرس الجزء الاول له سبع اشارات وفي الجزء الثاني اشارة واحدة . وبينما تحظى قصتها « مسر دالواي » بثلاث اشارات نرى ان علاقة فيرجينيا وولف الأئمة بشقيقتها من زوجة أبيها تحظى بنصيب الاسد .

كان الباحثون ينتظرون ظهور هذه السيرة بفارغ الصبر . فحتى عام ١٩٧٢ لم يكن لدينا في مكتبة فيرجينيا وولف سيرة يعتمد عليها . وكان الباحث يلجأ - للتعرف على خلفية أعمالها وحياتها - الى كتاب آيلين بيببت « الفراشة والنجم » الذي صدر عام ١٩٥٥ وبه فقرات طويلة مقتبسة من الرسائل المتبادلة بين فيرجينيا وولف وفيكتوريا ساكفيل ويست . وكان المصدر الثاني هو « اليوميات » الذي صدر عام ١٩٥٣ محتوي على مجموعة لا بأس بها من مذكراتها ويومياتها وتقع في ٢٨ جزءاً ، وتعتبر المصدر الثرى لتفهم فنها القصصي وطريقتها في التفكير . والمصدر الثالث ترجمة لينارد وولف الدائية ونشر

بالنواة . وفي مجال هذه القوة النووية يتفاعل الفنان والانسان . وهذا هو ما فشل فيه الكاتب كما سنبين ، وكما يبوح بنفسه لنا في الجزء الثاني وفي صفحة ١٠٩ حين يقول :

« في الفترة بين يونيو ١٩٢٥ وديسمبر ١٩٢٨ انتهت فيرجينيا من كتابة « الى الفئار » وجاءتها فكرة « الأمواج » ، وهما كتابان اجمع كثير من النقاد على انهما من انجازاتها العظيمة . وربما يكون هذا هو المكان المناسب الذي يجب عنده ان نحاول دراسة عقلها وهو يعمل حتى لو اضطررنا ، في هذا التفحص والتدقيق ، الى التخلي عن أى ادعاء لحرصنا على منهج التسلسل الزمني ونغامر ، بل ونخاطر ، بالولوج الى دائرة يصعب علينا بكل تأكيد ان نجد فيها طريقنا بسهولة . ولقد اشارت فيرجينيا الى مخاطر هذا الاتجاه بقولها : « ... ومع ذلك يدعي كاتبو السير أنهم يعرفون الناس » .

وباليتة تعلم منها ، ويؤكد لنا انه « لكى يلم كاتب السيرة بما يعمل في نفس المؤلف فعليه ان يكون اما انها او يكون المؤلف ذاته . » وعندما انكبت فيرجينيا وولف نفسها على كتابة سيرة صديقها الرسام روجر فراي لم تجد في ذلك العمل لذة تذكر ، فقد كانت سيرته مجرد سرد منظم لوقائع حياته ، وقائع سهلة بسيطة لم تستطع ان تمارس في سردها حريتها الادبية . وكان ذلك يضجرها .

كان من الصعب على المؤلف ان يدرك المعاني الخفية التي تكمن وراء هذه الحقائق البسيطة السهلة ، فقد كان اتجاه فيرجينيا وولف منذ البداية اتجاها « صوفيا » . لم تكن الحرب الاولى ولا الثانية اغنيتهما المفضلة ، ولم تهتم بالسياسة او الدين ، ولكنها حرصت على تذوق كل قطرة من قطرات الحياة يعادل



يطل بنا الكاتب في الجزء الاول على اسرة فيرجينيا وولف قبل مولدها باكثر من مائة عام. وتمتد جذور الاسرة الى منتصف القرن الثامن عشر في مقاطعة ابردين باسكتلندة . لقد وضع الجد ستيفن ثقته في خالقه حتى ليخيل للمرء ان بينه وبين الله عمار . نراه يطرح امرأة الغرام ، وفي نفس الوقت ينجب من امرأة اخرى طفلا . ويتزوج الاولى وتجد الثانية لنفسها زوجا ويصبح ابن السفاح فيما بعد قسيسا مبجلا .

من الصفحات الاولى - ومن صورة المؤلف على غلاف الكتاب - يظهر لنا جليا روح المؤلف التهامية الساخرة المرحة وأسلوبه الذي لا يخلو من الاشارات والتلميحات الخفية . ينجب السيد ستيفن سبعة أبناء وبنيتين . وحسب تقاليد العائلات في ذلك الوقت ينتشر الابناء على وجه الارض بحثا عن المغامرة والثروة . يتدرب أحد ابنائه على اعمال الحمامة ثم يشتغل بالتجارة ، واخيرا تتحطم سفينته بجوار ساحل دورسيت ، لكنه يتمكن من انقاذ نفسه ومن معه من البحارة ويتزوج سبيل ميلنر . ولم يحالفه الحظ في التجارة فاستقر به المقام في السجن . لكنه لم ييأس ، بل دفعه هذا المازق الى التقاط قلمه ليكتب دفاعا عن نفسه وعن قضيتته ، وبهذا صار مثالا يحتذى به من افراد العائلة فيما بعد ، وكان اول من يكتب كتابا عن عائلة ستيفن . ومنذ ذلك الوقت لم يحدث ان مر جيل من آل ستيفن دون ان يضيف الى انجازات العائلة الادبية .

استن" جيمس ستيفن لعائلته تقاليد معينة وهي مناقشة قضاياها كتابة ، وبسطها في قاعة المحكمة . لم يكتف رب هذه الاسرة بذلك بل اثار اعتراضات على طريقة معاملة السجناء في

الجزء الاول منها « البنى » Sowing عام ١٩٦٠ ، والثاني « النمو » Growing عام ١٩٦١ ، والثالث « البداية من جديد » Beginning Again عام ١٩٦٤ ، ثم « انحدار على طول الطريق » Down Hill all the Way عام ١٩٦٧ ، واخيرا « العبرة بالترحال لا بالوصول » The Journey not the Arrival عام ١٩٦٩ . ويعتبر كتاب كوينتين بيل الاول « بلومزبرى Bloomsbury ١٩٦٨ افضل بكثير ، ولو انه قصير ، من كتابه الحالي .

#### الجزء الاول : ١٨٨٢ - ١٩١٢

يخيل لقارئ العمل الادبي احيانا ان الاديب يحاول ان ينقل له تجربة ذاتية معينة يدسها خلال ثنايا عمله الادبي . ويود القارئ والمدارس معا لو انه كان على علاقة وثيقة بالاديب الذي يقرأ له ، يود ان يعرف عن حياته شيئا يسر له طريقه فيما غمض من جوانب اعماله ، ويعينه على تعرف طريقه في متاهاته . وقراءة السير قد يكون نوعا من الفضول وحب الاستطلاع ويشهد على ذلك اهتمام القراء بصفحات الاجتماعيات في الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية . والمأم القارئ بجوانب عديدة من حياة الكاتب شيء مستحب يعاونه على تكوين فكرة شاملة ، وان كان هذا المنحى في النقد الادبي والذي يعتمد على تفسير العمل الادبي في ضوء حياة صاحبه احد المدارس النقدية القديمة . يريد القارئ ان يعرف سبب هذا الفتور الجنسي في قصص فيرجينيا وولف ، وسبب انتحارها . يريد القارئ والباحث ان يكون على صلة بالمؤلف ، بزوجها ، باختها ، بصديق حميم ، ليطلعنا على دوائر اموره . وذلك كله ، ربما ، لارضاء غريزة حب الاستطلاع فينا أولا ، ولتوضيح الجوانب الغامضة في العمل الادبي ثانيا .

ابنها فيما بعد : « هل تذكر شيئاً فعله والدك لأنه شيء سار ؟ » واجابها الابن بلباقة « نعم ، ذات مرة ، عندما تزوجك » .

قبل ان يفرغ المؤلف من سير جيمس ستيفن J. Stephen أراد أن يؤكد اهتمام العائلة بالفن واحترامها له ، ويقصد فن الكتابة ، اما الفنون الاخرى كالموسيقى والرسم فلم تحظ بقسط وافر من اهتمام العائلة ، وكان من بين اصدقائه جون ستيرت ميل . وانجب سير ستيفن اربعة اولاد وبنتا واحدة . وتوفي أحد الاولاد في طفولته والاخر في ريعان شبابه وعاش الآخرون وهم جيمس وكارولين وليزلى : والد فيرجينيا . ووقعت كارولين في حب فتى ولكنه هجرها وسافر الى الهند ، ولم يسمع به أحد فتحطم قلبها واقعدها المرض وهى في سن الثانية والعشرين وفي النهاية التحقت بجمعية دينية (٤) .

كان لا بد أن يبرز الاخ الاكبر في حياته وتوقع الجميع له مستقبلاً باهراً في المحاماة بينما توقع الجميع للأخ الأصغر ، ليزلى ، بأن يكون قسيساً . واتجه جيمس الى لندن والمحاماة ثم الصحافة ، والتحق ليزلى بجامعة كمبردج ورسم قسيساً عام ١٨٥٩ كما كان متبعاً في ذلك الوقت لمن يصبح زميلاً بالكلية . وفي عام ١٨٦٢ وكان في سن الثلاثين نراه يخلع لباس الكهنوت ويتجه للحياة الدنيوية ويترك كمبردج ويذهب الى لندن معداً دون مستقبل واضح أمامه . وفي لندن يساعد اخوه في الحصول على عمل الا وهو الاشراف على « قاموس السير الوطنية » ونعترف بفضل كمورخ وفيلسوف وأديب ومحرر لمجلة كورنهيل . كان أسلوبه يتميز بالقوة والموضوعية وفي الوقت ذاته

السجن ذاته وكادت الامور ان تنتهي بثورة . فالسجن من أجل عدم الوفاء بالدين أمر لا يليق بآدميين ، ويتنافى مع الحقوق الانسانية والعدل والسياسة . وادرك في النهاية ان مواهبه تناسب حرفة المحاماة لا التجارة . ولم يسمح له بممارسة المحاماة لانه كان يفتقر الى اصالة المحتد ، الى الثروة والجاه ، الى ضبط النفس . وتوفي وهو في سن السابعة والاربعين وترك ستة من الاولاد يهمنهم الثاني واسمه جيمس ( ١٨٧٩ - ١٨٥٩ ) .

والتحق جيمس بكلية ماريشال بأبردين ليدرس القانون ، واكتشف انه لن يستطيع ان يشق طريقه بسهولة ، فقد كان عليه ان يدرس اللاتينية . ولم يقف مكتوف الأيدي ، والتقط قلمه ليكتب احتجاجاً ، ونجح وهو في سن السابعة عشرة أن يغير لوائح الكلية لكي تتفق وميوله ورغباته . واصبح فيما بعد عضواً بارزاً في البرلمان وفي المجتمع وحصل على لقب سير . وورث عن والده حبه للعمل وكان يجد متسعاً من الوقت ليملى أكثر من ٣٠٠٠ كلمة قبل تناول افطاره لتُنشر في Edinburgh Review . كان عملاقاً في الانتاج الادبي وعملاقاً في تحصيله للمعرفة ولكنه كان قسيساً في حياته ، ولم تصل انجازاته الى مستوى مطامحه لانه كان متشائماً جداً وخجولاً جداً . كان مقتنعاً بقبح وجهه ولم يسمح اطلاقاً بوضع مرآة في حجرته . كان يأمل ان يكون قسيساً او ناسكاً ، وكان يحرم نفسه من ملذات الحياة ، ويقال انه دخن سيجاراً في يوم من الايام واعجب بمذاقه ونكهته الى درجة انه اقسم الا يدخن سيجاراً مرة اخرى . وخطر ببالي ان يلجأ الى السعوط كبديل وسرعان ما افرغ الصندوق من النافذة . وتسال زوجته

التي في عروقتها تأتي من رافدين ، وان القدر قد شاء ان تكون سليلة أسرتين مختلفان في العادات والثقافة . وذهبت الى ابعد من ذلك كما يقول المؤلف :

« كانت تعتقد أن هذين الرافدين المتنافرين المتنافسين يتصادمان ويتدفقان ويجريان باضطراب دون تألف وانسجام في دماها » .

لقد كان عرق آل ستيفن يتميز بسلوك أسرى معين ، فقد كان معظم أفراد الأسرة من أصحاب القلم يتمتعون بموهبة الكتابة ويجدون لذة في التعبير عن أنفسهم باللغة الانجليزية . ولكنهم كانوا يكتبون بأسلوب تطفى عليه روح الحيشيات في القضايا ، وينظرون الى الادب على انه وسيلة للاقناع وليس غاية في حد ذاتها . كانوا يهتمون بالحقائق المموسة والوضوح ولا يهتمهم الحس والعاطفة أو جمال اغنية أو صورة . كان لآل ستيفن شجاعة خلقية وقوة بدنية وطاقه ذهنية . كانوا يخطون امامها كالمعالقة ، شخصيات قوية في مقدورها ان تقترب اعمالا وحشية (١) .

اما افراد عائلة والدتها ( آل باقيل ) فلم يكونوا من المفكرين أو الكتاب أو الادباء ، بل كانوا يتميزون بجمال الوجه ودقة التقاطيع والاناقة والارستقراطية . ونرى هذا الجمال في صور افراد العائلة وخاصة في نسائها ، تلك النساء اللاتي افتتن بهن الرسامون . ويمكن ان نطلق على هذين الرافدين « النثر والشعر » ، « الادب والفن » ، المذكر والمؤنث ، « الرجالي والنسائي » .

يزخر الجزء الاول بتفاصيل كثيرة من حياة فيرجينيا مولدها وطفولتها وصباها وشبابها .

يتميز بالركة والاخلاص وقوة التخيل ، اى انه كان اقرب الى الفنان الاديب منه الى الفيلسوف المؤرخ .

وتزوج من صفري بنات القصصي الفيكتوري المشهور فاكري صاحب « سوق الغرور » Vanity Fair . ولا نعرف الكثير عن زوجته هذه فقد كانت ترتبط باختها ارتباطا قويا الى ان اكتشف ليزلى انه عندما تزوجها اصبح وكأنه قد تزوج الاختين . وتنافس الزوج والاخت في السيطرة على الزوجة . وانجب منها ابنته لورا عام ١٨٧٠ وتوفيت الزوجة وهى تضع مولودها الثاني عام ١٨٧٥ .

في مساء ٢٧ نوفمبر ١٨٧٥ ، وقبل بضع ساعات من وفاة الزوجة ، قامت امرأة شابة تدعى مسز هيربرت دوكرث بزيارة عائلة ليزلى . كان لها من زوجها السابق جورج وستيلا وجيرالد . ونشأت بينها وبين ليزلى صداقة بعد وفاة زوجته انتهت بزواجه منها ( جوليا ) عام ١٨٧٨ . وكانت امرأة شجاعة استطاعت ان تعنى بأولادها الثلاثة وابنة زوجها المجنونة لورا . كان ليزلى في الخمسين وهى في سن الاربعين وما زالت امرأة مخصبة . واضافا فاينسا بعد عام واحد الى العائلة وفي العام التالي أنجبت ولدا ( توبى ) . وهنا صمما على الحد من النسل فقد كانت احوال العائلة غير مرضية . ولكن ادوات منع الحمل لم تكن متطورة وبعد عام ونصف وصلت فيرجينيا ولحقها في العام التالي اديان (٥) .

### فيرجينيا ستيفن :

لقد أدركت فرجينيا منذ البداية أن الدماء

( ٥ ) لسوز دامراى في « الى الفئار » اربعة اولاد وبنتان .

( ٦ ) ترمز مسز دامراى في « الى الفئار » الى زوجها في اماكن عديدة في القصة « بمنقار نحاسى » Beak of Brass

تدهورت صحة والدها عام ١٨٨٨ وبصاف بأزمة حادة ويلزم الفراش عام ١٨٩١ ، وينصحه الأطباء بالتخلي عن الاشراف على ( قاموس السير الوطنية ) كان اكثر ما يشغل بال رب الاسرة حالتهم المالية . وحاولت الزوجة ان تخفف من اعبائه بتحمل مسؤوليات كثيرة ، واعتلت صحتها وتوفيت عام ١٨٩٥ . وحزن الزوج على زوجته حزنا شديدا وكان في سن الثالثة والستين ويحتاج للرعاية . وتسلمت ستيلامور المنزل .

#### جورج وحياة فيرجينيا العاطفية :

بلغ أخوها ( من أمها ) السابعة والعشرين ، واخذت تصرفاته حيال فيرجينيا وستيلامور كما يقول المؤلف ، تتحول من مجرد حنان وعاطفة نحو أخيه الى عاطفة مشبوبة يشوبها ميل جنسي . فكان يداعب أخيه فيرجينيا وهي تستذكر دروسها وتنتقل المداعبة فيما بعد الى حجرة النوم . ويدخل كيويدها حياتها في غير صورته التقليدية وتتعرف على « الحب » بصورة تختلف عن الصورة الافلاطونية البريئة التي رسمتها في ذهنها . واحسست فيرجينيا ان جورج قد أنسد حياتها العاطفية قبل ان تبدأ ، ولما كانت تخجل من هذه النواحي الجنسية والعاطفية أثرت الصمت واصبحت ترتعب منها واضطرت ، لكي تحمي وتحصن نفسها منها ، الى اتخاذ مواقف سلبية جامدة باردة حيالها (٨) . ولا يستطيع المؤلف ان يجزم بأن هذه الصدمة العاطفية هي التي أدت الى تلك الهزات النفسية العنيفة التي أصيبت بها فيرجينيا فيما بعد ، وربما عاود جورج وقاحته في تاريخ لاحق بعد وفاة والدها .

فهي لم تتعلم الكلام الا في سن الثالثة ، وعندما انطلق لسانها بالكلام أصبحت الكلمات اسلحتها المفضلة . كانت حجرة الاطفال مكانا للحب والمنازعات في آن واحد . ونشأت بينها وبين اختها فانيسا علاقة خاصة بالرغم من التباين الواضح في الشخصيتين ، ومنذ البداية اتفقتا على ان تصبح فيرجينيا كاتبة وفانيسا رسامة . كانت فانيسا تصر على ابراز العاطفة في شكل منظور ، اما فيرجينيا فكانت ترى العاطفة على انها شيء يفوح عطره في حوار بين شخصين .

لم يحرص الوالد على ان يقوم بمراسيم التعميد لاولاده . وقبل ان تبلغ السابعة من عمرها كانت والدتها تعلمها اللاتينية والفرنسية والتاريخ ، بينما اخذ الوالد على عاتقه تعليم اولاده الرياضيات بالاضافة الى الرسم والرقص والموسيقى وحسن السلوك والمشى والجلوس . ونقرا عن محاولاتها الاولى في الكتابة ويلاحظ المؤلف قدرتها على خلق المواقف ووصفها ، كما يلاحظ ان خلق الحبكة هو موطن الضعف في قصصها .

قضت فيرجينيا فترات سعيدة من حياتها في مدينة سانت آيفز الساحلية وتدخل الفراشات والبحر والامواج وسمك البيلشارد حياتها في وقت مبكر (٧) . كانت هذه الفترة اسعد فترات حياتها ، ولكن سعادتها في هذا الفردوس لم تدم طويلا وسرعان ما اطلت اشباح الجنون والموت والفاجعة على حياتها . فقد أصيب ستيفن ، ابن عمها ، في حادثة اثرت على قواه العقلية ففقد صوابه . واخذت تصرفاته تقلق بال الاسرة وتهدد حياتهم ، واخذ يطارح ستيلامور الفرام ويلاحقها في كل مكان . ثم

( ٧ ) انظر اعمالها : « الامواج » ١٩٣١ ، « موت الفراشة ومقالات اخرى » ١٩٤٢ .

( ٨ ) يظهر هذا الاتجاه واضحا في قصتها « مسز دالواي » ، ( الى الغدار ) في العلاقات الزوجية .

### شبح الموت يطاردها :

تصاب اختها العروس بالتهاب في الغشاء البريتوني وتسجل فيرجينيا ذلك في يومياتها بتاريخ ٢٩ ابريل ١٨٩٧ وتمر الازمة بسلام ويأمر الطبيب بخروج ستيل في نزهات قصيرة وكان على فيرجينيا ان تصاحبها . وخيل اليها ان الشوارع تعج بأشباح الموت في كل مكان . وتعرض لحادثة فعلا في ٢٥ فبراير ، وفي ٢٦ مارس تشاهد مركبة وهي تدهس سيدة على دراجة ، وفي ٨ مايو تشاهد حادثتين في بيكاديللي ، وفي ١٢ مايو يسقط حصان احدي هذه المركبات ميتا امامها ، وفي ١٣ مايو ترى اصطداما بين عربة يجرها حصان جامع وعربة نقل أخرى . ويتساءل المؤلف : هل حدث كل هذا فعلا ؟ لقد كانت صحتها بعد زواج ستيل ومرضاها في تدهور مستمر . ويفحصها الطبيب مرة أخرى ويصف لها العلاج السابق . ويعتقد المؤلف انها كانت تبالغ في وصف هذه الحوادث ولو ان حادثة السيدة التي دهستها العربة كانت قد وقعت فعلا .

وتتحسن حالتها في نهاية العام ، وكانت ستيل على وشك ان تضع مولودها الاول . ولكن فيرجينيا كانت تحس احساسا عميقا بأن نهاية ستيل قد دنت وتدون في يومياتها : « لقد عوفيت هذه البقرة واصبحت مرحة ، تنط من سريرها الخ . . . الحمد لله ، ومع ذلك - » ومن « مع ذلك » هذه يدرك القارئ ان شيئا ما كان على وشك الحدوث ، ونجدها في أواخر شهر ابريل تشكو مما كانت تسميه « التملل » ، نوع من القلق والاضطراب النفسي . وتواسيها اختها ستيل وتفاد

لقد بدأت حياتها العاطفية بجرح غائر لم تستطع منه الشفاء ، كما انها لم ترغب طوال حياتها في الاعتراف بهذه الذكريات الاليمة او في تذكرها . ولكنها كانت تذكر وتتذكر ما يصاحب هذه الحالات النفسية من اعراض جسدية . ففي مذكراتها في هذه الفترة لا تذكر ما تعرض له ذهنها من اضطراب وتشويش ، مع علمنا بانها كانت تسمع ما اطلقت عليه فيما بعد « تلك الاصوات المربعة » ، بل تشير الى عوارض أخرى جسدية فيرفع نبضها الى درجة لا تطاق ، وتصبح سريعة الغضب عصبية المزاج ، ثم سرعان ما يصيبها الاكتئاب والفتور . اصبحت تخشى الناس وتخافهم ويحمر وجهها خجلا اذا ما خاطبها احد ، وكانت لا تنظر الى غريب وجهه في الطريق وتمشي منكسة الرأس .

لم يكن في وسع طبيب العائلة ، الدكتور سيتون Seton الا ان يمنعها من القراءة والدراسة . فإشار عليها باتباع نظام بسيط في الحياة مع نزهات قصيرة خارج البيت اربع ساعات يوميا . كانت مهمة ستيل ان تخرج معها في هذه النزهات اما على الاقدام او تصاحبها الى الطابق العلوي في الاوتوبيس (٩) .

وتزوجت اختها ستيل عام ١٨٩٧ من **جاء هيل** ، واستقر رأى فيرجينيا واخوانها منذ ذلك اليوم على كتابة اليوميات . وواظبت فيرجينيا على الكتابة لفترة ستة اشهر . وفي هذه اليوميات نرى نواح متعددة من جوانب شخصيتها . فنراها تشمل الزيارات المختلفة لحديقة الحيوانات ومعارض الفنون والمسرح او لما عرف فيما بعد بالصور المتحركة او السينما في قاعة البرت .

بمجموعة كبيرة من الكتب . وفيها كانت تستقبل اصدقاءها ومدرساتها . كانت للحجرة ستائر زرقاء وجدرانها بيضاء ، وكانت طريقتهما في الكتابة تثير العجب . كانت تستعمل مكتبا ارتفاعه ثلاثة اقدام وست بوصات وله سطح مائل . وكان المكتب مرتفعا لا يسمح لها بالكتابة الا وهي واقفة . وحاولت أن تعمل لهذا الوضع الشاذ : لقد كانت فانيسا ترسم على لوحاتها وهي واقفة لكي تستطيع أن تبتعد عن اللوحة من آن لآخر وتنتظر اليها عن بعد . وقد دفع ذلك فيرجينيا الى الاحساس بأن عملها لن يكون على قدم المساواة مع ما تقوم اختها بانجازه الا اذا كتبت هي بهذه الطريقة - ولهذا كانت تقف ، ولسنوات عديدة ، في هذا الوضع الشاذ الذي اتعبها .

وفي عام ١٩٠٢ انعم على والدها بلقب سير واصيب بالسرطان وتوفي في ٢٢ فبراير ١٩٠٤ .

### السلوك في السفر ، الانهيار العصبي الثاني ، محاولة الانتحار الاولى :

ترك اولاد سير ليزلى منزلهم ، منزل الحزن المظلم ، الى منزل آخر على ساحل بمبروك . وفي اول ابريل ١٩٠٤ سافرت فيرجينيا وفانيسا وتوبى وادريان الى فلوريس ، ومنها الى باريس ليلتقوا بكلايف بيل ويزوروا مرسوم رودين Rodin . وفي ٩ مايو تعود فيرجينيا واختها فانيسا الى انجلترا ، وفي ١٠ مايو يصيبها الانهيار العصبي الثاني ، فتنتقل الى مانور هاوس في نوتنجهام للاستشفاء .

بدأت فيرجينيا تشك في اختها واتخذ حزنها على والدها طابعا هستيريا ، وبدأت المعرضات،

منزل ستيل الى منزلها ، وبعد ايام ابلغها جورج وفانيسا بان ستيل توفيت اثر عملية جراحية . كانت وفاة ستيل مأساة بحق . ونجد فيرجينيا تتجنب الرجال وتقع في حب مادج ( من فرع عائلة والدتها ) وتعترف فيما بعد بأنها المرأة الوحيدة التي احبتها (١٠) وكانت عاطفة فيرجينيا تختلف عن عاطفتها نحو جورج . ويكتنف الغموض تحركات الاسرة التي تنتقل فيما بين عامي ١٨٩٧ - ١٩٠٤ الى منزل رقم ٢٢ هايد بارك جيت ، ويجمال المؤلف تفاصيل يوم عادي من ايام هذه الفترة على النحو التالي :

« يبدأ اليوم بجولة تقوم بها فانيسا على ظهر حصان اهداه لها جورج . يبدأ الافطار في الثامنة والنصف صباحا ، فانيسا وجيرالد أولا ، ثم ليزلى وادريان ، وعادة ما يصل كلاهما متأخرين الى المدرسة . ثم تنزل فانيسا الى الدور الارضي لترتب مع صوفى وجبات ذلك اليوم . وتتوجه على دراجة في رداء طويل وعلى رأسها قبعة فضفاضة الى مدرسة السيدة « كوب » للفنون . وقد يقوم جيرالد بتوصيلها الى شرق المدينة بعربته وهو في طريقه الى دار النشر التي أسسها عام ١٨٩٨ . وينزل جورج وفيرجينيا فيما بعد وقد ارتدى جورج أبهى حلله استعدادا لحياة لندن . وربما يحكى لفيرجينيا عن مغامراته في الليلة السابقة وذلك قبل أن ينطلق الى عمله . . ويدخل ليزلى الى مكتبه ويظل فيه طوال ساعات الصباح بينما تصعد فيرجينيا الى الطابق العلوي ومعهما ليديل وسكوت (١١) لتقرأ سوفوكليس ويوريبيديس ، أو تخط رسالة أو مقالا . كان مقرها المفضل حجرة الاطفال في أعلى المنزل ، وكانت تزخر

( ١٠ ) تظهر في شخصية سالي في قصتها « مسز دالواي » .

( ١١ ) قاموس ليديل وسكوت ( يوناني - انجليزي ) .

وتتكون من توبى كلايف بيل وديزموند  
ماكارتني .

كان لينارد وولف أول الشبان الذين دعاهم  
توبى للعشاء ، وذلك قبل سفره الى سيلان  
في ١٧ نوفمبر ١٩٠٤ ، وكان ذلك أول لقاء بين  
لينارد وولف وفيرچينيا . ووصفه ليتون  
ستراتشي « بأنه يشبه سويفت وعلى استعداد  
لقتل زوجته ! » فقد كان لينارد يحتقر الجنس  
البشرى ونراه يترك إنجلترا ليعيش في الادغال  
يظل الفموض يكتنفه حتى موته .

اما ليتون ستراتشي فكان من الواضح أن  
اسمه سيلمخ في يوم من الايام ، بينما كان  
ديزموند ماكارتني على ثقة كبيرة بنفسه وسيما  
موهوبا . اما كلايف بيل فكان أقرب فرد في هذه  
المجموعة ويهوى الرسم . وتبدأ فيرجينيا صلتها  
بمحرر الملحق الادبي للتايمز ، واستمرت تكتب  
في هذا الملحق حتى وفاتها . فقد دعا رئيس  
التحرير والدها للاسهام بانتاجه فيها عند  
نشرها عام ١٩٠٢ ونراه يتصل بفرچينيا في  
مارس ١٩٠٤ . وتميزت جماعة بلومزبري  
بالتباعد والتعالى ، الى حد ما ، وكان معظم  
افرادها من العقلانيين واصحاب الافكار  
الجديدة الجريئة في الادب والرسم والفن .

وفي عام ١٩٠٥ قامت بريارة قصيرة لاسبانيا  
مع أخيها ادريان وخلفت الرحلة انفعالات شتى  
في نفسها تظهر في قصتها « رحلة الى الخارج »  
The Voyage Out . وفي هذا العام عاودها  
الحنين الى سانت آيفز فعادت اليها ووصلوا  
في المساء حتى تولاند هاوس وكانهم أطفال قد  
عادوا بعد جولتهم في ضواحيها . وفتحت  
فيرچينيا بوابة المنزل بجراة ، وصعدوا الدرج  
المؤدى الى الباب الرئيسى وشاهدوا الجرار  
الحجرية واحواض الزهور والشرفة والنوافذ

وعددتهن ثلاث ، وكانهن شيطانات : كانت  
تسمع أصواتا غريبة تحثها على الاتيان باعمال  
حمقاء ، واعتقدت أن هذه التخيلات نتيجة  
للافراط في الاكل فحرمت نفسها من الطعام .  
ونقلتها فيوليت ديكنسون الى منزلها في بورنام  
وودز ، وهناك حاولت الانتحار باللقاء بنفسها  
من نافذة ، ولحسن الحظ لم تكن النافذة  
عالية . كانت ترقد في فراشها « تستمع الى  
الطيور وهى تغني باليونانية ، وترى الملك  
ادوارد السابع مختفيا بين نبات الازاليه  
الصحراوى ويسب بلغة سوقية » وظلت  
فيرچينيا « مجنونة » طوال هذا الصيف .  
ويعتقد المؤلف ان هذه المحاولة لم تكن الاولى  
فقد قالت لجاك هيل عند وفاة الملكة فيكوريا  
في يناير ١٩٠١ : « جاك ، هل تعتقد انني  
سأنتحر ؟ » .

### جماعة بلومز برى والهروب من الماضى :

كان انتقال العائلة الى منزلهم الجديد في رقم  
٤٦ ميدان جورودون بمثابة هروب من الماضى  
بكل مآسيه . كان أخوهم جيرالد سعيدا  
بانفصاله عن اولاد « ستيفن » ، ولكن جورج  
لم يقبل فكرة ترك أخيه مع توبى وادريان ،  
واصر على السكن معهم وواصل تودده لفيرچينيا  
من جديد حتى تزوج من ليدى مارجريت .

واجتذب منزلهم في جورودون سيكوير  
- مجموعة طيبة ومجموعة رديئة : مجموعة  
ديموقراطية ومجموعة ارسقراطية . ويمكننا  
ان نقول ان المجموعة الاولى كانت تتكون من  
هؤلاء الصامتين الهادئين الذين يبحثون عن  
الحقيقة ، يجلسون في دائرة حول امامهم جورج  
مور- وهم ساكسون سيندنى- تيرنر ولينارد  
وولف وليتون ستراتشي ، والمجموعة الاخرى  
وهى اكثر اهتماما بالامور الدنيوية ، واكثر  
ثرثرة وضجيجا أيام الخميس من كل اسبوع ،

جماعة بلومزبرى بل وربما ، كما يقول المؤلف ، في اخلاقيات الطبقة الوسطى بوجه عام في انجلترا . وتغير المناخ الفكرى والاجتماعى وترتب على هذا التغير نتائج خطيرة ولكنها لم تكن بالقوة التي تكفي لتغيير اسلوب حياتها واسلوب تفكيرها . ففى هذه الفترة ( ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ) كانت تعد لميلاد « رحلة الى الخارج » وشغلتها هذه القصة في السنوات الخمس التالية . كما شغلت نفسها بكتابة مسرحية لم يبق لدينا منها سوى فقرات مبثورة ، بالإضافة الى قصة طويلة وأخرى قصيرة . وكان على ما يبدو له سبع مخطوطات لقصتها « رحلة الى الخارج » حرقها جميعها . والقت فيرجينيا بنفسها في دوامة العمل المتواصل فكانت تكتب المقالات لمجلة كورنهيل والمحقق الادبى للتايمز والجارديان ، ولكنها لم تنشر اى قصة حتى بلغت الثالثة والثلاثين من عمرها .

ونعود بعد هذا الاستطراد القصير الى اخلاقيات جماعة بلومزبرى . كان أفراد المجموعة يعتقدون ان الشخص المناسب لفيرجينا هو ليتون ستراتشر ولكنه ، كما يؤكد المؤلف ، كان لوطيا . وتعلق اختها على هذا الراى : « الفصل ان يكون ليتون زوجا لاختي بدلا من اى رجل آخر اعرفه ولكن الطريقة الوحيدة التي اراها تحقق ذلك هي ان يقع في غرام ادريان ( اخوها ) وحتى لو حدث ذلك فقد يرفضه ادريان » . وفى هذا الخطاب اشارة واضحة الى شدوذه الجنسى . وسرعان ما يظهر على مسرح الحوادث زوج آخر هو ادوارد هيلتون يونج ، ولكنه لم يعجبها فقد كان كما وصفته اختها « كالقيل في محلل للخزف والصيني » . ويشير المؤلف - وهو ابن اختها فانيسا - الى التجاذب الذى لحبث بين

المضيئة (١٢) . وكان المنزل يسدو وكأنه في انتظارهم . ومكثوا في سانت آيفز حتى اكتوبر . وكان من دواعي سرورهم ان حظوا بمنظر صيد وفير من سمك البيلشارد . وبعد عودتهم الى لندن انشغلت فيرجينيا بالتدريس في كلية مورلى وهو معهد مسائى معظم طلابه من العمال والعاملات .

وجدت عائلة ستيفن انه من الواجب زيارة اليونان مهد الحضارة الغريبة . وفى اوائل القرن العشرين كان من الممكن ان يعثر الرجل الانجليزى الذى نال قسطا من الثقافة الكلاسيكية على اشياء كثيرة مبهجة في اليونان وعلى الكثير ايضا مما يثير حزنه في اليونان الحديثة . فقد يذهب لليونان بحثا عن فكرة معينة ويصدمه الواقع المر . وكان توبى من هذا الصنف من الناس ، وكانت فيرجينيا تراقب فرحه وخيبة امله باهتمام وتعاطف في آن واحد . وواصلت فيرجينيا رحلتها الى القسطنطينية ، وعاد توبى الى لندن مصابا بحمى التيفود وتوفى في ٢٠ نوفمبر ١٩٠٦ . وبعد وفاته بيومين وافقت فانيسا على الاقتران من كلايف بيل وتم الزواج في فبراير ١٩٠٧ .

### الرجل الاول في حياة فيرجينيا ، تغير المناخ الفكرى :

يعتبر والتر هيدلام أول « رجل » في حياة فيرجينيا العاطفية وكان يكبرها بأربعة وعشرين عاما . ولم توافق فانيسا على هذه العلاقة لانها كانت تراه زير نساء يهتم بالفتيات الصغيرات . وحزنت فيرجينيا عليه حزنا شديدا عندما توفى عام ١٩٠٨ .

وتأتى لحظة حاسمة في تطور اخلاقيات

( ١٢ ) انظر منزل مسز دامزاي في « الى الفناء » .



فيرجينيا وزوج اختها ( والد المؤلف ) . فبعد زواج اختها وجد كلايف يبل نفسه متيما بحب فيرجينيا . ويستطرد المؤلف فيقول :

« لقد لجأت الى كلمة « مغازلة » لأننى لو اطلقت على هذه « المودة » كلمة « فضيحة » ، فقد توحى ان كلايف قد نال ما يريه . ولكن الامر في الحقيقة لم يكن اقل او اكثر من خيانة زوجية لطيفة بسيطة انتهت في الفراش » . ( ص ١٣٣٠ ، الجزء ١ ) .

ويسال عما كانت تريد فيرجينيا من هذه العلاقة . ويجيب بأنه لو كانت فيرجينيا قد وقعت في غرام أحد فلن يكون سوى اختها ثانيا ، فالرسائل بينهما لم تنقطع ، وكلها تشبه الرسائل الغرامية . ويحاول تحليل هذا الموقف الغريب وتبريره بأساليب شتى . ونرى فيرجينيا تسجل في معرض حديثها عن عائلة يبل : « سيتطلب الفصل بينهما ( تقصد فانيسا وزوجها ) بعض الوقت » .

ان كان لهذه العلاقة أى اثر عاطفى في حياة فيرجينيا ، فهو نجاح كلايف فى ان يجعلها تحس بحاجتها الى « رجل » ، وهذا هو ما فشل فيه والتر هيدلام من قبل . هذا بالإضافة الى أنه كان يؤمن بعقريتها ، وفي هذا المجال أيضا كان له فضل عليها يفوق فضل ليتون سترانشى . فقد كان الأخير يرحب بمناقشة الموضوعات الادبية والفنية معها لا أعمالها هى ، بل ويعتبر نفسه ندا لها .

وفي ١٧ فبراير ١٩٠٩ يحضر ليتون سترانشى الى منزلها ويطلب يدها ، وتوافق على الزواج منه . ولكنه اكتشف ان الامر ليس بهذه البساطة فقد راعه ان يكتشف انها من الجنس الآخر ( اللطيف ) وراعه عذريتها وسداجتها . وانزعج حين ادرك انها قد تقبله

زوجا ، وادرك ان جنة الزواج التى يحلم بها شيء مسحيل . وعاونته فيرجينيا على الفرار منها . لقد راودتها فكرة الزواج منه وراقتها ولكنها ، كما اعترفت فيما بعد ، كانت « جبانة جنسيا » ، وان خبرتها الجنسية الوحيدة مع الرجال كانت تجربة مفرقة تثير الاشمئزاز . ومع ذلك كانت ترغب في الزواج ، فقد بلغت السابعة والعشرين من عمرها وتعبت من كونها عانسا ، تعبت من عيشتها مع اخيها ادريان . وكانت فى حاجة الى زوج تحترم عقله وتفكيره ، فقد كانت تقدر الذكاء الخلاق . كان شذوذ ليتون الجنسى بمثابة مصدر ضمان وطمانينة لها ، وكزوج لن يكون ملحا ولن يكون من الصعب « ارضاؤه » وكانت تأمل ان يتطور هذا الزواج « الاخوى » فى المستقبل الى علاقة وطيدة بينهما . لقد كانت تجربتها مع ليتون تجربة مريدة محزنة حقا . وافترق الاثنان ، وذهب هو الى برايتون ، وشغلت هى نفسها بالعمل المتواصل . لقد بدأ عام ١٩٠٩ بداية محزنة وانتهى بتصدع العلاقات بين افراد جماعة بلومزبرى .

#### فيرجينيا ستيفن وامبراطور الحبشة :

يأتى عام ١٩١٠ وبالتحديد في ١٠ فبراير ونرى فيرجينيا فى القطار المتوجه الى وايموث من محطة بادنجتون وقد ارتدت عمامة شرقية وحول رقبتها سلسلة ذهبية تتدلى حتى خصرها وترتدى قفطانا مطرزا ، وقد صبغت وجهها بصبغة سمراء وعلى وجهها شارب ولحية انيقة . كان الثلاثة الآخرون فى صحبتها - دنكان جرانت وأنتونى باكستون وجاى ريدلى يرتدون نفس اللباس . اما ادريان فكان يرتدى قبعة عالية وملابس رسمية ومعه هوارس كول فى زى رسمى لموظف من وزارة الخارجية البريطانية .

بلومزيرى تغير مزاج المجموعة الفنية ، واعتنقوا مذهب سيزان التجديدي ، ولم تعد فلسفة جورج مور تستقطب افكارهم ، واغتصب سيزان عرش جورج مور كما اغتصب روجر فراى منصة ليتون ستراتش .

وتوطدت العلاقة بين فيرجينيا وروجر فراى بعد زيارة للقسطنطينية واخذ يكتشف ابعادا جديدة في شخصية فيرجينيا . وتعمق العلاقات الانسانية والعاطفية مرة اخرى وتشابك . فتميل فانيسا الى روجر فراى وتعجب به ، وفي النهاية تستسلم الاختان للامر الواقع . ففى عام ١٩٠٨ . كانت اجتماعات جماعة بلومزيرى تتميز بالحوار المكشوف اما في عام ١٩١٠ فكانت تتميز بالعلاقات والتصرفات المكشوفة دون حياء وكتبت فيرجينيا تقول : « ان الطبيعة البشرية تغيرت في ديسمبر ١٩١٠ » واقترحت فانيسا ان يكونوا جمعية متحررة من كل القيود وخاصة الجنسية . ولم يكن ذلك مستغربا فقد حضرت فيرجينيا وفانيسا الحفل الراقص الذى اقامه الفنانون الانطباعيون فى فساتين عارية الكتفين قصيرة وكانهما فتاتان من لوحات جوجان . ودار همس في هذه الفترة يؤكد ان في جوردون سكوير مارست فانيسا الجنس مع مائينارد كين علنا فى حجرة استقبال ازدهمت بالدمعوى . ولكن المؤلف ينفى هذه الشائعة .

هكذا تعاقب العشاق والمعجبون - كلايف بيل والثر لام وسيدنى واترلو . ومن الشخصيات التى توافدت على منزلها والثر لام وادوارد مورجان فورستر . وفى عام ١٩١١ دعت فانيسا اختها لقضاء اجازة فى منزل ريفى فى جيلفورد . وهناك التقت فيرجينيا بافراد جماعة جديدة اطلقت على نفسها « الوثنيون المحدثون » ، وكانت خلفية هذه

كان الغرض من هذه الرحلة خداع البحرية البريطانية واختراق الحراسة المضروبة حول السفينة الحربية دريدنوت Dreadnought والتمتع بجولة على أحدث قطعة بحرية فى الاسطول البريطانى .

وقد خططت فيرجينيا لهذه العملية بمساعدة كول الذى خطط لخدمة مماثلة عندما زار جامعة كمبردج على انه سلطان زانزبار ، واستقبله عمه وكان عمدة المدينة وطاف به فى ارجاء كليات الجامعة ثم ودعوه بحفاوة حتى محطة القطار . وابلغ كول جريدة الديلى ميل بالخدمة وغضب عمه منه .

وكانت عملية السفينة الحربية مماثلة . فقد ارسل احد اصدقاء كول لقبطان السفينة برقية مديلة بامضاء وزارة الخارجية تعلنه فيها بزيارة امبراطور الحبشة للسفينة زيارة رسمية . ونفذت الخطة ، ووصلت الحاشية مع الامبراطور لتجد فى استقبالها ضابط الاتصال على ظهر السفينة . واستعرضوا حرس الشرف وتولى اديان ترجمة خطاب القبطان للامبراطور ( فيرجينيا ) بلغة هى خليط من اللغة السواحلية واللاتينية واليونانية .

ونقل كول الخبر ونشرته جريدتا الاكسبريس والميرور فى الصفحة الاولى وبعناوين رئيسية ، وزاد اهتمام الصحفيين عندما علموا ان فيرجينيا كانت أحد افراد الحاشية .

#### الانطباعية المتأخرة : Post-Impressionism

تعرف كلايف بيل عام ١٩١٠ على الفنان روجر فراى ، واصبح مع فانيسا من انصاره المتحمسين ، فقد اشرف روجر فراى على معرض الفن الانطباعى المتأخر عام ١٩١٠ . ولم تهتم فيرجينيا بهذا الفن فى بادئ الامر ، وبعد زيارات روجر فراى لمنزلها وبانضمامه لجماعة

المجموعة تختلف عن خلفية جماعة بلومزيرى .  
كان معظم أعضائها من أبناء الشخصيات  
الفكتورية الثرية ، حصلوا على تعليم  
جامعى ويدينون بالاشتراكية ويناصرون  
فلسفة جورج مور . وتأثرت فيرجينيا بسلوك  
أفراد هذه المجموعة ونراها تستحم مع روبرت  
بروك عارية في ضوء القمر أثناء اجازة قضتها  
معه من ١٤ الى ١٩ اغسطس عام ١٩١١ . كان  
استحمامها عارية نوعا من التحرر يليق باختها  
فانيسا . وتعاودها النوبات العصبية وتكتب  
لاختها في يونيو ١٩١١ : « لم استطع الكتابة  
وخرجت كل الشياطين سوداء كثيفة الشعر .  
ها أنا في التاسعة والعشرين ، دون زواج ، مثال  
لأفشل ، دون أطفال مجنونة أيضا ، لا أجيد  
الكتابة . »

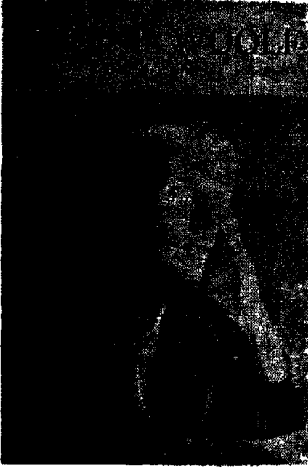
ويعود لينارد وولف من سيلان عام ١٩١١ ،  
وتوجه لمقابلة اصدقاء كمبردج الذين تركهم

عام ١٩٠٤ ، وهم ليتون وساكسون وديزموند  
ماكارتنى وكلايف بيل وفورستر ، وعن طريقهم  
اتصل بفانيسا وروجر فراى وفيرجينا . كان  
لينارد قد تعلم في هذه الفترة ان يعيش بمفرده  
كرجل بوليس يرمى مصالح الامبراطورية وينفذ  
سلطة الحاكم ويحكم على الناس بالاعدام  
وينفذ الحكم فيهم . ويبدو انه عشق هذا  
العمل ولكن جماعة بلومزيرى استطاعت ان  
توقظه من هذا الحكم الامبراطورى . وسرعان  
ما انسجم مع حياته الجديدة في كمبردج .

وتوطدت الصداقة وتكررت الزيارات . وفي  
٤ ديسمبر ١٩١٢ انتقل الى حجرته في الطابق  
العلوى في منزلها في ٣٨ ميدان برنزويك باجر  
قدره ٣٥ شلن في الاسبوع .

وطلب يدها في ١١ يناير ١٩١٢ ووافقت  
على الزواج منه في ٢٩ مايو ١٩١٢ ، وكان هذا  
القرار هو خير ما فعلته في حياتها .

★ ★ ★



وثقتها بنفسها ويجعلها أكثر استجابة ، ويعاونها في التغلب على الخوف من « الرجل » . وتبدد هذا الأمل فقد أرسلت من ساراجوسا لصديقتها كاترين كوس تحدثها عن برودها الجنسي وينتهي خطابها بقولها : « ربما مازلت الأنسة س . »

وبعد عودتهما الى انجلترا استشارا فانيسا فكتبت بدورها تقول : « كان يبدو انهما في غاية السعادة ولكن من الواضح انهما كانا قلقين بشأن برود فيرجينيا . يبدو انني ازعجتها ولكنني واسيته بقولي انني كنت اعتقد انها لم تفهم او تفقد الرغبة الجنسية في الرجل . ومن الواضح انها مازالت لا تجد لهذه اطلاقا في العملية الجنسية وهذا غريب . كانا يتشوقان لمعرفة المرة الاولى التي احست فيها بهزة الجماع . ولم اذكر . »

كانت فانيسا ولينارد ومعهما فيرجينيا يميلون الى اللقاء اللوم على جورج الذي خلف في حياتها الجنسية هذا الجرح الفائر ، وربما كانت على استعداد نفسي بطبيعتها للتنور من هذا اللقاء الجسدي بين الرجل والمرأة ، وربما

## الجزء الثاني : ١٩١٢ - ١٩٤١ :

### العروس :

ارتاح اصدقاء فيرجينيا لنبا خطبتها الى لينارد ماعدا كلايف بيل . ويحكي لنا المؤلف عن مقابلة فيرجينا لعائلة وولف . ولم تترك المقابلة انرا حسنا في نفسها فقد كانت مسر وولف والدة لينارد « تتراس » عائلة كبيرة .

تم تسجيل عقد الزواج في مكتب تسجيل سانت بانكراس وربما كان ذلك هو السبب في عدم حضور مسز وولف . وتم التسجيل بسرعة لم يرتح لها مسجل عقود الزواج ، فقد كان ضعيف البصر وكان اليوم ممطرا تخلله البرق والرعد ، واختلطت عليه الاسماء الغريبة « فيرجينيا وفانيسا » ولم تتركه فانيسا يؤدي عمله ، بل كانت تقاطعه من آخر لتسأله عن الخطوات القانونية التي عليها ان تتبعها لتغير اسم ابنها في السجلات . وانتهت مراسيم « كتب الكتاب » وبدأ شهر العسل ، وفكر العروسان في قضائه في ايسلنده في بادئ الامر ثم استقر بهما الرأي اخيرا على اسبانيا . وفي برشلونة كان الطعام رديا ، وفي مدريد كانت الحرارة لا تطاق ، فهربا الى توليدو ومنها الى ساراجوسا . ومن اسبانيا توجهوا الى مرسيليا ومنها الى شمال ايطاليا ثم البندقية وعادا في ٣ اكتوبر ١٩١٢ الى منزلها في ميدان برنزويك .

اكتشف الاثنان بعد زواجهما ان كلامهما يكمل الآخر ، وكان الحب الذي بينهما من القوة بحيث استطاعا التغلب على مشاكل الزواج في المستقبل وعلى جنون فيرجينيا . ويجب ان تؤكد ان هذا الحب لم تمتد جذوره الى الحياة الجسدية . كان اصدقاء فيرجينيا يأملون ان ينجح لينارد في أن يعيد اليها انوثتها

كانت الشهوة الجنسية ضعيفة فيها . وكتبت فيتا ساكفيل ويست فيما بعد : « لقد كانت **تبغض حب التملك وحب السيطرة في الرجال وتكره فيهم صفة الفحولة** » . وبالرغم من ذلك كله كانت تود لو أنها انجبت اطفالا . ولكن الاطباء اجمعوا على أنه من الخطورة ان تصبح « أما » . وظلت طوال حياتها تحسد اختها فانيسا فقد انجبت ثلاثة أطفال ، مؤلفنا أحدهم .

وانتهت من قصتها « **رحلة الى الخارج** » في مارس ١٩١٣ وفي إحدى فقرات القصة وصف لحالتها النفسية ، ونوبات الارق التي كانت تعانيه :

« تلك الليالي الطويلة التي لا تنتهى عند الساعة الثانية عشرة ولكنها تمتد الى الاعداد المزدوجة الثالثة عشرة ، الرابعة عشرة وهكذا حتى تصل الى العشرينات ، ثم الثلاثينات وبعد ذلك الى الاربعينات . . . وليس هناك ما يمنع هذه الليالي من ان تفعل ذلك اذا ارادت . »

وتسوء حالتها الصحية وتشتد فيها النزعة الانتحارية ، فتتناول مائة حبة من حبوب الفروئال لتقضى على حياتها وتظل في رعاية الممرضات حتى نهاية العام .

ويلقى المؤلف باللوم على فانيسا وادريان . كان يجب عليهما ان يطلعا لينارد قبل زواجه منها على حالتها بالتفصيل . لقد حرصا على اخفاء جنونها . وحاول زوجها علاجها عن طريق الراحة والاسترخاء وتناول الوجبات في مواعيد منتظمة وتجنب الاثارة الذهنية . كان يقرأ في ذلك الوقت « تفسير الاحلام » لفرويد . ومن العسير علينا ان نجزم بفائدة التحليل النفسي

في حالتها وكثيرا ما يحجم المحلل النفسي عن علاج المرضى الذين اصابوا بالجنون فعلا . وربما عجز فرويد نفسه عن علاجها بعد انهيائها العصبي الأول . ولم يسمع أحد بنظريات فرويد في انجلترا عندما اصابها الانهيار العصبي الثاني في ١٩٠٤ . وحتى في عام ١٩١٣ لم يكن العلاج النفسي الفرويدي معروفا . فقد بدأ ارنيسست جونز يمارس العلاج النفسي في لندن عام ١٩١٣ . وتعد مدام مايكوكاميا Mme, M. Kamiya حاليا سيرة باثولوجية لفرجينيا وولف وربما تساعدنا على تفهم مرضها النفسي ، وعلى ما اذا كان التحليل النفسي امل في شفائها . ويبدو لكاتب السيرة ، كما بدا لزوجها ، ان مرضها هو الجنون الاكتئابي ، وهو مرض لا يستجيب المريض فيه للتحليل النفسي .

#### **فشل العلاج بالعمل ، مطبعة هوجارث :**

بدأت تماثل للشفاء في أوائل عام ١٩١٥ وبدأت في كتابة يومياتها واحتفلت بعيد ميلادها الثالث والثلاثين في ٢٥ يناير . واستقر رأيها ، ووافقها زوجها ، على شراء آلة للطباعة والاقامة في هوجارث هاوس في ريتشموند . ولم يمض شهر حتى يعاودها الصداع وتدخل إحدى المصحات في مارس ، وفي الشهر ذاته تنشر « **رحلة الى الخارج** » ( ٢٦ مارس ١٩١٥ ) .

تميز هذا الانهيار عما سبقه في المرحلة الاولى . فتراها تدخل في مرحلة من مراحل جنون الثرثرة والتشوش الفكري والاستمرار في الكلام دون توقف حتى ينتهي بها الامر الى اللغو والبربرة ، ثم تسقط مفشيا عليها وتظل في غيبوبة لفترة طويلة . وفي نهاية عام ١٩١٥ اصبح من الجلى انها لن تعود امرأة عادية ، وكان من المتوقع ان يعاودها الجنون في اية لحظة وتصاب بنكسة اشد وأقوى من التي قبلها .

كتاب من الوزن الثقيل يتبعه آخر من الوزن الخفيف ( ما كانت تطلق عليه كلمة « **املوحه** » ) أو « **مزحة** » ) . كانت قصتها « الليل والنهار » ١٩١٩ من النوع الخفيف ، عمل « استجمامى » هذا بالإضافة الى عملها في « الملحق الادبي للتايمز . وتتسلم مطبعة جديدة وتضيف مطبعة يدوية أخرى الى دار هوجارث وتشغل نفسها عام ١٩١٨ بجمع الحروف ورصها وتنتهى من كتابة أكثر من مائة ألف كلمة « في الليل والنهار » .

وتدق أجراس النصر في ١١ نوفمبر ١٩١٨ وفي ١٥ نوفمبر يلتقى الشاعر توماس ستيرنز اليوت بفيرجينيا وولف لأول مرة .

#### « **عوليس** » و **فيرجينيا واليوت** :

ذهبت هاريت ويفر ، صاحبة مطبعة اجويست Egoist ، في ابريل ١٩١٨ ، ومعها مخطوط « **عوليس** » لجيمس جويس ، وكانت تأمل ان تقوم دار هوجارث بنشرها . كانت « **عوليس** » عملا أدبيا لم تستطع فيرجينيا وولف ان ترفضه او تقبله ، لقد أعجبت بالقصة وكانت عبقرية جويس واضحة فيها كل الوضوح ، لقد اثارت القصة فيها الإعجاب والحسد والخوف في آن واحد . كانت تعتقد ان للقصة جوانبها الجمالية ولكنها لا تخلو من الخشونة والسوقية أحيانا . لقد خيل اليها ان كاتبها آخر قد انتزع قلمها من يدها ليحط في جرة ماعجزت هي عن التعبير عنه او خجلت من كتابته . لقد هالها ما رأت في « **عوليس** » وكانت تضع جويس في مرتبة واحدة مع ازرا باوند « المعلم الكبير » وتشير اليهما بعبارة « هؤلاء الناس » وكانهم من العالم السفلى . وبثاقب بصرها احست بأهمية هذا العمل ، ولكنه كان يفوق امكانيات مطبعة هوجارث البدائية . كان عليها ان تبحث عن

نبيد عامين من النوبات المتعاقبة كان من الواضح ان عقلها قد أصابه خلل ، وان شخصيتها قد اهتزت بعنف .

#### الحرب العالمية الاولى :

عزلتها مطبعة هوجارث عن لندن في الفترة ١٩١٥ - ١٩١٦ ، « **وتلاشت جماعة بلومزيرى كما يتلاشى ضباب الصباح** » واستقطبت الحرب اصداقها ، ففي يناير ١٩١٦ صدر قانون التجنيد الاجبارى والتعبئة العامة ، واستدعى كل او معظم اصداقها للجيش ، وبالطبع رفضوا التجنيد احتجاجا على هيستيريا الحرب . وواجه معظمهم المحكمة ، التى وان كانت قد اكبرت فيهم روح الاخلاص والصدق ، الا انها حكمت عليهم اما بالعمل اليدوى او بالسجن أو بارغامهم على الالتحاق بصفوف المقاتلين . وفي مواجهة الخطر الداهم تجمع اعضاء بلومزيرى مرة أخرى .

تتبع فيرجينيا في قصصها لتلك الفترة منهجا واضحا وتسير على نسق معين : ففي الصفحات الاخيرة من « **رحلة الى الخارج** » نراها وقد ازاحت الفطاء لتكشف عما يعتمل في عقلها الباطن ، ويفغو الرقيب الفرويدى وتزحف احلامها من كهوفها وتخرج وتطل علينا بشياطينها . لقد كانت تلعب بالنار ودفع بها هذا الكتاب الى حافة الجنون المطبق ، ولم تكن على استعداد للمجازفة بمخاطرة أخرى ، ولهذا نراها تبدأ في كتابة شيء « **معقول** » شيء « **هادئ** » ، يخلو من الانفعال العصبى والافكار « **القريبة** » وظلت تسير على هذا المنوال :

فترى « **اور لاندو** » تتبع « **الى الفناء** » ، وقصتها « **فلوس** » تأتى بعد « **الامواج** » وتأتى « **ثلاث جنهات** » بعد « **السنوات** » -

جامع حروف محترف ، هذا بالإضافة الى ان  
أصدقاء لينارد حذروه من مغبة نشر  
« عوليس » ، فقد تعرض دار هو جارت  
للمحاكمة والكتاب للمصادرة . (١٣)

ومن اهم الصعاب التي واجهت فيرجينيا  
في تلك الفترة مشكلة الخدم والاعمال المنزلية .  
كانت تقضى حوائجها اما سيرا على الاقدام  
أو باستعمال دراجة . ولكي تحصل على الضوء  
كانت تلجأ الى الشموع التي كان شحمها  
يتساقط على السجاجيد ، او تلجأ الى المصابيح  
التي تعمل بالكبروسين ودخانها ، وتقليم  
اشرطتها وتلميع وتنظيف زجاجاتها كل صباح .  
كانت تحصل على الدفاء باستعمال الخشب  
أو الفحم ، وكان عليها ان تحمل الفحم في دلو  
كبير وتنظف المدفأة من الرماد . ولكي تحصل  
على ماء ساخن للاستحمام كان عليها ان  
تسخنه فوق الموقد ، اما الماء البارد فكان عليها  
ان تضخه من مضخة خارج المنزل الى خزان  
كل يوم . لم يكن هناك حمام في الطابق العلوي ،  
ولا مرحاض ، وكانت اعمال الطهي والتنظيف  
اعمال مضنية وقدرة وبطيئة .

حظيت فيرجينيا في هذه الفترة بصداقة  
اليوت . كان في نظرها رجلا امريكيا انيقا  
مهلبا . وذهب اليها اليوت ومعه ثلاث أو أربع  
قصائد ، وكانت معجبة به لكائنه  
وشاعريته وان لم تتفق معه في كل  
آرائه . فقد كان يؤمن بعقريه ازرا باوند ،  
كما كان شديد الإعجاب بجيمس جويس .  
ورافقت فيرجينيا ولينارد على نشر قصائده  
واعادت للطباعة في يناير ١٩١٩ .

وتضخم العمل في المطبعة ، ونشرت لاليوت  
وكاترين مانسفيلد وميديلتون موري وفورستر  
وماكسيم جوركي . وانشغل الاثنان في جمع  
الحروف وفي الطباعة وتنظيف الآلات واللصق  
والتجليد والتغليف وتصدير الطرود والرد على  
الرسائل . وظل جميع من يعملون في مطبعة  
هو جارت يحلمون بأن هذا العمل الجهنمي  
المضني ربما يؤدي في النهاية الى الراحة التي  
ينشدونها في جنة الجماليات .

وفي يونيو ١٩٢٢ يحضر اليوت الى مطبعة  
هو جارت ليقرا « الأرض الخراب » وتكتب  
فيرجينيا في مذكراتها :

« لقد غناها وانشدها ونغمها . وهي  
تتميز بالجمال وقوة العبارة ، التناسق ،  
الكثافة . ما الذي يجعلها تتماسك ،  
لست أدري . . . وعلى كل حال فهي  
تخلف في الفرد عاطفة قوية . اسمها  
« الأرض الخراب » وتفسرها ماري  
هتشنسون . . . على انها سيرة توم  
( اليوت ) الذاتية - سيرة مقتضبة . »

وكان من الظلم لشاعر موهوب كاليوت أن  
يكذ في عمله موظفا مغمورا في أحد البنوك .  
وافتحوا له اعتمادا لجمع ٣٠٠ جنيه سنويا  
ولمدة خمس سنوات ليوفروا له تفرغا لشعره .  
وكان الحساب باسم اولد نجتون وليدي  
اوتولاين وفيرجينيا في بنك لويديز ووزعت  
ليدي اوتولاين منشورا على الاصدقاء تحثهم  
على التبرع . واجتمعت فيرجينيا باليوت  
وفروستر في ٢٢ سبتمبر ١٩٢٢ ودار الحديث  
حول « عوليس » وامجبت فيرجينيا بدفاع

## « مستر بينيت ومسز براون » أو الصراع بين القديم والجديد :

يعد يوم ١٨ مايو ١٩٢٤ يوما مشهودا في حياة فيرجينيا ، فقد دعيت الى لقاء محاضرة عن « الشخصية في فن النثر الحديث » أمام جماعة في كمبردج تطلق على نفسها اسم « الملحدون » أو « المارقون » . واختارت عنوانا للمحاضرة : « مستر بينيت ومسز براون » وصارت المحاضرة فيما بعد بمثابة بيان أدبي عن آمال المحدثين وتبدأ المحاضرة : « نحن نرتجف على على شفا عصر من أعظم عصور الأدب الانجليزي » وكانت تشير بالضمير « نحن » الى « الطليعون » . وكما يحدث في مثل هذه البيانات الادبية او السياسية ، يطالب اصحابها بافساح المجال للجديد ، وبازاحة العوائق التي تقف في طريق هذا الزحف ، ومنها بعض المعوقات التي تراكت وتكلسست على مر العصور : تلك السير القصص الانيقة المهذبة المصقولة ، تلك السير الرائعة والتراجم المسلية ، تلك الآراء النقدية المائمة المدهانة ، تلك القصائد والاشعار الموسيقية العذبة التي تتغنى ببراءة الازهار والاغنام والوديان الخضراء والعيون الزرقاء والتي يطلق عليها جمهور الناس « الانتاج الادبي » . وأول عمل جاد امام هذا الفريق المجدد هو ازالة آثار بينيت وجالزورثي وه . ج . ويلز ، (١٥) فهم الاعداء الحقيقيون الذين نجحوا في طمس الفاية الفريدة للادب ، وعى « كشف الحقيقة التي تجسدها مسز براون الفامضة . » فلا يحدثنا بينيت عنها الا فيما

اليوت عنها وتحليله للقصة ، ثم جاء موضوع العون المالى فرفض اليوت قبوله بالرغم من اقبال المتبرعين على العطاء .

وبدأت فيرجينيا في الاعداد لقصتها « مسز دالواى » ، وخرجت قصتها « حجرة يعقوب » الى النور في اكتوبر ١٩٢٢ ، وتعتبر بداية لنضوجها الفنى وشهرتها .

## فيرجينيا ومسز رامزاي في « الى الفناء » :

نراها بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٥ وكأنها مسز رامزاي . ومن الممكن استخلاص بعض خيوط هذه الفترة من خصلة حياتها على النحو التالى : حيرة دائمة وداء عضال ، عدم قدرتها على انجاب الاطفال ، حسد يأكل قلبها من آن لآخر ، فقد استطاعت فانيسا ان تكون اسيرة وبالرغم من مسؤولياتها العائلية استطاعت ان تعيش عيشة اكثر طلاقة وحرية من حياة فيرجينيا . احست فيرجينيا بان حياتها ، وقد جاوزت الاربعين ، قد بدأت تفلت من بين يديها ، وانه من الممكن ، كما تكرر وتؤكد في « الى الفناء » (١٤) ، ان تمسك بهذه الحياة وبهذه اللحظات ، او على الاقل ، وبطريقة غامضة ، من الممكن ان تجعل نبض هذه الحياة يدق ببطء .

وناقته الى المدينة ، وعادت الى لندن لتحتك بمجموعة جديدة من الشبان المرموقين امثال جورج رينولدز ، وانجوس دافيد سون ، ولوكاس ، وريموند مورثيمر ، ولورد ديفيد سيسيل .

(١٤) تتكرر عبارة Life Stand Still here عدة مرات في القصة . وترمز لوحة ليلي بريسكو الى توقف

الزمن وتجميده .

(١٥) انظر « اعلام القصة في الادب الانجليزي الحديث » طه محمود طه ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٦٦ - المقدمة ص

١ - ٥٠ .



السير في طريق شائك ، اما جويس واليوت ،  
فبالرغم من تجنبهم اخطاء كثيرة ، الا ان اتهامهما  
يمكن الاول لحجم مادته المروع ، والثاني لعدم  
انضباطه . ولكنها لن تقول لمن الغلبة ، ومن  
سيحرز النصر . الا ان البيان يخطط لبرنامجها  
في السنوات العشر التالية ، ويعطى بصورة  
واضحة فكرة عن حياتها .

وتنتهى من « مسز والواى » في ٩ اكتوبر  
١٩٢٤ ويقول لنا المؤلف انها لم تتحدث عن  
مؤلفاتها كثيرا في رسائلها ولكنها فعلت ذلك  
في رسالة للرسم جاك رافيرا الذى كتب لها  
يشرح وجهة نظره في الفرق بين الكتابة والرسم .  
فمن الامور العسيرة في الكتابة مسار الكلمات  
في « خط » وكذلك الافكار ، الفكرة تلو الفكرة .  
فلا يستطيع القارئ او الكاتب ان يقرأ أو يكتب  
الا كلمة بعد كلمة . وعندما يكتب الاديب كلمة  
واحدة فهو كمن يلقي بحصاة في بحيرة فيطير  
ترشاشها اولا في الهواء في كل اتجاه قبل ان  
تغوص الى الاعماق مخلفة على السطح موجات  
دائرية تتسع وتتسع حتى تختفى في اركان  
البحيرة الغامضة . وهذه الحركة لا يمكن لها  
ان تتم الا اذا لجأ الكاتب الى الفنون التصويرية  
المنقوشة ، كان يضع هذه الكلمة الموجية في  
وسط الصفحة ثم يحيطها برخرفات من المعانى  
النداعية (١٦) . وهكذا يقترب الكاتب من  
الرسم في تحقيق ما يمكن ان نطلق عليه  
التزامن او التواكب او التواقت او الانية في  
الزمان والمكان . ومن العسير على العقل ان  
يدرك بطريقة الجيشتالت هذا التواكب ،  
فالفكر يسيل في « تتابع » والقارئ لا يدرك  
وهو يقرأ في صفحة ٢٧٥ مثلا ما يحدث في  
صفحة ٣١ . وارسلت له فيرجينيا تقول ان

يختص بايجار حجرتها ، ويقول لنا ويلز ما  
يجب ان يكون عليه ايجار حجرتها ، اما  
جالزورثي فيخبرنا بأنها لا تستطيع ان تدفع  
ايجار حجرتها . ولا يستطيع احدهم ان يكشف  
عن شخصية مسز براون الحقيقية ويسبر  
غورها لانهم لا يهتمون « بجوهر » مسز براون .  
كانت شخصية مسز براون متقلبة تتغير  
كالعرباء حسب الموقف والمناسبة ، تتغير بتغير  
الزاوية التى نطل عليها منها . وفي النهاية  
تصبح مسز براون ( او أى شخصية ) مجرد  
« شئ » أو « موضوع » ، مجموعة من  
الخواطر ، حزمة من الذكريات ، بعضها واضح  
حاضر في ذهنها ، والبعض الآخر عالق وملتصق  
بافكار وذكريات شخصيات اخرى ، وهذه  
الذكريات تظهر ثم تختفى لتحل مكانها ذكريات  
اخرى . وتستطيع مسز براون اليقظة الواعية  
ان تذكر اسمها وتعرف جيدا انها مسز براون  
ويمكنها ان تذكر عمرها ولكن من العسير عليها  
ان تذكر اول وجبة ولكنها ، مع ذلك ، تستطيع  
بطريقة غامضة ان « ترى » لعبتها الاولى : ذلك  
الدب الصغير ، وخاصة عيونه السوداء التى  
تشبه الازرار اذا اشتهت رائحة اثاث معين .  
هذه هى مسز براون التى لم يعرفها بينيت  
اطلاقا ولا سمع بها ويلز . وعندما تموت مسز  
براون ويتحلل جسدها ويختلط بأديم هذه  
الارض ، فربما لا يبقى لدينا منها سوى هذه  
السحابة من الذكريات ، هذه الجبات التى  
ينظمها ويربطها خيط رفيع لا تكاد نراه .

وبعد ان تحدثنا عن هذه المجموعة المادية  
« المضللة بفريقها الذى ينتمى اليه اعلام امثال  
فورستر ولورنس فهم يتميزون بالشجاعة  
والاقدام ، ولكنهم ضيعوا جهدهم الاكبر في

يكن في الاعماق احيانا وتارة يظهر على سطح الماء .

وتدخل في دوامة الامواج حتى تصاب بانهايار مفاجيء في ١٩ اغسطس ١٩٢٥ وتظل معتلة لمدة شهرين .

### الرجل والمرأة : اولارندو :

تنوّد « الصداقة » بين فيرجينيا وفيتا ساكفيل ويست ( مسز هارولد نيكلسون ) ويحرص المؤلف على ابراز هذه العلاقة بمثل حرصه على ابراز العلاقة بينها وبين كاترين مانسفيلد فيقول :

« لقد وقعت فيتا في غرام فيرجينيا . ولما كانت غيورة متوقدة الحس أحببتها كما لوكان رجل قد أحبها . بتلف رجالي لنوع من الاشباع الجسدي - حتى عندما كانت فيرجينيا في ذلك الوقت في الاربعينات من عمرها ... وكانت قد فقدت سحر جمالها وبالرغم من رهبة فيتا منها . »

ومما لدى المؤلف من ادلة يتضح ان العلاقة كانت من جانب واحد . ولا تكتب فيرجينيا عن علاقتها بكاترين بمثل الحماس الذي تكتب به عن علاقتها بفيتا . ونجد جلدور قصتها « اولارندو » في هذه العلاقة . فبطل القصة شاب وسيم يقع في غرام ملكة سرغان ماتهجره . ويعتكف في منزله الريفي لتبدأ اعمال سير توماس براون ، وتمر حوادث القصة سريعة فنراه يقضى ليلة مع الراقصة روزنيا ثم يصاب بغيوبة لمدة اسبوع يظل فيها فاقد الوعي ويصحو ليجد نفسه قد تحول الى

الرسام يتمتع بموهبة التعبير وكان عليها ان تتجنب ، على حد قولها ، ( الشكل التقليدي المحملة التي تشبه خط السكة الحديدية ) .

ونرى في « مسز دالواي » طريقة السرد الاشعاعية « التي تصور لنا فكرتين او اكثر في آن واحد ، او كما يقول جويس (١٧)

Two Thinks at a time وكان من الضروري ان تضع في قصتها التالية « الى الفئار » الرسامة ليلي بريسكو وتنتهي القصة بانتهاء لوحة ليلي الزيتية : « ورسمت خطا هناك ، في الوسط . » وفي الفترة من يونيو ١٩٢٥ الى ديسمبر ١٩٢٨ اتمت « الى الفئار » ووضعت الخطوط الاولى لفكرة قصتها « الامواج » ونقرا في مذكراتها :

« استيقظت ، ربما الساعة ٣ . آه انها تبدأ ، انها آتية -

الرب - فهي تشبه الموجة المؤلمة التي تتضخم حول القلب -

تطوحني في الهواء . انا تعسة ، تعسة مكتئبة منقبضة -

يا الهى ، انى اتمنى الموت . ولكن لماذا هذا الاحساس ؟

لأرقبن الموجة وهي تملو . انى أرصدها فانيسا . اطفال . اخفاق . نعم . انى أدرك ذلك . اخفاق . اخفاق . ونملو الموجة . »

وتشير يومياتها في تلك الفترة الى صورة مفزعة « لزعنفه » تهددها بالخطر .، تراها تشق الامواج . وربما ترمز الى خطر داهم يلاحقها او الى حيوان يريد افتراسها . وترمز الزعنفه الى وحش شرير له انياب حادة

منها ومن أصدقائها احتراماً أكثر عن كونه مجرد « زوجها »

ومع اليوت تلتحم في مناقشة دينية ، فقد أصبح اليوت من أتباع الكنيسة الانجلو كاثوليكية . وتغيرت نظرتة الى العالم وأصبحت حياته مجرد فترة اعداد للآخرة . لقد استطاع ان « يخلص » نفسه بينما ظلت فيرجينيا ولينارد من المارقين المحكوم عليهم بالهلاك الابدى . ولكن المؤلف يقول لنا انه لو استعملنا كلمة « الدين » بمعناها الواسع العريض لوجدنا في قصصها شيئاً من الدين ، فقد كانت تصف نفسها بأنها « متصوفة » ، ولكنها لم تؤمن بالآخرة ولا بوجود الخالق وظلت طوال حياتها من اللا أدريين .

### الأمواج :

انتهت من « الأمواج » في ٢٩ مايو ١٩٣٠ ونقرأ في يومياتها . « سواء كانت جيدة أم رديئة ، لقد تمت . لقد أحسست بكل تأكيد عند النهاية أنها لم تنته فقط بل تمت - أكملت . لقد تمت صياغة الشيء في عجلة ، مقطع الاوصال ، اعرف ذلك . ولكننى قد أوقعت في شبكى تلك الزعنفه التى ظهرت على سطح الماء والتي رأيتها في المستنقعات من نافذتى » .

لقد وصلت الى القمة عند نشر « الأمواج » في فبراير ١٩٣١ . وفي ٢٥ يناير ١٩٣٢ بلغت الخمسين من عمرها وبدأت تشعر بالاجهاد جسمياً وعقلياً . وحزنت حزناً شديداً على وفاة صديقها ليتون ستراتشى ، ثم تاتى وفاة روجر فراى عام ١٩٣٤ لتضيف الى احزانها .

امراة وتعيش ليدى اورلاندو عبر القرون وتقابل العظماء والادباء وتتزوج من بحار وتنجب طفلاً ونصل بها الى عام ١٩٢٨ لتستقر في منزل ساكفيل العائلى !

هذا التحول في شخصية القصة من رجل الى امراة يوحى بأغرب التفسيرات والتأويلات كما يؤكد ، الى حد ما ، ما يزعمه المؤلف من ان العلاقة لم تكن مجرد علاقة افلاطونية بين امراة وأخرى بل تعدتها الى العناق والمضاجعة . ويصرح بأنه مهما كانت نوعية العلاقة بينهما فهناك من الدلائل ما يوحى بأنها ، أى فيتا ، لم تثر فيرجينيا كما ان فيرجينيا لم تشبع « فيتا » .

وتعتبر « اورلاندو » شبه ترجمة ذاتية لفيرجينيا لانها تخلد هذا الحب الذى تكنه لفيتا ، ومن القصة نلم باطراف حياتها اليومية في هذه السنوات .

### فورستر واليوت وفيرجينيا :

يدخل فورستر حياتها مرة ثانية بعد ان انتهت حياته الادبية وبدأت هى حياتها الفنية . لم تشده تجاربها التجديدية في كتابة القصة ، وكان يعتقد انها بعدت بقصصها عن التقاليد المرعية وبالتالي عن الحياة . كان يخشى كل منهما الآخر ، وكان فورستر سعيداً مع بنى جنسة من الرجال (١٨) ويجد في « أنوثتها » شيئاً مزعجاً .

كان يرتاح الى زوجها لينارد وهو الذى شجعه على الانتهاء من « رحلة الى الهند » وكان يتعاطف مع لينارد ، ويحس بأنه يستحق

( ١٨ ) انظر قصته « موريس » التى نشرت بعد وفاته فقد بدأها عام ١٩١٣ وانتهى منها عام ١٩١٤ ونشرت عام ١٩٧١ وفيها يناقش فورستر مذهب اللواط . Homosexuality.

بعد حرب ، وكانت فيرجينيا تكره العنف ، فهو مظهر من مظاهر الفحولة يذكرها بالرجل . وتداعى سوق الاوراق المالية في امريكا وظهرت البطالة والثورة والثورة المضادة ، وبالتالي الشيوعية والفاشية ثم الحرب العالمية الثانية .

### « السنوات » :

وواصلت الكتابة في « السنوات » ، وترى ان القصة طويلة ويجب تقليمها فقد كانت تختلف عن سابق قصصها . كانت تسير بها في طريق مختلف قد يؤدي الى طريق مسدود . وعادتها الاحلام المزعجة والاضطرابات الذهنية . وتعود اليها ثقتها بنفسها بعد ان قرا زوجها المخطوط ويستقبل النقاد القصة بالترحيب والثناء .

ثم تصدم مرة اخرى ، ويقتل ابن اختها فانيسا ( جوليان ) في اسبانيا واهتز جسمها وعقلها . كان فوت جوليان كموث توبى قبله بثلاثين عاما يشكل تحديا لها وكانت ندا لهذا التحدي .

ونشرت عام ١٩٣٨ « ثلاث جنهات » وفيها تدافع عن الظلم وعن حقوق المرأة ، ولكن حوادث تلك الفترة كانت تدور لا حول حقوق المرأة بل حول حقوق الدول .

وتموت ليدى أوتولين موريل في ابريل ١٩٣٩ وكاترين كوكس في مايو وام زوجها في يوليو ١٩٣٩ . وامتلات شوارع لندن باللاجئين وكان منهم فرويد ، وزارته فيرجينيا وأهداها زهرة نرجس !

كانت تقضى معظم وقتها في التجول في شوارع لندن ، وكأنها تقول لها « وداعا » واعلنت الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ . وفي مارس كانت قد رفضت الدكتوراه الفخرية من جامعة ليدربول .

كان ليتون يمثل ماضيها وروجر فرأى حاضرها . وزاد من حزنها ان صداقتها مع فيتا انتهت هي الاخرى ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل تعرضت قصصها وفنها في هذه الفترة لنقد شديد . وصفها الامير ميرسكي بانها عقلانية متعالية ووصفها سوينرتون بأنها « بائعة متجولة تروج لمخدرات وافيون الراسمائية » . لقد أساء اليها الاخير ولكن الطعنة التي عاجلها بها ويند هام ليويس . لقد كانت في اعتقاده « شيئا نافها » ، « في غاية الضلالة » « ما عاد أحد يأخذها مأخذ الجد في يومنا هذا » .

واحست بأفول نجمها . كان من الممكن ان تجد أنصارا لها عام ١٩٢٤ في فورستر ولورنس واليوت وجويس . وبعد عشر سنوات تبدل الحال ، وتغيرت الحرب الادبية لخلو الميدان من انصارها . كان ويلز هو الوحيد الباقي على قيد الحياة من الجيل القديم ، أما لورنس فتوفي عام ١٩٣٠ وكذلك ليتون وتوقف فورستر عن الكتابة ، أما جويس فكان مشغولا بكتابة « فينيغانز ويك » . اما الذين ظلوا احياء من معاصريها فكانوا الدوس هكسلي وبريستلي ووالبول وديفيد جارنيت ووز ماکولى ، ولم يتحقق لاحد منهم ان يواصل الكفاح والثورة على التقاليد الادبية التي كانت تنادى بها عام ١٩٢٤ . ونراها تقف وحدها وقد تغير المناخ الفكرى والادبى والسياسى ، وقد فقدت انصارها واعداءها على حد سواء .

بتغيير المناخ الادبى اخذ جمهور الادباء ينادى بالبعد عن الفن للفن والاتجاه بالادب الى « الالتزام » والى « الاصلاح الاجتماعى الفعال » . كان هتلر يمسك بزمام الامور ، واجتاحت اليابان منشوريا ، وفي عام ١٩٣٥ غزا الايطاليون الحبشة . وفي عام ١٩٣٦ بدأت الحرب الاهلية الاسبانية . حرب بعد حرب

برايتون وفحصتها اوكتافيا ثم عادا الى رود ميل وارسلت اوكتافيا الى فيرجينيا رسالة تطمئنها ، وفي اليوم التالي اتصلت بهما تلفونيا للاستفسار عن صحتها ولكن الوقت كان قد فات .

في صباح الجمعة ٢٨ مارس ١٩٤١ خرجت فيرجينيا كعادتها الى حجرتها في حديقة المنزل وهناك سطرت رسالتين واحدة لزوجها والاخرى لاختها فانيسا . وفي الرسالتين تؤكد انها عادت تسمع هذه الاصوات المزعجة ، وانها على ثقة من استحالة شفائها . وعادت الى المنزل لتكتب رسالة اخرى لزوجها ، ثم انسلت خارج المنزل ومعها عصاها وشقت طريقها عبر الوادى الى شاطئ النهر . كان لينارد يعرف انها حاولت الانتحار غرقا قبل ذلك ولهذا نراها قد أعدت العدة هذه المرة لكى لا تفشل محاولتها . وتركت عصاها على شاطئ النهر وحشرت حجرا في جيب معطفها وسعت الى حتفها ، « الى تلك التجربة » وهذا ما قالت له لصديقتها فيثا ، « التى لن اصفها » .

قضت معظم وقتها بين عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٠ فى منزل ريفى بجوار نهر اوز ، وطافت بدهنها فكرة الانتحار هى وزوجها واعدا لذلك العدة - اما عن طريق غاز السيارة المحترق او باستعمال المورفين . وفي مذكراتها ويومياتها تشير الى زمان ومكان الانتحار من آن لآخر .

وعملت من وضع منضدتها ، فقد بدأت تعشق مناظر الطبيعة ، حتى تشرف على ربوع انجلترا الخضراء . وسقطت قنبلة بالقرب من المنزل وفجرت شاطئ النهر واندفعت مياه نهر اوز لتغمر الوديان وتسيل لتصل الى مشارف حديقة منزلها . وامام المنزل تشكلت وتكونت بحيرة امتلأت بالطيور المائية . وكان هذا مصدرا لسعادتها .

ونسأل متى بدأ الظلام يكتنف حياتها ونجد انه من الصعب أن نحدد لذلك وقتا معينا . ونصل فى يوميات لينارد الى يوم ١٨ مارس ويسجل ان صحتها معتلة . وعرضها على اوكتافيا ، طبيبة من اصدقائه . واخذها الى



General Organization Of the Alexandria  
Library (GOAL)

★ ★ ★ *Bibliotheca Alexandrina*

### من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

- (1) Baker, John R., *Race*, Oxford University Press, London, 1974.
- (2) Cavaliero, Glen, *John Cowper Powys : Novelist*, Clarendon Press, Oxford, 1973.
- (3) Forge, Anthony, *Primitive Art & Society*, Edit., Oxford University Press, London, 1973.
- (4) Iyer, Raghavan N., *The Moral and Political Thought of Mahatma Gandhi*, New York, Oxford University Press, 1973.
- (5) Macfarquhar, Roderick, *The Origins of the Cultural Revolution, Contradictions Among the People 1956 — 1957*, Oxford University Press, 1974.

★ ★ ★



**العدد التالى من المجلة**

**العدد الاول المجلد السادس**

ابريل مايو يونيه ١٩٧٥  
قسم خاص عن الموسيقى  
بالاضافة الى الابواب الثابتة



الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ريالات
السعودية	٥	ريالات	المتاهرة	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلوس	السودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلوس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤٠٠	ريالات	مسقط	٤٠٠	بايع
العراق	٣٠٠	فلوس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٠٠	ليرة	تونس	٥٠٠	ملياً
الأردن	٢٥٠	فلوساً	المغرب	٥	دراهم

مطبعة حكومة الكويت

الجمهورية  
٥٠  
فلساً